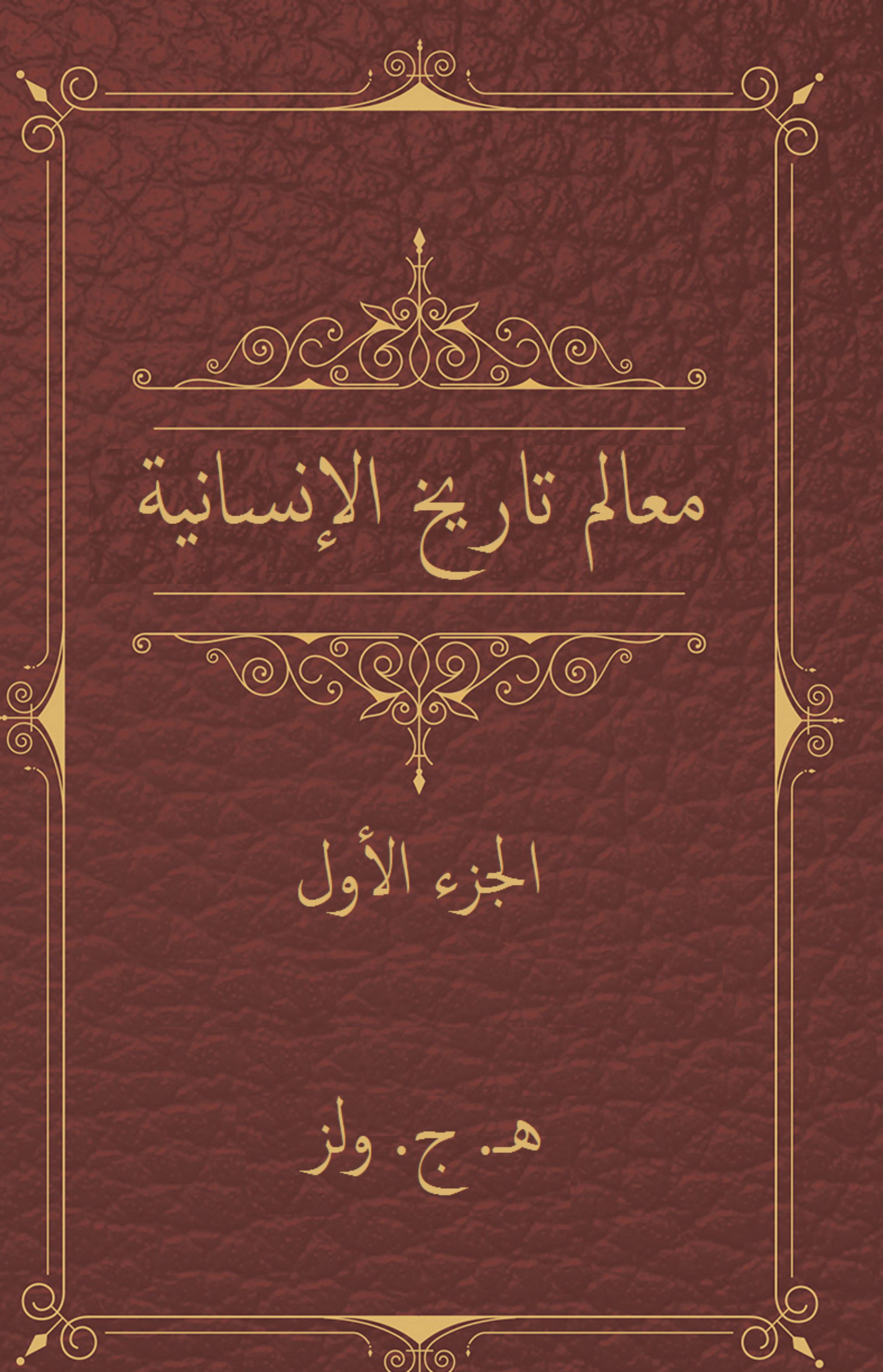

معالم تاريخ الإنسانية
الجزء الأول
هـ. ج. ولز

مَعالِم تاريخ الإنسانية

[illegible]

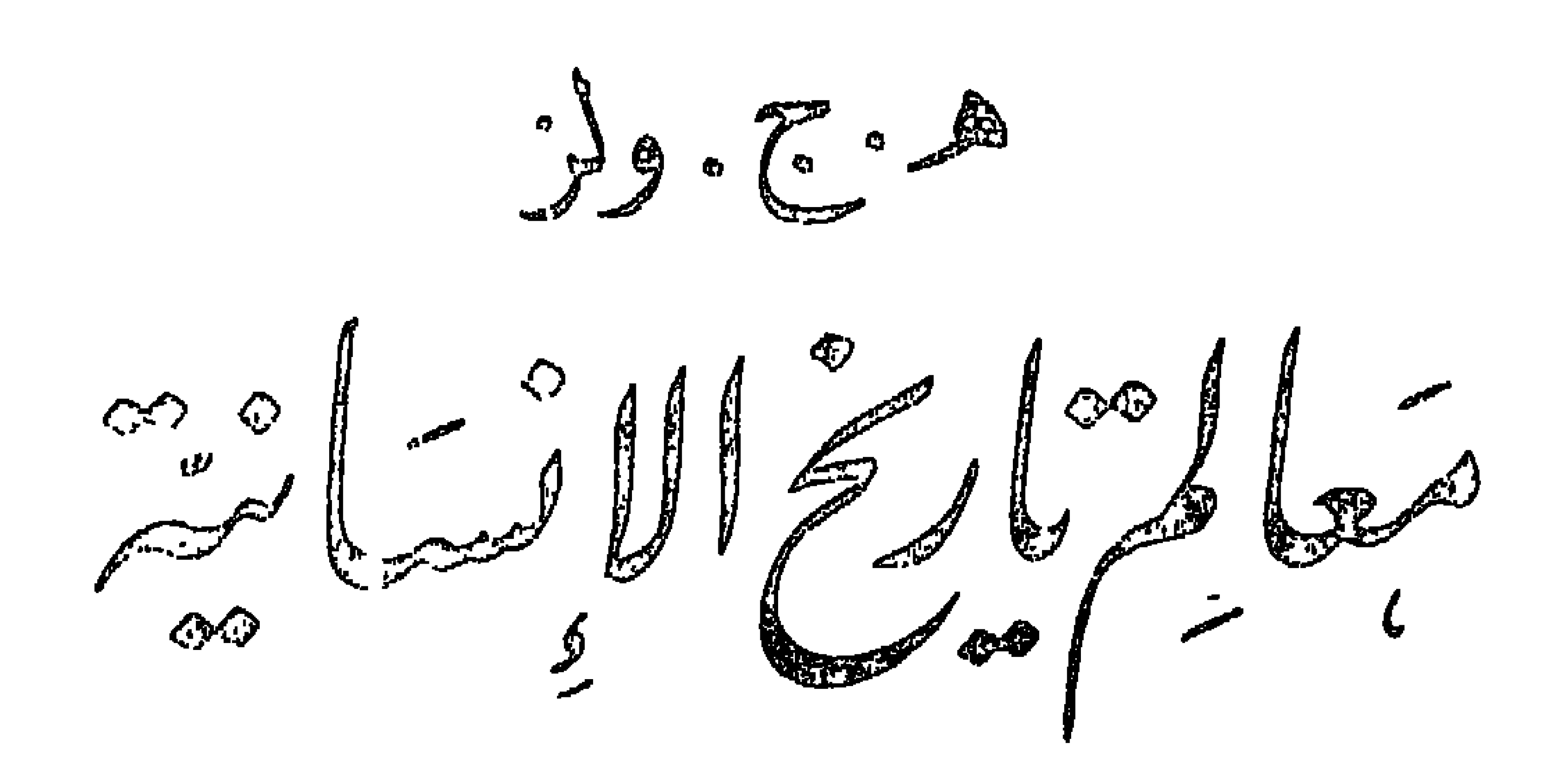
[illegible]

الإشراف الفني

[illegible]

الإخراج الفني

[illegible]



ترجمـــه

عبد العزيز توفيق جاويد

المجلــد الأول

نشأة الكون و الإنسان و الحضارات

الطبعة الرابعة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٤

هذه ترجمة لكتاب :

The Outline of History

Being A Plain History of Life and Mankind

From Primordial Life to NinteenSixty

By

H. G. WELLS

Revised by

RAYMOND POSTGATE

With Maps and Plans by

J. F. HORRABIN

١ — راجع الطبعتين الأوليين الأستاذ زكي على ، الأستاذ السابق للتاريخ القديم بجامعة القاهرة .

٢ — وعاود المترجم مراجعة هذه الطبعة الثالثة على طبعة ١٩٦٣ التى أشرف عليها الأستاذ رايموند پوستجيت الكاتب والصحفى الإنجليزى المعروف

معالم تاريخ الإنسانية

المجلد الأول

ويحتوي على الكتب الثلاثة الأولى

الكتاب الأول : العالم قبل الإنسان.

الكتاب الثاني : كيف تكون الإنسان.

الكتاب الثالث : المدنيات الأولى.

إهداء الكتاب

تحية:

لذكرى أستاذنا شيخ المؤرخين العرب.

المرحوم الأستاذ "محمد شفيق غربال".

أحسن ا جزاءه بقدر ما خدم التاريخ والعلم والثقافة.



الكتاب الأول العالم قبل الإنسان

الكتاب الثاني كيف تكون الإنسان

الكتاب الثالث المدنيات الأولى

كلمة المترجم الطبعة الأولى

ولد المؤلف سنة ١٨٦٦م بمدينة بروملي بمقاطعة كنت بإنجلترا، لأب كان يعمل بستانيا ورياضيا محترفًا وأم تشتغل قهرمانة بأحد بيوت السراة. تعلم في مدرسة بروملي، ثم اشتغل عاملاً عند بائع أقمشة، وأخذ يكافح في تعليم نفسه بنفسه، فالتحق بمدرسة ميدهرست الثانوية. وتحول بذلك إلى عالم العلم والأدب، فأصبح مدرسا مدة من الزمن، ثم التحق بكلية العلوم الملكية وحصل منها على درجة البكالوريوس وعلى الدكتوراه، ولم يلبث أن أصبح أستاذًا بجامعة لندن.

كان هو وبرناردشو من أقوى المؤثرات في أوائل هذا القرن، يوم أخذت الأوضاع السياسية والدينية القديمة تتداعى وتنهار تمهيدا لتأسيس تلك الأوضاع التي لا تزال في الصنع حتى يومنا هذا. كذلك ابتدأ ولز حياته الأدبية روائيا، يعد هو وبرناردشو وجولزوردي طبقة واحدة هي طليعة العصريين.

وأهم رواياته هي رواية كيبس، وتاريخ المستر بولي وآل فيرونكا وتونو بانجاي وعالم وليم كريسولد وغيرها. على أن ولز ما لبث أن تخلف عن زميليه في فن القصص، ولم يكن ذلك لجمود لحق عبقريته، بل لأنه أصبح ميالاً ميلاً خاصا إلى النظر نظرة شاملة في ماضي أمور الدنيا وحاضرها.

وكان دائب الاشتغال بالتاريخ عموما وبالقوى العامة التي تصنع التاريخ، فكان ذلك منحى اتجاهه الفكري.

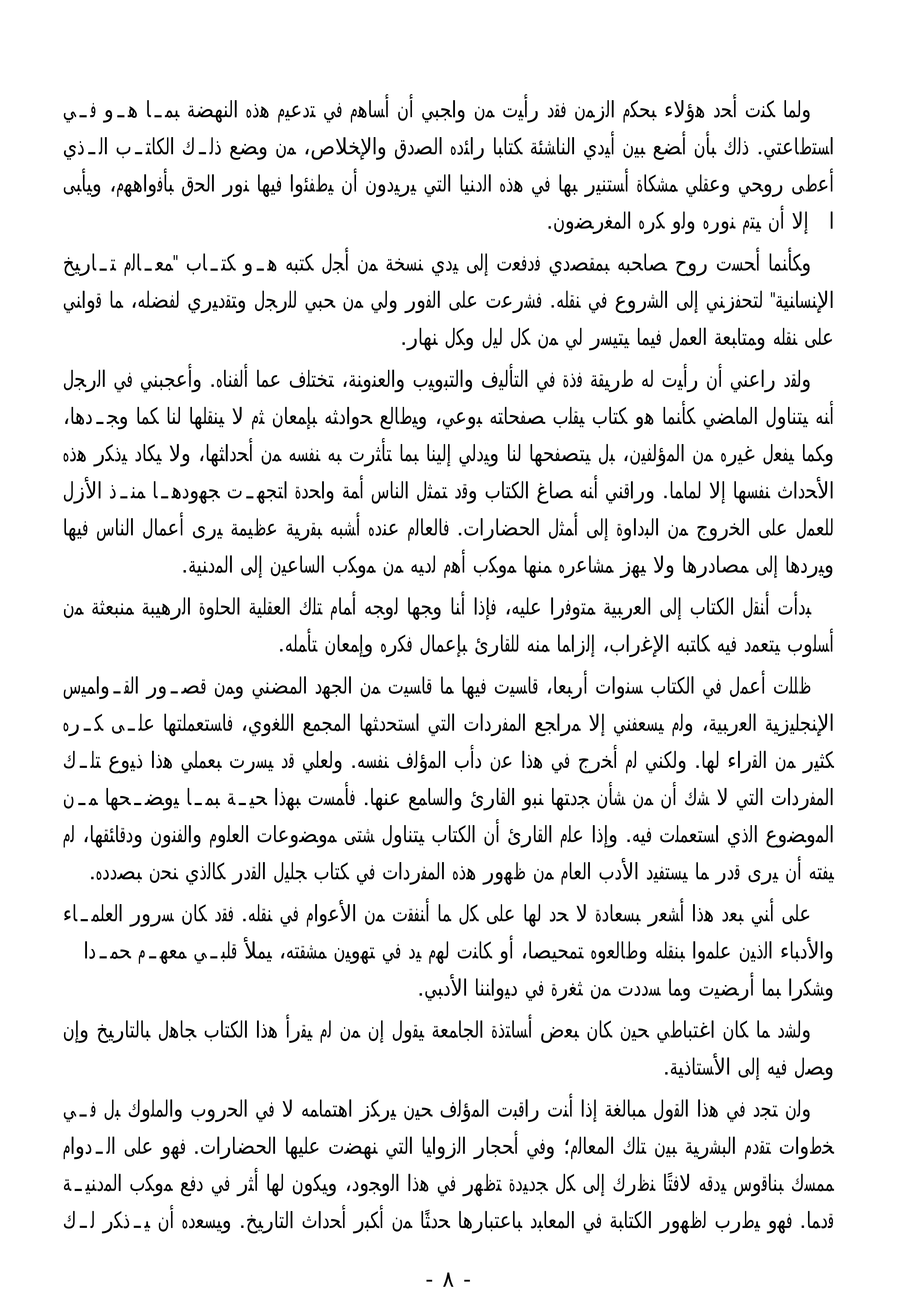
ولم يلبث ولز حتى تحول بكل ما أوتي من بلاغة وصدق وإخلاص إلى نبي يحذر الإنسانية من الهاوية التي أوشكت أن تتردى فيها، ويرسم لها سبيل النجاة والخلاص.

وظل يكافح في تدعيم رأيه بالكتب والمقالات حتى وافته منيته في ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٦.

***

ولقد تعشقت هـ. ج. ولز من زمن بعيد، بما كنت أطالع له أو عنه من نتف هنا وهناك في مختلف الموضوعات العلمية والتاريخية وتطبيقاتها الاجتماعية والأدبية، التي تقع تحت عين القارئ العام فيما يقرأ له ولغيره. فأدركت أنه رجل فذ بل نبي مرسل بقولة الصدق في المسائل التي جعلت أساسا للفكر والتنظيم من بدء الزمن إلى يومنا هذا. وكان أكثرها يتضمن في الواقع عناصر الشرور التي بكت منها الإنسانية ولا تزال تبكي.

على أن عجبي لإهمال شأن هذا الرجل عندنا – نحن المصريين – وبالأحرى نحن الشعوب الشرقية العربية والإسلامية، وفراغ ديواننا الأدبي والعلمي من تراثه لم يكن مما لا أجد له جوابا؛ لأننا جميعا عشنا محجوبين عن معرفة قالة الحق إجمالاً، والمفصحين عن الصدق عامة، لئلا يترتب على العلم بما نجهل تنبه تضيع بسببه مصلحة من يرون سعادتهم في دوام شقاوتنا. بيد أن خفقات القلوب لدى عظائم الأمور التي تكشفت عنها الحربان الأخيرتان، وما تواتر إلى آذاننا وعيوننا من أقوال المتناحرين وتخرصاتهم، قد نبهتنا نحن ناشئة هذه الحياة المركزية من الدنيا، إلى خطر ما حملنا عليه أبد السنين، بل القرون الماضية، فقامت نهضة قومية عامة كان من عناصر حياتها إذاعة الحقائق، وتبصير الشعوب بما يراد بها.



ولما كنت أحد هؤلاء بحكم الزمن فقد رأيت من واجبي أن أساهم في تدعيم هذه النهضة بما هو في استطاعتي. ذلك بأن أضع بين أيدي الناشئة كتابا رائده الصدق والإخلاص، من وضع ذلك الكاتب الذي أعطى روحي وعقلي مشكاة أستنير بها في هذه الدنيا التي يريدون أن يطفئوا فيها نور الحق بأفواههم، ويأبى ا إلا أن يتم نوره ولو كره المغرضون.

وكأنما أحست روح صاحبه بمقصدي فدفعت إلى يدي نسخة من أجل كتبه هو كتاب "معالم تاريخ الإنسانية" لتحفزني إلى الشروع في نقله. فشرعت على الفور ولي من حبي للرجل وتقديري لفضله، ما قواني على نقله ومتابعة العمل فيما يتيسر لي من كل ليل وكل نهار.

ولقد راعني أن رأيت له طريقة فذة في التأليف والتبويب والعنونة، تختلف عما ألفناه. وأعجبني في الرجل أنه يتناول الماضي كأنما هو كتاب يقلب صفحاته بوعي، ويطالع حوادثه بإمعان ثم لا ينقلها لنا كما وجدها، وكما يفعل غيره من المؤلفين، بل يتصفحها لنا ويدلي إلينا بما تأثرت به نفسه من أحداثها، ولا يكاد يذكر هذه الأحداث نفسها إلا لماما. وراقني أنه صاغ الكتاب وقد تمثل الناس أمة واحدة اتجهت جهودها منذ الأزل للعمل على الخروج من البداوة إلى أمثل الحضارات. فالعالم عنده أشبه بقرية عظيمة يرى أعمال الناس فيها ويردها إلى مصادرها ولا يهز مشاعره منها موكب أهم لديه من موكب الساعين إلى المدنية.

بدأت أنقل الكتاب إلى العربية متوفرا عليه، فإذا أنا وجها لوجه أمام تلك العقلية الحلوة الرهيبة منبعثة من أسلوب يتعمد فيه كاتبه الإغراب، إلزاما منه للقارئ بإعمال فكره وإمعان تأمله.

ظللت أعمل في الكتاب سنوات أربعا، قاسيت فيها ما قاسيت من الجهد المضني ومن قصور القواميس الإنجليزية العربية، ولم يسعفني إلا مراجع المفردات التي استحدثها المجمع اللغوي، فاستعملتها على كره كثير من القراء لها. ولكني لم أخرج في هذا عن دأب المؤلف نفسه. ولعلي قد يسرت بعملي هذا ذيوع تلك المفردات التي لا شك أن من شأن جدتها نبو القارئ والسامع عنها. فأمست بهذا حية بما يوضحها من الموضوع الذي استعملت فيه. وإذا علم القارئ أن الكتاب يتناول شتى موضوعات العلوم والفنون ودقائقها، لم يفته أن يرى قدر ما يستفيد الأدب العام من ظهور هذه المفردات في كتاب جليل القدر كالذي نحن بصدده.

على أني بعد هذا أشعر بسعادة لا حد لها على كل ما أنفقت من الأعوام في نقله. فقد كان سرور العلماء والأدباء الذين علموا بنقله وطالعوه تمحيصا، أو كانت لهم يد في تهوين مشقته، يملأ قلبي معهم حمدا وشكرا بما أرضيت وما سددت من ثغرة في ديواننا الأدبي.

ولشد ما كان اغتباطي حين كان بعض أساتذة الجامعة يقول إن من لم يقرأ هذا الكتاب جاهل بالتاريخ وإن وصل فيه إلى الأستاذية.

ولن تجد في هذا القول مبالغة إذا أنت راقبت المؤلف حين يركز اهتمامه لا في الحروب والملوك بل في خطوات تقدم البشرية بين تلك المعالم؛ وفي أحجار الزوايا التي نهضت عليها الحضارات. فهو على الدوام ممسك بناقوس يدقه لافتًا نظرك إلى كل جديدة تظهر في هذا الوجود، ويكون لها أثر في دفع موكب المدنية قدما. فهو يطرب لظهور الكتابة في المعابد باعتبارها حدثًا من أكبر أحداث التاريخ. ويسعده أن يذكر لك

الورق الذي هو كذلك حدث من أحداث المدنية الكبرى. ويزهى أن يقرر اختراع المطبعة لأنها هي عمود المدنية الفقري الذي يشتد به أزرها. وهو يتكلم عن نشأة الزراعة في مصر وبابل، لأن نشأة الزراعة حدث جليل من أحداث الإنسانية السائرة إلى بحابح الحضارة. وهو يتتبع الإسكندر هازئًا به وبجيوشه مستخفًا بكل ما أتاه هو ونابليون وغليوم وغيرهم وما فعلوا من إراقة الدماء وتدويخ الأمم في حروب أضاعوا فيها جهودا لم تفد منها البشرية شيئًا كثيرا.

ثم ترى المؤلف يقف مكبرا مهللاً مستبشرا لنشوء حضارة البحر المتوسط عند المصريين والإغريق والرومان ثم يتواصل العالم ويتعارف، وإذا أسوكا ملك الهند يرسل إلى الإسكندرية بعثة بوذية. وإذا المؤلف أيضا يقف طويلاً إزاءه وإزاء أحد أباطرة الهند، وهو يدعو مللها وأجناسها المتعددة إلى التعاضد والتكافل صاهرين بذلك نحلهم في وطن واحد وسلطان واحد. ثم إذا بمخترعات القرن التاسع عشر وما تلاه تترادف وتزيد أواصر الترابط بين الناس جميعا حتى عاد استقلال الأمم وانعزالها ضربا من المحال بل مجلبة للمضرة.

وقد أصدر ولز كتاب معالم التاريخ هذا وكتابين آخرين أحدهما سماه (علم الحياة) والآخر سماه (جهود البشرية ورفاهيتها وثروتها) بالتعاون مع طائفة من العلماء. وقد قصد من إصدارها أن تكون أساسا من المعلومات يقيم عليه كل مواطن في هذا العالم أسس تفكيره فيما حوله من شئون الحياة والسياسة والاقتصاد. والكتاب يقع في أجزاء ثمانية، يتناول الأول منها نشأة الكون ومبتدأ الحياة، والثاني تكوين الإنسان ونشوءه وارتقاءه وأجناسه البائدة والباقية واللغات البشرية، ويتحدث الثالث عن المدنيات القديمة ونشوء الكتابة والأديان والطبقات الاجتماعية والحركات الفكرية وهي التي يضمها هذا المجلد الذي يعد في الواقع مقدمة للتاريخ الحق الذي سيأتي به الجزء الرابع حاملاً تاريخ الإغريق ومن عاصرهم، والخامس وبه تاريخ الرومان والأمم التي عايشتهم، والسادس محتويا تاريخ المسيحية والإسلام، والسابع عن القرون الوسطى، فأما الثامن فهو بمثابة سجل لأحداث العصر الحديث وشرح لما بين ظهرانينا من نظريات علمية وسياسية واقتصادية.

وفيه بث المؤلف رسالته للبشرية كافة. وهي الرسالة التي ظل أربعين سنة من حياته يبشر بها ويدعو إليها وينافح عنها، والتي تقوم على مبادئ أخذ الناس يتحدثون عنها منذ الحرب الأخيرة. وأهم هذه المبادئ: منع الحروب الذي لا بد للوصول إليه من التقارب بين الناس جميعا، وذلك بتقريب الأديان بعضها من بعض، وتوزيع الثقافات توزيعا متعادلاً بين الشعوب كافة، وتوحيد مستوى الثقافة بين شعوب العالم أجمع، ورفع راية الديمقراطية وتوطيد دعائمها توطيدا يجعلها الأداة الفعالة للحكم، وإزالة الفوارق بين الأجناس والعناصر والألوان، وقطع دابر الاستعمار، وإنشاء حكومة عالمية تكفل التوافق بين الشعوب، وإيجاد التنسيق الاقتصادي الذي يجعل المواد الخام في متناول الجميع، لا حكرة لفئة من الشعوب دون سائر شعوب العالم.

على أني مهما أسهبت للقارئ في وصف آراء الكاتب وأمنياته الجميلة، وما يرسمه لعالمنا التعس من صور خلابة يؤمن بها ويدعو إليها، فما أنا بمستطيع أن أبلغ به درجة اتصاله الشخصي بالمؤلف نفسه. فلأخل بين القارئ وبين الكتاب عسى أن يفيد منه ما أفدت، وهذا أقصى أمنيتي.

على أنه لا يفوتني أن أسجل عاطفة شكري العميق إلى أستاذي العالم الجليل محمد شفيق غربال بك وكيل وزارة المعارف لما أبداه نحو هذا الكتاب من اغتباط به ورعاية له وكذلك إلى حضرات أعضاء لجنة التأليف الموقرة، وبخاصة الأستاذين الجليلين أحمد أمين بك وأحمد عبد السلام الكرداني بك على كريم ترحيبهم بهذا الكتاب واهتمامهم بطبعه ونشره تقديرا منهم للغاية الثقافية السامية التي توخاها المؤلف العظيم.

كما أقدم شكري لجميع من عاونوني بالعمل فيه. ولا سيما الأستاذين الكبيرين أحمد نجيب هاشم مدير البعثة العلمية المصرية بواشنطون وأحمد خاكي مدير المعهد الثقافي المصري بلندن لما بذلا من وقتهما وجهدهما وعلمهما في مراجعة الترجمة وتقويمها.

عبد العزيز توفيق عزيز جاويد

كلمة المترجمة للطبعة الثانية

نفدت الطبعة الأولى من الكتاب في أمد وجيز، ولقي من الرواج في العالم العربي عامة وبين طلبة الجامعات خاصة، ومن التشجيع من الأساتذة وكبار المثقفين، أخص بالذكر منهم المرحوم الزعيم عبد العزيز فهمي، وأستاذي السيد محمد شفيق غربال ما غمرني بالسعادة والبهجة وحمل لجنة التأليف مشكورة على إعادة طبع الكتاب....

ورأيت الحاجة ماسة إلى إضافة الفهارس الأبجدية إليه فوضعتها له على ما تطلبت من جهد، وألحقتها بثبت إنجليزي عربي جمع المصطلحات العلمية الواردة فيه.

أرجو أن تحوز هذه الطبعة ما حازته أختها الأولى من إقبال وإفادة.

ع.ت.ع.جاويد

كلمة المترجم للطبعة الثالثة

لا شك أن نفاد الطبعتين الأوليين من الكتاب أكبر آية على تقدير الجمهور العربي لولز كفيلسوف ومؤرخ، وإقبالهم على آرائه، وإكبارهم لفلسفته حيث يربط الحياة بالعام، والتفكير بالمنهج العلمي، كما يقرن سعادة الشعوب وأمنها بالديمقراطية والاشتراكية. ولا شك أن النظرة العلمية البحتة المتجردة من الشوائب الميتافيزيقية هي أشد ما يعوز الشرق الذي يجنح أهلوه بسليقتهم إلى التأمل النظري، ولذا فإنني ممن يعتقدون أنه لابد من تحويل أساس الفكر عند الشرقيين من تلك النظرة التأملية البحتة إلى الطرق العلمية، أي إلى الأبحاث والاستقراء والإحصاءات والتجارب. فليس غريبا إذن ما أقدمت عليه الدولة في العهد الثوري من تقدير العلم، وتشجيع لأهله، ورعاية لمباحثه، وليس عبثًا بأية حال ما تنفقه من أموال على الجهاز القومي للبحوث، وما تضفيه على الباحثين من هبات وتكريم.

فجمهوريتنا العربية المتحدة تريد منا أن ننصرف عن العقلية الزارعة إلى العقلية الصانعة. وهذا الانتقال يكلفها ما لا قبل لأحد به من نفقة وجهد، ذلك أن الدولة تريد أن تجعل العلم وسيلة للحياة، يهدف إلى غاية محدودة هي تعديل طرق التفكير عندنا، والتحول بها من الاسترخاء والليونة التي تبعثها زراعة المحاصيل إلى الدقة والضبط التي تقوم على الأرقام والرياضيات والتجارب العلمية.

وولز في هذا الكتاب يربط على الدوام بين الجيولوجيا والجغرافيا الفيزيائية والبيولوجيا وبين طرائق عيش البشر ووسائلهم في العمل والفكر والمعايش.

وهذه الوسائل هي مقومات التاريخ، وليس ذلك بدعا من المؤلف، فإنه في كل أدوار حياته وفي أدبه وفلسفته وقصصه يربط بين العلم وبين الحياة البشرية التي يعتبر التاريخ سجلاً لها. ومن يمن الطالع أن جهود الدولة في هذا الاتجاه أخذت تتكلل بالنجاح وأن اتجاهها العلمي أسفر عن براعم عظيمة أخذت تتفتح بسرعة ووفرة لم تكونا من قبل معهودتين، وشاهد ذلك تلك الأبحاث العلمية الجليلة التي يتقدم بها أبناؤنا في المحافل العلمية ما بين عالمية وقومية، وهؤلاء الخبراء العرب المصريون الذين تستفيد بخبراتهم الدنيا في كل حدب منها وصوب.

وولز يبني هذا الكتاب على علم الحياة وعلى تفاعل الإنسان مع البيئة، وتأكيدا لقيمة ذلك العلم في نظره اتخذ نحوه خطوة إيجابية.

ومن ثم يؤلف كتابا في علم الحياة كما أوضح ذلك في مقدمته.



وقد روجعت الطبعة الثانية من الكتاب في مجلداته الثلاثة الأولى على النسخة الإنجليزية الصادرة في ١٩٣٧ كما بينا ذلك في حينه، حتى إذا ما شرع المترجم في مراجعة المجلد الرابع والأخير من الكتاب عثر على طبعة عام ١٩٥٦ التي نظر فيها الأستاذ رايموند بوستجيت فضبطنا المراجعة على أساسها. وعندما شرعنا في إعادة طبع الكتاب للمرة الثالثة بادئين بالمجلد الأول نقحناها على طبعة ١٩٥٦ الإنجليزية نفسها، ولكن تصادف بعد أن وصلنا إلى ص ١٦٠ أن عثرنا على أحدث الطبعات الإنجليزية وهي منقحة في ١٩٦١ وصادرة في ١٩٦٣. وقد أوردنا كلمة مراجعها بعد كلمتنا هذه. وتحقيقًا لمواكبة النسخة العربية للأصل الإنجليزي أجملنا أهم ما أدخل على الكتاب قبل ص ١٦٠ من تعديل في التذييل الذي أوردناه في آخر هذا المجلد الأول (ص ٢٤٧)، ثم زدنا الفهرس الأبجدي دقة بل جددناه وعدلناه بما يتناسب والوضع الجديد للكتاب.

فالحمد على أن وفقنا إلى خدمة قراء العربية والحمد له على أن وفق أبناء العربية إلى التثقف بثقافة ولز والاستفادة من نظرته العلمية الخالصة.

أول يناير ١٩٦٧

عبد العزيز ت. ع. جاويد

مدير المركز الرئيسي للتدريب بمنشية البكري

"بالقاهرة"

حاشية الأستاذ رايموند بوستجيت
على الطبعة الإنجليزية المنقحة

تركنا الأقسام والفصول التالية كما خلفها لنا ولز دون أن تمتد إليها يد التغيير إلا ما حتمته الظروف بعد أن تراخت به السنون. وقد انتوى المؤلف إدخال تنقيحات أخرى هامة يجريها على فترات كما توضح ذلك مقدمته. وأضاف أقساما ليجعل "المعالم" تمضي قدما مع الزمان. ولكنها كانت أقساما عرضية وفيها بعض أخطاء أغلب الظن أنه كان متنبها إليها. ومن البدهي أنه توجد نسخة شرع المؤلف يعمل في إصلاحها قبل وفاته، وأجرى قلمه بالحذف والتعديل على كل شيء ورد في محتوياتها بعد عام ١٩٣٠. وقد أدرج كل ما يريد من إصلاحات في تلك النسخة بطبيعة الحال. وأشدها إثارة للاهتمام ما انطوى منها على تغييره آراءه حول الثورة الروسية حيث أزال كثيرا من النعوت الجارحة التي نعتها بها. ولم أكد أجد في هذه النسخة شيئًا ذا بال أغيره حتى التاريخ الذي امتد فيه قلمه إليها بحركة ضخمة من الشطب والإلغاء. وفيما قبل ذلك كنت كلما اضطررت إلى تغيير شيء كان ذلك على الدوام نتيجة لما ألم بمعلوماتنا من تبديل، وليس نتيجة لخطأ في المادة. وقد اكتشف العلماء في الآونة الأخيرة كوكب بلوتو كما اكتُشف كثير من أفراد الإنسان المتحفر، ومن أمثال ذلك أيضا أن ملكة بريطانيا لم يعد لقبها إمبراطورة الهند، ومن ثم اقتضى الحال إجراء تعديل في بعض العبارات، وذلك كل ما في الأمر. ولم تزد الأيام صلابة الكتاب العظيمة إلا ثباتًا. وطبيعي أني اضطررت في السنوات الأخيرة إلى إجراء المزيد من التغييرات. ولكني توخيت كلما وجد مجال للشك أن أتذكر أن القارئ إنما يريد الاستمتاع بآراء ولز لا بآراء بوستجيت. من أجل ذلك تركت في الكتاب أحكاما واستنتاجات لا أوافق عليها شخصيا. واقتضتني الضرورة إعادة أقسام بأكملها خططها ولز قبل وفاته إذ يلحظ من قد يعنيهم الأمر أن الفصول من ٦ إلى ٩ قد نقحتها أنا و جـ. ب. ولز ابن المؤلف. كما أن شطرا كثيرا من القسم ٧ وجميع مادة الأقسام ٩، ١٢، ١٣ من الفصل التاسع والثلاثين قد كتبها من جديد.

هذا إلى أن الفصل الختامي من تأليفي بأكمله.

أما سائر أقسام الكتاب فهي بالروح والجسم والدم من صنع هـ. جـ. ولز.

مقدمة المؤلف

معالم تاريخ الإنسانية قصته والغرض منه

١- كيف حدث أن كتب الكتاب.

٢- طريقة كتابة المعالم.

٣- في بعض ما حذف منه وما أضيف إليه.

١- كيف حدث أن كتب الكتاب:

كُتب هذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩١٨ – ١٩١٩ ونشر في أجزاء مصورة، ثم روجع مراجعـة عنايـة وتمحيص وطبع ثانية بشكل كتاب سنة ١٩٢٠، ثم أعيد النظر فيه إعادة قاسية، كما أعيد تنظيمه توطئة لطبعة جديدة في يناير سنة ١٩٢٣، ثم أعيد إصداره في طبعة منقحة زيدت زيادة وافرة في سنة ١٩٢٥، وهـي لا تزال معروضة للبيع، ثم صدرت كذلك طبعة جديدة كل الجدة أضيفت إليها مواد كثيرة، وقد روجعـت هـذه أيضا مرة أخرى توطئة لطبعه سنة ١٩٣٢.

لقد كانت في سنة ١٩١٨ أسباب متعددة تدعو الكاتب إلى أن يحاول كتابة تاريخ للعالم، إذ كانت تلك السنة خاتمة سني الحرب وأثقلها على الناس وأكثرها رفعا للحجب عن عيونهم. كان الإملاق الذي لم يألفه النـاس يغشى كل مكان. وكان الأسى والحداد يملآن كل فؤاد. وكانت قصة الموتى والمشوهين قد بلغـت الملايـين عدا. وأحس الناس أنهم وصلوا إلى الذروة من الأزمة المستحكمة في شئون العالم. وقد تملكهم الملل والتقزز حتى أصبحوا وليس في استطاعتهم أن يقدروا ما خبأه لهم القدر من احتمالات معقدة، فلم يكونوا يعرفون أهم قادمون على نكبة في المدنية أم هم مقبلون على فاتحة عهد جديد للتآلف الإنساني، وكانوا ينظرون إلى هذين النقيضين بسذاجة من لا ترى أعينهم سواهما أمامها، بيد أنهم كانوا معتصمين بحبل الأمل. وكانـت هنـاك مناقشات طويلة فيما يمكن أن تصل إليه التنظيمات الجديدة في عالم السياسة، وفي المعاهدات الدوليـة لمنـع الحرب، وفي عصبات الأمم وعصبات الشعوب. وكان كل إنسان يفكر في جميع الدول على السواء أو قل إنه كان – على الأقل – يحاول ذلك. ولكن سادهم شعور بأن الأسس الجوهرية للمسائل التي ألقيت فجأة، وبشكل محزن على عواتق الديموقراطيات في العالم لم تكن مفهومة فهما كافيا وتساءل الجميع قائلين: كيف حـدثت كل هذه الأحداث؟ كذلك كان الناس يتساءلون محاولين أن يسبروا أغوار ما وراء المنازعات التي كانت تدور حول سراجيفو "وقصاصة الورق البلجيكية" حتى يصلوا إلى أسباب للأمور أوسع مضطربا وأقدم عهدا. ماذا كانت بداية هذا النزاع الذي قام على ضفتي الراين؟ ولماذا كان له ذلك الأثر الذي عم العالم قاطبـة؟ ولمـاذا أصبحت اليابان التي كانت منذ نصف قرن مضى بلادا خيالية شعرية جميلة، وأسطورة من أسـاطير الفـن الركيك، وأرضا من أراضي المسرحيات الغنائية المضحكة تكاد تبعد عنا بعد الكواكـب السـيارة – لمـاذا أصبحت اليابان تجوب سفنها الحربية الآن البحر المتوسط؟ ولماذا ذهبت القيصرية الروسية كأنما كانت حلما

من الأحلام؟ وماذا كانت حقيقة تركيا؟ ولماذا كانت للقسطنطينية تلك الأهمية العالمية الكبيرة؟ ثـم مـا هـي الإمبراطورية؟ وكيف بدأت الإمبراطوريات؟ وما الذي حول ألمانيا من مجموعة دويلات متفرقة إلـى قـوة وعزيمة عدوانية موحدة جعلت نصف العالم في فرق من الطاقة الألمانية.

لقد حاول كثير من الرجال والنساء أن يتذكروا المعلومات التاريخية القليلة التي تلقوها في أيام دراسـتهم القصيرة فوجدوا في زوايا سحيقة من ذاكرتهم قائمة مملة تكاد تكون منسية بأسماء بني جلدتهم من الملوك أو رؤساء الدول. فحاولوا أن يقرءوا عن هذه الأمور شيئًا فوجدوا أنفسهم في بحر عباب من الكتب. واكتشـفوا أنهم علموا التاريخ من وراء غمامات الوطنية التي تتجاهل كل بلد إلا وطنهم فلما وقعت الغمامات أصـبحوا في وهج تعشى له عيونهم. وكان من أشق الأمور عليهم أن يحددوا القيم النسبية للمسائل التي يـدور حولهـا البحث. وكانت جماهير غفيرة من الناس، أو بمعنى أوضح، كل من أوتوا حظًا من الذكاء في العالم ممن لـم يوجهوا توجيها خاصا في تعليمهم – كانوا يحاولون، ويعرفون أنهم يحاولون قلت هذه المعرفة أو كثرت، أن يتفهموا أمور العالم بصفة عامة. فكانوا في واقع الأمر يرتجلون لأنفسهم معالم للتاريخ ينشئونها لاسـتعمالهم الخاص.

وليس مؤلف هذا الكتاب مؤرخًا محترفًا بأي حال، ولكنه شرع يكون لنفسه معالمه التاريخية الخاصة منـذ أن ابتدأ حياته العلمية. وكان دائب الاشتغال بالتاريخ بوصفه كلا واحدا وبالقوى العامة التي تصنع التـاريخ. فكان ذلك منحى اتجاهه الفكري فهو مذ كان يدرس العلوم احتفظ بدفتر دون فيه مذكرات لمطالعاته التاريخية. وكان أول ما أصدره من القصص قصة: (آلة الزمان، سنة ١٨٩٤) وهي نظرة خيالية عـن اتجـاه مصـير البشر؛ وقصة: (عندما يصحو النائم) وهي مبالغة جذابة تصور تطورات مدنيتنا الحاضـرة. وكـان كتابـه: (المتوقعات، سنة ١٩٠٠) محاولة لمناقشة بعض ما كان محتمل الوقوع من نتائج الأحداث الجارية.

واستمر المؤلف في عدد من كتبه أمثال: "البحث الفاخر" و "النار الأبدية" يرسم صورا تخطيطية "لمعـالم تاريخية" صغيرة، وكانت نتيجة ذلك أن وجدته تلك اليقظة الفكرية التي نشأت عن الحرب العظمـى متجهـا اتجاها خاصا لأن ينظر نظرة شاملة إلى ماضي الأمور، وحاضرها إن لم تكن قد وجدته مهيأ لـذلك بنـوع خاص، وكان قبيل ابتدائه العمل في هذه "المعالم" مشغولاً حينًا من الدهر بشئون تسويات ما بعـد الحـرب، ومشروع عصبة للأمم. وذلك في وقت لم يكن المرحوم الرئيس ولسون قد تبنّى بعد، هذه الفكرة. وكان هـذا العمل يتضمن بالضرورة اشتراك المؤلف في النزاع القائم بين الاتحادات والجمعيات للأمم المختلفة التي تقوم بأعمال الدعاية وفي تنظيمها. وقد أظهرت المناقشات التي دارت في تلك الجماعات ظهوراً جليا مـا لفكـرة المرء عن الماضي من أثر بالغ في حوادث النشاط السياسي بأجمعها. قُل لي بربك: ما هي نـواحي النشـاط السياسية للرجل إلا أن تكون التعبير بالفعل عن فكرته عن الماضي؟ وكان الذين يفكرون فـي مشـروعات لعصبة الأمم على خلاف فيما بينهم لأن فكرتهم عن عالمهم كما كان وقتئذ وما كان عليه من قبل، وكما يمكن أن يكون – كانت فكرة مبهمة مهوشة تخلو من التجانس. وكان ثمة بعض المعلومات الخاصة الدقيقة إلى أبعد حد – مختلطة بكثير من هذه الفروض العامة عن التاريخ وهي فروض بلغت الغاية من السذاجة.

وقد رأى المؤلف أنه يجدر به أن يجمع الخرائط والمذكرات وأن يجعل مطالعاته أكثر انتظاما مما كانـت عليه وأن يوضح لنفسه عددا من المسائل التاريخية التي كانت لا تزال غامضة عليه غاية الغمـوض، حتـى اتضح له أن في استطاعته أن ينتج أثرا أجل فائدة إذا هو وسع مفكراته الخاصة عن أشكال التاريخ الرئيسـية وحولها إلى ما يشبه (التقرير العام) ويقارب الكتاب السهل التناول، ليستفيد منه الرجال والنساء الأكثـر منـه عملاً أو الذين تلهيهم أمور أخرى، نقول إنه قد اتضح له أن في استطاعته أن ينتج أثرا أجل فائدة مما يستطيع أن ينتجه إذا ظل يتخبط في وضع دساتير مستحيلة التنفيذ لاتحادات دولية أكبر الظن أنها لن تقوم، ثم يـزداد في كل يوم يأسا من النجاح. وكان كلما فكر في مشروع كتابة ملخص المعلومات الموجـودة عـن مركـز الإنسان في الزمان والمكان تبين أنه مشروع عسير غير أنه جذاب لا يستطيع التخلي عنه.

ففكر في أول الأمر أن يسطر استعراضا عاما للوحدة الأوربية أي ما يشبه الملخص لقيام النظام الروماني وسقوطه، ولبقاء فكرة "الإمبراطورية" بأوربا بقاء إصرار وعناد، ولما وضع فـي الأوقـات المختلفـة مـن مشروعات متعددة لتوحيد العالم المسيحي. ولكن سرعان ما اتضح له أن البداية الحقة للأمور ليست في روما ولا في اليهودية Judea وأنه ليس في الإمكان قصر القصة على العالم الغربي. وأن كثيرا من الأمور لم يكن في الواقع سوى فصل متأخر من مسرحية أكبر منه وأعظم. وإذا القصة تحمله من ناحية إلى البدايات الآرية في غابات أوربا وسهولها وفي آسيا الغربية، وتحمله من الناحية الأخرى إلى المراحل الأولى للمدنيـة فـي مصر وأرض الجزيرة، وفي تلك الأراضي التي تغمرها المياه في هذه الأيام والتي تبدو كأنما كانـت يومـا عامرة بالسكان في حوض البحر المتوسط وعندئذ أخذ يدرك كيف قلل مؤرخو أوروبا في قسوة عجيبة، مـن شأن خطر مرتفعات آسيا الوسطى، ونصيب الثقافات الفارسية والهندية والصـينية مـن مسـرحية الجـنس البشري. وأخذ يتضح له يوما بعد يوم كيف أن الماضي البعيد لا يزال ماثلاً في حياتنا ونظمنا، وكيف أننا لا نستطيع أن نفهم إلا قليلاً، المشاكل السياسية أو الدينية أو الاجتماعية التي نشهدها اليوم ما لم نكن نفهم بعض الفهم مراحل المجتمع الإنساني الأولى. وهذا يتضمن شيئًا من فهم أصل الإنسان.

وهكذا أخذت المعالم تتمدد وتتوسع نفسها كلما أمعن المؤلف فيها تفكيرا. ثم اعترت المؤلف زمنا ما نوبـة من التردد، إذ هاله هذا العبء الذي كان يتسع لحظة بعد أخرى حتى ليكاد يقارب كتب الملاحم حجما. وأخذ يسائل نفسه: أليس هذا العمل أجدر بمؤرخ منه برجل كان كل همه، حتى ذلك الوقـت، أن يكتـب مقـالات فلسفية أو روايات خيالية؟ ولكن لم يبد أن هناك مؤرخًا واحدا كان سطحيا في تأليفه – أم أقول رحب الـذرع بالحد اللازم وقليل العمق اللازم أيضا ـ بحيث يحيط بهذا المضمار الفسيح الذي ينطوي عليه هذا المشروع.

والمؤرخون في عصرنا هذا أناس ذوو علم واسع يخشون الهفوات الصغيرة أكثـر ممـا يخشـون عـدم التماسك بين المقدمات والنتائج وهم دائما في فرق مما يصيبهم من سخرية مؤكـدة إن أخطئـوا فـي أحـد التواريخ، أكثر مما يخافون إسناد قيمة خاطئة لعمل لا يستحقها. والواقع أن من الحق والواجـب أن تكـون الحال كما ذكرنا؛ وأنه يجب في هذا العصر الذي يمتاز بالسرعة والإقدام، أن تقوم بالعالم طبقة كاملـة مـن العلماء المتفانين في العلم يكون واجبها الاحتفاظ بمعيار محتم من المعايير المحكمـة الضـبط. ولكـن هـذه المعايير العالمية الممتازة بالدقة التفصيلية، تقطع علينا سبيل الرجاء في أن نلجأ إلى المؤرخين نلتمس عندهم

ما هو مطلوب ها هنا. ولن يكون هذا العمل لديهم مهمة جذابة شائقة، بل يكون على العكس من ذلك مجلبـة للكثير من الضيق والعناء. فإن على المرء أن يطلب عندهم المادة التاريخية محشودة مكدسة ولـيس النتـائج المتجمعة. وهم في واقع الأمر يتحفوننا الآن بمجلدات لا يحصى عديدها تكتبها أيد متنوعـة وتتجلـى فيهـا وجهات نظر مختلفة وفيها تنوع في الروح والقصد يبهج النفس ويلذ الفؤاد وهي كلها مصنفات عظيمة نبيلـة لها جليل القدر والنفع للدارسين. ولكن هذه المؤلفات الجليلة – إنما هي من ناحية الأغراض اليومية للقـارئ العام الذي يشق طريقه في الحياة – شيء لا يقل في روعته وعسر الاسترشاد به عـن موسـوعة ضـخمة متعددة الأجزاء.

وقد ظهرت بالفعل في أمريكا كتب كثيرة نافعة صغيرة الحجم تبحث في التاريخ العام، أخص بالذكر منها كتاب التاريخ القديم والحديث من تأليف روبنسون وبريستد. وأمثاله من كتب هاتون وبستر، ود. م. وسـت. ولكن هؤلاء الكتاب جميعا جعلوا غايتهم المدرسة والكلية – لا القارئ العادي. وكذلك كتاب "الماضي الحـي" الذي ألفه ف. س مارفن F.S. Marvin فإنه رسالة جديرة بالإعجاب تبحث في التقدم الفكري وإن لم يحو إلا القليل من الحقائق الجوهرية. فلو تقدم أحد ثقات المؤرخين المعترف لهم بالتبريز في فنهم وأعلن عزمه على وضع خلاصة تاريخية عامة لكان في ذلك نكبة على سمعته العلمية ولو أن ذلك العالم قطع على نفسـه هـذا العهد لانتظر القارئ العام سنين كثيرة قبل أن يحظى به. فأما كاتب هذا الكتاب فإن مركزه وهو بعيد بطبعـه وبمحض اختياره عن الاحترام العلمي، بعده عن ألقاب الشرف، قد مكنه أن يلذ الجمهـور بالتـاريخ دون أن يضحي أقل تضحية بالكرامة والمكانة، ودون أن يتعرض لما يتعرض له الثقات من المـؤرخين مـن نقـد خصومهم. وكان من أسعد مزاياه أنه يسيء إلى غيره وهو منيع صعب المنال. فهو في فيافي الأدب بـدوي رحال وطنه الفضاء العظيم المحيط به؛ لا يعرف لنفسه لقبا أكرم من اسمه، ولا يفكر في شرف إلا شـرفه. ولهذا أو ذاك من العلماء الإحصائيين أن يثور لأن المؤلف أهمل إهمالاً شنيعا هذه أو تلك من الحقائق الثمينة، التي يختص بها ذلك العالم نفسه ويحتكرها دون غيره. فذلك أمر لا يعني المؤلف في قليل ولا كثيـر. فهـو يستطيع دون أن تخالط وجهه حمرة الخجل أن يرتشف من المؤلفات القيمة والمواد العادية القريبة المتنـاول، إذ لم يكن هناك قط ما يلزمه أن يعزو إلى نفسه اكتشافات مبتكرة أو وجهات نظر مبتدعة. بل كـان واجبـه الأهون من ذلك أن يجمع وينظم ويحدد النسب بين أجزاء مغامرة الجنس البشري العظيمة وأدوارها، ثم يدون ذلك. فهو لم يضف إلى التاريخ شيئًا، أو هو يؤمل – على الأقل – أنه لم يضف شيئًا إلى التاريخ، وكل مـا فعله أنه قد حول مجموعة ضخمة من المواد إلى مهضوم هين سهل. وبعض تلك المواد جديد طارف. فعـل كل هذا بوصف كونه كاتبا شعبيا يرعى احتياجات أمثاله من المواطنين العاديين.

ومع ذلك فإن الموضوع من الجلال بحيث إن أي معالج له مهما بلغ تواضعه لا يستطيع أن يفقده ما هو عليه من آيات الكرامة والجلال. فإذا كانت هذه "المعالم" تبدو في بعض الأحيان مجهدة هزيلة أو بتراء ناقصة نقصـا مستوجبا للأسف، فإنها في بعض الأحيان الأخرى تظهر كأنما قد خططت ودونت نفسها بنفسها. وإن هذا الكتاب ليرسم للقراء صورة خلفيتها عميقة لا يسبر غورها: لغز النجوم وامتداد الزمان والمكان امتدادا لا يعرف له معيار يقاس به.. ثم تبدأ الحياة وهي تناضل في طريق الإحساس والوعي وتجمع القوة وتدخر الإرادة خلال ملايين من

السنين وخلال بلايين لا تعد من حيوات الأفراد حتى تصل إلى ما عليه العالم الآن من حال معقدة مشوشة، مليئة بالمخاوف قدر ما هي زاخرة بالآمال والفرص. فنرى الإنسان ينهض من البدايات التي كان فيها وحيدا إلى ما تراه في عصرك الحاضر من بزوغ فجر التآخي بين الإنسانية في العالم كله. ونلحظ كل النظم وهي تنمو وتتغير. وإنها لتتغير الآن أسرع منها في أي زمان مضى. وينتهي استعراضك لهذه الأحداث بعلامة استفهام هائلة. فما الكاتب إلا دليل يوصل القارئ في نهاية المطاف إلى الحافة الحاضرة، تلك الحافة التي تتحرك دائما إلى الأمام، وهي طلائع أمور تسير قُدما في طريقها، ثم يقف ويهمس في أذنه: "ها هو ذا تراثنا".

ومن السخف أن ندعي أن هذا الكتاب لا يزيد عن مجرد عرض عابر لأول رؤية للحقيقة التي تكاتفت على رفع النقاب عنها خلال مائة السنة الأخيرة جهود كثيرة جبارة أنفقها علماء طبقات الأرض Geologists والإحاثة Palaentologists وعلماء الأجنة Embryologists وجميع أنواع علماء الطبيعة والنفس والسلالات البشرية Ethnologists وعلماء الآثار وفقه اللغة والباحثون التاريخيون. ولم تكن دراسة التاريخ قبل قرن من الزمان تتجاوز الإكباب على التهام ما في الكتب. فأما في يومنا هذا فليس للمؤرخ المعتمد في دراسته على الكتب وحدها إلا أن يتبوأ – كارها أو متأذيا – منزلة المصنف الذي يضيف إلى مجموعة العلم بمعناه العام بعض وثائق مشكوك في قيمتها.

وكتابنا هذا يروي قصة الاستعراض العام لهذه الصورة الضخمة. والمؤلف يرى بأقصى ما في وسعه من جهد ومقدرة أن هذه هي الحال التي عليها تلك الصورة في يومنا هذا. ولكنه يكتب في حدود مقدرته الخاصة وحدود زمانه. فهذا الكتاب نختص به عصرنا الحاضر وحده، ولا ندعي له الخلود فهو القصة العابرة للحوادث، ولا مفر من أن يلحق هذا الكتاب في طبعته الجديدة سنة ١٩٣٠ بطبعاته السابقة إلى خزانة الكتب القديمة وإلى أفران حرق القمامات. ولسوف تتولى أيد جديدة أوسع مواهب وأعظم حيلة وأغزر علما، كتابة معالم جديدة في أساليب أرقى وأجمل. وإنما كتاب "المعالم" الذي يفضله المؤلف كثيرا على كتابه هذا، هو الكتاب الذي سيصدر سنة ٢٠٣٠، والذي يتمنى لو قرأه وربما تمنى بتشوف أن يكب على صوره ورسومه.

فلو وقعت في أيدينا، بمعجزة من المعجزات، نسخة من معالم التاريخ الصادر في ٢٠٣٠ فلا شك عندي في أننا جميعا سنهتم أولاً بالصور العجيبة التي في فصوله الأخيرة فنقف حيالها وحيال ما يصحبها من فنون مبهوتين ثم ننتقل بعدئذ إلى ما يصحبها من النصوص. فما أعجبها من حوادث! وما أعجبه من تقدم لا يكاد العقل يصدقه! وأخيرا سوف يرجع كاتب هذه السطور على الأقل إلى الفصول الأولى ليرى القدر الذي تبقى من القصة المروية ههنا.

والراجح أن الصورة العامة للقسم الأول ستظل عظيمة الشبه بالصورة التي رسمناها هنا ولكن لا ريب أن مئات من التفاصيل المجهولة الآن، سوف تلقى نورا مرشدا حينذاك. وسوف تكون هناك أيضا مكتشفات طريفة رائعة في الجماجم والأدوات والمدن المطمورة وآثار شعوب مفقودة أو مغمورة لا يدري العالم عنها الآن شيئًا. وستكون قصص الصين والهند أدق عند ذاك وأبين. وربما أضحت غير ما هي عليه الآن في صفاتها، وستزداد معارفنا عن آسيا الوسطى، وربما زادت معارفنا عن أمريكا قبل كولمبس. وسوف يظل شارلمان وقيصر شخصيتين عظيمتين في التاريخ. وربما انحطت نسبيا قيمة جبابرة الزمان القريب أمثال نابليون.

٢- طريقة كتابة المعالم:

كان الغرض الأكبر من مراجعة الكتاب في هذه المرة أن نجعله أيسر فهما وقراءةً وقد سبق أن بين المؤلف كيف أنه نشأ من مذكرات وخرائط، وها هو ذا يعترف الآن حين يرجع إلى الطبعتين الأوليين: اللتين ظهرتا في أجزاء متفرقة، ثم أولى طبعاته في شكل كتاب سنة ١٩٢٠ بأن كتاباته كانت تحتفظ بطابع المذكرات، فقد وضعت مواد كثيرة غير مهضومة ولا متجانسة في الهوامش السفلى وكانت فيه إلى ذلك أقوال كثيرة مبهمة، فيها الكثير من التحفظ. وكان عرض الحقائق يداخله أحيانًا شيء من الاضطراب. وتلك نتيجة طبيعية للطريقة التي اتبعها المؤلف في إنشاء الكتاب. فإنه استعان بأربعة مساعدين كبار واتخذ منهم مستشارين له في مطالعاته ومراجع معلوماته وهم السير راي لانكستر، والأستاذ جلبرت مراي، والسير هاري جونستون، والمستر أرنست باركر. هذا إلى أنه استعان بمشورة كثيرين من الرجال الممتازين بسعة الإطلاع بصفة خاصة في هذا الموضوع أو ذاك. وفي هذا الصقع أو ذاك. فأسدى إليه السير دينيسون روس والمستر جرانمر باينج، والمستر س.ن. فو أكبر المعونة في الموضوعات الخاصة بآسيا الوسطى والصين. وتكرم عليه المستر شارلس سنجر بالكثير من المعلومات القيمة عن علوم اليونان والرومان الأقدمين. وكان الأستاذ ج. ل. مايرز مرجعا ثمينًا في تاريخ آثار البحر المتوسط القديمة، والمستر فيليب جودالا مستشارا في تاريخ أوربا السياسي في القرن الثامن عشر وفجر التاسع عشر، وهلم جرا. ولم يسكن المستر ج. ف. هورابين، بما له من عبقرية في الجغرافيا السياسية والاقتصادية، مصورا للكتاب قدر ما كان شريكا لي في تأليفه. وهناك الكثيرون ممن تفضلوا بعلمهم وضحوا بوقتهم بسخاء وبلا مقابل. وفي الطبعات السابقة قوائم مليئة بتلك الأسماء حتى ليتردد المرء بين الاعتراف بالفضل وتوريط الأصدقاء. ابتدأ المؤلف بأن كتب مسودة كل فصل على حدة، ونسخت من كل فصل عدة نسخ، أرسلت إلى كل من رأى المؤلف الاستعانة بهم فعلقوا عليها وألهبوها نقدا، وكتب كل ما رأى فيه الفائدة. ثم جلس المؤلف وقد تطهرت نفسه واستنارت، جلس بين هذه النسخ الكثيرة التي نالت منها يد المحو والإضافة والبتر كل منال، فقرأها وكتب الفصل من جديد. وأخيرا أرسلت مسودات المطبعة إلى كبار المساعدين وغيرهم ممن يهتمون بالعصر المدروس في الفصل.

وبهذه الطريقة ضمنا صحة الأسماء والتواريخ وما إليها. وقد احتفظ المؤلف بشخصيته، فاحتجز لنفسه كل حقوقه في حرية الحكم على الأشياء التي يكون المدار فيها على الرأي، أما في الموضوعات التي يكون مدارها الحقيقة والواقع، فقد اتبع بغاية الدقة والأمانة رأي نخبة العلماء الذين استأنس بهم. وكانت نتيجة ذلك إدخال ألوان عدة من الجدل، أضيفت إلى الهوامش المزدحمة، بل إلى المتن نفسه. مثال ذلك أنه اعتدى على الأستاذ جلبرت مراي، في المقارنة التي عقدها بين الصفات الخلقية والعقلية للأثيني العام العادي ومثيله اللندني. والمؤلف وإن كان قد أباح للكاتب العطف على الأثيني، فإنه احتفظ بحقه بأن يحكم على الثاني على طريقته هو الخاصة وكانت هناك كذلك صفحة أو ما يقارب الصفحة ملئت بالجدل بين المؤلف والأستاذ مراي والمستر باركر حول سلامة تربية المستر جلادستون، عدا اختلافات أخرى في الرأي مع المستر باركر. ويرى الكاتب أن عظمة نابليون الأول ليست إلا خرافة كبيرة لا أساس لها في عالم الحقائق. وهو يرى أن الوقائع والحقائق التي تؤيد هذا الحكم تفصح عن نفسها بنفسها وسترونها في هذا الكتاب في موضعها وحجمها النسبي الخليق

بها. فقد كان الرجل من طراز موسوليني ودرجته، وكانت عقليته أدنى من عقلية نابليون الثالث. بيد أن المستر باركر لم يقبل هذا الحكم فكتب إلى المؤلف يقول: "اكتبني مناقضا لرأيك" وقد كان فدونت أقواله فـي الهـامش. وكانت نقطة الضعف في السير هاري جونستون أو بالأحرى نقطة قوته المفرطة – تنحصر في شـذوذه فـي كتابة الأسماء التاريخية المشهورة بطريقته الخاصة وإن كانت طريقته تلك صائبة كل الصواب. فهو يصر على أن يكتب: شيليموه Shelemoh بدل سولومون Solmon – و ibrim بدل Hebrws – وهي كلها ألفاظ تبـدو عسيرة مربكة للقارئ العادي. فأدت هذه الخلافات كلها إلى إضافة هوامش للكتاب.

وكان في تلك الهوامش من التسلية للمؤلف وأصدقائه بقدر ما في الفكاهات العائلية. ولم يكن بد من هذه الهوامش مادامت أسماء المساعدين الأربعة الأول تزين الصفحة الأولى من الكتاب إلى جوار اسم المؤلف نفسه. إذ كان فـي وجودها سند أي سند لاسمه. كما كان فيها ما يشبه الضمان له. ولكن تلك الهوامش كانت مربكة ومتعبـة لغالبيـة القراء. ذلك أن الهوامش والمراجع والتخفيف من الأحكام إن هي إلا أمور تلزم الكتب المؤلفة للطلاب. فأما في هذه "المعالم" فهي فضل لا تدعو الحاجة إليه؛ أو قل إن فيها (والمؤلف يعترف لك صراحة) شيئًا من الادعاء. وهو فـي هذه الطبعة يحل مساعديه الأربعة الأول من كل تبعة ولا ينسى لهم جميل ما أسدوا ولذلك حـذفت أسـماؤهم مـن الصفحة الأولى التي بها عنوان الكتاب، وكأن المؤلف استطاع أن يستغني عن الأربعة الـذين أرشـدوه إلـى بـر السلامة، بعد إذ قادوا السفينة في يم مضطرب خطر وفي مسالك ملتوية حتى أوصلوه إلى مرفأ أمين يحـس فيـه الحرية والثقة. وبعد هذه المعونة، وبعد أن أحس هذه الحرية استطاع أن يبسط هذه القصة العظيمـة وأن يوضـحها وأن يولي كل ناحية من نواحيها ما هي جديرة به من التقدير. ولولا فضلهم لما تسنى له أن يقصها على الناس.

هذه هي المرة الخامسة التي أعيد فيها طبع الكتاب كاملاً. وكانت الطبعة الأولى المجزأة موضع فحص شديد قام به قرابة مائة ألف قارئ قرءوا كل فصل بإمعان ودقة، وتكرم الكثير منهم بالتعليقـات، وبإصـلاح بعـض الهفوات وبإثارة موضوعات شائنة. وكانت كل رسائلهم توضع موضع الرعاية المنظمة فعادت علـى الطبعـة الأولى الصادرة بشكل كتاب بأعظم النفع في تفاصيلها. وانطلقت هذه الطبعة أيضا إلى جمهور غفير من القراء؛ إذ صدر منها في أمريكا وحدها ما يربو على ربع مليون من النسخ. وأنتجت هذه بدورها محصولاً وافرا مـن الاستدراكات. كما أثارت تلك الطبعة أيضا تعليقات قيمة وظهرت بسببها نشرات نقدية عديدة. وكانـت الطبعـة الثانية له بشكل كتاب سنة ١٩٢٣ هي الطبعة الثالثة التي استفادت أجل الفوائد بذلك الامتحان الثاني العظيم الذي مر به الكتاب سنة ١٩٢٠ وقد أعيد في الطبعة الثالثة تنظيم الفصول من جديد فضلاً عن مراجعة التفصـيلات. وظل المؤلف وقتًا طويلاً يحس أن حديثه عن الشعوب الآرية قد سبق موضعه، وأنه قد قلل من شأن الشـعوب غير الآرية في تطور المدنية. فعدل بناء على هذا ترتيب الفصول الأولى، لكي يصلح هذا الأثر وكذلك أدخـل فصلاً أوفى عن لنكولن Lincoln والحرب الأهلية الأمريكية. وتضمنت طبعتنا الحالية إضـافات ومراجعـات أخرى، وطهرت تمام التطهير من الهوامش وما إليها من استطرادات؛ فزاد الكتاب وضوحا وطلاقة وأصـبحت أجزاؤه أحكم اتصالا مما كانت في كل الطبعات التي سلفت. ولم يعد القراء يقرءون فيه بين السـطور الجـدل والمنازعات التي كانت تدور بين مساعدي المؤلف. حتى أصبح (وذلك ما يرجوه المؤلف) أبعد ما يكون عـن مذكرات للطلاب، وأضحى في بساطة ووضوح، كتابا في معالم التاريخ.

ولا يداخلن قارئ هذا الكتاب أي ريب في صحة الوقائع والأسماء والتواريخ التي نذكرها له بعد الذي مر فيه من مآزق هذه التمحيصات والمراجعات. ذلك بأن الكتاب قد نقد نقدا قاسيا: ولكن أحدا من الناقـدين لـم يوجه سهما واحدا نحو دقته العامة. حتى المستر بيلوك ذلك الخصم العنيد، قد اعترف له بهذه الميزة. وكانت كل المآخذ والاعتراضات تدور حول الأهمية النسبية التي نالها ذلك القسم أو ذاك، وإلى تأثير هذه الثقافـة أو عظم شأن تلك. ويثور ضدي بعض علماء الأدب الكلاسيكي لإهمالي هوميروس والناحية الجمالية من الحياة اليونانية إهمالاً نسبيا، وإن كان الحديث عن العلم اليوناني وافيا غير منقوص، ومـع أن موضـوع التطـور العقلي الإغريقي يعالج في الكتاب بوصف كونه دورا أساسيا من أدوار تطور الإنسانية. وهناك فئة كبيرة من أهل الرأي ممن يرون العالم خلال الأشكال اللاتينية، ويأخذ منهم الحنق كل مأخذ حتى لمجرد ذكـر اتسـاع الأثر النسبي للنظم البيزنطية والفارسية والصينية مثلاً. فروما لا تزال تتخذ سمة عدوانية فيما ألف في هـذا العصر من أدب ونقد ولا تزال تحاول التقليل من شأن الأمم غير اللاتينية وتضييق ما لها مـن مجـال فـي الصورة التي ترسم. فأما الغلاة من أصحاب الرأي الحر فإنهم يضيقون ذرعا بالقول إن المسيح كان شخصـا حقيقيا، ويتصايح المسلمون محتجين حين نتحدث عن النبي حديثنا عن شخص عادي، ويتسخط الشـيوعيون لأن تعاليم ماركس Marx ولينين Lenin لم تجعل أساس البحث في هذه القصة كلها. وكثير من الناس ممن ينزعون في دينهم إلى الناحية المادية قد ساءتهم تلك الأدلة المجتمعة المتراصة على تسلسل الإنسان تسلسـلاً حيوانيا، فهم يرون أنه حتى لو صح هذا لكان فيه أكبر مضيعة للأخلاق والروح المعنوية بين الناس. فكان لا بد للمؤلف أن يصادف هذه الألوان من النقد. ولم يكن لديه من سبيل يتجنب بها أو يرضي بهـا كـل هـذه المطالب.

ويدرك المرء عندما يلتقي بمثل هذه المواقف والاعتراضات أن لدى كل إنسان تقريبا نوعا مضمرا مـن "معالم التاريخ" متضمنًا في ذهنه وذلك عنده هو التفسير العملي لعالمه ولموضعه من هذه الدنيا، وهو في كل هذا يرفض هذا الرأي ويفترض ذاك، ويقدر كتابنا هذا بنفس المعايير التي اصطنعها لنفسه وقد يقيسـه بمـا يكون قد سلف له من المعتقدات التي تقبلها والتي تختفي وتبدو في نفسه، وقد يكون في هذا أسـمحيا واسـع الصدر. ومن الطبيعي أن يكون للمؤلف هو الآخر وجهة نظر خاصة؛ بل من الطبيعي أن يميل إلى ناحية من الرأي. ولكن أين يجد القارئ كاتبا ليست له هذه الصفة التي تميز شخصيته؟ وكيف يكون هنـاك أي معـالم للتاريخ ليست فيها نزعة خاصة إلى أمور بعينها؟ فهنا – كما هي الحال في أي كتاب إخبـاري ووصـفي – ينبغي للقارئ أن يتذكر، مثلما ينبغي للقاضي والمحلف أن يتذكر دائما، أثر الخصائص الشخصية لكل شـاهد في البيانات التي يدلي بها معبرا عما رأى. وكل ما يدعيه الكاتب ها هنا هو أن الشاهد قدم بأقصى ما تسمح كفايته، بيانًا عاما عادلاً صادقًا، عن وجهة نظره عن ذلك المشهد العظيم مشهد الزمان والأقدار الذي تكشفت له خبيئته.

٣- في بعض ما حذف وما أضيف:

تكررت الشكاوى فيما وجه من نقد للطبعات الأولى من الكتاب من أن تطـور الفنـون وخاصـة تطـور الموسيقى قد أهمل ولم يعن به. فقد أسهبنا في الكلام على قصة كسب الإنسان للمعرفة والقوة الاجتماعية. بيد أننا لم نكد نذكر شيئًا عن بحث الإنسان المقصود عن الجمال. وقد شرعنا الآن في محاولة يقصد بها تـدارك ما فات، فأضيفت أقسام كثيرة سجلنا فيها كيف بدا الفنان والشاعر والكاتب الخيالي في سماء الحياة الإنسانية. ومع ذلك فإن حدود أي "تاريخ" للموسيقى أو أي فن آخر غاية في الضيق: فربما يلحظ الإنسان ظهور أشكال جديدة وطرائق جديدة وآلات جديدة، ولكن الوسيلة الوحيدة لإدراك الفن القائم على الخيال إنما هـي فـي أن تسمعه أو تراه أو تقرأه. وليست كتابة قوائم بأسماء أساتذة الفن ودررهم اليتيمة، وأن نمكن قارئينا من التشدق بالأسماء الضخمة، ليس كل ذلك جزءا من خطتنا في هذا الكتاب.

وكان تقدم أعمال الحفائر سببا في إضافة مادة جديدة. والحق أن من العسير على الكاتب في عصرنا هـذا أن يجاري "الجاروف" في سرعته. فمنذ أن نقح كتاب المعالم لآخر مرة قامت أعمال شائقة جدا في شـمالي الهند وسومر وفي آسيا الوسطى وفي الصين. وتم رفع اللثام عن "السينانثروبوس" وهم أدهش نوع من أنواع (شبه الإنسان). والسينانثروبوس هم الجواب الكامل الشامل على الضجة التي أثارها مخـالفو داروين منـذ خمسين عاما مطالبين بـ "الحلقة المفقودة"، وزيادة على ذلك كان من الضروري أن نمحص من جديـد مـا كتب عن الحرب العظمى؛ وأن نعيد تنظيم بعض أجزاء القسم الخاص بما بعد الحرب ونكتبها من جديد. فقـد كانت هذه هي أضعف أجزاء الطبعات السابقة: وذلك لأن آمال ذلك العصر الثائرة ومطالبه قريبة العهد إلـى حد يخرج الكاتب عن اتزانه وتحفظه ولم يكن ثمة تناسب بين هذه الخاتمة وبين سائر أجزاء الكتـاب. فقـد أنذرتنا بسوء العاقبة خطب المستر لويد جورج وما كان في ثورة إرلندة من غدر، ومحاضرات بعض قـواد الجيش المغمورين في مؤسسة الخدمة المتحدة. حتى داخل الموضـوع شـيء مـن روح كتابـة النشـرات الصغيرة، كما داخله أيضا شيء من روح المشايعة والتحزب. والآن، وقد مضت أربعة عشر عامـا علـى الحرب، وبعد أن قام المؤلف برحلة عظيمة في مجال تفكير قريب إلى نفسه وإن كان مجالاً يتسع ويميل على الدوام إلى الاستقرار، فإن المؤلف يعتقد في نفسه القدرة على أن يضع هذه السنين الأخيرة في صورة أكثـر تناسبا مع سائر أجزاء الكتاب. ومن ثم فقد قضب هذا الجزء الأخير تقضيبا قاسيا وبذلت فيه محاولة جديـدة لتحليل النظرة العالمية تحليلاً أقرب إلى الصواب. ولم يكن لزاما على الناس أن يردوا الفكر ثانية في نواحي المجال السياسي فحسب، ذلك أن طبيعة المشاكل المالية والاقتصادية في العالم باتت الآن أوضح منهـا قبـل أزمة سنة ١٩٢٩، واستدعى هذا أيضا مراجعة جد دقيقة.

وهناك إلى جانب كتاب المعالم، كتابان إذا جمعا وإياه كون الثلاثة الدائرة الكاملة لأفق "النظرة المحدثة إلى الحياة" – وهما (كتاب علم الحياة) وهو خلاصة للأفكار والحقائق البيولوجية لمؤلفه ج. ب. ولـز، وجوليـان س. هكسلي بالتعاون مع مؤلف هذا الكتاب – ثم كتاب (جهود البشرية وثروتها وسعادتها) وهو نظرة شـاملة للمعارف الاقتصادية والاجتماعية.

الكتاب الأول

العالم قبل الإنسان

الفصل الأول

الأرض بين الفضاء والمكان

١- اتساع فكرة الناس عن الفضاء والزمان.

٢- الأرض في الفضاء.

٣- ما عمر الأرض؟

(١)
اتساع فكرة الناس عن الفضاء والزمان

قبل أن نبدأ تاريخ الحياة يجدر بنا أن نتحدث قليلاً عن المسرح الذي أديرت عليه مسرحيتنا وعن الخلفية التي مثلت المسرحية بين أحضانها.

ففي خلال القرون القليلة الأخيرة زادت معلومات الناس عن العالم المرئي الذي يسكنونه زيادة خارقة. وحدث لهم في الوقت نفسه نوع من النقص فيما لشخصياتهم من قدر وخطر. إذ عرفوا أنهم أجزاء صغيرة في كلٍ أوسع مدى وأطول استدامة وأشد عجبا مما كان أسلافهم يظنونه أو يحلمون به.

فإن الأرض تبدو لعقل المتوحش البدائي، كأنما هي كل الوطاء المنبسط للعالم، وكأنما السماء من فوق الأرض قبة تسير فيها الشمس والقمر والنجوم. ثم تعود أدراجها، ثم هي تسير من جديد بعد دورة غامضة، أو سرداب تحت الأرض. وقد ظل فلكيو بابل والصين يعتقدون أن الأرض مسطحة، حتى بعد أن قضوا قرونًا عدة في مراقبة النجوم. وكان علماء الإغريق أول من استطاع أن يدرك بوضوح شكل الأرض الكروي، بيد أنهم لم يفهموا مع ذلك أن الكون عظيم جدا إذا قيس إلى الأرض. فقد كانت كرة الأرض عندهم مركز الوجود، وكانت الشمس والقمر والكواكب والنجوم الثابتة تدور حولها أفلاكًا بللورية بوصفها مركزا لهن جميعا. ولم يستطع العقل البشري أن يتقدم عن هذه الفكرة إلا في القرن الخامس عشر عندما زكن كوبرنيق (Copernicus) زكنته العجيبة التي قال بها إن الشمس – لا الأرض – هي مركز الكون. ولم تحظ وجهة نظر كوبرنيق بالقبول العام حتى جاء "جاليليو" في مفتتح القرن السابع عشر، فأدخل ما أدخل من التقدم على المِرقب (التلسكوب).

والواقع أن التطور الذي حدث في المِرقب يشكل طورا جديدا في الفكر الإنساني – كما يشكل نظرة إلى الحياة في ضوء جديد. إن من العجائب أن الإغريق – على ما كان لهم من أذهان نشيطة نفاذة لم يدركوا قط ما يمكن أن يفيدوه من المجهر والمرقب. فلم يستعملوا العدسة بتاتًا. ومع ذلك فإنهم كانوا يعيشون في عالم عرف فيه الزجاج وعملت منه أشكال جميلة مدى مئات من السنين؛ وكان في متناول أيديهم قناني وقوارير من الزجاج لابد أنهم لمحوا خلالها الأشياء مشوهة ومكبرة. ولكن العلم في بلاد اليونان كان حرفة الفلاسفة يتناولونه بطريقة استكبار أرستقراطية، وكانوا كلهم رجالاً يأنفون أن يتعلموا العلم من هؤلاء العمال البسطاء ممن يشتغلون بصناعة الجواهر والمعادن والزجاج، لا نستثني منهم سوى أفراد قلائل من أمثال النابغة "أرشميدس"، و "هيرون Hiero".

والجهل أول قصاص الكبرياء. ولذا عاش الفيلسوف خلوا من المهارة الآلية، وعاش الصانع سفر الوفاض من التربية الفلسفية – وترك الجمع بين الزجاج والفلكي إلى عصر آخر جاء بعد ذلك بما يربو على ألف سنة من الزمان وقد تقدم المرقب وعلم الفلك معا منذ عصر جاليليو، ورفع عن أعماق الفضاء كل ما كان يحجبه من غياهب الجهل والافتراضات الفاسدة. فجاءت الفكرة القائلة بأن الشمس مركز الكون بعد فكرة قوامها أن الدنيا هي صاحبة هذه المنزلة. ونحن نعرف الآن أن شمسنا لا يمكن أن تدخل في عداد أكبر النجوم حجما، فهي لا تزيد على أن تكون إحدى النيرات الصغرى.

ولقد فك المرقب الخيال الإنساني من عقاله فكاكًا لم تصل إلى مثل أثره أية أداة أخرى. وإن كـان هنـاك جهاز آخر جدير بأن يقرن إلى أثر المرقب الموسع لآفاق العقل فذلك هو المطياف Spectroscope محـلـل الطيف الشمسي الذي تطور مما استكشفه فراون هوفر Fraun Hofer صانع الزجاج سنة ١٨١٤. فلقد طالما رأى الإنسان أقواس قزح منذ استقر على ظهر البسيطة، ولكن من ذا الذي كان يستطيع أن يخبـره أن هـذه الأشرطة الملونة كانت تحمل له في ثناياها وعدا بأنه سوف يستطيع يوما أن يحلل النجوم؟ ولكـن المطيـاف (الإسبكتروسكوب) يستقبل الأشعة من أي مصدر ضوئي ويمررها خلال منشورات ويفرقهـا إلـى أشـرطة وحزم تشبه قوس قزح. وعند الفحص يتبين أن في هذه الأشرطة الضوئية خطوطًا مستعرضة [١] من الضوء والظلمة تتغير تبعا للحرارة والتركيب الكيماوي لمصدر الضوء، تتأثر بما يعترض الضوء في مسيره إلينا من بخار، حتى ليستطيع الناس في عصرنا هذا أن يجلسوا في مراصدهم مطمئنين، يدرسـون تركيـب النجـوم ويقيسون درجات حرارتها، بينما هي تبعد عنا بلايين لا تحصى من الأميال.

على أن الستار الذي كان يحجب الهوة السحيقة التي تمثل أبعاد النجوم عنا، لم يزح إلا في القرون الثلاثة الأخيرة. وأحدث من هذا كله معرفتنا بما مر على الكون الذي نعيش فيه من أحقاب هائلة الطول فلم يكن بين الشعوب القديمة من بدا عليه أنه استطاع أن يكون أية فكرة عن مدى العصور الهائلة التي مر فيها الوجود إلا الفلاسفة الهنود وحدهم. وأما في العالم الأوربي إلا ما قبل وقتنا بنيف وقرن ونصف من الزمان، فكان الناس يرون مدى الزمان الذي مكثته الأشياء قصيرا قصرا يدعو إلى الدهشة والعجب. إذ جاء في كتاب في التاريخ العام أصدرته شركة من شركات بيع الكتب في لندن سنة ١٧٧٩، أن العالم خلـق سـنة ٤٠٠٤ ق. م وأنـه بالضبط (وهي دقة طريفة) خلق إبان الاعتدال الخريفي!؟.. وأن تكوين الإنسان توج عملية الخلق، إذ تم فـي جنة عدن على نهر الفرات على مسيرة يومين من البصرة بالضبط...!! وكانت الثقة بهذه المعلومات قائمـة على تفسير حرفي أكثر مما ينبغي لرواية الكتاب المقدس. وقلّ من يقبل هذه الرواية الآن بوصـفها بيانـات مسلم بها حتى بين أشد المؤمنين بأن هذا الكتاب موحى به من عند ا .

وكان لعلم الجيولوجيا ثم لعلم الإحاثة [٢] بصفة خاصة الفضل الأوفى في اختراق الحجب الزمنية وفي النفاذ من ذلك "الأمس الصغير" الذي لا يكاد يرجع إلى ستة آلاف سنة – إلى آلاف الآلاف من أشباه ذلـك الأمـس. ولقد لوحظت مجموعتان كبريان من الحقائق مرارا وتكرارا، وهما تقحمان نفسيهما قبالة أنظار الناس قبل القرن الثامن عشر بزمان بعيد. وكانت أولى هاتين المجموعتين ما رآه الناس في أنحاء لا تحصى من المعمورة مـن سموك عظيمة مكشوفة من الصخور الطبقية لا يمكن أن تكون تجمعت إلا خلال أحقاب طويلة من الزمان، وأن هذه الطبقات كانت في كثير من الأحيان مقوسة وملتوية بطريقة تدل بلا شك على وجود قوى جبارة تعمل مدى أحقاب مديدة من الزمان. وكانت المجموعة الثانية من الحقائق تتضح للناس من وجود "حفريات Fossils" تشبه العظام والجماجم والأجزاء الصلبة من أنواع لا تزال موجودة، وإن كان ذلك الشبه غير تام.

---

(١) Transverse

(٢) Palaeontology في المحيط أحاث الأرض واستحاثها أثارها وطلب ما فيها والشيء حركه وفرقه. (المترجم)

ولم تبدأ دراسة هذه الطبقات والحفريات دراسة منظمة إلا إبان القرن الثامن عشر؛ ولم يذع بين الناس العلم بقدر هذه المتراكمات وكنهها الحقيقي وهو الذي يدعونه باسم "سجل الصخور" إلا في القرن التاسع عشر. وقام كفاح عظيم يستهدف إثبات صحة ذلك السجل ويناهض تحزبات الذين كانوا يعتزون بتفسير الكتاب المقدس تفسيرا حرفيا. ودخل الحومة كثيرون ممن لا يزالون إلى اليوم على قيد الحياة، وأخذوا يناضلون في سبيل تحرير العقل البشري. وأخيرا تغيرت نظرة الناس، واستطالت رويدا رويدا. فمنذ مائتين من السنين لم يكن خيال الجنس البشري ليمتد إلى أكثر من ستة آلاف سنة. أما اليوم فقد رفع ذلك الستار أيضا، وأصبح الناس ينظرون خلفهم إلى ماض سحيق يمتد مدى عشرات ومئات من ملايين السنين.

(٢)

الأرض في الفضاء

سنلخص لك الآن تلخيصا موجزا جدا كل ما هو معروف عن أبعاد العالم. لقد ثبت لنا أن أرضنا كرة تدور. وهي وإن بدت لنا ضخمة هائلة، لا تزيد في حقيقة أمرها على هباءة من المادة في فضاء أعظم منها وأوسع.

فأما الفضاء فهو في معظمه فراغ. وتوجد على أبعاد عظيمة في هذا الفراغ مراكز تتوهج حرارة وضوءا، هي "النجوم الثابتة" وهي جميعا تتحرك في الفضاء رغم أن اسمها هو النجوم الثابتة. ولكن الناس ظلوا أزمانًا مديدة لا يدركون حركتها. وهي تبلغ من الضخامة حدا كبيرا، وتبعد عنا بعدا سحيقًا يجعل حركتها غير مدركة. فلا يكاد الإنسان يحس حركتها ظاهرة له إلا خلال آلاف السنين. ولقد تبين من مصورات النجوم التي قام المصريون بعملها منذ عشرات القرون أن هيئة أبراج مجموعات النجوم قد تغيرت تغيرا ملموسا جدا؛ فتحركت بعض النجوم حركة يمكن قياس مقدارها. ومع ذلك فنحن لا نزال نستعمل الاصطلاح القديم الهين: "النجوم الثابتة" لملاءمته لنا في تمييزها عن: "الكواكب السيارة". وهذه النجوم الثابتة بعيدة عنا بعدا يجعلها على الرغم من ضخامة حجمها، تبدو مجرد نقط من الضوء تتفاوت في بريقها وإن نظرنا إليها خلال أقوى المراقب. والقليل منها مع ذلك يبدو عندما ندير إليه المرقب في شكل ملتويات وسحب من البخار البراق، نسميها بالسدم Nebulae. وهي ليست إلا أبخرة وأنفاسا أو بقعا قوامها مادة نيرة تمتد بلايين الأميال، ويبلغ بعدها عنا حدا يجعلنا لا ندرك حركتها وإن انتقلت من مكانها ملايين الأميال.

ولقد عرف العلماء حديثًا جدا أن في الفضاء أيضا عددا من "الأجسام القائمة"؛ هذا إلى سحائب من مواد معتمة، لبعضها حجم ضخم هائل. وما كنا نحن لنعرف شيئًا عن وجودها لولا أنها تحجب عنا النجوم المضيئة التي من خلفها.

بيد أن هناك مع ذلك نجما قريبا منا قربا يجعله أشبه شيء بكرة ضخمة من اللهب وهذا النجم هو الشمس. وهي في طبيعتها مماثلة للنجوم الثابتة، ولكنها تختلف في هيئتها عن النجوم الأخرى لأنها أقرب إلينا منها جميعا قربا لا وجه فيه للمقارنة بينها وبين غيرها من النجوم، ولأن قربها مكن الناس من أن يعلموا شيئًا من طبيعتها. ومتوسط بعدها عن الأرض ثلاثة وتسعون مليونًا من الأميال. وهي كتلة من المادة الملتهبة قطرها ٨٦٦٠٠٠ ميل، وحجمها يعادل حجم أرضنا مليونًا وربع مليون مرة. والكثير من النجوم الثابتة أضخم منها كثيرا.

وهذه الأرقام عسيرة بالطبع على خيالنا. فلو صوبت إلى الشمس قذيفة من مدفع مكسيم، واحتفظت القذيفة في سيرها بسرعتها التي بدأت بها عند خروجها من فوهة المدفع، لاستغرقت في وصولها إلى الشمس سبع سنين. ومع ذلك فإننا نقول إن الشمس قريبة جدا وذلك بالنسبة لما نعرفه من أبعاد النجوم الأخرى. فلو أن الأرض كانت كرة صغيرة قطرها بوصة واحدة لكانت الشمس بالنسبة لها كرة ضخمة قطرها تسعة أقدام. ولكانت وحدها ملء حجرة نوم صغيرة. ونحن نعرف الآن أنها تدور حول محورها، ولكنها وهي مكونة من

سائل متوهج، لا تسير منطقتاها القطبيتان بنفس السرعة التي يسير بها خط استوائها الذي يدور سطحه فيما يقرب من خمسة وعشرين يوما. وسطحها الذي نراه مكون من سحب من أبخرة معدنية متوهجة؛ والغلاف الجوي الذي يحيط بالشمس هو من شدة الحرارة بدرجة تجعل الحديد والنيكل والنحاس والقصدير في حالة غازية. فأما ما دون ذلك السطح فإننا نعرفه على سبيل التخمين ليس غير.

وتدور حول الشمس مع أرضنا، وعلى مسافات عظيمة، أجسام أخرى مشابهة للأرض تسمى الكواكب السيارة. وهي تسطع في السماء لأنها تعكس ضياء، وقربها منا ييسر علينا أمر إدراك حركتها غاية التيسير، وهي تغير مواقفها بالنسبة إلى النجوم الثابتة من ليلة إلى أخرى.

ويحسن بنا أن نوقن تماما بخلو الفضاء من كل مادة فلو فرض، كما قلنا، وكانت الشمس كرة ضخمة قطرها تسعة أقدام لكانت أرضنا بالنسبة لها كرة قطرها بوصة واحدة وعلى بعد ٣٢٢ ياردة من الشمس أي ما يزيد على سدس الميل. ولاستغرق قطع ما بين الكرة الصغيرة وأختها الضخمة ٣,٥ دقيقة تقطع بخطى سريعة. وفي هذه الحال لا يزيد جرم القمر عن نقطة في حجم الحمصة تبعد ثلاثين بوصة من الأرض.

وتكون هنالك نقطتان متشابهتان جدا أقرب إلى الشمس من الأرض وهما كوكبا عطارد Mercury والزهرة Venus – أولهما على بعد ١٤٢ ياردة وثانيهما على بعد ٢٣٢ ياردة. وتأتي بعد الأرض كواكب المريخ Mars والمشتري Jupiter وزحل Saturn وأورانوس ونبتون وبلوتو Pluto وهي تبعد عن الشمس ٤٨٨ و ١٦٧٢ و ٣٠٦٧ و ٦١٦٩ و ٩٦٦٦ و ١٣٣٠٠ ياردة على التعاقب. وعند ذلك يكون نبتون على مسيرة ساعتين من الشمس. ويكون هناك أيضا عدد من هباءات أو نقط أخرى أصغر من الأولى كثيرا تتطاير بين هذه الكواكب. أخص بالذكر منها عددا يسمى بالنجيمات Asteroids تدور ما بين المريخ والمشتري. وأحيانًا نعثر على "نَفَس" صغير من البخار والعِثْير المتفاوت في درجة ضيائه زيادة ونقصانًا، حين يدفع بنفسه إلى المجموعة الشمسية قادما من الخلاء الذي وراءه والذي لا تكاد تكون له نهاية. وهذا النفس هو ما نسميه بالمذنب Comet (وكل ما عدا ذلك من الفضاء حولنا وبالقرب منا وإلى مسافات شاسعة لا يمكن قياسها، فهو بارد موات وخال خواء). ويكون بعد أقرب نجم ثابت إلينا (على أساس المقياس المصغر الذي جعلنا فيه الأرض كرة قطرها بوصة والقمر نقطة قدر الحمصة) يكون بعد هذا النجم ٤٠ ألف ميل.. وطبقًا لهذا المقياس المصغر أيضا تكون غالبية النجوم الثابتة التي نراها في السماء على بعد يتراوح بين عشرات الألوف من الأميال في مجموعتنا المصغرة هذه.

ولنرجع بالقول الآن إلى الأرض. إن قطر عالمنا يقل قليلاً عن ٨٠٠٠ ميل. وسطحها مجعد خشن، أبرز أجزائه الخشنة هي الجبال، وعلى الأجزاء المجوفة من سطحها غشاء من الماء يكون المحيطات والبحار. وهذا الغشاء المائي يصل إلى خمسة أميال في أعمق أجزائه، أي إن عمق أعمق المحيطات إنما هو خمسة أميال. وهذا شيء ضئيل جدا إذا قورن بحجم الأرض.

وحول هذه الكرة غشاء رقيق من الهواء هو الغلاف الجوي. وكلما ارتقينا فيه بمنطاد، أو صعدنا خلاله جبلاً فوق مستوى الماء، - قلت كثافة الهواء باستمرار حتى تبلغ حدا لا يستطيع كائن حي معه أن يبقى على قيد الحياة. ولا يكاد يوجد هواء على ارتفاع ٢٠ ميلاً. وأعلى ارتفاع تستطيع أن ترقاه الطيور يقارب أربعة أميال، ويقال إن عقاب الكندور Condor يستطيع أن يجاهد حتى يصل إلى ذلك العلو، بيد أن غالبية الطيور الصغيرة والحشرات التي تؤخذ في الطائرات والمناطيد تفقد وعيها على مستوى أقل من ذلك كثيرا. كما أن أقصى ما وصل إليه أي مرتاد للجبال هو ارتفاع يقارب خمسة أميال. وقد حلق الإنسان بالطائرة إلى ارتفاع يربو على سبعة أميال. كما وصلت بعض المناطيد بما فيها من رجال إلى ما يكاد يقارب سبعة أميال، ولكنهم دفعوا ثمن ذلك آلاما جثمانية شديدة، كذلك أرسلت مناطيد صغيرة للتجارب لا تحمل رجالاً بل آلات تسجيل فوصلت إلى ارتفاع يقارب ٢٣ ميلاً.

ولا توجد الحياة على الأرض إلا في المئات القليلة العليا من الأقدام من القشرة الأرضية، وإلا في البحر والمستويات الدنيا من الهواء التي تقل عن أربعة أميال. ولسنا ندري شيئًا عن وجود أية حياة، عدا تلك التي نراها في هذه الأغشية الرقيقة: أغشية الماء والهواء المحيطة بكوكبنا. وعلى قدر ما وصل إلى علمنا، فإن سائر الفضاء لا يزال إلى الآن خاليا من الحياة. وقد بحث رجال العلم في إمكان وجود الحياة، أو عملية مشابهة لها، على نظائر الأرض من الكواكب، أمثال الزهرة والمريخ. ولكنهم يشيرون مجرد إشارة بسيطة، إلا احتمالات يكتنفها كثير من الشكوك.

(٣)
ما عمر الأرض؟

حسبنا هذا عن الأرض ومركزها في الفضاء. فلننظر إلى الموضوع من ناحية الزمان. يستطيع الفلكيون والجيولوجيون والمشتغلون بدراسة الفيزيقا Physics أن يدلوا إلينا الآن ببعض المعلومات عن أصل الأرض. وهم يرون أنه منذ عصور بعيدة خلت، كانت الشمس كتلة من المادة ملتهبة دوارة، ولم تكن قد تركزت بعد حتى صارت مركزا للحرارة والضوء، كما كانت أكبر كثيرا مما هي عليه الآن، هذا إلى أن سرعتها كانت أعظم كثيرا مما هي اليوم، وأنها تناثرت منها أثناء دورانها السريع قطع انسلخت فأصبح الكواكب. وأرضنا هي إحدى تلك الكواكب. وقد انقسمت الكتلة الملتهبة التي هي مادة الأرض أثناء دورانها إلى كتلتين؛ كانت إحداهما وهي الكبرى هي الأرض، وكانت الثانية – وهي الصغرى – هي القمر الميت الساكن.

ويقدم إلينا الفلكيون براهين مقنعة تثبت زعمهم بأن الشمس والأرض والقمر وكل هذه المجموعة كانت حينذاك تدور بسرعة أعظم كثيرا من سرعتها الحالية، وأن أرضنا كانت بادئ ذي بدء شيئًا ملتهبا لا يصلح للحياة. وهم يطالبوننا بأن نؤمن بأن الشمس وإن كانت لا تزال متوهجة، فإنها أبرد بكثير مما كانت عليه قبل، وأنها تدور أبطأ كثيرا مما سلف، وأنها مستمرة في برودتها وفي بطئها. وهم يظهرون لنا كذلك أن سرعة الأرض تتناقص وسوف تستمر في تناقصها. ومعنى هذا أن طول اليوم عندنا يتزايد شيئًا فشيئًا وأن الحرارة التي في مركز الأرض الباطني تتشعع بالتدريج. وإذن فقد جاء حين من الزمان لم يكن فيه طول اليوم الواحد ليزيد على نصف ما هو عليه الآن أو ثلثه، حين كانت شمس مستعرة بالحرارة وأعظم حجما من شمسنا الحالية، لا تبرح تدور بشكل ملحوظ ظاهر للعين (لو أن هناك عينا كانت ترقبها حينذاك) من مطلعها إلى مغربها أثناء سيرها في كبد السماء. وسيأتي الزمان الذي يصبح فيه طول اليوم معادلاً لطول عام من أعوامنا الحاضرة، وتصبح فيه الشمس الآخذة في البرودة وقد خبت أشعتها – واقفة وسط السماء لا تحيد عن مكانها.

وربما يتساءل بعض القراء قائلاً: ما عمر هذا العالم؟ وهذا سؤال استرعى انتباه عدد عظيم من الناس في السنين القليلة الأخيرة، وقد تدرجت التقديرات الأولى (وكان التفاوت بينها عظيما بادئ الأمر) حتى تقاربت اليوم وأوشكت أن يتفق عليها. ذلك أن علماء الفلك والرياضة الذين يبنون تقديراتهم على معدل البرودة الذي تجري عليه الأجرام السماوية وعلى طرق الإشعاع المختلفة والتغير الذري، يقدرون عمر الأرض منذ أن أصبحت جسما منفصلاً عن الشمس بألفي مليون من السنين، كما يقدرون قرابة ثلاثمائة مليون سنة من الزمن منذ أن تكونت عليها الحياة على أية هيئة ملحوظة الكثرة. فأما عمر الشمس بوصفها نجما فإنه يقدر بحوالي خمسة ملايين مليون سنة. ويقول السير جيمس جينز في كتابه "الكون المحيط بنا": [٣] "إن الأرض سوف تستمر في الغالب لمدة مليون مليون سنة أخرى، تنخفض بعدها درجة حرارتها في المناطق الاستوائية إلى مستوى الدرجات القطبية ولما كان الإنسان لم ينقض عليه إلا ثلاثون ألف سنة أو أقل بوصفه كائنًا اجتماعيا مدركًا لذاته، فإن هذا يتيح له فرصة لا نهاية لها لكي يصل إلى العلم والقوة، وربما أمكنه أن يجعل نفسه سيد الزمان والفضاء قبل أن يصل إلى ذلك الحد بأحقاب طوال."

---

(٣) Sir James Jeanes "The Universe Around Us"

الفصل الثاني

سجل الصخور

١- أول الكائنات الحية.

٢- الانتخاب الطبيعي وتغير الأنواع.

(١)
أول الكائنات الحية

لسنا ندري على وجه التحقيق كيف ابتدأت الحياة على سطح البسيطة. ولقد ارتأى علماء الأحياء في هذا الشأن آراء وتخمينات، ويكاد يكون مجمعا عليه فيما بينهم أن الحياة ابتدأت في مياه ضحلة دفيئة تغمرها أشعة الشمس، وربما كان ذلك في برك ومستنقعات تمتد على شواطئ البحار الأولى. ولعلها اتخذت في ابتدائها شكل مادة مخاطية Slime أو أي شيء مما هو دون الحياة، وتدرجت في بطء وبهيئة غير محسوسة حتى اتخذت لنفسها الصفات المميزة للحياة. وليس على ظهر الأرض في الوقت الحاضر ذلك الصنف من الظروف، الكيماوي منها والفيزيقي، التي بدأت منها الحياة في ظننا. ولا شك أنه لا تحدث الآن بدايات جديدة للحياة. بيد أنه من الممكن أن نستخرج من المواد غير العضوية مواد مخاطية وأغشية تكاد تمثل عن بعد تركيب الأجسام الحية بل تمثل أيضا انتشارها ونموها. وإذا كانت بداية الحياة أمرا طبيعيا لا يد فيه للمعجزات فسوف يأتي يقينًا، ذلك اليوم الذي يستطيع فيه العلماء أن يقلدوا بدءها ويعيدوه. وإلى أن يأتي ذلك اليوم فسيبقى هذا الموضوع من موضوعات الحدس والتخمين إلى حد ما. ولئن كان كثير من علماء الأحياء "البيولوجيا" مقتنعين بأن الحياة ظهرت وسط الظروف اللازمة لها ظهورا طبيعيا لا مناص منه، كما يظهر الجليد حين يبرد الماء تحت الضغط العادي إلى ما دون درجة التجمد، فإن هناك قوما يضارعون الأولين في الذكاء ولهم وجهة نظر مناقضة لوجهة الأولين. وليس ينتظر منا في هذا المقام أن نقضي في هذه القضية بحكم.

ويبدو أن القول بأن الحياة قد ابتدأت بوصفها عملية كيميائية فيزيقية أتت بحكم طبيعة الأشياء والضرورة دون تدخل أي عامل معجز، فكرة بغيضة ترفضها عقول كثيرين من رجال الدين. بيد أن ذلك الرفض ربما يرجع إلى اضطراب تلك العقول أكثر مما يرجع إلى روح لادينية في الفكرة نفسها. فهم يرون أن الحياة هي الروح بمعنى ما، ويعزون للروح كل أنواع الصفات الخلقية، ويناصرونها معارضة لفكرة: "المادة الموات". غير أنه من العسير أن نفهم لِم يرى الناس الحيوان الرخو والفطر السام أو القملة أو النمو السرطاني للطفيلي في لحاء الشجر: لِم يرون أن هذه جميعا "أرقى" – بطريقة خاصة ذات أسرار عجيبة، من العناصر ذات النظام البديع التي تكون مجموعة من البللورات أو جوهرة من الجواهر أو لوحة من الرخام المجزع أو الأشكال البديعة التي تبدو فيها الأمواج تحت الشمس، أو الرمال المتموجة حين تذروها الريح؟ ولماذا ينحاز صانع الكون إلى أشياء دون أخرى؟ ولماذا يفرق بين ما هو غير حي وبين ما يكاد يكون غير حي؟

كان الغلاف الجوي أكثف كثيرا أيام بداية الحياة؛ وكثيرا ما حجبت الشمس غمامات متراصة من السحاب، وكثيرا ما كانت العواصف تظلم وجه السماء. وكانت أرض ذلك الزمان تعبث بها قوى بركانية عنيفة فتدفعها إلى أعلى دفعا، وكانت أرضا جرداء لا نبات فيها، إذ لم يكن عليها تربة. وكانت عواصف المطر التي لا تنقطع تنهال عليها. وتحمل الأنهار والسيول أحمالاً ضخمة من الرواسب إلى عرض البحار لتصبح أوحالاً تجمدت فيما بعد، فأصبحت أردوازا وصخورا ورمالاً، تجمعت فأصبحت خرسانًا.

وقد درس الجيولوجيون كل ما تجمع من هذه الرواسب، كما وجدوها بشكلها الحالي الذي تخلف من أقدم العصور إلى أحدثها. وبدهي أن أقدم تلك الرواسب هي أشدها تشوها وتغيرا، وأكثرها تأثرا بالبلى. وليس فيها الآن أي أثر محقق للحياة. وأكبر الظن أن أقدم أشكال الحياة الأولى كانت صغيرة لينة فلم تترك لنا أي شاهد يدل على وجودها، ولم تتمكن هذه الأحياء من ترك "حفريات" بعد موتها، إلا عندما كون بعضها لنفسه هياكل ومحارات من الكلس وغيره من المواد الصلبة، وبذلك تركت أثرا وسجلات وجودها في السجل الذي نفحصه.

وكُتُب الجيولوجيا هي في معظمها قصة الحفريات التي توجد في الصخور، وشرح للترتيب الذي توجد فيه طبقات بعد طبقات من الصخور ممتدة الواحدة فوق الأخرى. وما من شك في أن أشد الصخور توغلاً في القدم تكونت قبل أن توجد البحار على سطح الأرض، عندما كانت حرارة الأرض أشد من أن تسمح بوجود بحر على وجهها. وعندما كان الماء، الذي هو البحر في وقتنا هذا، غلافًا جويا من الأبخرة المختلطة بالهواء. وكانت أعلى طبقات الجو ملبدة بالغيوم، ومنها كان يتساقط المطر ساخنًا على ما دونه من صخور، فلا يلبث أن ينقلب سريعا إلى بخار قبل أن يصل إلى تلك الصخور المتوهجة بزمن بعيد، وتجمدت مادة العالم المنصهرة تحت هذا الغلاف البخاري فكونت أول الصخور. وما من شك أن هذه الصخور قد تجمدت فأصبحت أشبه شيء بالكعكة من فوق مادة وهاجة هائلة دونها – على النحو الذي يحدث في الحمم Lava التي أخذت تبرد، ولابد أن هذه قد ظهرت بادئ أمرها في هيئة القشرات والأحجار المحروقة المتماسكة Clinkers ولا بد أنها قد مرت عليها أدوار من الانصهار والتبلور، قبل أن تصل إلى درجة من السماكة تجعل جمودها أمرا مستديما. ويطلق اسم "النيس الأساسي Fundametol Gneiss" على مجموعة عظيمة من صخور متبلورة تدخل تحت ذلك الجنس، تكونت في عصر بعد عصر في الوقت الذي كان فيه شباب الأرض الحار قد قارب نهايته، ولابد أن مناظر العالم إبان تكون هذا النيس الأساسي كانت أقرب إلى باطن تنور كهربائي منها إلى أي شيء آخر تراه على ظهر البسيطة في وقتنا هذا.

وبعد عصور طويلة أخذ البخار الذي في الجو يتكثف هو الآخر ويسقط على الأرض ويتدفق في آخر الأمر على هذه الصخور البدائية القديمة الساخنة في صورة جداول من الماء الساخن، لا تلبث أن تتجمع في المنخفضات وتكون البرك والبحيرات والبحار الأولى. وإلى هذه البحار حملت الجداول التي تسير على وجه الصخور كثيرا من التراب والجزيئات وألقتها فيها فكونت طبقة من الرواسب. وتجمعت هذه الرواسب فيما يسميه الجيولوجيون: الطبقات Strata وبذلك تكونت الصخور الطباقية أو الرسوبية الأولى. ثم هبطت تلك الصخور الأولى في المنخفضات وغطتها أخرى – ونالها من الاضطرابات البركانية الشيء الكثير من اللي والرفع والتمزيق، كما نالها مثل ذلك من جراء الضغط الداخلي الذي كان يسير كالموج في قشرة الأرض الصخرية. فنحن نرى هذه الصخور الرسوبية الأولى وهي لا تزال تظهر على سطح الأرض هنا وهناك، إما لأنها لم تغطها طبقات أخرى أو لأنها تعرت بعد أحقاب سحيقة من تغطيتها بسبب زوال الصخور التي جاءت فغطتها فيما بعد. وتوجد مساحات عظيمة من هذا النوع في كندا على الأخص، نجدها مشقوقة وملتوية ومصهورة انصهارا جزئيا من جديد، ثم نراها قد عادت ثانية إلى تبلورها الأول، ثم صلبت وانضغطت، ولكنها يمكن معرفتها على حقيقتها. وهي لا تحوي أثرا واحدا للحياة موثوقًا به.

ويطلق عليها العلماء في العادة اسم "الصخور الآزوية" Azoic (أي التي لا حياة فيها). ولكن لمـا كـان بعض هذه الصخور الرسوبية الأولى محتويا على مادة تسمى "الجرافيت أو الرصاص الأسود"، كما يوجد فيه أوكسيد الحديد بنوعيه الأحمر والأسود، ولما كان الناس يزعمون أن هذه المواد يحتاج إنتاجها إلـى نشـاط الكائنات الحية، وهو أمر لا ندري هل حدث أم لم يحدث، فإن بعض الجيولوجيين يميل إلـى تسـمية هـذه الصخور الرسوبية الأولى بالأركيوزوية (Archaeozoic) (أي التي فيها الحياة البدائية جدا). وهم يظنون أن صور الحياة الأولى كانت في مادة حية هلامية لم يكن لها محار أو هياكل عظمية أو أي نوع مـن تركيـب مماثل يمكن بقاؤه بعد مماتها في شكل حفرية يمكن تمييزها، وإنما بقي لها أثرها الكيمياوي الذي كان سببا في ترسيب الجرافيت وأوكسيد الحديد. وهذا ولا ريب مجرد حدس. وهناك على الأقل احتمال يعادل هـذا فـي القوة، مداره أنه في أيام تكون الصخور الآزورية لم تكن الحياة قد بدأت بعد.

وفوق هذه الصخور الأزورية أو الأركيوزوية، أو متداخلة فيها، تأتي صخور أخرى لا شك فـي قـدمها، وقد عبث الزمان بها، وهي تحوي فعلاً آثارا للحياة. وهذه البقايا الأولى من أبسط الأنواع، فهي بقايا نباتـات بسيطة تسمى الطحالب Algae أو آثار تشبه الأثر الذي تتركه الديدان في مسيرها في طين البحر. هذا إلـى هياكل مخلوقات دقيقة جدا تسمى حيوانات متشععة Radiolaria، وهذه السلسلة الثانية من الصخور تسـمى بالصخور البروتيروزوية Proterozoic (أي التي تحوي مظاهر الحياة الأولى) وتدل على عصر طويل في تاريخ العالم.

ومن فوق الصخور البروتيروزوية تمتد سلسلة أخرى وجدت محتوية عددا جسيما وأضربا [٤] كثيرة مـن آثار الكائنات الحية. فهناك أولاً ما يدل على وجود أنواع متعددة من الأسماك الدرقية وأبى جلمبو وما إليه من الأشياء الزاحفة والديدان، والأعشاب البحرية وما شاكلها، ثم أنواع كثيرة من الأسـماك. وبدايـة النباتـات والحيوانات البرية، وتعرف هذه باسم الصخور (الباليوزوية) Palaeozoic (أو صخور الحياة القديمة). وهي تميز حقبة هائلة كانت فيها الحياة تنتشر في بطء وتتزايد وتتطور في بحار عالمنا هذا. فلم يكن يحـدث فـي الدنيا خلال عصور طويلة، وإبان العصر الباليوزوي الأول، سوى تكاثر هذه المخلوقات السابحة والزاحفـة في الماء. فكانت هناك مخلوقات تسمى بالترايلوبيت Trilobites؛ وهي أشـياء زاحفـة تشـبه نوعـا مـن (الحيوانات القشرية) أو السوس الكبير Wood-lice، وأكبر الظن أنها لها علاقـة بـأبي جلمبـو الضـخم الأمريكي الذي يعيش في زماننا هذا. وكذلك كانت هناك عقارب بحرية هي "سيدة" ذلك العالم القديم. وبلغـت أنواع معينة منها تسعة أقدام طولاً وكانت تلك هي أعلى أصناف الحياة رتبة، وكانت هناك أنواع مختلفة جمة العدد من طبقة من الحيوانات الصدفية الرخوة تسمى ذوات الأرجل الذراعية (براكيوبـود Brachiopods). وثمة أصناف أخرى من حيوانات نباتية ثابتة في مكانها ومتصلة بعضها ببعض كما تتصل النباتات، وأعشاب منفصلة مرسلة تتموج في الماء.

---

(٤) أضرب ج ضرب: Variety

ولم يكن كل ذلك منظرا جميلاً للحياة يستثير منا الخيال. فلم يكن هناك شيء يستطيع أن يجري، أو يطير، أو حتى يسبح في سرعة أو مهارة. ولولا ما لحجم بعض المخلوقات من ضخامة لما اختلفت تلك الحياة كثيرا، بل ولقلّت أنواعا – عما يجمعه الطالب من إحدى البرك في يوم دافئ، من أنواع الكائنات الحية ليقوم بفحصها تحت المجهر.

تلك هي الحياة في البحار الضحلة إبان عشرين مليونًا – أو ربما مائة مليون من السنين أو تزيد قليلاً في ذلك العصر الباليوزوي القديم. ويبدو أن الأرض كانت خلال تلك المدة قاحلة قفرا. فنحن لا نرى فيها أثرا أو أية إشارة للحياة على البر. فكل ما كان يعيش في ذلك الزمان كان يعيش تحت الماء، إما جل حياته أو كلها. وانقضت عصور يهز طولها الخيال هزا عنيفًا، كان كل ما فيها على البسيطة من حياة هو ما ذكرنا. وقبل ذلك الوقت استمرت الأرض تدور حارة قفرا خلوا من الحياة مدى ملايين السنين.

وبين عصرنا الحاضر والمدة التي تكونت فيها هذه الصخور الباليوزوية السفلى التي كانت عقارب البحر والتريلوبيت تتبوأ فيها مكان الصدارة، مرت عصور لا تكاد تدخل تحت حصر، تمثلها على الأرض طبقات وكتل من الصخور الرسوبية. فهناك أولاً الصخور الباليوزوية العليا، ويميز الجيولوجيون من فوقها قسمين عظيمين. فالصخور الباليوزوية تتلوها الصخور الميزوزوية أي (صخور الحياة الوسطى)، وهي مجموعة هائلة من الصخور الحاوية للحفريات وربما كانت تمثل مائة مليون من الأعوام مرت سراعا. وهي تحتوي طائفة عجيبة من بقايا الحفريات ومن عظام الزواحف الجبارة وما شابهها وسنصفها بعد قليل. ثم تجيء الصخور الكاينوزوية Cainozoic (أي صخور الحياة الحديثة)، وهي السفر الثالث العظيم من أسفار تاريخ الحياة، وهو سفر لم يتم بعد فصولاً؛ يكون فيه آخر ما سطره القدر من صفحات التاريخ كل من الطمي والرمل اللذين حملتهما أنهار العالم إلى البحر بالأمس فغطت بهما العظام وقشر السمك وحراشفه وطمرت بها الأجسام والآثار التي ستغدو كلها حفريات تمثل الكائنات التي تعاصرنا.

إن تلك العلامات والحفريات الموجودة في الصخور، بل تلك الصخور نفسها، هي أولى الوثائق التاريخية. وتاريخ الحياة الذي فك الناس ألغازه ولا يزالون يفكون ألغازه، يسمى "سجل الصخور". ولا يتخيلن القارئ أن هناك أي أثر للعناية الضرورية المألوفة في تنظيم السجلات، عندما يسمعنا ندعو هذه الصخور سجلاً وتاريخًا. فكل الذي نقصده أن أي شيء يحدث في العالم يترك من خلفه بعض الأثر الذي لا نستطيع أن نفهمه إلا إذا أوتينا من الذكاء ما يسمح لنا أن نلحظ معناه. أضف إلى ذلك أن صخور العالم ليست طبقات مرتبة إحداها فوق الأخرى، ترتيبا ييسر على الإنسان جهد قراءتها. فهي لا تشبه الكتب ولا الصفحات في أية مكتبة، بل هي ممزقة مهلهلة، مقذوفة، مقطوعة أو مدفونة هنا وهناك، وقد زالت معالمها. فهي أقرب شيء بمكتب عمل سيئ النظام بعد أن أصابته على التوالي قذائف المدافع وعبثت به يد احتلال عسكري معاد؛ ونالت منه يد السالبين؛ وصدعه زلزال وأصابه شرر فتنة عنيفة، واشتعلت به النيران. ولبث الناس يطئون سجل الصخور ذاك وهم لا يشعرون به مدى أجيال لا تحصى. وكانت الحفريات معروفة عند الإغريق الأيونيين في القرن السادس قبل الميلاد، وتناقش فيها (إيراتوس ثنيز Eratosthenes وغيره بالإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد، وهو نقاش لخصه استرابون (Strabo) في كتاب "الجغرافيا" الذي ألفه (سنة ٢٠؟ -

١٠ ق.م) وكان الشاعر اللاتيني أوفيد (Ovid) ملما بها، بيد أنه لم يفهم كنهما. فزعمها أول جهـود القـوة الخالقة وأبسطها – كذلك لحظها كتّاب العرب في القرن العاشر الميلادي. وكان ليوناردو دافنشي، وهو ممن عاشوا في زمن قريب جدا هو مفتتح القرن السادس عشر (١٤٥٢ – ١٥١٩) من أوائل الأوروبيين إدراكًا لما تدل عليه الحفريات بحق، ولكن الإنسان لم يقم بسلسلة أبحاثه ومحاولاته المتصلة لحل ألغاز تلك الصـفحات الأولى من تاريخ العالم إلا في المائة والخمسين سنة الأخيرة من الزمان، كما قلنا من قبل.

(٢)

الانتخاب الطبيعي وتغير الأنواع

لم نحصل في الفصل السابع على تعريف واضح للحياة. ولعله يحسن بنا أن نسطر في وضوح بعض حقائق عامة عن هذا الشيء الحديث، الذي كان يزحف في المياه الضحلة ومناطق الطين المعرضة للمد والجزر في العصر الباليوزوي الأول، والذي ربما اقتصر أمره على كوكبنا وحده في كل هذا الفضاء الذي لا حد له.

وللحياة مظاهر عامة تميزها عن كل الأشياء التي لا حياة فيها، أيا كانت تلك الأشياء. ومن المعلوم أن بين الكائنات الحية اليوم فروق تستثير أشد العجب. بيد أن جميع الكائنات الحية، ماضيها وحاضرها، تتفق في أن لها "مقدرة معينة على النماء"، وكل الكائنات الحية "تتغذى" وكل الكائنات الحية "تتحرك" من مكانها بينما هي تأكل وتنمو، وإن لم تزد الحركة على انتشار الجذور في الأرض أو امتداد الأغصان في الهواء. زد على ذلك أن الكائنات الحية تتكاثر، فهي تنتج أشياء حية أخرى مشابهة لها إما بالنماء، ثم الانقسام أو بوساطة البذور أو الأبواغ Spores أو البيض. أو بغيرها من وسائل إنتاج الصغار. فالتكاثر من مميزات الحياة.

وما من كائن حي يبقى حيا إلى الأبد. والظاهر أن هناك "حدا" لنمو كل صنف من أصناف الكائن الحي. وقد يحدث أن ينمو الفرد ثم ينقسم انقساما تاما إلى فردين جديدين – كما هي الحال في الأشياء الدقيقة البسيطة مثل الحبيبات [5] الميكروسكوبية الحية المسماة بالأميبا. وربما عاد ذانك الفردان إلى الانقسام بدورهما. ويعيش كثير من المخلوقات وقتًا ما، وينمو، ثم يسكن، ولا يتحرك إلى حين، ويختبئ في غلاف خارجي ثم ينقسم انقساما كليا إلى عدد من أجسام أو خلايا أصغر منه وهي أبواغ لا تلبث أن تخرج من غلافها أو تتناثر ثم تنمو إلى ما كانت عليه حال أسلافها. فأما بين الكائنات الأكثر تعقيدا فليس التكاثر في العادة تقسيما بمثل هذه السهولة وإن كان الانقسام يحدث فعلاً حتى في حالات مخلوقات كثيرة يبلغ من كبرها أن ترى بالعين المجردة. بيد أن القاعدة السارية على جميع الكائنات الكبرى تقريبا هي أن الفرد ينمو حجما إلى حد معين، وقبل أن يصبح ثقيلاً ضخم الجثة يقل نماؤه. وعندما يصل إلى أقصى حجم له ينضج ثم يأخذ في إنتاج الصغار. وهذه إما أن تولد حية أو ينقف عنها بيض. ولكن جسمها كله ليس هو الذي ينتج الصغار وإنما يقوم بهذا العمل جزء منه. وبعد أن يعيش الفرد وينتج النسل ردحا من الزمان تراه يهرم ويموت، وهو يفعل ذلك خضوعا منه لنوع من الضرورة. فهناك حد لحياته كما أن هناك حدا لنمائه وتنطبق هذه الأمور على النبات انطباقها على الحيوان، وإن لم تصدق على ما يخلو من الحياة من أشياء. أجل إن الأشياء الخالو من الحياة كالبلورات مثلاً تنمو ولكن ليس هناك حدود تحدد نموها وحجمها، وهي لا تتحرك من تلقاء نفسها، وليست بها حركة داخلية. فإذا تكونت البلورات يوما، فلعلها تظل لا يداخلها تغير أمد ملايين عدة من السنين. وليس هناك تكاثر لأي شيء غير حي.

---

(5) الحبيبات Blobes

ويؤدي نمو الأشياء الحية وموتها وتكاثرها على هذا النمط إلى نتائج عجيبة غاية العجب. فالصغار التـي ينتجها الكائن الحي تشبه آباءها إما مشابهة مباشرة وإما بعد أن تمر في أطوار وسطى من انتقـال وتغيـر، وذلك مثلما يحدث من تحول اليسروع(٦) إلى فراشة. ولكنها لا تحمل قط شبه آبائها بالضبط ولا هي فيما بينها متشابهة تماما. بل إن بينها فروقًا طفيفة نسميها نحن "بالفردية Individuality ". فألف من الفراشات في هذا العام قد ينتج في العام القادم عددا أكبر من هذا كثيرا، وتبدو لنا هذه الأخيرة مشابهة لأسلافها تمـام الشـبه تقريبا، ولكن لابد لكل واحدة منها من وجود ذلك الفرق الطفيف نفسه. ومن العسير علينا أن نرى الفردية في الفراشات، لأننا لا نلاحظها ملاحظة دقيقة جدا. ولكن من اليسير علينا أن نراها بين الناس. فجميع الرجـال والنساء الذين يعيشون في العالم الآن ينحدرون من رجال العالم ونسائه الذين عاشوا فيه سنة ١٨٠٠م. ولكن ما من واحد منا الآن يشبه تمام الشبه أي واحد في ذلك الجيل الزائل. وما عساه يصدق على الرجال والفراش يصدق على كل أنواع الكائنات الحية، وينطبق على النبات كما ينطبق على الحيوان؛ فكل نـوع يغيـر كـل فردياته في كل جيل. وهذا القول يصدق على المخلوقات الدقيقة التي احتشدت في العالم وتوالدت وماتت فـي بحار العصور الأركيوزوية والبروتيروزوية، صدقه على الناس في هذا العصر. فكل نوع من أنواع الكائنات الحية يموت بغير انقطاع ثم يعود فيولد من جديد في صورة حشد من الأفراد الجدد.

فتأمل إذن ما لا بد أن يحدث لجيل جديد من أي نوع من أنواع الكائنات الحية. فإن بعض الأفراد سـوف يكون أقوى من سائرها وأصلب عودا وأحسن استعدادا للنجاح في الحياة في ناحية ما، وسيكون بعضها الآخر أضعف أو أقل استعدادا، وليس بمستبعد أن يصيب الحظ أو الصدفة بعض حالات خاصة مفردة. ولكن الـذي يحدث بصفة عامة هو أن يعيش من الأفراد أحسنها استعدادا، وأن تنمو وتتكاثر، كما يحدث فـي العـادة أن يهوي الأضعف ويوطأ بالأقدام، إذ يكون أقل مقدرة على الحصول على القوات وعلى مقاتلة عدوه ومواصلة حياته. فكأنما يحدث في كل جيل نوع من التصفية وعلى ذلك ففي كل جبل كما ترى، يندفع النوع المنتقى إلى أعلى، ويفرز الضعفاء غير الصالحين، ويفضل عليهم الأقوياء الصالحون. وتسـمى هـذه العمليـة عمليـة "الانتخاب الطبيعي" أو "بقاء الأصلح" وإن كان اسم "بقاء أصلح الاثنين" أدق تعبيرا.

ويترتب على كون الأشياء الحية تعيش وتنتج وتموت أنه ما دامت الظروف المحيطة بأي نوع ثابتـة لـم تتغير، فإن صلاحيته تزداد اكتمالاً شيئًا فشيئًا، في تلك الظروف كلما تجددت الأجيال.

على أن الظروف لا تبقى على حالها، فكل نوع يعيش في ظروفه على شيء من القلق. ذلك بأن "التكيف" ناقص على الدوام بل هو في بعض الحالات شديد النقص. ومما يعين الحياة على المواءمة بين نفسها وبـين مستلزمات الظروف أن تبدو الفينة بعد الفينة أشياء جديدة في التركيب، وهي فروق فجائية ملموسـة تسـمى "بالنشوء أو التحولات الفجائية أو الطفرات Mutations " وهي فروق تزيد كثيرا على الفرق العادي الفردي، وقد تكون هذه الطفرات (التحولات الفجائية) عبئًا على الحيوان أثناء كفاحه في سبيل الحياة، وقد تكون عونًـا له على هذا الكفاح وقد لا تؤثر قط فيما يعرض للحيوان من ظروف الحياة ومصادفاتها. فتـرى الانتخـاب

(٦) اليسروع Caterpillar .

الطبيعي ينبذها في الحالة الأولى – وتراه يرحب بها ويشجعها في الثانية، وقد تنتشر في الثالثـة فـي نـوع بأكمله لا يعترضها معترض، وتمثل مظاهر لا هي بالمفيدة ولا هي بالضارة، بل هي تغيـر ذاتـي تلقـائي. ولسنا نعرف حتى الآن للطفرات سببا، وكل ما نعرفه هو أن الحياة تواصل التجريب على هـذا النحـو. وأن تجاريبها تعرض على محك الانتخاب الطبيعي ليوافق على التعديل ويثبته مرة أو لا يهـتم بـه، أو يزيلـه. والظاهر أن الطفرة نفسها إنما هي عملية تأتي بمحض الصدفة، فربما تصيب الطفرة حاجة الوقت الماسـة، وربما تكون خروجا عقيما عن السياق، وربما كانت تغيرا سخيفًا، وهي في الحالة الأخيرة تنتج "أحد عجائب المخلوقات" التي تموت. وفي الحالة الأولى تنتشر في أفراد النوع. وطريقة انتشارها التي شرحها الأب "مندل Mendel" أطول من أن يحتملها المقام ويراها القارئ واضحة الشرح في كتاب "علم الحياة" [٧]. وهو رفيـق هذا الكتاب.

ولنفرض مثلاً أن حيوانًا صغيرا ذا فراء لونه بني مبيض يعيش في أرض قارسة البرد يكسوها الثلج على الدوام، إن أفراده التي تحمل أثقل الفراء وأشده بياضا، أقلها تأذيا بالبرد وأقلها تعرضا لأنظار أعدائها، وأقلها ظهورا لفرائسها حين تخرج باحثة عنها. فهذا النوع يزداد فراؤه غزارة وينصع بياضه في كل جيـل جديـد حتى يصل إلى حد لا تجدي معه الاستزادة من الفراء.

ثم تصور أن قد حدث تغير في المناخ يدخل الدفء إلى ذلك الإقليم ويمحو منه الثلوج، فيجعل المخلوقات البيضاء شديدة الوضوح في معظم أجزاء السنة والفراء الثقيل عبئًا على حامله؛ فكل فرد يحمل في فرائه ظلاً من اللون البني مع خفة شعره يجد نفسه متفوقًا على غيره، ويكون الفراء الأبيض ثقيلاً وكلا على أصـحابه. فترى الانتخاب الطبيعي يستمسك ويرحب بكل ما يلائمه من طفرات تنشأ في عصور المحن والنوازل، فترى الأبيض يقتلع ويتغلب الأسمر في كل جيل. فإذا حدث هذا التغير في المناخ بسرعة جد عظيمة ولم تصـادفه طفرات ملائمة فإن النوع يبيد. وأما إذا ظهرت طفرات من صنف مساعد وتهيأ لها الزمن الكافي للانتشـار بين النوع انتشارا واسعا، فإن النوع وإن مر عليه بعض الزمان العسير ربما استطاع أن يكيف نفسـه جـيلاً فجيلاً، وهذا التغيير والتكييف يسمى "تعديل الأنواع Modification of Species ".

وقد لا يحدث هذا التغير في المناخ في كل الأرض التي يسكنها النوع. وقد يحدث مثلاً في جانب واحد من جوانب أحد خلجان البحر العظيمة أو يحدث في ناحية واحدة دون الأخرى من سلسلة جبال أو ما شابهها من الفواصل. وقد ينحرف تيار دفيء في المحيط كتيار الخليج، ويسير فيدفئ جانبا من الحاجز ويتـرك الآخـر يقاسي شدة البرد. وعند ذلك يستمر النوع في الجهة الباردة حتى يصل إلى أقصى غايته مـن ثقـل الفـراء وبياضه، بينما هو في الجهة المقابلة متعدل متجه إلى اللون البني وإلى خفة الغلاف.

---

(٧) The Science of Life المؤلف راجع المقدمة

ولسوف تصحب هذه التغييرات تغيرات أخرى في نفس الوقت فيما يرجح؛ فقد تشجع الظروف فارقًا فـي المخالب ها هنا، وتحاربه هناك، لأن نصف النوع يداوم النبش في الثلج بحثًا عن طعامه بينما النصف الآخر مستمر في الهرب من أعدائه فوق الأرض السمراء. ومن الراجح أيضا أن تنتج فروق المناخ، فروقًـا فـي الطعام الذي يمكن الحصول عليه، وهذا يؤدي إلى فروق في الأسنان والجهاز الهضمي، وربما حدثت تغيرات في غدد العرق والدهن في الحيوان تبعا للتغيرات التي أصابت الفراء، وهذه بدورها تؤثر في أعضاء الإفراز في الجسم، وفي كل كيمياء البدن الداخلية؛ وهكذا يستمر التغير في كل تركيب المخلوق. وربما جاء الوقـت الذي يصبح فيه هذان الصنفان المنفصلان لهذا النوع الذي كان فيما مضى نوعا واحدا، بعيدي الشبه بسـبب تراكم الفروق الفردية وفروق الطفرات، إلى حد أن يصبحا نوعين مختلفين يمكن تمييز أحدهما عن الآخـر. ويسمى هذا الانقسام في النوع على طول الأجيال إلى نوعين أو أكثر باسم "تمايز الأنواع" [٨].

ويجب أن يعلم القارئ علم الوضوح – وقد وهب هذه الأصول الأولية عن الحياة، وعما بهـا مـن نمـاء وموت، وتناسل مع التغير من الفرد والطفرة، في عالم دأبه التغير – أن الحياة لابد لها أن تتغير علـى هـذا النحو، وأنه "لابد" من حدوث تعديلات وتمايزات بين الأنواع، وأنه "لا بد" من اختفاء أنـواع قديمـة، ومـن ظهور أخرى جديدة ولقد ضربنا لك ها هنا مثلاً حيوانًا مألوفًا، ولكن ما يصدق على الحيوان الفرائـي بـين الثلج والجليد يصدق على الحياة بأجمعها، كما يصدق على الهلاميات الطرية Jellies والبدايات البسيطة التي دامت تسبح وتزحف مئات الملايين من السنين بين مستويات المد وفي مياه البحار البروتيروزويـة الدفيئـة الضحلة. كانت كلها في حال من التبدل والطفور. وكانت تعيش في عالم حافل بالتغيرات يستحثها على كثيـر من تبديلاتها وطفراتها.

ولا بد أن تكون قد تعدلت وتنوعت تلك الحياة المبكرة التي عاشت في ذلك العالم المبكر، عنـدما كانـت الشمس المحتدمة تشرق وتغرب في ربع الوقت الذي تستغرقه الآن ليس غير، وعندما كانت البحـار الدفيئـة تبسط مدها العظيم على الشواطئ الرملية والطينية المحيطة بالأراضي الصخرية، وعندما كان الهواء محمـلاً بالسحاب والبخار؛ ولا بد أن الأنواع قد تطورت بسرعة عظيمة، وأكبر الظن أن الحيـاة كانـت عنـد ذاك سريعة قصيرة كما كانت الأيام والسنون، وكانت الأجيال التي كان الانتخاب الطبيعي ينتقيها يخلـف أحـدها الآخر في تعاقب سريع.

وعملية الانتخاب الطبيعي أبطأ في الإنسان منها في أي مخلوق آخر، فإن الأوربي الغربي العادي يستغرق عشرين سنة أو تزيد قبل أن يكتمل نموه ويتناسل، بينما الجيل الجديد في معظم الحيوانات يؤدي واجبه فـي سنة أو أقل. أما الحيوانات البسيطة الدنيئة التي ظهرت أولاً في البحار الأولى فيرجح أن نموها وتناسلها كانا أمرا لا يستغرق سوى ساعات قليلة وجيزة، بل لعله لم يكن يستغرق أكثر من دقائق قليلة وإذن فقـد كانـت تعديلات الأنواع وتمايزاتها بلا شك سريعة سرعة عظيمة، وقد تطورت الحياة فاستحدثت أضربا كثيرة مـن كائنات ذات أشكال متباينة تباينًا كبيرا قبل أن تشرع تترك آثارها في الصخور.

---

(٨) Differentiation of Species: هو التمايز أو التفرق.

وعلى ذلك فإن سجل الصخور لا يبدأ بأية مجموعة من تلك الأشكال الوثيقة الصلة بعضها ببعض التي انحدرت عنها كل المخلوقات التالية والموجودة الآن. ويبدأ هذا السجل في "البحر" حيث كانت تتمثل الأقسام الرئيسية "للمملكة الحيوان" كلها تقريبا. فالنباتات كانت وقتئذ نباتات كما كان الحيوان حيوانًا.

كانت ذوات الأرجل الذراعية Brachiopods قد احتلت أصدافها، وكانت تأكل من أنواع الطعام ما يأكله اليوم أنواع المحار، وكانت العقارب المائية الكبيرة تزحف بين أعشاب البحر وتتكور التريليوبيت كورا، ثم تنتشر وتمرق مروق السهام. ويرجح أن ذلك الطين القديم كان غنيا بالأحياء من أنواع "الإنفيوزوريا" أعني النقيعيات وما إليها، غنى يشبه ما تجده في أي قطرة من قطرات مياه البرك في يومنا هذا. وكانت في المحيطات كثرة من الكائنات الدقيقة: شبه الشفافة [٩] وكثيرا ما كانت متألقة (فوسفورية الوميض Phosphorescent)، على أن الأرض فيما يعلو المد العالي كانت لا تزال على ما نظن قفرا حجريا لا أثر فيه للحياة.

---

(٩) Trans Incent.

الفصل الثالث

الحياة والمناخ

١ - الحياة والماء. النباتات المائية.

٢- أقدم الحيوانات البرية.

٣- لماذا يجب أن تتغير الحياة على الدوام.

(١)
الحياة والماء

وجدت الحياة حيثما امتد سيف البحر، وسارت تلك الحياة في الماء وبجوار الماء ومع الماء، وكان الماء موطنها ومثواها ووسطها الذي تعيش فيه، وكانت بها إليه حاجة عظمى جوهرية.

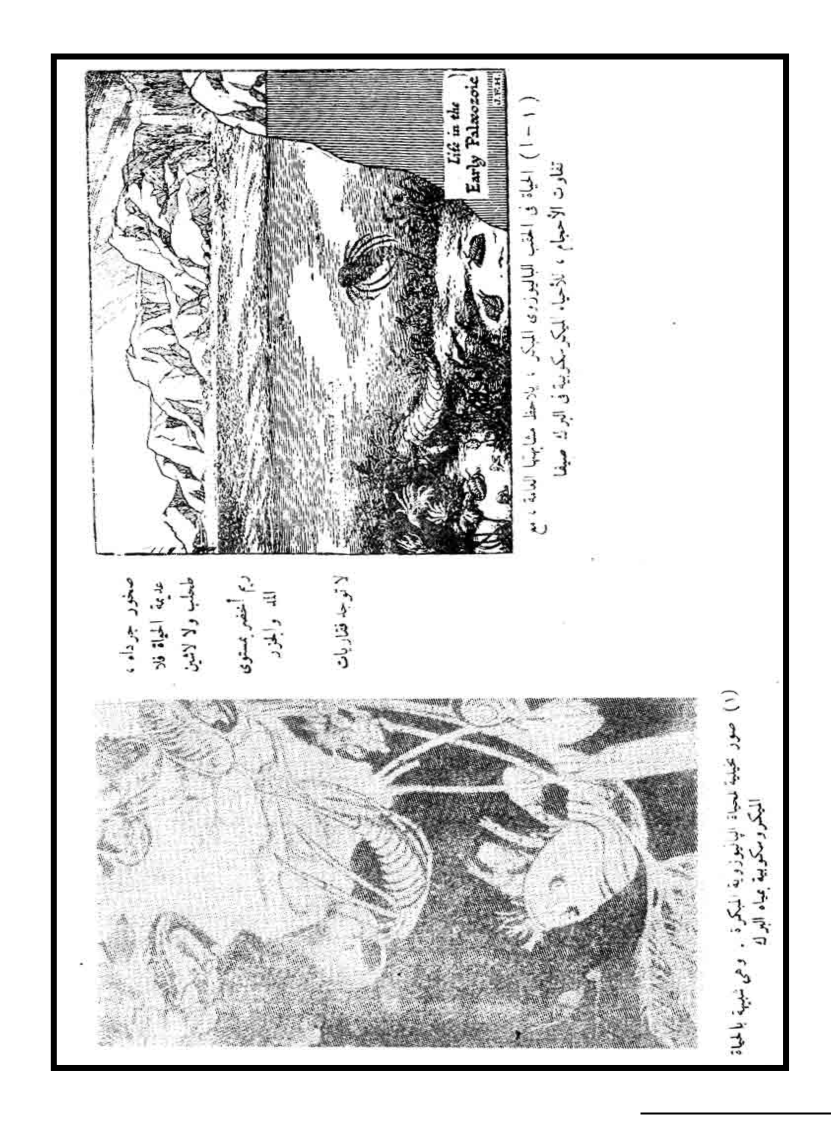
ولا شك أن بدايات الحياة الشبيهة بالهلام كانت تهلك كلما خرجت من الماء كما يجف السمك الهلامي ويهلك على شطوط بحارنا في وقتنا هذا، وكان هذا الجفاف أشد الأشياء فتكًا بالحياة في تلك الأيام. ولم يكن لديها بادئ الأمر ما يقيها شره.. ولكن ذلك العالم المكون من البرك وشآبيب المطر والبحار الضحلة والأمداد[١٠]، كان أي تبدل يمكن الكائن الحي من أن يصمد فيه ويحتفظ برطوبته أثناء ساعات الجذر أو الجفاف يقابل بالتشجيع من جميع ظروف ذلك الزمان. ولا بد أن خطر التخاف على الشاطئ كان محدقًا بالكائنات الحية على الدوام، بينما اضطرت الحياة من الناحية الأخرى أن تلتزم القرب من الشواطئ والسواحل والمضاحل، لاحتياجها إلى الهواء (الذائب بالطبع في الماء) وإلى الضوء.

وما من مخلوق يستطيع أن يتنفس، وما من مخلوق يستطيع أن يهضم طعامه بغير الماء، ونحن نتكلم عن تنفس الهواء، على حين أن ما تفعله كل الكائنات الحية هو أن تستنشق الأوكسجين الذائب في الماء. فالهواء الذي نستنشقه نحن أنفسنا يجب أن يذوب بادئ بدء في رطوبة رئاتنا. ويجب أن يتحول طعامنا إلى سائل قبل أن يمكن تمثيله. فأما الحيوانات المائية التي تعيش تحت أطباق الماء على الدوام فإنها تحرك خياشيمها المعرضة للماء تمام التعرض والتي بها تتنفس، ثم تستخلص من الماء الهواء الذائب فيه. ولكن المخلوق الذي يتعرض مدة من الزمان أيا كان طولها خارج الماء يجب أن يكون له في جسمه وجهازه التنفسي ما يقيه شر الجفاف. فقبل أن تستطيع أعشاب البحر أن تزحف إلى خارج البحار "الباليوزوية الأولى"، إلى خط الشاطئ المعرض للمد والجزر، تحتم عليها أن تكون لنفسها جلدا خارجيا أصلب وأخشب مما لها يحفظ عليها رطوبتها. وقبل أن يستطيع سلف العقرب المائية أن يظل حيا إذا تخلف عن المد، تحتم عليه أن يكون لنفسه غلافًا ودرعا لوقايته. والراجح أن التريلوبيت حين كونت غلافها الخشن، وتكورت كورا، لم يكن هذا بقصد وقاية أحدها من الآخر أو مما عساه يكون لها من أعداء، بقدر ما كان وقاية لها من الجفاف. وعندما تظهر لنا الأسماك – وهي أولى الحيوانات الفقارية قاطبة – بمجرد انحدارنا من الصخور (الباليوزوية) يتجلى لنا أن عددا منها قد تكيف بحيث أصبح قادرا على أن يواجه خطر الجنوح (الشحوط) أو التخاف المؤقت، وذلك بوقاية خياشيمه بالأغطية وبنوع من الرئة البدائية ومثانة السباحة.

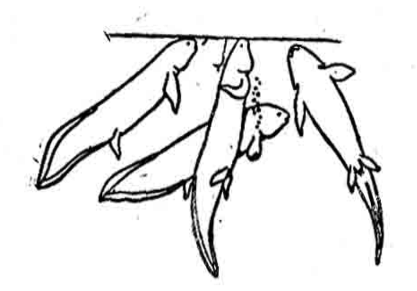
---

(١٠) جمع مد.

وفي ذلك الوقت أخذت الأعشاب والنباتات التي كانت تكيف نفسها لظروف يتناوب عليها المـد والجـزر، تنقل نفسها إلى منطقة أسطع ضياء. والضوء ضروري وثمين جدا في حياة كل النباتات. وكان كل تطور في تركيبها من شأنه أن يجعلها صلبة وينهض بها في وجه الضوء حتى لتسـتطيع أن تقـف منبسـطة ممتـدة الأطراف بدلاً من أن تنقبض وتنكمش عندما ينحسر الماء عنها – يكون ميزة عظيمة لهـا. وهكـذا نجـدها تتطور فتنتج الألياف Fibers والدعامة التي تعتمد عليها وبداية "الألياف الخشبية". وكانت النباتـات الأولـى تتناسل بالأبواغ الطرية أو الأمشاج [١١] النصف الحيوانية التي كانت تطلق في الماء ويتولى توزيعها المـاء، ولم يكن لها من مكان تنبت فيه إلا تحت الماء. وكانت النباتات الأولى مرتبطة بالماء ارتباط النباتات الـدنيا الآن به بحكم ظروف دورة حياتها. وكانت هناك أيضا ميزة عظيمة في هذه الحالة تترتب على إنتاج الأبواغ لبعض وسائل الوقاية من الجفاف وتدرعها بها، وهذا يساعد على حدوث التناسل دون الانغماس فـي المـاء. وما إن استطاع نوع من الأنواع أن يفعل ذلك حتى تهيأ له أن يعيش ويتناسل وينتشر فوق مستوى حد المياه العالي، سابحا في الضياء، بعيدا عن منال لطمات الأمواج وصدماتها. وتدلنا الأقسام الرئيسية التي تميزت بها النباتات الكبرى وتفصلت فصولاً، على وجود مراحل تحررت بها الحياة النباتية من ضرورة الانغماس فـي الماء.



([١١]) Oametes: أمشاج: هي خلايا التكاثر الجنسية



(٢) السمك الرئوى الأستر الى يتنفس الهواء الجوى



جو بخارى

أشجار سرخسية وطحالب
مروحة وأشجار شبه
صنوبرية

لا توجد نباتات زهرية

(٣) الحياة فى الحقب الباليوزوى المتأخر
إحدى غابات المستنقعات فى العصر الكربونى ، وترى فيها الحياة زاحفة
من الماء . وتظهر فيها حشرة كالرعاش ،وكان بهذه المستنقعات برمائيات
مثل السمندل المائل والسمندر بل حتى زواحف بدائية

بتطور السند الخشي وظهور وسيلة للتناسل، تزداد قوتها شيئًا فشيئًا على مقاومة الجفاف وتتحـداه. أمـا النباتات الدنيا فلا تزال أسيرة الماء. فلا بد للطحالب الدنيا Moss من العيش في الرطوبـة، بـل إن تطـور أنواع السرخس [١٢] يحتاج في أدوار من حياته إلى البلل الشديد. وقد وصلت النباتات العليا في تحررها مـن الماء حدا يمكنها من البقاء والتناسل ولو لم يكن في التربة التي دونها إلا قليل من الرطوبة، فكأنها بذلك قـد حلت حلاً نهائيا مشكلتها الخاصة بالمعيشة خارج الماء.

وقد تمت جوهريات هذه المشكلة ومستلزماتها إبان آماد العصر البروتيـرزوي الهائلـة وأيـام العصـر الباليوزوي الأولى بطريقة التجريب والمحاولة التي تتبعها الطبيعة. ثم شرعت أضرب مـن نباتـات جديـدة تخرج أفواجا في بطء وكثرة عظيمة من البحر ومن فوق الأرض المنخفضة، وإن استمرت ملازمـة أثنـاء انتشارها البرك والمستنقعات ومسارب الماء.

ولعله لم يكن ثمة نفس الفرق الواضحة الموجود الآن بين نباتات البحر ونباتات المياه العذبة، إذ الـراجح أن البحر كان أقل ملوحة مما هو الآن.

---

(١٢) Ferns: السراخس.

(٢)

أقدم الحيوانات البرية

ثم جاءت الحيوانات بعد النباتات. وما من حيوان بري اليوم في العالم وما من نبات يرى إلا كان تركيبـة في مبدأ الأمر تركيب كائن يسكن الماء قد كيفته تعديلات الأنواع وتمايزها وفقًا لدواعي الحياة خارج المـاء. وقد تم هذا التكيف بطرائق مختلفة، فأنت واجد في حالة العقرب البرية أمشاط الخياشيم في سـلفها العقـرب البحرية البدائية، وقد غارت في الجسم لكي تجعل الرئة في حرز من التبخر السـريع. فأمـا خياشـيم ذوات الدرقة Crustaceans من أمثال أبي جلمبو التي تجري متعرضة للهواء، فإن لها ما يحميها من زوائد غطاء الخياشيم التي في محار ظهرها أو درقتها. وقد نشأت في أسلاف الحشرات أجهزة هي أكياس هوائية وأنابيب هوائية تسمى بالقصبات الهوائية (Tracheal tubes)، وهي التي تحمل الهواء إلى جميع أجزاء الجسم قبـل أن يذاب. فأما الحيوانات الفقرية البرية فإن خياشيم أجدادها من السمك، قد أضيف إليها أولاً – ثم استبدل بها أخيرا – نمو كيسي من ناحية البلعوم هو مثانة السباحة الرئوية البدائية.

وما زالت تعيش إلى يومنا هذا أ سماك طينية، تمكننا من أن نفهم جليا الطريقة التي استطاعت بهـا الحيوانـات الفقارية البرية الخروج من الماء. وتوجد هذه المخلوقات (وأضرب لك مثلاً السمك الأفريقي ذا الرئة) في المنـاطق المدارية، التي بها فصلان: فصل الأمطار الغزيرة وفصل الجفاف الذي تصبح فيه الأنهار أشبه شيء شبها ببـرك من الطين المجفف. ففي أثناء الفصل المطير تسبح تلك الأسماك وتستنشق الهواء بخياشيمها، كمـا تستنشـقه كـل الأسماك الأخرى فإذا أخذت مياه النهر في التبخر تدفن الأسماك نفسها في الطين ويبطل عمل خياشيمها، ويحـافظ المخلوق على حياته حتى تعود المياه، بابتلاع الهواء الذي يدخل إلى مثانة السباحة فيه. وعندما يدرك جفاف الأنهار السمك الأسترالي ذا الرئة في البرك الآسنة، وعندما تأسن المياه وتخلو من الهواء، تراه يطفو إلى السـطح ويبتلـع الهواء. ويفعل برغوث الماء [١٣] في البرك نفس هذا الفعل. فهذه المخلوقات لا تزال باقية في مرحلة الانتقال، هـي نفس المرحلة التي تحررت عندها أسلاف الحيوانات الفقارية العليا من حالة اقتصارها على العيش تحت الماء.

ولا تزال أنواع البرمائيات [١٤] من ضفادع وسمندر الماء والتريتون أي غول الماء.. إلخ تظهر في تاريخ حياتها مراحل عملية التحرر هذه. فهي لا تزال تعتمد على الماء في تناسلها. ولا بد لها من وضع بيضها في مياه ينالها نور الشمس – وفي الماء يجب أن يكون موضع تطورها. ولأبـي ذنيبـة الصـغير [١٥] خياشـيم خارجية متفرعة تتموج في الماء، ثم ينمو عليها غشاء للخياشيم ويكون غلاف الخياشيم. فإذا ما بدأت أرجلـه تظهر، وأخذ ذيله يندمج فيه شرع في استعمال رئتيه ثم تذوى خياشيمه وتختفي، ويستطيع أبو ذنيبة أن يعيش تحت الماء على الدوام كما تستطيع الضفدعة البالغة أن تقضي بقية أيامها في الهواء، غيـر أنهـا تتعـرض للموت غرقًا إذا بقيت تحت الماء باستمرار.

---

(١٣) newt: برغوث الماء: سمندر الماء

(١٤) Amphibia: برمائيات، قوارب (مـ. قوزب).

(١٥) Tadpole: أبو ذنيبة.

فإذا صعدنا درجات الوجود إلى مستوى الزواحف وجدنا "البيضة" التي تحميها من التبخر قشرتها الصلبة. وتنتج هذه البيضة صغارا تتنفس برئتيها من أول لحظة تلي نقفها فكأن الزواحف تسابق النباتات ذات البـذور في تحررها من ضرورة قضاء أية مرحلة من مراحل دورة حياتها في الماء، ولكنها تموت غرقًا إذا بقيت في الماء دون أن تخرج في الهواء.

وتعطينا صخور العصر الباليوزوي المتأخر في نصف الكرة الشمالي المعلومات اللازمـة لسلسـلة مـن الصور توضح هذا الانتشار البطيء للحياة في البر. وقد كان هذا العصر من الوجهة الجغرافية عصر منـافع وبحار ضحلة أشد ما تكون ملاءمة لهذا الغزو. وربما لم توجد هناك بحار تضارع محيطات عصـرنا فـي عمقها. وبعد أن أصبحت النباتات الجديدة قادرة على أن تحيا الحياة الهوائية الجديدة تطورت تطورا ممتـازا في كثرته وتنوعه.

ولم تكن قد وجدت بعد نباتات ذات زهور بالمعنى الحق، ولا أعشاب ولا أشجار "نافضة": تـنفض عنهـا أوراقها في الشتاء. بل كانت النباتات الأولى مكونة من سراخس شجرية عظيمة وأنواع من ذنـب الحصـان هائلة [١٦] – أو حزازيات Cycads ضخمة وما قاربها من النباتات. وقد اتخذ الكثير من هذه النباتات صورة الأشجار الضخمة ذات السيقان التي بقي عدد وافر من جذوعها في صورة حفريات إلى يومنا هـذا. وكـان بعض هذه الأشجار يربو على مئة قدم في الارتفاع، وكانت تنتسب لفصائل وعائلات اختفت من العالم الآن. وكانت تقف بسيقانها في الماء. ولا شك أن قد كان في هذا الماء خليط غليظ من الطحالب الطريـة والكمـأ الأخضر [١٧] والفطريات Fungoid growths التي قلما تركت خلفها آثارا واضحة. وتكون البقايا الكثيـرة المعجونة بعضها في بعض لهذه الغابات المتكونة في المستنقعات أعظم وأهم مناطق الفحم الحجري في العالم في هذه الأيام.

وكانت الحشرات الأولى تزحف وتنزلق وتطير بين هذا النبات البدائي الكثيف. كانت مخلوقـات صـلبة الأجنحة وذات أربعة أجنحة، غالبا ما كانت كبيرة، كانت أجنحة بعضها تبلغ القـدم طـولاً، وكانـت هنـاك رعاشات Dragon Flies كثيرة العدد بلغ امتداد أجنحة واحدة منها وجدت في حقول الفحـم البلجيكيـة ٢٩ بوصة. كما كانت ثم أضرب عظيمة من الصراصير الطيارة، وكثرة من العقارب وعدد من العناكب الأولى، وكانت أعضاء الغزل في هذه العناكب معدومة أو بسيطة، فلم تكن تنسج بيتها البتة، أو كانت تنسج بيتًا غاية في البساطة. وظهرت قواقع البر (الحلزون) كما ظهرت أيضا أول رتب معروفة من رتـب أجـدادنا علـى الأرض، وهي البرمائيات. وكلما صعدنا في المستويات العليا للسجل المتأخر للعصر الباليوزوي وجدنا عملية التكيف للهواء قد تقدمت حتى بلغت مرتبة ظهور الزواحف الحقة بين أنواع البرمائيات الكثيرة المتعددة.

---

(١٦) Equistums.

(١٧) Green Slime الكمأ الأخضر: المخاطي أو الغروي الأخضر.

وكانت الحياة البرية في العصر الباليوزوي الأعلى حياة غابات دائمة الخضرة تنمو في المستنقعات خالـوا من الزهور والطيور وطنين الحشرات المعروفة الآن، فلو أمكن نقل إنسان إلى تلك المناقع النضرة، فالراجح أن يفزعه سكونها، فهو لا يسمع هناك غير خرير الماء، أو حفيف الريح بأوراق الشـجر، أو دوي شـجرة تهوى إلى الأرض، وكأنما كل شيء في حالة توقع وانتظار، وتبدو الأشجار والنباتات أشبه بطحالب ضخـمة منها بأية شجرة يعرفها. ولم يكن هناك قط أي وحوش برية كبيرة بل كانت البرمائيات المتمرغة في الوحـل والزواحف البدائية أعلى المخلوقات التي أنتجتها الحياة حتى ذلك الحين. ولم تكن أية واحدة منها قد وصـلت بعد إلى حجم عظيم جدا وكانت أية أرض بعيدة عن الماء أو أعلى من مستوى الماء لا تزال قاحلـة جـدباء وخالية من الحياة. ولكن الحياة دأبت على الخروج جيلاً بعد جيل زاحفة من مياه البحر الضحلة التي اكتنفتها منذ بدايتها.

(٣)
لماذا يجب أن تتغير الحياة على الدوام

يشبه سجل الصخور كتابا عظيما عبثت به يد العابثين في غير ما حرص أو عناية. فكل صفحاته ممزقة بالية ممحوة المعالم، والكثيرة منها مفقود فقدانًا تاما. فأما معالم القصة التي نرسمها لك رسما إجماليا فقد جمعت جزءا فجزءا بغاية البطء المضني، في بحث لا يزال أبتر ولا يزال مطردا. والصخور الفحمية Carboniferous أي "حقول الفحم" تشهد بحدوث أول امتداد عظيم للحياة فوق الوهاد البليلة، ثم تتلوها صفحات للصخور البرمية Permian [١٨] ممزقة (هي آخر الصفحات في الباليوزوي)، وهي لا تحتفظ إلا بالقليل من معالم الأرض في عصرها. ولم يبدأ التاريخ في الظهور ثانية بشكل سمح كريم إلا بعد فترة طويلة من الزمان.

فالصخور البرمية تسجل حقبا من أحقاب العنف والدمار في تاريخ العالم. فهي علامة عصر الانتقال من العصر الباليوزوي عصر السمك والبرمائيات إلى العصر الميزوزوي عصر الزواحف.

ويجب ألا يغرب عن البال أن تغيرات عظيمة في المناخ كانت تحدث على الدوام، وكانت في بعض أحيانها تبعث الحياة وتنشطها، وفي بعض أحيانها الأخرى تعوقها وتعترض سبيلها. فكل نوع من أنواع الكائنات الحية لا يني على تكييف نفسه تكييفًا لا يزال يزداد في دقته اقترابا من ظروفه التي تتغير على الدوام مما لا يجعل للتكيف نهاية. بل هناك على الدوام حاجة ماسة تتجه إلى التغير.

بيد أننا نجد مع ذلك مخلوقات من النوع الدنيء قد كيفت نفسها منذ القدم وفقًا للظروف البسيطة الشائعة حولها، تكييفًا بلغ منتهاه حتى لم يدخل عليها بعد ذلك أي تعديل كبير ولم تتعرض للاندثار أو لاستبدال غيرها بها. فهناك مثلاً سمكة محارية صغيرة تدعي اللينجولا Lingula، مهيأة لحياة غامضة راكدة في البحار الدفيئة. فهذا الجنس قد لبث دون أي تغير ظاهر مدى كل السجل الجيولوجي بأكمله.

غير أن الجيولوجيين يظهرون لنا مجموعات أخرى من الحفريات يمكن الإنسان أن يتتبع فيها تعديلات في مدى لا يزيد على بضعة آلاف من السنين، حدثت مع تغير المناخ ونوع الطعام والأعداء.

ولا بد لنا من أن نورد لك ها هنا بعض إيضاحات لهذه التغيرات المناخية التي لا تزال تحدث على سطح الأرض. وهي ليست تغيرات دورية، بل تقلبات بطيئة من الحر والبرد إذ ينبغي للقارئ ألا يظن أن تاريخ العالم المناخي إنما هو قصة برودة متواصلة بناء على ما يعلمه من أن الشمس والأرض كانتا يوما ما كتلة مستمرة من نار. ذلك أن باطن الأرض لا يزال دون أدنى شك، حارا جدا حتى يومنا هذا بيد أننا لا نشعر على سطح الأرض بأي شيء من تلك الحرارة الباطنية. فإن الحرارة الباطنية لم يعد يدركها أحد على سطح الأرض منذ أن تجمدت الصخور أول مرة، وذلك فيما عدا ما عرفه عن البراكين والينابيع. وإنك لتجد حتى

---

[١٨] نسبة إلى يوم في روسيا. (المترجم).

في العصر الأزوي أو الأركيوزوي آثارا في الصخور التي غطاها الجليد وأبلاها، بل وفي غيـر الصـخور تدل على حدوث فترات من البرد الشديد. وكانت أمثال هذه الموجات الباردة تتعاور دائما في كل مكان هـي وظروف أميل إلى الدفء. ومرت بالأرض في كل نواحيها آماد ممطرة عظيمة، وآماد جفاف عظيمة. وهي كلها تعود إلى تقلبات فلكية وأرضية تمتاز بتعقدها الشديد، ولسنا بمتعرضين لها ها هنا.

ووفاقًا لهذا نعرف من السجل الصخري أن قد جاءت آماد طويلة أصابت فيها الحياة الانتشـار والتكـاثر، تدفقت فيها وتزايدت وتغيرت، كما مرت عصور عجاف مهلكة صحبتها إبادة عظيمة وفناء الأنواع Species والأجناس Genera والفصائل Classes كما صحبها أن تعلّم كل ما بقي من الكائنات حيا دروسا قاسيات.

والراجح أن الفترات الدفيئة كانت إذا قيست إلى العصور الباردة أطول أمدا. والظاهر أن عالمنا الحـالي يخرج الآن من عصر مديد من المحن والظروف المتطرفة داخلته بعض التقلبات وربما أصبح بعـد نصـف مليون من المحن والظروف المتطرفة داخلته بعض التقلبات وربما أصبح بعد نصف مليون من السنين عالما لا شتاء له زاخرا بالأشجار والنبات حتى في الأصقاع القطبية. ولسنا في الوقت الحاضر على يقين من صدق هذه النبوءة، ولكن يحتمل أن يصبح في إمكان الجنس البشري مع زيادة المعرفة لديه، أن يرسم خططه لآلاف من السنين مقبلة ويلاقي بها التغيرات القادمة.

الفصل الرابع

عصر الزواحف

١- عصر الحياة في الوهاد.

٢- التنين (الأفعوانات).

٣- الطيور الأولى.

٤- عصر محنة وفناء.

٥- أول ظهور الفراء والريش.

(١)
عصر الحياة في الوهاد

نعلم أن البلولة والدفء وظروف المناقع الضحلة التي مهدت السبيل لتراكم المواد النباتية تراكما عظيما، والتي انضغطت وحفظت لنا تلك النباتات محنطة فأصبحت الآن فحما حجريا، نعلم أن هذه الظروف عمت معظم العالم مدى مئات الألوف من السنين، حقًا أن قد أتت على الأرض بعض فترات باردة، ولكن أمدها لم يستمر زمنًا طويلاً يمكنها من إبادة النباتات. ثم كانت نهاية ذلك العصر الطويل ذي النباتات الناضرة المنحطة الدرجة. ويلوح أن قد انقضى زمن مرت فيه الحياة على الأرض في فترة جدب وإمحال عم العالم كله. ذلك هو الجزء الأول من تاريخ هذا الكوكب إذا أجيز هذا التشبيه.

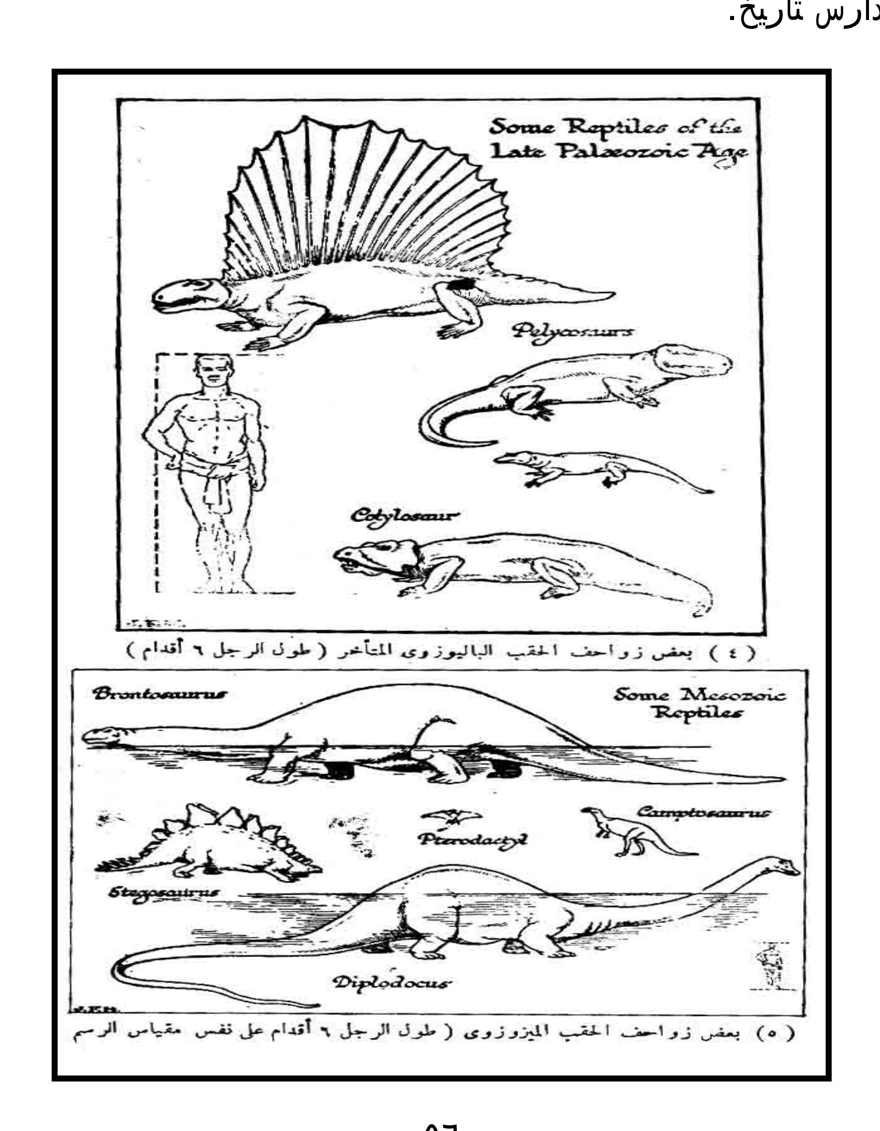
وعندما تعود القصة سيرتها الأولى في آخر العصر الباليوزوي بعد فترة الاحتباس هذه، نجد الحياة مقدمة على عصر جديد زاخر بالثراء والانتشار والسعة. وقد تقدم النبات تقدما عظيما في إدراكه فن الحياة خارج الماء. هذا وبينما كانت النباتات الباليوزوية التي في حقول الفحم تنمو وماء المستنقعات يترقرق فوق جذورها، كان نبات العصر الميزوزوي يحتوي منذ مستهل بدايته على أشجار حزازية تشبه النخيل وأشجار صنوبرية مخروطية تنمو في الأرض الوطيئة. كانت كلها نباتات أرضية لا شك فيها تنمو في تربة أعلى من مستوى الماء.

ولا شك أن المستويات الدنيا للأراضي في الحقبة الميزوزوية كانت مغطاة بغياض السرخس العظيمة وبالشجيرات الكثيفة ونوع من جماعات الأشجار المستأجمة. ولكن لم يكن هناك بعد أي كلأ، ولا خضارى Turf، ولا خمائل ولا أية نباتات ذات أزهار قط، كبرت أو صغرت. والراجح أن العصر الميزوزوي لم يكن عصر نباتات جد زاهية الألوان، ولا بد أن كانت فيه نباتات خضراء في فصل المطر ودكناء وأرجوانية في فصل الجفاف. وأكبر الظن أنها لم تكن تقارب في جمالها جمال الغابات والأحراش الحالية. فلم تكن هناك زهور باسمة، ولا ألوان زاهية في الخريف قبل سقوط الأوراق، إذ لم يكن هناك بعد سقوطٌ للأوراق. فأما ما يعلو المستويات الدنيا فكان لا يزال مجدبا، ولا يزال عاريا، ولا يزال معرضا لما يحدثه الريح والمطر من تعريةٍ وتحات دون أي عامل من عوامل التلطيف.

وينبغي للقارئ عندما يسمعنا نتكلم على الصنوبريات Conifers في العصر الميزوزوي ألا يصور في ذهنه أشجار الصنوبر والشربين Pines & Firs التي تكسو حدور الجبال العالية في عصرنا هذا – بل يجدر به أن يفكر في الأشجار الدائمة الخضرة التي تنمو في الوهاد. فقد كانت الجبال لا تزال جرداء مواتًا لا حياة فيها. وكان اللون الوحيد في الجبال هو لون الصخور الجرداء المماثل للألوان التي تجعل المناظر البرية بمنطقة الكولورادو فاتنة خلابة في هذه الأيام.

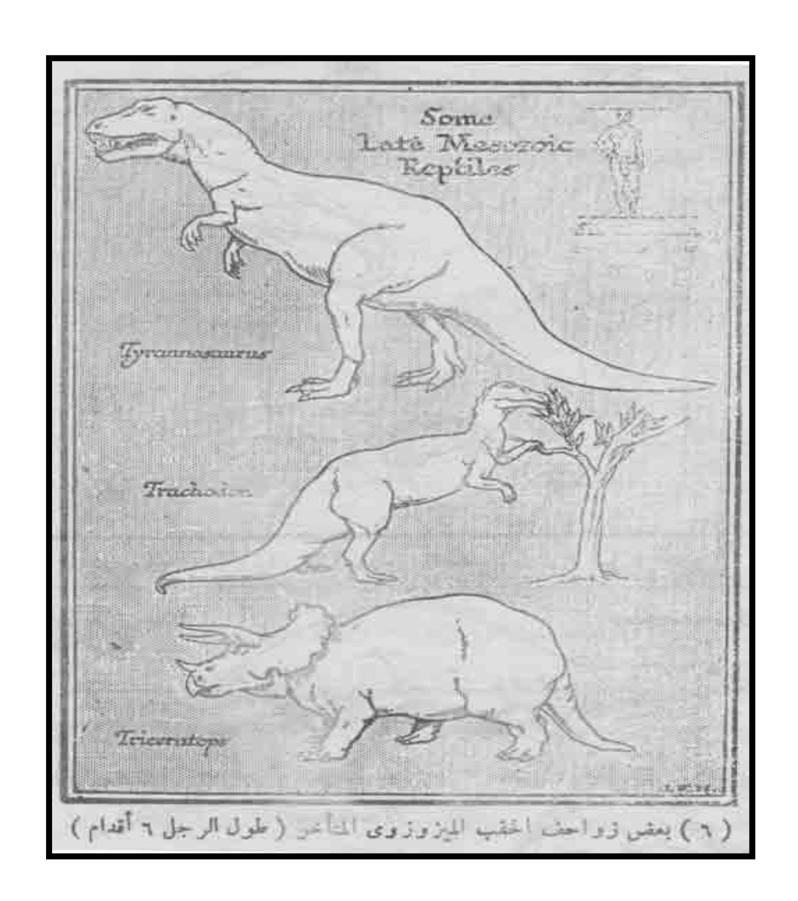
وبين هذا النبات الآخذ في الانتشار في السهول الدنيا كانت الزواحف تزداد ازديادا عظيمـا فـي العـدد والأضرب. وقد أصبحت وقتئذ حيوانات أرضية خالصة في كثير من الحالات. وهناك فروق تشريحية كثيرة تميز الزاحف عن البرمائي. وكانت هذه الفوارق تنطبق أيضا على الزواحف والبرمائيات التي سادت الفتـرة الفحمية من العصر الباليوزوي العلوي. بيد أن الفارق الأساسي بين الزواحف والبرمائيات وهو الذي يهمنـا في هذا الكتاب، هو أن البرمائي يجب أن يعود إلى الماء ليبيض فيه؛ وأنه في مراحل حياته الأولى يجـب أن يعيش في الماء وتحت أطباق الماء، بينما الزاحفة من الناحية الأخرى قد ألغت كل مراحل أبي ذنيبة من دورة حياتها، أو بمعنى أدق فإن مرحلة أبي ذنيبة تنتهي قبل أن يغادر الصغار قشر البيضة، أي إن الزواحف قـد غادرت البحر نهائيا وعاد بعضها إليه ثانية كما عاد فرس البحر وكلب البحر Otter من بين الثدييات. علـى أن هذا أيضا استطراد للقصة – أو قل إنه تفصيل وتعقيد لها لسنا بقادرين على أن نوليه عناية كبيرة في هذه "المعالم".

وقد أسلفنا إليك أن الحياة لم تنتشر في العصر الباليوزوي إلى أكثر من وديان النهار ذات المناقع وحافات المستنقعات البحرية Lagoons وما إليها. فأما في العصر الميزوزوي، فإن الحياة شرعت تزداد أخذًا بأسباب الاعتياد على الهواء – وهو الوسط الأكثر خفة – والانتشار في إقدام إلى أعلى السهول وإلى سـفوح الـتلال والآكام. وجدير بدارس تاريخ.



(٤) بعض زواحف الحقب الباليوزوى المتأخر (طول الرجل ٦ أقدام)

(٥) بعض زواحف الحقب الميزوزوى (طول الرجل ٦ أقدام على نفس مقياس الرسم



(٦) بعض زواحف الحقب الميزوزوى المتأخر (طول الرجل ٦ أقدام)

الإنسانية ومستقبل الجنس البشري أن يعي ذلك ويتذكره. فلو أن شعلة من الذكاء لا يحملها جسد، ولا معرفة لها بالمستقبل، هبطت إلى الأرض ودرست الحياة إبان العصر الباليوزوي المبكر، لاستنتجت استنتاجا منطقيا سليما أن الحياة كانت محصورة في الماء حصرا تاما، وأنه لا أمل أمامها في الانتشار على الأرض، ولكنها مع ذلك وجدت لنفسها إلى الأرض منفذا. ولعل تلك الشعلة لم تكن أقل يقينًا أيام الحقبة الباليوزوية المتأخرة أن الحياة لم تكن بمستطيعة أن تخطو إلى أبعد من حافة المستنقع. وتراها في العصر الميزوزوي لا تزال ترسم حدودا للحياة أضيق كثيرا من الحدود التي ترسم الآن. ولذا فإنه بالرغم من أننا نلحظ اليوم أن الحياة والإنسان لا يزالان يحدهما ارتفاع قدره خمسة أميال من الهواء، وعمق في البحر ربما كان ميلاً أو ما يقاربه، فليس لنا أن نستنتج من هذا التحديد الحالي أن الحياة لن تنتشر بعد قليل عن طريق الإنسان إلى الخارج وإلى أعلى وأسفل حتى تبلغ مدى لا يستطيع أحد اليوم تصوره.

وأقدم ما عرف من الزواحف كان حيوانات ذات كروش عظيمة وأرجل ليست بالقوية جدا، فهي وثيقة الشبه بذوي قرباها من البرمائيات، وهي تتمرغ كما يتمرغ التمساح إلى يومنا هذا ولكنها سرعان ما شرعت في العصر الميزوزوي في الوقوف والمسير بقوة على أرجلها الأربع، وأخذ عدد كبير من أقسامها بقيم توازنه معتمدا على ذيله وأرجله الخلفية على طريقة تقارب طريقة القنغر في هذا الزمان. وذلك لكي تتفرغ الطرفان الأماميان لإمساك الطعام. وشاهد ذلك أن عظام أحد أقسام الزواحف الشهيرة وهي التي احتفظت بعادات ذوات الأربع، والتي ظلت لقسم منها بقايا جمة في رواسب العصر الميزوزوي المبكر في جنوب أفريقيا والروسيا – تُظهر من الخصائص المميزة ما يقترب بها من خصائص هياكل الثدييات. ويسمى هذا

القسم باسم (ثريمورفا) أي أشباه الوحوش لما بينه وبين هذه الثدييات (أي الوحوش) من شـبه. وكـان نـوع التمساح قسما آخر منها، بينما تطور فرع آخر متجها إلى سلاحف البر والبحر (الترسة [١٩] اللجـأة). فأمـا اشـباه العظايـا [٢٠] البليزويوصـور The Plesiosaurs – وعظايـا البحـر المتـدثرة الأيخثيوصـور Ichthyosaurs – فإنهما مجموعتان لم تتركا ما يمثلهما في الحيوانات التي تعـيش الآن، وكانـا زاحفـين مهولين يعودان من حين إلى حين إلى البحر ويعيشان فيه عيش الحيتان، وقد بلغ طول واحد من أكبر أفـراد أشباه العظاء ثلاثين قدما من طرف الأنف إلى نهاية الذيل – وكان نصف هذا الطول فـي رقبتـه. وكانـت الموزاصور Mossaurs (عظايا نهر الموز) مجموعة ثالثة من العظاء البحرية الكبيرة الشبيهة بخنزير البحر Porpoise. ولكن أكبر المجموعات وأكثرها تنوعا بين هذه الزواحف في العصر الميزوزوي هي مجموعـة متنوعة تسمى بالدينوصور Dionosaurs أو العظايا المهولة. وصل الكثير منها إلى حد كبيـر جـدا مـن الضخامة ولم يبلغ أي حيوان من العِظَم ما بلغته هذه الدناصير العظمى وإن كان البحر لا يزال يسـتطيع أن يرينا من أصناف الحيتان مخلوقات تضارعها عظما. وكان بعض هذه – وهي أعظمهـا – حيوانـات مـن العاشبات [٢١]، وكانت ترعى على نبات السمار والحلفاء رائعة بين أشجار السرخس والشـجيرات، أو أنهـا كانت تقف وتمسك بالأشجار برجليها الأماميتين وهي تلتهم أوراقهـا التهامـا. وكـان بـين هـؤلاء مـثلاً الديبلودوكس كارنيجي Diplodocus Carnegii وكان طوله أربعة وثمانين قدما. على أن الجيجانتوصـور أو العظاء الضخم Giganotosaurus الذي اكتشفته بعثة ألمانية سنة ١٩١٢ بين صخور شرق أفريقيا أضخم كثيرا إذ بلغ طوله ما يربو على المائة قدم. ولا تزال تظهر عظام أضخم من هذه. وكـان لهـذه الوحـوش العظيمة الضخمة أرجل، وهي تصور في العادة واقفة على أرجلها تلك، غير أنه من المشكوك فيـه جـدا أن يكون قي مقدورها حمل كتلة جسمها على أرجلها خارج الماء.

وعظامها تنتهي بغضاريف، ولذا فليست مفاصلها كبيرة القوة. فما دامت هذه الوحوش المهولة طافية فـي الماء أو الطين كان في إمكانها مواصلة حياتها على أحسن وجه. فقد كان الدينوصور العادي الكبيـر يجعـل نصفه الأسفل الضخم وأطرافه السفلى الجسيمة تحت الماء على الدوام تقريبا فأما رقبتـه ورأسـه وطرفـاه العلويان، فهي أخف كثيرا في تركيبها – ولذا فالراجح أن هذه كانت مرفوعة عن الماء.

---

(١٩) Turtles

(٢٠) ورد في معجم الوسيط – العظاءة Lizard دويبة من الزواحف ذوات الأربع تعرف في مصر بالسحلية، وفي سواحل الشام بالسقاية. (المترجم).

(٢١) Herbivorous: العاشبات: أي آكلات العشب. (المترجم)

والتريسراتوبس Triceratops هو أحد أصناف الدينوصور الجديرة بالذكر. وهو بين الزواحف نظير لفرس البحر ولكن له قرنًا يشبه قرن الكركدن. وكان هناك أيضا عدد من اللحمات (آكلات اللحم) الضخمة يفترس هذه العاشبات – والظاهر أن التيرانوصور من بين هؤلاء جميعا بلغ أقصى ما وصلت إليه "البشاعة" بين الكائنات الحية قاطبة. وكانت بعض أنواع هذا الجنس تبلغ أربعين قدما من أنفها إلى نهاية ذيلها. ويبدو أنها كانت تحمل جسمها الهائل مقعية على منوال "القنغر": أي على ذيلها ورجليها الخلفيتين. ولعلها كانت تشب بأجسامها إلى أعلى – بل إن بعض الثقات يعتقد أنها كانت تقفز في الهواء، فإن كانت الحال كذلك فلا بد أنها كانت ذات عضلات من طراز عجيب حتى ليكاد حديث الفيل القافز الذي تذكره الأساطير، يكون أقل من هذا استثارة للعجب. والأرجح من هذا كثيرا أنها كانت تخوض وهي نصف مغمورة بالماء خلف حيوان " الصوريان Saurians" العاشب الذي يعيش في المستنقعات. وربما كانت تنقض على فرائسها في مضايق ومنبسطات من الماء تشبه متسعات نور فولك بإنجلترة أو الإفرجليدز Everglades بفلوريدا.

(٢)

التنين (الأفعوانات)

كان من بين التطورات الخاصة في طراز العظايا الزاحفة، طراز من مجموعة مخلوقات خفيفة طامرة متسلقة، تكون لها بين الإصبع الرابع وجانب البدن غشاء يشبه غشاء الخفاش. تستخدمه في الانزلاق من شجرة إلى أخرى على نفس المنوال الذي يتبعه السنجاب الطيار. كانت هذه العظايا الخفاشية هي التيروداكتيل Pterodactyls (ذات الأصابع الجناحية) وهي غالبا ما توصف بأنها زواحف (طيارة). وكثيرا ما يرسم العلماء صورا لبعض مناظر العصر الميزوزوي تمثلها وهي محلّقة حائمة منقضة في طيرانها، ولكن ليس لعظام صدرها هراب أي حيزوم (Keel) كالذي لعظام صدر الطير لتتصل به عضلات تبلغ من القوة حدا يؤهلها لتحمل الطيران طويلاً. ولا بد أنها كانت تمرق مروق الخفاش. ولا جرم أن قد كان بينها وبين الأفعوان التقليدي شبه مضحك. وأنها كانت تفعل ما تفعله الطيور الشبيهة بالوطواط في آجام العصر الميزوزوي. وهي إن كانت شبيهة بالطيور لم تكن طيورا ولا أسلافًا للطيور. فقد كان تركيب أجنحتها مخالفًا تمام المخالفة لتركيب أجنحة الطيور، ولم يزد على كونه يدا ذات إصبع طويلة يصحبها غشاء؛ على حين أن جناح الطائر شبيه بذراع ينمو الريش على حافتها الخلفية، وأما ذات الأصابع الجناحية: (التيروداكتيل) فلم يكن لها ريش حسبما وصل إلى علمنا حتى الآن. فالريش إنما هو في الجلد، مخصص جد التخصص، تطور إلى شكله الحالي مرة واحدة في تاريخ التطور الذي مرت به الحياة.

(٣)
الطيور الأولى

وكانت هناك مخلوقات أخرى شبيهة بالطير حقًا أقل من هذه انتشارا في ذلك الزمان – وكانت الأجناس الأولى منها تطمر أيضا وتتسلق – والأجناس المتأخرة تسف قرب الأرض وتطير. وكانت هذه في مبدأ أمرها – حسب كل مقاييس التصنيف – زواحف، ثم تحولت إلى طيور حقيقية عندما أصبحت فلوسها (قشورها) وهي زواحف، سعفًا كسعف النخل، طويلاً معقدا بدلاً من أن تظل قشورا، وتم ذلك أخيرا بانتشار الريش انتشارا كبيرا وانقسامه. والريش هو الغلاف المميز الخاص بالطيور، وهو يكسب الطير قوة على مقاومة الحر والبرد أعظم كثيرا مما يكسبه إياها أي غلاف خارجي آخر، اللهم إلا أثقل الفراء. ففي مرحلة مبكرة جدا مكن هذا الغطاء الريشي الجديد، بل هذه الوسيلة الجديدة التي اتفقت للحياة بطريق الصدفة، أنواعا كثيرة من الطير أن تغزو مجالاً لم تكن "ذات الأصابع الجناحية" معدة له. فاتجهت الطيور إلى صيد البحر – إن لم تكن بالفعل قد بدأت به قبل غيره – وانتشرت شمالاً وجنوبا متجهة إلى القطبين متجاوزة حدود الحرارة التي لم تكن تتعداها الزواحف. ويلوح أن أقدم الطيور كانت لواحم غائصة وطيورا مائية – ولا تزال توجد إلى يومنا هذا بين الطيور البحرية في بحار المنطقة القطبية الشمالية والجنوبية، طيور أشكالها هي أشد ما يكون الطير بدائيا في صورته. ولا يزال علماء الحيوان يجدون في مناقير هذه الطيور المائية دون غيرها آثارا باقية لأسنان زالت معالمها تمام الزوال من مناقير سائر الطيور.

ولم يكن لأقدم نوع معروف من الطير وهو الأركيوبتريك Archaeopteryx (ذوات الأجنحة القديمة) منقار بل كان له صف من الأسنان في فك يشبه فكاك الزواحف. وكان له ثلاثة براثن في مقدم طرف جناحه، وكان ذيله أيضا غريب الشأن. فريش الذيل في كل الطيور الحديثة مركب في زمك قصير متماسك عظمي.

أما "ذوات الأجنحة القديمة" فذيلها عظمى طويل له صف من الريش في كلا جانبيه.

ومحتمل جدا أن غالبية هذه الطيور الأولى لم تطر البتة، وأنه كانت هناك طيور قبل أن يكون هناك طيران. فقد كان من بين الطيور البالغة القدم طائر يسمى الهسبرورنيس Hesperornis (الطائر الغربي) [٢٢] ولم تكن له أجنحة البتة ولكن ما كاد الريش يتطور خفيفًا قويا وسهل الانتشار حتى صار ظهور الجناح أمرا متروكًا للزمن وحده.

---

(٢٢) سمي كذلك لأن حفرياته وجدت في صخور أمريكا.

(٤)
عصر محنة وفناء

إن هذه الحقبة الطويلة، حقبة الحياة الميزوزوية، أي هذا السفر الثاني من كتاب الحياة، إنما هي في الواقع قصة عجيبة لحياة الزواحف في تكاثرها وتطورها. ولكن بقي علينا أن نقص عليك أغرب أحـداث القصـة وأدعاها إلى العجب. فنحن نجد كل هذه الضروب من الزواحف التي ذكرناها لك مستمرة في ازدهارهـا لا ينازعها منازع حتى طبقات أشد الصخور الميزوزوية تأخرا. فليس فيما تبقى لنا من عالمها أي أثر لعـدو أو منافس. ثم ينقطع اطراد السجل، ولسنا ندري أمد الزمان الذي يمثله ذلك الانقطـاع. وربمـا كانـت هنـاك صفحات كثيرة ضائعة في هذا الوضع، وهي صفحات ربما كانت تمثل حركة انقلاب شديدة في ظروف الكرة الأرضية. حتى إذا وجدنا على الأرض بعد ذلك آثارا كثيفة لنبات البر وحيوانه نجد ذلك الحشد العظيم مـن أنواع الزواحف قد ذهب. ولم يخلف معظمها من ورائه عقبا – ذلك أنها "محيت محوا" ففنيت ذوات الأصابع الجناحية تمام الفناء، ولم يبق من أشباه العظايا وعظايا البحـر المنـدثرة فـرد واحـد حيـا. وقـد ذهبـت "الموزاصور" ولم يبق من العظايا (السحالي) إلا اليسير الطفيف، أكبرها حجما الضـباب Monitors التـي تعيش في الهند الشرقية الهولندية. فأما جماهير العظايا المهولة (الدينوصور) وأنواعها المختلفة فإنها اختفـت من الوجود ولم يبق على قيد الحياة إلى ما بعد ذلك من الزمان بكميات كبيرة غير التمساح والسلحلفاة واللجأة (سلحفاة الماء) ويحل محل كل هذه الأنماط البائدة في الصورة العالمية التي تزيح الستار عنها على أثر ذلـك حفريات العصر الكاينوزوي – حيوانات أخرى ليست ذات لحمة وثيقة بزواحف العصر الميزوزوي، وليست منحدرة ولا ريب من الأنواع السائدة في ذلك العصر. ذلك أن نوعا جديدا من الحياة قد ساد العالم.

ولا مجال للريب في أن هذه النهاية التي أصابت الزواحف والتي تبدو فجائية في بابها إنما هـي أعجـب الانقلابات وأشدها استثارة للدهشة في تاريخ الأرض بأجمعه، قبل ظهور الجنس البشري. والـراجح أن لهـا علاقة بانتهاء أمد طويل ذي حرارة دفيئة متعادلة التوزيع، وابتداء عصر جديد أشد وأقسى: الشتاء فيه أكثـر برودة وأشد وقعا، والصيف فيه أقصر أمدا وأشد حرا. لقد كانت الحياة في العصر الميزوزوي سواء في ذلك الحيوانية والنباتية منها – مكيفة وفقًا لظروف الدفء، فلا تستطيع أن تقاوم البرد إلا قليلاً. وأما الحياة الجديدة فكانت قادرة قبل كل شيء على الصبر على تغيرات عظيمة في درجات الحرارة.

ولم يقتصر الأمر على أن الزواحف بهيئتها التي كانت عليها، لم يكن لها فرو ولا ريش يحدث تعادلا فـي الظروف الحرارية، بل إن تركيب قلوبها لم يكن مكيفًا للاحتفاظ بدرجات حرارة عالية تقيها ما حولهـا مـن البرودة.

ومهما يكن شأن الأمور التي أدت إلى إبادة زواحف العصر الميزوزوي فالراجح أنها كانت تغيرا عميق الأثر فعلاً، إذ حاق بالحياة في البحار محنة أحدثت مثل ذلك التبديل الانقلابي الشديد. وكان استهلال الزواحف وانتهاؤها على البر حدثًا يضارع استهلال العمونيات (Ammonites) [٢٣] ونهايتها وهي ضرب من المخلوقات يشبه سمك البحار القديمة [٢٤]. ويعرف معظم الناس جيد المعرفة المحار الحازوني [٢٥] الضخم، الذي يبلغ قطره في بعض الأحيان قدمين أو أكثر، وهناك جمهور كبير وأضرب متنوعة من هذه "العمونيات" في كل سجلات هذا العصر الميزوزوي الصخرية، وتوجد مئات من أنواعها زادت تنوعا وضخامة قرب نهاية العصر الميزوزوي. وعندما يعود السجل سيرته الأولى نجد هذه أيضا قد اختفت، ولم تترك قط أي بقايا تدل عليها. أما الزواحف وما يتعلق بها، فربما مال بعض الناس إلى القول بأنها أبيدت، لأن الثدييات التي حلت محلها نافستها وكانت أصلح منها للبقاء. ولكن لا يمكن أن يصدق شيء من هذا القبيل على "العمونيات" إذ لم يحل محلها حتى اليوم أي كائن، بل إنها ذهبت وكفى. فقد أمكنتها ظروف مجهولة من أن تعيش في البحار الميزوزوية، ثم طرأ تغير مجهول، ربما كان هزة أصابت تعاقب الأيام والفصول المنتظم – فجعلت حياتها أمرا مستحيلاً. ولم يبق إلى وقتنا هذا جنس واحد من أضرب "العمونيات" الكثيفة العدد، وإن بقي لدينا جنس واحد منعزل وثيق الصلة جدا بها هو "النوتيلوس اللؤلؤي Pearly Nautilus". ويجدر بنا أن نلحظ أنه يوجد في مياه المحيطين الهندي والهادي الدفيئة.

فأما عن الثدييات وقيامها بمناضلة الزواحف الأقل صلاحية واستبعادها إياها، وهو كفاح يتحدث عنه الناس أحيانًا، فليس هناك أقل دليل على مثل هذا التنافس المباشر بينهما فإذا حكمنا بما نعرفه اليوم من بينات السجل الصخري، وجدنا أسبابا أقوى من الأسباب السابقة تحملنا على الاعتقاد بأن الزواحف هلكت في بادئ الأمر بطريقة لا يمكن تفسيرها، وأنه حدث فيما يلي ذلك من الأزمان وبعد انقضاء وقت عسير جدا مرت به كل الحياة على الأرض، أن تطورت الثدييات وانتشرت لتملأ العالم الخالي حينما أصبحت الظروف أكثر مواءمة للحياة.

ولسنا نعرف شيئًا عن أسباب هذا الانقلاب الذي أصاب أحوال الأرض. وقد قلنا في قسم سابق إنه لو كان قطب الأرض عموديا على مستوى مدارها لما حدث تغير في الفصول ولنفرض الآن أنه في الجزء الأول من تاريخ العالم لم يكن خط الاستواء مائلاً أو كان قليل الميل جدا نحو المدار، إذن لوجدت تلك الظروف المتعادلة التي يظهر أن حيوان العصر الميزوزوي ونباته يدلان عليها. فلو فرضنا بعد ذلك أن عاملاً مجهولاً زحزح محور الدوران إلى ما هو عليه الآن من الانحراف، فإن تعاقب الصيف والشتاء والحر والبرد يحدث على الفور في كل أنحاء الأرض وتضطر الحياة إلى تكييف نفسها تكييفًا جديدا أو تفنى. وقد هلكت غالبية

([٢٣]) ضرب من الأصداف المتحجرة سماها العلماء سابقًا قرن عمون لشبهها بقرن الإله جوبتر عمون. وهي على شكل أصداف ذات خلايا كثيرة من صنف الموشعات المعروفة بذات الأفواه الرجلية من الحيوانات الرخوة الكبيرة الحجم. (المترجم).

([٢٤]) وهو المسمى Squids أي الحبار.

([٢٥]) Coiled Shells المحار الحازوني.

الزواحف وهلكت لا شك العمونيات وأنواع جمة من المخلوقات الأخرى ولم تعد إلى الحياة كثرتها ووفرتهـا إلا على مهل. ولكن لم يستطع إنسان بعد أن يأتينا بفكرة عن تلك القوة التي استطاعت أن تنحـرف بعالمنـا الدوار على هذا النحو. ولسنا ندري شيئًا عن الرجفات والهزات والكبوات التي أصابت المجموعة الشمسـية في سالف الزمان. ولهذا ليس أمامنا إلا الحدس والتخمين. ولعل قذيفة هائلة معتمة قد جـاءت مـن الفضـاء الخارجي تهوي بين الكواكب انحرف بسببها كوكبنا عن موضعه – بل ربما اصطكت به ووجهت كل مجرى النشوء والارتقاء وجهة جديدة.

وإن قذائف صغيرة من هذا الطراز لا تنفك تصيبنا. وهي تأتي طائرة إلى جونا وتشتعل بسبب الحـرارة الناشئة من سرعة اندفاعها في الهواء ثم تحترق. تلك هي النيازك أو الشهب، وتحترق الكثرة الغالبة من هذه الشهب وتذوى قبل أن تصل إلى الأرض؛ ولكن كثيرا منها قد وصل ولا يزال يصل إلـى الأرض. وبعـض الموجود منها في متاحفنا يبلغ قطره أقداما عدة.

وربما جاء واحد منها كبير الحجم إلى حد أتاح له أن ينتج هذا التغيير الذي زعمناه، ولكن هذا خروج إلى جادة الظن والتخمين فلنعد إلى ما كنا فيه من حقائق.

(٥)

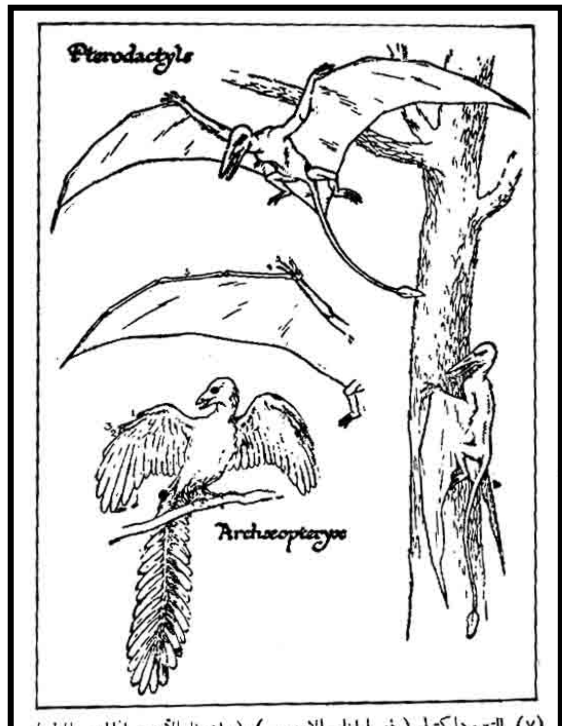
أول ظهور الفراء والريش

تُرى هل كانت هناك ثدييات في الحقبة الميزوزوية؟ لا شك أن قد كانت فيه ثدييات. بيد أنها كانت صغيرة مغمورة نادرة. وليس لدى علماء الإحاثة ما يقولونه في هذا الصـدد إلا القليـل الـذي لا يغنـي. ويـدأب الجيولوجيون في أناة وصبر وثبات على جمع الشواهد الجديدة والوصول إلى نتائج أكمل وأتم. فقد تتكشـف طبقة جديدة في أي لحظة من اللحظات فتزيح الستر عن حفريات تلقي ضوءا على هذا الموضوع وتجيب عن هذا السؤال. ولا مرية أن الثدييات، أو أسلاف الثدييات قد عاشت طوال العصر الميزوزوي بأكمامـه. وكـان هناك في الفصل الأول الذي افتتح به سفر السجل الخاص بالعصر الميزوزوي تلك الزواحـف ذات الهيئـة الحيوانية Theriomorphous التي أشرنا إليها آنفًا. وقد عثر في العصر الميزوزوي المتأخر على عدد من عظام الفك الصغيرة، وهي ثديية تماما في صفاتها.

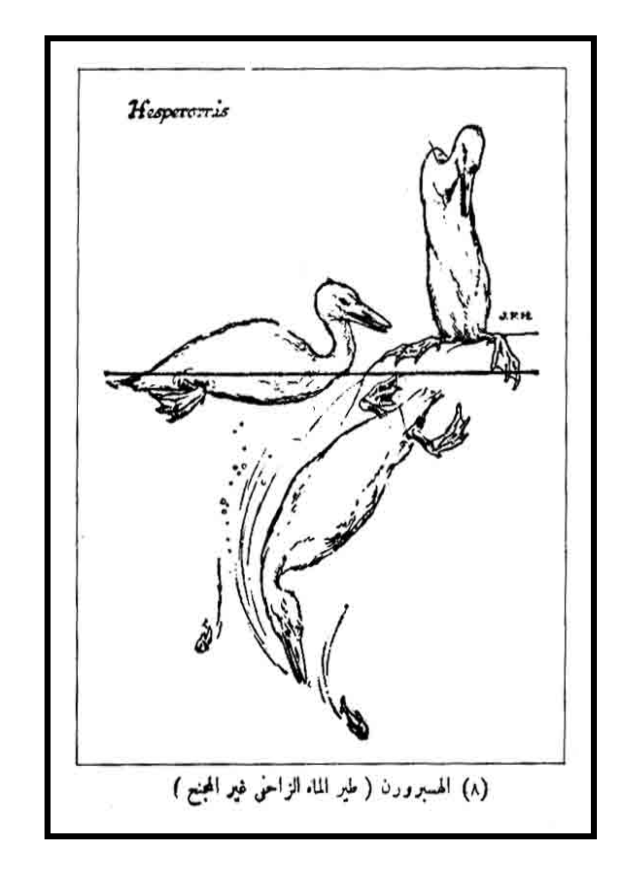
ولكن ليس هناك أي أثر، أو أي عظم، يدل على أنه قد عاشت في العصر الميزوزوي أية ثدييات عاصـرت الدينوصور واستطاعت أن تواجهه. والظاهر أن الثدييات الميزوزوية أو الزواحف الشبيهة بالثدييات (إذ الواقـع أننا لا نعرف على وجه التحقيق من أي الصنفين هي) كانت جميعا حيوانات صغيرة حقيرة مغمورة، في حجـم الفئران والجرذان، أقرب إلى عائلة حقيرة من الزواحف تدوسها الأقدام، منها إلى فصيلة خاصة مميزة. وربمـا كانت لا تزال تبيض وأنها كانت تنتج بالتدريج وبغاية البطء غلافها الشعري الخاص بها والمميز لها. وكانـت تعيش بمنأة من متسعات المياه العظيمة، وربما حلّت لها النجاد الموحشة كما يفعل فأر الجبـل Marmots فـي وقتنا هذا والراجح أنها كانت تعيش في تلك الأماكن لتكون بمنجاة من الدينوصور آكل اللحـوم؛ وربمـا كـان بعضها يسير على سيقانه الأربع وربما اعتمد البعض في مسيرة علـى سـاقيه الخلفيتـين وتسـاق بمسـاعدة الأماميتين. ولم تتكون لها حفريات إلا قليلاً، ولهذا فإن الظروف لم تكشف لنا بعد عن حفرية لهيكـل عظمـى واحد بأكمله في كل السجل الطويل الذي تحويه الصخور الميزوزوية نستطيع أن نتثبت به من هذه الظنون.

وتكون لهذه الكائنات الصغيرة ذات الهيئة الحيوانية وهي أسلاف الثدييات شعر على جسدها والشعر إنمـا هـو فلوس طويلة شديدة التخصص، مثله في هذا مثل الريش. وربما كان الشعر هو السبيل التي نجت بها الثدييات الأولى مما حاق بها. فقد كانت تقضي حياتها على هامش الوجود بعيدة عن المستنقعات والدفء، ولهذا أنشأت لنفسها وقـاء خارجيا، يعد في المحل الثاني من ناحية قوة احتفاظه بالدفء (المقدرة على مقاومة الحرارة) بعد الزغـب والـريش الذي تكتسي به طيور المنطقة القطبية الشمالية. وهكذا صمدت الثدييات كما صمدت الطيور خلال عصر الخطـوب الذي انقضى بين العصر الميزوزوي والكاينوزوي والذي هلكت فيه غالبية الزواحف الحقيقية.

وكانت جميع الخصائص الهامة التي تميز بها كل ما اختفى من نبات البحر وحيوانه في نهايـة العصـر الميزوزوي، من طراز قد كيف نفسه لمناخ متعادل ولمناطق ضحلة المياه وذات مستنقعات. فأما ما خلفها في العصر الكاينوزوي فقد.



(٧) التيروداكتيل (ذو الجناح الإصبعى): (يلاحظ الأصبع الخامس المطول فى جناحه) الأركيوبتريك (ذو الجناح القديم) : (أقدم الطيور المعروفة)



(٨) الهسبرورن (طير الماء الزاحف غير المجنح)

أمده الشعر والريش "بقوة مقاومة لدرجات الحرارة المتفاوتة" لم تكـن لأيـة زاحفـة مـن الزواحـف، وبمساعدتها أصبح أمامها مجال أفسح كثيرا مما وصل إليه أي حيوان من قبل.

لقد كان مجال الحياة في العصر الباليوزوي الأدنى مقصورا على الحياة في المياه الدفيئة أو المسـتنقعات الدفيئة والأرض المبتلة بالماء. فأما مجال الحياة في العصر الميزوزوي، كما نعرفه، فكان مقصـورا علـى المياه وعلى مناطق الوديان الوطيئة نوعا، وتحت ظروف حرارية متعادلة.

ولكن وجدت في كل من هذه العصور أنماط تمد مجال الحياة بغير إرادتها إلى ما وراء الحدود المألوفـة، حتى إذا عمت العالم عصور ظروفها متطرفة كانت هذه الأنماط التي تعيش على الهامش هي التـي بقيـت وورثت العالم الذي خلا من السكان.

وربما كان هذا أعم إيضاح نستطيع أن ندلي به إليك عن قصة السجل الجيولوجي وهـي قصـة مجالهـا مطرد الاتساع؛ تبدو فيه ثم تختفي فصائل وأجناس وأنواع من الحيوانات، ولكن المجال يستمر في الاتسـاع، وهو لا ينفك يتسع. ولم يحدث قط أن كان للحياة مجال بمثل الاتساع العظيم الذي عليه مجالها اليوم. ذلك أن الحياة الآن ممثلة في الإنسان تعلو في الجو علوا لم تصل إليه من قبل. ويمتد مجال الإنسان الجغرافـي مـن القطب إلى القطب، وهو ينزل تحت أطباق الماء بغواصاته ويسبر ظلمات أعمق البحار الباردة الخاليـة مـن الحياة، وهو يحتفر طبقات الصخور التي لم تمسسها من قبله يد وينفذ بفكره وعرفانه إلى مركـز الأرض – وإلى أبعد النجوم. ومع ذلك ترانا لا نجد في كل ما خلفه لنا الزمن الميزوزوي أي أثر أكيد يدل على أسلافه. ولابد أن قد كان أسلافه مع أسلاف جميع الثدييات ذات الصلة بها مخلوقات نادرة مغمورة متباعدة إلى حد لم تكد معه أن تترك أي أثر بعدها بين البقايا الكثيرة التي بقيت عن الوحوش التي كانت تمرح طروبة في الهواء المشبع بالبخار، وتتمرغ على النبات الرطيب الطري في المستنقعات الميزوزوية – أو كانت تزحف أو تطمر أو ترفرف فوق سهول الأنهار العظيمة في ذلك الأوان.

الفصل الخامس

عصر الثدييات

١- عصر جديد من عصور الحياة.

٢- بدء ظهور التقاليد وتوارثها في العالم.

٣- عصر نمو المخ والعقل.

٤- عودة العسر إلى العالم ثانية.

(١)

عصر جديد من عصور الحياة

يبتدئ القسم العظيم الثالث من أقسام السجل الجيولوجي (وهو الكاينوزوي الذي رسمنا لك منه صورا بسيطة في مطلع الفصل الثاني) والعالم يشبه من الناحية الفيزيقية العالم الذي نعيش فيه اليوم شبها كبيرا. والراجح أن اليوم كان في مبدأ الأمر لا يزال قصيرا قصرا محسوسا. ولكن المناظر الطبيعية أصبحت جد عصرية في هيئتها. وكان المناخ بالطبع يتعرض عصرا فعصرا لتغيرات لا تنتهي ولا ينقطع منها الاضطراب. فمنذ أن ابتدأ العصر الكاينوزوي تقلبت على المناطق المعتدلة الحرارة الآن، أدوار من حرارة عظيمة وبرد شديد وجفاف متطرف. ولعل بعض التغيرات قد حدثت في سطح الأرض والمناظر البرية. فلئن داخلها شيء حقًّا من التغيير، فلم يكن تغييرا يباعد ما بينها وبين صورة هذا الجزء أو ذاك من العالم اليوم.

فبدلاً من الحزازيات والساكوانيات [٢٦] والأشجار المخروطة العجيبة أشجار العصر الميزوزوي فإن أسماء النباتات التي تظهر في قوائم الحفريات تتضمن البتولا Birch – والزان Beech وشرابة الراعي Holly والخزامي Tulip واللبلاب Ivy والصمغ الحلو Sweet Gum – وأشجار خبز الفاكهة. فأما النخيل Palms فكان عند ذاك في غاية الأهمية. ونشأت الزهور مع النحل والفراشات، وإذن فنحن قد وصلنا إلى عصر الزهور. وقد ظهرت النباتات المزهرة واضحة جلية من زمن بعيد في صخور العصر الميزوزوي المتأخر، أعني الصخور الطباشيرية الأمريكية. وأصبحت تزين كل حدب وصوب. ولكنها في الوقت الذي نتحدث عنه كانت أبرز شيء في الطبيعة في كل مكان، وأخذ العشب يصبح حقيقة عظيمة من حقائق العالم. نعم قد بدت أنواع منه في العصر الميزوزوي المتأخر ولكنه لم تظهر سهول العشب ومروج الخضارى Turf إلا مع الزمن الكاينوزوي. فقد انتشرت في عالم كان من قبل أجرد صخريا.

وافتتحت تلك المدة بفترة طويلة من الحرارة العالية ثم برد العالم. وقد صحب مستهل هذا الجزء الثالث من أجزاء السجل (أي هذا العصر الكاينوزوي) تغضن هائل في القشرة الأرضية؛ كما صحبه تكوين السلاسل الجبلية. فجبال الألب والإنديز والهيملايا كلها سلاسل جبلية كاينوزوية. ولو أنّا توخينا الدقة لجعلنا في خلفية صورة العصر الكاينوزوي المبكر بركانًا ثائرا أو ما يقارب. ولا بد أيضا أنه كان عصر زلازل شديدة.

---

(٢٦) الساكوانيات شجر أمريكي من المخروطيات قد يبلغ ٣٠٠ قدم ارتفاعاً. المترجم).

ويقسم الجيولوجيون الحقب الكاينوزوي إلى عدة أقسام رئيسية – نرى من المناسب أن نذكرها لك ها هنا وأن نشير إلى مناخها. فيأتي عصر الإيوسين Eocene أولاً (ومعناه فجر الحياة الحديثة) وهو عصر حرارة غير عادية. وينقسم إلى الإيوسين القديم والحديث. ثم يأتي الأوليجوسين Oligocene (ومعناه ذو القليل فقط من الحياة الحديثة)، وفيه كان المناخ لا يزال متعادلاً. فأما عصر الميوسين Miocene (أي الذي فيه الأنواع الحية لا تزال أقلية) فهو العصر العظيم الذي تكونت فيه الجبال، والذي أخذت فيه الحرارة العامة في الهبوط. وفي البلايوسين Pliocene (أي الذي بقي من أنواعه أكثر مما باد)، كان المناخ في الأغلب على حالة الراهنة؛ ولكن بظهور البلايوستوسين Pleistocene (أي صاحب الغالبية العظمى من الأنواع الحية) ابتدأت حقبة طويلة ظروفها متطرفة، هي حقبة العصر الجليدي العظيم امتدت فيها الثلاجات (الأنهار الجليدية) من القطبين في اتجاه خط الاستواء، حتى تغطت انجلترا بالجليد إلى نهر التاميز.

ثم تلتها بعد ذلك مدة انتعاش جزئي استمرت إلى زماننا. وربما كنا نقترب الآن من دور أدفأ وربما أصبح عالمنا بعد نصف مليون من السنين أسطع شمسا وأبهج للعيش مما هو الآن.

(٢)
بدء ظهور التقاليد وتوارثها في العالم

ظهرت في الغابات أضرب كثيرة وعدد وافر من الثدييات، وأخذت تتعقب العشب على سـهول العصـر الأيوسيني. ويحسن بنا قبل أن نقدم على أي وصف لهذه الثدييات أن نبين لك – بوجه عام – ماهية الثديية:

فقد حدث تطور متزايد مطرد في الحيوانات الفقارية منذ ظهور هذه الحيوانات في العصـر الميـزوزوي الأدنى حالما انسابت الأسماك أول مرة إلى البحر أسرابا. وما السمكة إلا حيوان فقاري يتنفس بخياشـيمه ولا يستطيع أن يعيش إلا في الماء. وفي استطاعتنا وصف الحيوان البرمائي بأنه سمكة أضـافت إلـى تنفسـها بخياشيمها قوة استنشاق الهواء بوساطة مثانة العوم عند بلوغها كمال نموها، وبأنها أنشأت أيضا أطرافًا لهـا خمس أصابع تقابل ما في السمك من زعانف.

وأبو ذنيبة يظل ردحا من الزمن سمكة تسكن الماء، ثم يصبح إذا نما مخلوقًا بريا. فأما الزواحـف فهـي مرحلة أعلى من مراحل هذا الانفصال عن الماء؛ بل هي في الحقيقة برمائي زالت عنه صـفته البرمائيـة، وهي تمر في مرحلة أبي ذنيبة الخاصة بها (أي في مرحلة السمكة) وهي في البيضة، ولا تستطيع البتـة أن تتنفس تحت الماء كما يفعل أبو ذنيبة.

وما الثدييات العصرية إلا نوع من الزواحف قد نُمي له حول جسمه غلافًا واقيا خاصا قوي الأثـر هـو الشعر. كما أنه يحتفظ ببيضه داخل بدنه حتى ينقف عنها وبذلك ينتج صغارا حية فهو كائن "ولود" يلد صغاره أحياء ثم يعنى بها حتى بعد ولادتها ويغذيها بأثدائه زمنًا قد يطول وقد يقصر. وبعض الزواحف – نذكر منها بعض الأفاعي على سبيل المثال – ولود لا تبيض، ولكن ليس منها ما يلازم صغاره كمـا تفعـل الثـدييات الحقيقية. فكل من الطيور والثدييات التي نجت من جميع العوامل والقوى المهلكة التي قضت على زواحـف العصر الميزوزوي، تلك الطيور والثدييات التي عاشت وتسلطت على العالم الكاينوزوي، يجمعهـا الأمـران الآتيان:

أولاً : أن لها وقاء يحفظها من تقلبات الحرارة أقوى أثرا مما تولد عن أي تغيير أنتجه نوع الزواحف.

ثانيا : عناية خاصة منها ببيضها لوقايته من البرد، فالطير من ناحيته يقي بيضه بالحضـانة، والثـديي بالاحتفاظ بالصغير في بطنه ويميله إلى رعاية الصغار مدة معينة بعد النقف أو الميلاد – وإذا وازنا الزواحف العادية بالثدييات قلنا إن الأولى عديمة العناية بصغارها.

وواضح أن الشعر كان أقدم مميز للثدييات يفرق بينها وبين سائر الزواحف. ومن المشكوك فيه أن زواحف الثريودونت Theriodont التي أنبتت الشعر في العصر الميزوزوي الباكر كانت ولودا Viviparous – ولا يزال ثدييان يعيشان إلى يومنا هذا لا يقتصران على عدم إرضاع صغارهما بل يبيضان – وهما: الأورنيثيورهينخوس Ornithorhynchus والإحيدنا Echidna، وعاش في العصر الأيوسيني عدد من أشكال مقاربة لهذين. وهذان المخلوقان، وإن كانا لا يرضعان صغارهما، يفرزان سائلاً مغذيا من غدد متناثرة على الجلد في جانب البطن. بيد أن الغدد ليست مجموعة إحداها إلى الأخرى لتكون أثداء لها حلمات للرضاعة – كما هي الحال في الثدييات الأخرى – بل تبض المادة عندما تكون الأم راقدة على ظهرها فيرتفع الصغار فوق جلدها المندى؛ وإذن فهي البقية الباقية مما كان – على الأرجح – مخلوقات أوفر عددا وأشد تنوعا، مخلوقات بياضة ذات شعر، وهي زواحف وطامرات ومتسلقات وعداءات متشعرة، تضم الأسلاف التي كانت في العصر الميزوزوي والتي جاءت منها كل الثدييات الموجودة الآن، مرتفعة حتى تشمل الإنسان. ومع كل هذا فربما عثرنا في أي وقت داخل إحدى طبقات الصخور التي تبعد اليوم عن منال أيدينا، على أمثلة من هذه "الحلقات المفقودة".

وإذا شئنا أن نصوغ الحقائق الأساسية المتعلقة بالإنتاج في الثدييات بعبارة أخرى، قلنا إن الثديي حيوان عائلي. وتتضمن العادة العائلية إمكان حدوث نوع جديد من استمرار الخبرة في العالم. وعليك الآن أن توازن بين إحدى السحالي (العظايا) في حياتها التامة الانقطاع عما سواها، وبين حياة أي نوع من الثديي ولو كان في غاية الانحطاط. فأما النوع الأول فليس لديه أي استمرار عقلي متصل بأي شيء آخر عدا ذاته، فهو عالم من الخبرة قائم بذاته مستقل بنفسه، يعيش لخدمة أغراضه وغاياته، على حين "يلتقط" الثديي من أمه ما "يسلمه" لنسله.

وجميع الثدييات فيما عدا الجنسين اللذين ذكرناهما آنفا وصلت قبل العصر الأيوسيني الأدنى إلى هذه المرحلة التي تعتمد فيها الصغار على غيرها وتقلد ما سواها قبل البلوغ. وكانت كلها مع شيء من التفاوت بينها مقلدة لغيرها في شبابها، ذات استعداد لقدر طفيف معين من التعليم، وهي جميعها قد نالت من أمها قدرا معينًا من الرعاية والمثل الذي يحتذى، بل نالت شيئًا من التوجيه - نالتها باعتبارها جزءا من نموها. وهذا القول يصدق على الضبع والكركدن صدقه على الكلب والإنسان. والتفاوت في قابلية التعليم جد كبير، ولكن أحدا لا ينكر حقيقتي حماية الصغار وقابليتهم للتعليم في طور الحداثة.

وقد كانت هذه الثدييات الجديدة بوصف كونها نوعا من الحيوانات الفقارية وبما لها من ميل إلى حماية الصغار حتمته صفتها الولود، وهذه الطيور بما لها من ميل إلى الحضانة وحماية الصغار، تُدخل في مقتبل العصر الكاينوزوي شيئًا جديدا في قصة الحياة الآخذة في الانتشار هو: الميل إلى الاجتماع (الترابط الاجتماعي)، وهو الإضافة التي أضيفت إلى تلك الغريزة الصلبة غير المرنة غريزة "التقاليد" والجهاز العصبي اللازم لتلقي التقاليد.

وبعد فإن جميع هذه المستحدثات التي تضم إلى تاريخ الحياة، تبدأ بداية وضيعة جدا. إن الأوعية الدموية المزودة بها مثانة العوم في سمك الطين الذين كان يعيش في أنهار السيول في العصر الباليوزوي الأدنى، والتي أمكنته من أن يحتمل فصل الجفاف، كانت تبدو حينذاك ولا شك لزائر كوكبنا الذي لا جسد له (وهو شعلة العقل التي تصورناها في فصل سابق) من الأشياء الثانوية قليلة الأهمية جدا، في ذلك العالم القديم الزاخر بالقروش العظيمة والأسماك المدرعة، وعقارب البحر والحواجز المرجانية والأعشاب البحرية. ولكنها هي التي فتحت الطريق الضيق الذي صعد منه حيوان البر الفقاري إلى مراقي التسلط والغلبة. وربما بدت له سمكة الطين حينذاك لاجئًا مسكينًا يفر من عدوان الأحياء التي يعج بها البحر. ولكن ما كادت الرئة تظهر في عالم الأحياء حتى أخذ كل نوع من أنواع ذوات الرئات يحسن رئته.

وكذلك شأن ما حدث في العصر الباليوزوي الأعلى، فقد يبدو شروع بعض البرمائيات في فقدان صفاتها البرمائية بتأخيرها في نقف بيضها، مجرد استجابة للخطوب الداهمة التي كانت تهدد صغيرها أبا ذنيبة. ومع ذلك فإن هذا هو الذي مهد لجمهور الزواحف الظافرة في العصر الميزوزوي غزو الأرض الجافة إذ فتح اتجاها جديدا نحو حياة برية حرة قوية، سارت فيه كل الحيوانات الزاحفة.

وهذا التدريب الذي يمارسه الولود الحادب على أولاده والذي مرت فيه أسلاف الثدييات أثناء عصر المهانة والمصاعب التي مرت بها، قد أثار في العالم استمرارا جديدا للوعي لم يبدأ الإنسان نفسه أن يقدر قيمته إلا في العصر الحاضر.

(٣)

عصر نمو المخ والعقل

يتمخض العصر الأيوسيني عن عدد من أنماط الثدييات. يتفرع بعضها أنواعها في اتجاه ما وبعضها في اتجاه آخر، بعضها يكمل نفسه ليصير من العاشبات ذوات الأربع. وبعضها يقفز ويتسلق الأشجار. ويتجه البعض الآخر عائدا إلى الماء ليسبح فيه. ولكن الأنماط جميعها تستثمر وتنمي عن غير وعي منها: مخها، وهو آلة القوة الجديدة، قوة التحصيل وقابلية التعليم. فمن الممكن أن يسمى إذن عصر الزهور هذا، وعصر الطيور والثدييات، أي الحقب الكاينوزوي، باسم عصر العقل النامي. وكذلك توجد في الصخور الأيوسينية بعض أسلاف أولى صغيرة للحصان (Eohippus) وجمال صغيرة وخنازير وتابيرات أولى (Early Tapirs) وقنافذ أولى وقردة وهبارات (ليمور) وكيسيات (Opossums) ولحمات [٢٧]. كل هذه كانت إلى حد ما أجدادا للأشكال الحية، وكان لها كلها أمخاخ أصغر كثيرا من أمخاخ ما يمثلها من الأحياء. فهناك مثلاً حيوان قديم قريب الشبه بالكركدن (الذي يعيش معنا الآن) اسمه التيتانوثريوم Titanotherium حجم مخه لا يزيد على عشر حجم مخ الكركدن الحالي. وليس الكركدن بأي حال من الأحوال هو المثال الكامل للدارس اليقظ المطيع. ومع ذلك فإن قوة ملاحظته وقابليته للتعلم تبلغ عشرة أضعاف ما كان لسلفه، وتنطبق هذه الحقيقة على كل الفصائل والعائلات التي تعيش حتى يومنا هذا، فقد كانت جميع الحيوانات الكاينوزوية بلا استثناء تقوم بهذا الأمر تحت إلحاح ضرورة تشملها جميعا. كانت كلها تنمي العقل. وكان هذا تقدما متماشيا بعضه مع بعض في جميع الأحياء سواء، ففي نفس الفصيلة أو العائلة التي تعيش اليوم تجد المخ في العادة يعادل من خمسة إلى عشرة أضعاف ما كان لدى سلفها الأيوسيني.

وقد أظهرت لنا المدة الأيوسينية مجموعة كاملة من الوحوش العاشبة ليس لها ممثل يعيش الآن، ومثالها الوينتاثير Uintatheres والتيتانوثير Titanatheres. وقد طردتها أشكال عاشبة Graminivorous أشد تخصصا حين كان العشب ينتشر في العالم. ثم جاءت أسراب كبيرة من الكلاب البدائية تتعقب هذه الوحوش، كان بعضها يعادل الدب في حجمه، وجاءت القطاط الأولى، أخص منها بالذكر السميلودون Smitodon (وهي مخلوق صغير تبدو عليه سمة الشراسة، له أنياب تشبه السكاكين) والببر Tiger الأول ذو السن السيفية الذي قدر له أن يتطور فيكون أشياء أعظم منه وتظهر لنا رواسب العصر الميوسيني في أمريكا أنواعا كثيرة من الجمال: منها جمال الزرافة ذات الرقاب الطويلة، والجمال الغزلانية واللامات والجمال الحقيقية. والظاهر أن أمريكا الشمالية كانت في معظم الزمن الكاينوزوي على اتصال سهل بآسيا، فلما أن فصلت بين إقليمي القارتين العظيمتين أخيرا ثلاجات العصر الجليدي الأعظم، ثم مضيق بيرنج Bering فيما بعد، بقيت الجمال الحقيقية في العالم القديم كما بقيت اللاما في العالم الجديد.

وتظهر في العصر الأيوسيني أول أسلاف للفيلة في شمال أفريقيا على صورة مخلوقات ذات فنطيسة طويلة Snout؛ فأما خرطوم الفيل المميز له فإنه لم يبزغ في العالم إلا في العصر الميوسيني وأخذ يطول على كر الدهور.

---

(٢٧) لحمات (Carnivorax) بفتح اللام وكسر الحاء أي آكلة لحم. [المترجم].

(٤)

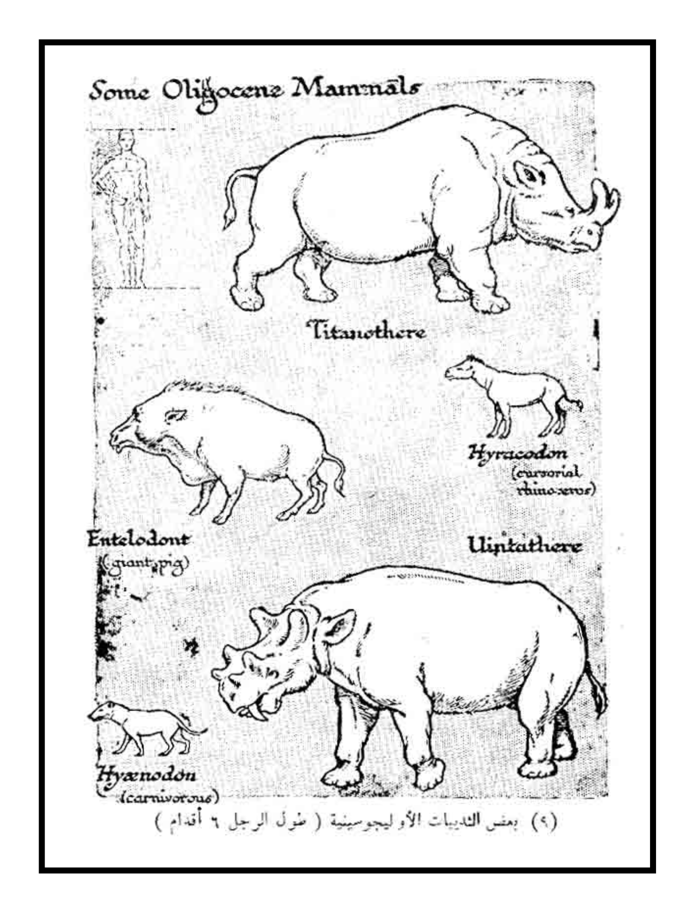
عودة العسر إلى العالم ثانية

دأب العالم الدوار على حركته حول الشمس خلال حياة ملايين كثيرة من الأجيال الحيوانية، ثم أخذ مداره – ولعله كان مستدير الشكل تقريبا إبان العصر الأيوسيني المبكر المعتدل المناخ – ينجذب في بطء بفعل جاذبية الكواكب الخارجية الدوارة، ويتخذ شكلاً أقرب إلى الإهليلجي. وأخذ محور دورانه، وكان يميل إلى مستوى مداره كما تميل السفينة في مسيرها في البحر نحو الماء، يزداد انحرافه قليلاً قليلاً بدرجات غير محسوسة. وكان أقصى حد الصيف فيه ينحرف في كل عام، مبتعدا قليلاً عن الحضيض حول مساره.

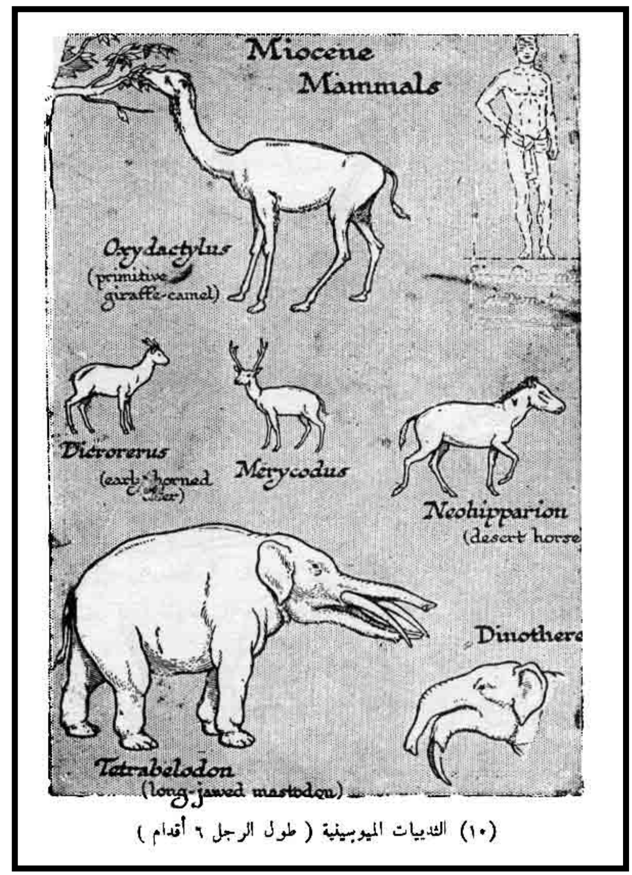
لقد كانت هذه تغيرات تعد من التوافه لو حدثت على مدى بضعة ملايين من السنين في كرة قطرها بوصة تدور على بعد ٣٢٢ ياردة من شمس متأججة قطرها ٩ أقدام. فهي تغيرات لو تسنى لها على كوكب نبتيون فلكي سرمدي خالد يلحظ الأرض من عصر إلى عصر لخفيت عليه ولم يشعر بها. ولكنها كانت أحداثًا جساما عميقة الأثر لو نظر إليها من ناحية حياة الثدييات المتكاثفة في العصر الميوسيني. إذ طفقت الأشتية تصبح في جملتها عصرا فعصرا أكثر بردا وأشد عسرا وأطول أمدا، بالنسبة للأصياف. وكانت الأصياف تتقاصر من عصر إلى عصر. وكان ثلج الشتاء يتلكأ في الربيع في كل قرن عن سابقه بمعدل ثابت. وكانت الثلاجات في الجبال الشمالية تتقدم بوصة في هذه السنة وتتراجع نصف بوصة السنة التالية ثم تتقدم مرة أخرى بضع بوصات.

وينبئنا سجل الصخور عن ذلك البرد المتزايد، ولكن عصر الميوسين كان معتدل الحرارة. وكان كثير من الحيوانات والنباتات المحبة للدفء قد انصرف عن خطوط العرض المعتدل. ثم أخذ الجليد يتقدم ويتوغل في المناطق المعتدلة من الأرض بضعة أقدام أو بضع بوصات تقدما أقل استمرارا وانتظاما بدرجة ما.

وتظهر على المسرح في العصر البلايستوسيني (Pleistocene) أنواع حيوان Fauna المنطقة القطبية من أمثال ثور المسك والماموث الصوفي والكركدن الصوفي.



(٩) بعض الثدييات الأوليجوسينية (طول الرجل ٦ أقدام)



(١٠) الثدييات الميوسينية (طول الرجل ٦ أقدام)

واللمنج Lemming وأخذ الجليد يتقدم فوق أمريكا الشمالية وفوق أوربا وآسيا على السواء. واستمر تقدمه مدى آلاف من السنين، ثم أخذ يتأخر آلاف سنين أخرى ليتقدم بعدها من جديد. وظلت أوربا حتـى سـواحل بحر البلطيق وبريطانيا حتى نهر التاميز، وأمريكا الشمالية حتى منطقة نيو إنجلند جنوبا – وفي الوسط حتى منطقة نهر الأوهيو، مغمورة بالأنهار الجليدية أجيالاً عدة. وسحبت من المحيط مقـادير هائلـة مـن المـاء فاعتقلت في هذه الأغطية الثلجية المدهشة، حتى لقد أحدثت في المستويات النسبية بين البحر والبر تغييرا عم العالم. وتعرت من الماء مساحات فسيحة من الأرض عادت اليوم مرة ثانية فأمست في قعر المحيط.

ولا يزال العالم في أيامنا هذه يلقي عن نفسه، رويدا، بعض أثقال آخر موجة من سلسلة موجـات البـرد. وليس معنى ذلك أنه آخذ في الدفء بانتظام، وإنما حدثت فيه ولا تزال تحدث تقلبات. وشاهد ذلك أنه توجـد إلى الآن مثلاً بقايا لأشجار البلوط التي نمت في المستنقعات قبل ألفين أو ثلاثة آلاف من السنين في اسكتلندا، على درجات عرضية لا تستطيع أن تعيش فيها في الوقت الحاضر حتى أشجار البلوط الواقفة عن النمو وقد يستمر هذا التغيير غير المحقق نحو الدفء، أو لا يستمر. فهذا ما لا نعرفه.

وأول مرة نجد فيها حيوانًا نميز فيه شكلاً يشابه شكل الإنسان، تجيء في حدثان ما كان يعتـري الأرض من ازدياد ونقصان الصقيع والثلج، في العصر الجليدي: ذلك أن عصر الثدييات قد بلغ أوجه بظهور الجليـد والشدائد والإنسان.

الكتاب الثاني

كيف تكون الإنسان

الفصل السادس

القردة وأشباه الإنسان والإنسان

١- أصل الإنسان.

٢- الآثار الأولى للمخلوقات الشبيهة بالإنسان.

٣- شبه الإنسان الهيدل برجي.

٤- شبه الإنسان البلتدوني.

(١)
أصل الإنسان

كان موضوع أصل الإنسان وعلاقته بالحيوانات الأخرى مثار جدل ونقاش شديد طيلة السنوات المائة الأخيرة. والرأي السائد بين العلماء هو أن الإنسان انحدر من أسلاف أدنى منه مرتبة، شأنه في هذا شأن سائر الثدييات، وأنه والقردة الكبيرة ومنها الشمبانزي والأورانج أوتانج Orang–Outang والغوريلا كان لها جميعا يوما ما جد مشترك وأن هذا الجد قد تطور من أشكال أدنى منه أيضا، أي من نمط من أنماط الثدييات القديمة انحدر هو أيضاً من أزاحفة ذات هيئة حيوانية، وهذه نفسها انحدرت أيضا من سلسلة البرمائيات، وهذه بدورها من الأسماك البدائية. وترتيب قائمة النسب هذه قد بني على مقارنة مشرح [٢٨] الإنسان بمشرح غيره من الحيوانات الفقارية وتثبته كذلك الأدوار العجيبة التي يمر فيها جسمه وهو جنين قبل ميلاده. فإنه يبتدئ كأنما قد هيئ ليكون سمكة مزودا بشقوق طولية للخياشيم وقلب وكلية يشبهان ما لدى السمك ثم يمر في أدوار تذكرك بالبرمائيات وبالزواحف ثم يعيد أشكال تركيب الثدييات الدنيا. ويكون له ذنب يبقى ردحا من الزمان. وهو لا يبدأ بأن يكون إنسانًا حتى في إبان تطوره الفردي، بل لا يبرح يكافح سعيا إلى الإنسانية، وهو يذكرنا بالقردة في عشرات من أشياء صغيرة لا نفع له من ورائها، نراها مثلاً في شعره وفي اتجاه الشعر على أطرافه.

ولقد صيغ الإنسان فصار إلى هذه الحالة التي نراه عليها اليوم من القوى والمواهب والآمال خلال ملايين وملايين من أفراده مرت في الحياة تباعا. فانتقل بذلك من حال كان فيها مجرد هزة وحركة في الماء إلى ما ترى من حال. وها هو ذا يواجه بعزم ووعي متزايدين مصائر جنسه البشري التي يخطئها الحصر. وكاتب هذا الكتاب من أشياع هذه الفكرة عن أصل الإنسان فهي في نظره فكرة قوية الأساس متينة البنيان. ولكن يجدر بنا أن نتذكر أن موضوع تسلسل الإنسان الحيواني لا يزال ينكره بغاية الشدة كثير من الرجال المقتدرين بل كثير من رجال العلم. فحكومة ولاية تنسي Tennessee مثلاً قد بلغ من اقتناعها بنقيض هذه النظرية أن منعت تدريسها في جميع مدارسها وكلياتها. ويبدو أن الغرض من ذلك هو الرغبة في عدم الإشارة إلى هذه الفضيحة العائلية!!؟... وفي أثناء المحاكمة التي حدثت في ديتون عقب ذلك الحظر وضعت حجج المستر وليم جاننج بريان (الذي تابع في الرأي نموذجه العظيم مستر جيفرسون) في الميزان إزاء العالم البيولوجي بأكمله!!

---

(٢٨) المشرح هو التركيب التشريحي للكائن الحي.

وقد يدعي بعضهم أحيانًا أن هيئات دينية مختلفة وخاصة الكنيسة الكاثوليكية تعترض على هذه الفكرة التي تنسب الإنسان إلى التسلسل عن أسلاف حيوانية، ولكن يبدو أن هذا غير صحيح. فإن الكنيسة الكاثوليكية ليست أكثر إيمانًا بأن الإنسان قد خلق خلقًا خاصا، منها بأن الأرض مسطحة، أو أنها مركز العالم الذي تدور حوله الشمس. ولقد تصور الناس زمنًا ما أن هذه تعاليم الكنيسة، ولكن هذا كله قد أزيح عنه الغموض إزاحة تامة. ويخالف كثير من الأفراد المؤمنين هذا الرأي العلمي لأنهم يحسون أنه أكرم لهم أن يعتقدوا بأن الإنسان سقط وانحط من أن يعتقدوا بأنه أرتفع، ولكن اعتراضهم لا يقيد كنيستهم بوجه عام. وواجب المؤرخ أن يعالج الأمر لا من حيث لياقته بل من حيث حقيقته. والواقع أنه لا توجد اليوم أية هيئة مسيحية كبيرة العدد تصر على قبول نص الكتاب المقدس قبولاً حرفيا دقيقًا، فمن الخير أن تمنح هذه النصوص من الحريات ما يمنحه الشعر ومجازاته ودواعيه من سعة التصرف وانطلاق السراح. وما دام علماء الأحياء لا يصرون على وجود أصل حيواني لروح الإنسان فلن يكون هناك في الحقيقة أي نزاع بين العلم والدين في هذا الصدد. ومع ذلك فليس من العدل أن نمضي إلى ذكر تسلسل الإنسان دون أن نشعر إلى هذه الفكرة الأولية. ذلك أن الكاتب يقول هنا ما يعتقد أنه الحق وليس من شأنه أن يذكر حجج معارضيه التي لا تبدو في نظره صحيحة سليمة والتي لا يستطيع هو أن ينصفها.

وإنه لمن المستطاع في كثير من الثدييات الكبيرة أن نتابع تسلسل الأنواع الحية منها بحيث نماشيها خطوة فخطوة حتى نصل بها إلى أسلافها الأيوسينية. تلك هي الحال فيما يختص بالفيلة والجمال والخيول مثلاً. فالسلسلة في هذه الأمثلة بالغة غاية الاكتمال. ذلك أنه توجد هناك أحشاد من النماذج تحوي مظاهر التدرج الوثيق، ولكن لا بد لنا من التسليم بأن البقايا الباقية في الحفريات لأسلاف الإنسان نادرة ناقصة، وأن هناك ثغرات واسعة تنتظر من يسد خلّتها. وفي الأيام التي لفت فيها العالم الطبيعي الإنجليزي العظيم تشارلز داروين Charles Darwin أنظار العالم إلى هذه المسألة بكتابه "تسلسل الإنسان [٢٩] " كانت البقايا الإنسانية القديمة التي ترجع إلى ما قبل التاريخ نادرة لا غناء فيها. فقد بدا أن بين الإنسان والقرد العظيم هوة هائلة وأصبحت "الحلقة المفقودة" كلمة تتداولها الألسن في المناقشات العامة. ولم تطل أيدينا آثارا تدل على مخلوقات يبدو عليها أنها وسط بين طرفي تلك الثغرة العظيمة إلا في عصر حديث جدا. وأدعى كل هذه الآثار إلى الدهشة هي جمجمة تاونج Taung التي اكتشفت ١٩٢٤ والتي وصفها فيما بعد العلامة دارت Dart اليوهانسبرجي، وسلسلة الجماجم العجيبة التي لمخلوق شبه إنساني (سينانثروب Sinanthropus) والتي وجدت في بيكين في زمن أحدث من هذا. وكلا هاتين اللقيتين تبين مخلوقات كانت من وجوه كثيرة في منتصف الطريق بين الإنسان والقرد. فأسنانها وفراغ مخها وكيفية حملها رأسها وانحدار جبهتها أقرب إلى الهيئة الإنسانية من أي قرد كان، وأقرب إلى هيئة القرود من أي جنس إنساني يحفظه لنا السجل.

(٢٩) The Descent of Man

وكثيرا ما يدعي بعضهم بأن داروين يقول إن الإنسان ينحدر من بعض القرود الشبيهة بالإنسان من أمثال الشمبانزي والأورانج أوتانج أو الغوريلا. وهو ادعاء فيه من الصدق بقدر ما في القول إن مؤلف هذا الكتاب ينحدر عن أحد أفراد الهوتيتوت أو الإسكيمو الذي يعادله سنًا أو يصغره. ويقول البعض الآخر وقد تنبهوا لهذا الاعتراض إن الإنسان ينحدر من السلف المشترك الذي يجمعه هو والشمبانزي والأورانج أوتانج والغوريلا. بل إن بعض علماء الإنسان Anthropologists يقولون بنظرية مؤداها أن بني الإنسان يعودون إلى أصلين أو ثلاثة أصول، فالزنوج ينحدرون من سلف يشبه الغوريلا بينما ينحدر الصينيون من أورانج أوتانج أولي، على حين يجيء الجنس الأبيض من سلف يشبه الشمبانزي وهكذا. وبناء على هذه النظرية الألمعية يكون الشمبانزي هو الأخ الدنيء للأوروبي وله الحق والأفضلية في أن يطعم على مائدته وأن يصاهر خير الأسر (النوردية) أكثر مما للزنجي أو الصيني اللذين هما أبعد منه صلة!!! تلك أفكار عقيمة مستحيلة لا يجيزها العقل السليم وما نذكرها هنا إلا لننبذها. وقد كان المظنون من قبل أن سلف الإنسان كان على الأرجح حيوانًا شجريا، ولكن يلوح أن الرأي الساري بين من يؤهلهم علمهم لإبداء الرأي في هذا الشأن، هو أن الإنسان كان قردا أرضيا وأن القردة الحالية تطورت فصارت حيوانات شجرية عن أصلها الذي كان أقل تسلقًا للأشجار.

وإذا ما وضعنا هيكل الإنسان العظمي إلى جوار هيكل الغوريلا، فإنا نجد التشابه العام بينهما بالغًا من الدقة مبلغًا يسهل علينا معه أن نستنتج على الفور أن الأول قد انحدر من نمط يشبه الثاني بعملية نمو في المخ وتهذيب عام. ولكن متى فحص الإنسان عن بعض الفروق فحصا دقيقًا، اتسعت أمامه شقة الاختلاف. ولقد زادت العناية في المدة الأخيرة زيادة خاصة بوطء القدم. فالإنسان يمشي على أصابع قدميه وعقبيه. فإبهام قدمه هو رافعته التي يعتمد عليها في عملية المشي كما يتبين القارئ ذلك بنفسه إذا فحص عن بصمات أقدامه على بلاط الحمام ولحظ مواقع الضغط عندما تخف وتضعف بصمات القدم. فإبهام قدمه هو أمير أصابع قدميه.

وإذا نظرنا إلى كافة القرود الكبيرة والصغيرة رأينا أن الفئة الوحيدة التي تطور فيها الإبهام على أية شاكلة مماثلة لطريقة الإنسان هي بعض أصناف الهبار Lemurs. والرباح Baboon [٣٠] يمشي على قدم مسطحة وعلى جميع أصابعه ويجعل إصبعه الوسطى أهم رافعة في رجله على نفس طريقة الدببة. فأما القردة الكبرى الثلاثة فإنها بأجمعها تمشي على الجانب الوحشي للقدم على هيئة تخالف مشيئة الإنسان كل المخالفة.

ولما كانت القردة الكبرى من ساكنات الغابات فمشيها وليد الصدفة؛ أجل ليست لها خفة السعدان Monkey بين الأشجار. بيد أنها بحكم عادتها كثيرا ما تكون بعيدة عن الأرض فوق الشجر. وأثقلها وألصقها بالأرض هي الغوريلا. فهي عندما تكون على الأرض، كثيرا ما تستعمل أطرافها الأمامية وتجري على عقَل أصابعها على هيئة أشد ما تكون بعدا عن الهيئة الإنسانية. وأذرعها أطول نسبيا من أذرع الإنسان

---

(٣٠) ويسمى أيضا القرد الكلبي لأن رأسه كرأس الكلب، وهو قرد أفريقي مستطيل الوجه كبير الشفتين قصير الذنب أنيابه كأنياب الكلب. (المترجم)

بدرجة كبيرة، ولها طرائق في التسلق مميزة لها. إذ هي تتأرجح بأذرعها أكثر مما تتأرجح السعدان ولا تقذف نفسها بقفزة من القدمين شأن السعادين إذ ليس لها ذيول تعينها على هذا. بل لها طراز للتسـلق قـد تطـور تطورا خاصا. ولكن الإنسان يسير على هيئة حسنة ويجري في سرعة عظيمة توحي إليك بوجود نسب مديد له على الأرض. هذا إلى أنه لا يستطيع أن يحسن التسلق اليوم بل يتسلق وهو على جانب الحذر والتردد.

ويخيل إلينا أن البشير بمجيء الإنسان وأشباه الإنسان وهو الذي سنصفه لك الآن، كان في أوائل الحقـب الكاينوزوي وهو الزمن الثالث أو زمن الحياة الجديدة – قرد عداء يعيش معظم عيشه على الأرض ويختفـي بين الصخور أكثر مما يتوارى بين الأشجار شأن سعدان جبل طارق. وكانت مقدرته على تسلق الأشـجار لا بأس بها كما كان يستطيع أن يقبض الأشياء بين إبهام قدمه وبين إصبعها الثاني (كما يفعل اليابانيون اليـوم)؛ ولكنه كان قد اتخذ طريق النزول إلى الأرض ثانية جريا على ما سار عليه سلف شجري له أقدم منه عـاش في الزمن الميزوزوي (وهو الزمن الثاني أو زمن الحياة الوسطى).

ويلاحظ فوق ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يسبح بطبيعته بل لا بد له أن يتعلم السباحة تعلما، وكأني بهذا معبرا ومشيرا إلى تباعد طال أمده بينه وبين الأنهار والبحيرات والبحار. وواضح جلي أنه قلما مـات هـذا المخلوق في الماء تحت ملابسات تجعله يخلف عظاما تتحول فيما بعد إلى حفريات.

ويجب علينا أن نتذكر فيما نتذكر من النقائص الكثيرة الأخرى التي تنسب إلى السجل الجيولوجي، أنه يحتوي بالضرورة على أدلة جمة تدل على مخلوقات الماء أو على مخلوقات المستنقعات أو على مخلوقات سهلة الغـرق كثيرته دون غيرها من المخلوقات. والراجح أن الأسباب التي تجعل أي أثر من أسلاف الثدييات نـادرا صـعب المرام نسبيا في الصخور الميزوزوية، هي نفس الأسباب التي جعلت آثار من عسى أن يكونوا أسـلافًا للإنسـان نادرة يعسر العثور عليها نسبيا في الصخور الكاينوزوية. ويكاد يكون ما لدينا من المعلومات عن الإنسـان الأول مأخوذًا بأسره من بعض كهوف لجأ إليها وترك فيها من بعده أثرا. وكانوا قبل ذلك يعيشون ويموتون في العـراء أو في الغابات حتى حل العصر البلايستوسيني المتطرف المناخ فبليت أجسامهم أو تحللت تحللاً تاما.

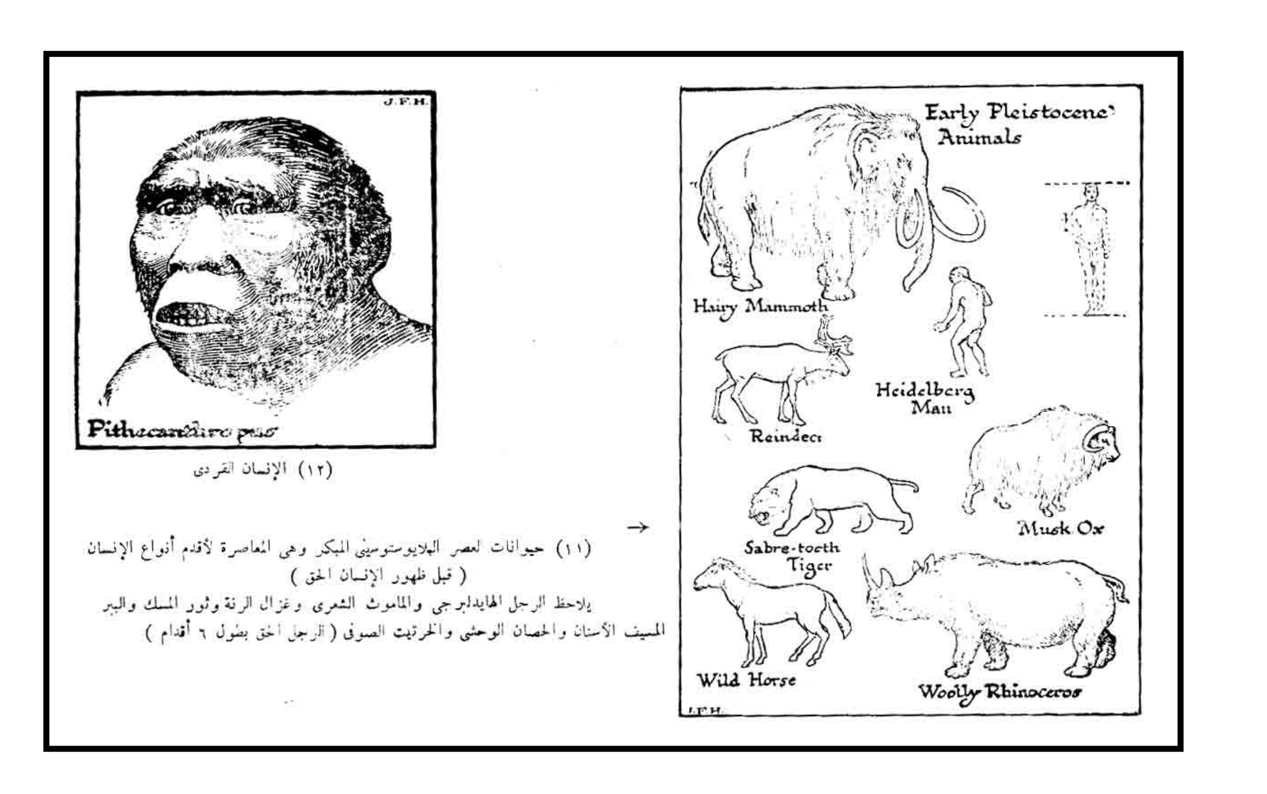
وفضلاً عن ذلك، فإن أسلاف الإنسان لم تكن في أي يوم من أيامها جنسا موفور العدد جدا شأنها في ذلك شأن القردة الكبيرة اليوم. ولم يكونوا مثلاً كالخيول البرية أو الغزلان التي تستطيع أن تعيش رعائل وأسرابا، ويمثلهـا مئات وآلاف من الأفراد في كل جبل، إن لم يمثلها الملايين. ولابد أن كثيرا من هذه الكائنات قد ابتلعه المـاء أو اجتذبته فيه التماسيح أو قتلت في الوحل قرب مستقاها، وبهذه الطريقة تتحول في سهولة إلى حفريـات. وعلـى نقيض ذلك تسير القردة الكبرى فرادى أو مثنى مثنى وخلفها طفلها أو طفلاها وهي تتجول في مساحات فسـيحة تبحث عن طعامها أو تطارد من ينافسها من أبناء جنسها، فهي مخلوقات منفردة يحتاج كل فرد منها إلى قطعـة أرض لنفسه. وهي تحتاج إلى طعام من نوع خاص جدا. ومن المشكوك فيه أن يكون في العالم بأجمعه أكثر من بضعة آلاف من أفراد الغوريلا بل قد لا يجاوز عددها بضع مئات. وربما مرت في العالم منها أجيـال بأسـرها دون أن يدخل فرد واحد منها في عداد الحفريات. وثمة طائفة من الأسباب تحملنا على الاعتقاد بأن سلف الإنسان كان قردا منفردا من طراز يشابه تلك. وأنه كان يتجول وحيدا أو في عائلات صغيرة على مساحات متسعة مـن الأرض. ومن الجائز أن تكون عشرات من أنواع قريبة من هذا النوع تعيش في مثل هذه الظروف، قد بادت عن آخرها ولم تكد تترك بعدها أثرا واحدا. ولهذا ندرت الفرص التي يعثر بها علماء الإحاثة على ذلك الأثر.

ومن الخير أن نتذكر أيضا أن "سجل الصخور" لا يزال في حاجة إلى أن يفحص عنه فحصا دقيقًا وافيـا. لأن ذلك السجل لم يدرسه غير أفراد قلائل وفي مدى بضعة أجيال فقط. ويكاد يكون غرب أوربا وحده هـو الذي ارتيد من هذه الوجهة، وربما وجدت بل الراجح أنه توجد – آلاف من الرواسب تحتوي أجزاء وآثـارا من آثار الإنسان وأسلافه لا تزال سليمة لم تمسسها يد بشر. ولا بد أن تكون أشد الأدلـة إنـارة وإيضـاحا مخبوءة في آسيا وفي الهند والهند الشرقية أو في أفريقيا. فأما في أمريكا فإن وجود شيء شبه إنسـاني بهـا يبدو أقل رجحانًا، وربما كان ما نعرفه اليوم عن الإنسان الأقدم ضئيلاً جدا بالنسبة لما سوف نعرفه قريبا.

ويبدو أن القردة والسعادين كانت قد دخل عليها التمايز بين الأنواع في أوائل الزمن الكاينوزوي. وهنـاك عدد من القردة في العصر الأوليجوسيني والميوسيني لم تعرف بعد علاقة أحدها بالآخر وبقرنائها من أشـباه الإنسان التي سنصفها من تونا. ونستطيع أن نذكر لك بين هذه القـردة الـدريوبثكوس [٣١] Dryopithecus الذي عاش في العصر الميوسيني والذي له فك قريب الشبه جدا بفك الإنسان. وقد وجدت في تلال سـواليك Siwalik في الهند الشمالية بقايا قردة طريفة جدا يتبين المـرء فـي فصـيلتين منهـا همـا السـيفابثكوس Sivapithecus والباليوبثكوس Palaeopithecus بعض ملامح تكـاد تكـون إنسـانية. ولابـد أن نـوع البروبليوبثكوس Propliopithecus الأوليجوسيني في مصر كان مخلوقًا ممتعا جدا. لأسلاف القردة الشبيهة بالإنسان التي تعيش اليوم. كما كان أيضا وثيق القربى بالأصل الذي نسل منه الإنسان.

والراجح أن هذه الحيوانات كلها، هذه الأشكال القريبة من الإنسان، كانت تستعمل الآلات. ويصـور لنـا تشارلز داروين الرباح وهو يكسر البندق بالأحجار ويستعمل الأوتاد يزحـزح بهـا الأحجـار لينقـب عـن الحشرات ويرسمه كذلك وهو يستخدم العصى أو الأحجار في الضرب والقذف. ويصنع الشـمبانزي لنفسـه فوق الشجر نوعا من الخصائص بلفه الأغصان بعضها حول بعض. وقد وجدت في طبقة من طبقات العصر الأوليجوسيني بمدينة بونسل Boncelles في بلجيكا أحجار منحوتة، ظاهر أنها نحتت لتستعمل ومن المحتمل أن يكون الميل إلى استعمال الآلات موجودا من قبل في الأسلاف الميروزويين الذين يلوح أننا ننحدر منهم.

([٣١]) وهي ألفاظ منحوتة من اللفظة اليونانية Pithekos ومعناها القرد. (المترجم)



(١٢) الإنسان القردي

(١١) حيوانات لعصر البلايوستوسيني المبكر وهي المعاصرة لأقدم أنواع الإنسان
(قبل ظهور الإنسان الحق)
يلاحظ الرجل الهايدلبرجي والماموث الشعري وغزال الرنة وثور المسك والببر المسيف الأسنان والحصان الوحشي والخرتيت الصوفي (الرجل الحق بطول ٦ أقدام) ←



(٢)

أول آثار المخلوقات الشبيهة بالإنسان

من بين أقدم آثار بعض المخلوقات الأقوى شبها بالإنسان من أي قرد يعيش على الأرض عدد من قطـع الظران والأحجار، منحوتة ومصوغة صوغًا خشنًا جدا ليسهل إمساكها باليد، ولعلها كانت تستعمل كبلطـات يدوية. وكثيرا ما بلغت هذه الآلات الحجرية Eoliths المبكرة من الخشونة والبساطة حدا آثار حولها جـدلاً دام زمانًا طويلاً مداره هل تعد هذه المنتجات طبيعية أو اصطناعية؟ وكان من بين رواد الفكرة الثانية مسـتر هاريسن وهو بدال بمقاطعة كنت وأحد أولئك الباحثين الأقوياء الملاحظة المتواضعين المخلصين الذين تـدين لهم الجيولوجيا البريطانية بالشيء الكثير. وفي أول الأمر تناول علماء التاريخ القديم فـي عصـره، آلاتـه الحجرية بالشيء الكثير من ألوان السخرية والتهكم. ولكنه اليوم يجد من الأوساط العلمية نصـيرا لـه فـي الاعتراف بأن كثيرا من النماذج التي عثر عليها؛ إنما هي من صنع أشباه الإنسان. ويجب أن نقرن بالفضـل معه المستر و. لويس أبوت الجوهري بمدينة سانت ليونارد فهو الذي كانت خبرته في تركيب الأحجـار ذات قيمة قصوى إبان تلك المناقشات. على حين أن أبحاث المستر ريدموير في رواسـب إيسـت أنجليـا East Anglia التي ترجع إلى العصرين البلايوسيني والبلايستوسيني جاءت عظيمة القيمة الأثـر فـي علاقتهـا بالموضوع كله.

ويرجع الجيولوجيون تاريخ أقدم هذه الآلات إلى العصر البلايوسيني فكأنها جاءت قبل العصـر الجليـدي الأول. غير أنها توجد أيضا طوال الفترة الأولى بين عصري الجليد الأول والثاني. ولسنا نعـرف أن هنـاك عظاما أو أي بقايا أخرى في أوروبا أو أمريكا قد تخلفت عن هذه المخلوقات شبه الإنسانية التي عاشت قبـل نصف مليون من السنين، وهذه المخلوقات هي التي اصطنعت هذه الآلات واستخدمتها. ولا يستثنى من هـذه إلا أثر واحد مشكوك فيه وهو ضرس وجد في حصباء تعود إلى البلايوسيني الأعلـى فـي سـنيك جريـك Snake Greek بنبراسكا، ويظن بعضهم أنه ينتسب إلـى مخلـوق أطلقـوا عليـه اسـم الهسـبروبثكوس Hesperopithecus (أي القرد الغربي) وهو مشوه تشويها كبيرا وربما لم يكن ضرسا لأي قرد شبه إنساني Anthropoid مطلقًا، بل لأحد الحيوانات الداخلة في الحفريات. ولكن وجدت فـي ناحيـة ترينـل Trinil بجزيرة جاوه في طبقات يقال إنها تتفق إما مع العصر البلايوسيني المتـأخر أو مـع عصـر الجليـد الأول الأوربي والأمريكي، بعض عظام متناثرة، لمخلوق ربما كان على شاكلة صناع هذه الآلات. ووجدت كـذلك قمة جمجمة في منتصف الطريق بين مخ الشمبانزي ومخ الإنسان. ولكن عظم الفخذ هو عظم مخلوق مهيـأ للوقوف والجري تهيؤ الإنسان، وله تبعا لذلك مثل حريته في استعمال يديه. ولم يكن ذلك المخلـوق إنسـانًا، وكذلك لم يكن قردا شجريا كالشمبانزي. بل كان قردا يسير على قدميه. وقد سماه علماء الطبيعـة (الإنسـان القردي القائم Pithecanthropus Erectus)، وليس لدينا حتى اليوم عظـام متخلفـة عـن صـناع الآلات الحجرية الأوربية، فنحن لا نستطيع أن نكون عنهم صورة إلا على سبيل الحدس والتخمين.

وبينما كان هؤلاء الرجال الأولون المبكرون أو أشباه الإنسان أو قُل منتحلو الإنسانية من أصحاب الآلات، يهيمون على وجوههم في أوربا منذ أربعمائة أو خمسمائة ألف سنة، كانت هنـاك أصـناف مـن المـاموث والكركدن وفرس بحر ضخم الجثة وكلاب ماء هولة وثور وحشي وماشية برية تعيش كلهـا فـي عـالمهم. وكانت هناك أيضا خيول متوحشة. وكان الببر المسيف الأسنان [٣٢] كثير العدد. وليس هناك أي أثر يدل على الأسود ولا الببور الحقة في أوروبا في ذلك الزمان. بيد أنه كانت هناك دببة وقنادس Otters وذئاب وضرب من الخنزير البري. وربما كان شبه الإنسان المبكر يقوم بدور ابن آوي حيال الببر المسيف الأسـنان فكـان يجهز على الأجساد بعد ما يشبع منها الببر جوعه.

(٣٢) Sabre Toothed Tiger: الببر المسيف الأسنان. وتجمع ببر على ببور بضم البائين كما ورد فـي المعجـم الوسـيط. (المترجم).

(٣)

شبه الإنسان الهايدلبرجي

لا يعرف أول فرد من أفراد النوع الإنساني في السجل الجيولوجي إلا على صورة فلذة من العظم هي عظم فك. وقد وجد عظم الفك هذا في حفرة تؤخذ منها الرمال بالقرب من مدينة هايدلبرج Heidelberg على بعد ثمانين قدما من سطح الأرض. وليس هو عظم فك لإنسان بالمعنى الذي نفهمه الآن من لفظ إنسان، بيد أنه شبيه بعظم الإنسان من كل الوجوه فيما عدا شيئًا واحدا هو أنه ليس به البتة أي أثر للذقن. وهو أضخم من عظم فك الإنسان. ويرى العلماء أن ضيقه من الخلف لم يكن ليعطي اللسان براحا يساعده على المنطق الواضح البين. لكنه ليس عظم فك قرد. لأن أسنانه إنسانية وقد سمي صاحب هذا العظم الفكي باسم Homo Heidelbergensis أي شبه الإنسان الهايدلبرجي أو باسم إنسان هايدلبرج القديم Palaeoanthropus Heidelbergensis حسب التقدير الذي كونه العلماء المختلفون عن درجة إنسانيته أو شبه إنسانيته. وكان يعيش في عالم لا يبعد كثيرا عن العالم الذي كان فيه شبه الإنسان السابق له، صاحب الآلات الأولى والرواسب التي وجد فيها ذلك العظم تدل على أنه قد وجد معه في العالم أفيال وخيول وخراتيت وثور بري وموس Moose [٣٣] وما إليها. ولكن النبر المسيف الأسنان كان آخذا في الزوال كما كان الأسد آخذًا في الانتشار في أوروبا. وآلات هذه الفترة وهي المعروفة بالفترة "الشيليانية Chellean" تمتاز بتقدمها تقدما كبيرا جدا عن مثيلاتها في العصر البلايوسيني وهي جيدة الصنع. على أنها أضخم كثيرا من أي آلات إنسانية حقيقية. وربما كان لرجل هايدلبرج جسم كبير جدا وأطراف أمامية كبيرة تتناسب مع حجم الفك العظيم وصلابته، وربما كان مخلوقًا مشعراً غريب المنظر غير إنساني في هيئته.

([٣٣]) ضرب من الأيل، وهو غزال ضخم. (المترجم).

(٤)
شبه الإنسان البلتدوني

ظهر في الطبعات الأصلية من هذا الكتاب، قسم بعنوان "شبه الإنسان البلتدوني" كما أنه ورد في شجرة النسب الصورة رقم ٣٥ في الفصل العاشر نوع من التفريع أُطلق عليه ذلك الاسم نفسه. على أن الأسباب التي دعت إلى كتابة ذلك القسم، ثم إلى إسقاطه من هذه الطبعة، تستحق شيئًا من العناية. فعند نهاية عام ١٩١٢، أعلن باحث آثار من الهواة ممن لازمهم النجاح الشديد اسمه تشارلس دوسن يساعده عالم آثار اسمه سميث ودوارد، أنه اكتشف جزءا من جمجمة سلف بعيد من أسلاف الإنسان. كان نصف إنسان ونصف قرد، وتبين مما يحيط به من أشياء في محجر الحصباء الذي وجد به قرب بلتدون في جنوب إنجلترة، أن له من العمر ما يقارب خمسمائة ألف سنة، وهو ما كانت تومئ إليه حاله. وكان وعاء المخ بشريا، ولكن كان الفك شبه قردي، باستثناء الأسنان التي تسطحت على الطريقة البشرية. ولكن أعوزته الأنياب، وهي سن لها دلالتها وأهميتها البالغة، غير أنها ما لبثت أن وجدت فيما بعد عند إعادة تركيب الرأس من جديد على أنها نوع من الإنسان؛ وتقابلت بالضبط على الناب في التركيب. وأحدث هذا الاكتشاف هزة ضخمة في عام ١٩١٢. وكانت الكنيسة لا تزال ترفض الاعتراف بحقيقة النشوء والارتقاء، وكثيرا ما اتخذ رفضها صورة التحدي لرجال العلم بأن يظهروا "حلقة مفقودة" تربط بين الإنسان وبين القردة. وصاح دعاة أحد الجانبين بأن: ها قد "وجدت الحلقة المفقودة"، وأنكر القول دعاة الجانب الآخر، وكلاهما غلب عليه التحمس لرأيه لا إلى الاستفاضة في العلم.

وفحصت العظام فحصا دقيقًا، ومع أن بعض رجال العلم أصروا أن تلك إنما هي بقايا حيوانين مختلفين، فإن غالبيتهم اتفقت على أنها جاءت من مخلوق واحد، وذلك لأنها توافقت بعضها مع بعض بغاية الضبط كشيء واحد.

على أن خصوم النشوء والارتقاء أخطئوا في الحقيقة حين اعتقدوا أن هذا الشيء الذي أطلقوا عليه اسم إنسان دوسون الفجري (Eoanthropus Dawsoni)، كان هبة من هبات ا لعلماء التطور. إذ الأمر على العكس، فإنه كان مثار المتاعب والإزعاج لهم. حتى إذا تم اكتشاف المزيد فالمزيد من البينات الدالة على تطور الجنس البشري، زاد وجود الإنسان البلتدوني من حيرة العلماء. فإن ذلك الوعاء المخي البالغ في إنسانيته متى ربط إلى فك على أتم صورة شبه قردية لم يكن يتمشى مع خط سير التطور على الإطلاق – بل الواقع أنه جاء مناقضا لعملية التطور الرئيسية تماما، وإذن فالأمر كله تلاعب وخداع. وبلغ عدد الأبحاث التي كتبت فيه ما يقارب المئات. وكانت لهذه المراجعة والبحث الدائبين نتيجة في النهاية، ولكنها نتيجة جاءت غير متوقعة تماما. إذ اكتشف الناس بعد أربعين سنة بالضبط أن إنسان بلتدون لم يظهر قط في الوجود. وإنما هو أعظم "خدعة" ناجحة في التاريخ البشري كله.

فقد أظهرت تجارب الفلورين أولاً وقبل كل شيء أن عمر الوعاء المخي ليس خمسمائة ألـف عـام بـل خمسين ألفًا فقط. ثم تبين أن الأسنان التي في الفك قد سويت عمدا حتى أصبحت مسطحة، وظهر أخيـرا أن الفك نفسه عصري، وتبين في النهاية أن مظهر القدم البادي على العظام إنما يرجع إلى تلويثها تلويثًـا بـالغ المهارة. والتجارب التي استخدمت لم تكن معروفة في عهد دوسن، فإن كان هو الذي دبر اللعبة فلعله أيقـن أنها لن تكشف وما كانت لتكشف فعلاً لو أن الباحثين لم يتتبعوا أهم واجبات المؤرخين – وهو عدم أخـذ أي شيء مأخذ الثقة، بل الشك في كل شيء، والاستعداد الدائم لمراجعة الشيء وإعادة مراجعته بفحص البينـات والشواهد.

وبعد تلك البارقة التي لاحت لنا بهذه الجمجمة لا يعطينا السجل مدى قرون طويلة كثيرة العـدد إلا آلات من الظران مطردة التجويد. ولقد ذهبت كل عظام المخلوقات التي صنعتها كما ذهبت كل الأدوات الخشـبية والجلدية التي كان صانعوها يستعملونها. فني كل شيء منها وذهب هباء. وكان لا بد من أن يعفي النسـيان على آثاره لولا هذه الأحجار. ومن أعجب تلك الأشكال شكل في هيئة نعل ذي وجهين أحدهما مكسور بطرقة واحدة، والآخر مشغول. ويستطيع علماء الآثار أن يميزوا مع استمرار الزمان بالسجل محكـات (مكاشـط) ومخاريز ومدى وخناجر وأحجار معدة للقذف وما إليها.

والتقدم في هذه الآونة أسرع وأنشط إذ يبدو في شكل البلاطة اليدوية تحسن واضح ملحوظ في مدى قرون قلائل.

ثم يتلو ذلك عدد كبير من البقايا. وأخذ العصر الجليدي الرابع في الصعود إلى أقصى ذروته وزمهريـره. وتبعا لذلك أخذ الإنسان يتجه إلى الكهوف ويترك آثاره فيها. فقد وجدت بقايا إنسانية في كرابينـا Krapina بكرواتيا وفي نياندرتال بالقرب من دوسلدورف وفي اسباي Spy وهي جماجم وعظام لمخلوق لا شـك فـي إنسانيته. ففي زمان ما يرجع إلى خمسين ألف سنة خلت أو أكثر ظهر الإنسان النياندرتالي المسـمى كـذلك باسم الإنسان السابق لنوعنا Homo primigenius أو الإنسان العتيق Homo Antiquus وهو كائن يمكن أن يكون مقبولاً كإنسان. وليس إبهامه معادلاً في مرونته وفوائده لإبهام الإنسان. وكان ينحني إلى الأمام، ولا يستطيع أن يحمل رأسه منتصبا كما يفعل الناس اليوم. ولم يكن له ذقن ولعله لم يكن يستطيع الكلام. وهنـاك فروق غريبة بين ميناء أسنانه وأسناخها وتجاويف لبها وبين أسنان كل من يعيشون اليوم من الناس. وكـان غليظ التركيب بل لم يكن في الواقع من النوع الإنساني بالضبط ولكن لا مشاحة فـي نسـبته إلـى الجـنس الإنساني Genus Homo ولم يكن ولا شك منحدرا من الإنسان الفجري (Eoanthropus)، ولكن عظم فكه يشبه عظم الفك الهايدلبرجي شبها يجعل من الممكن أن يكون الرجل الهايدلبرجي من نفس دمه وجنسـه وإن يكن أثقل منه حركة ووزنًا وأسبق منه بألف قرن خلت.

الفصل السابع

الإنسان النياندرتالي – جنس بائد

"العصر الحجري القديم الأول"

١- العالم منذ خمسين ألف سنة.

٢- حياة الإنسان النياندرتالي اليومية.

٣- آخر رجال العصر الحجري القديم.

٤- جمجمة روديسيا.

(١)

العالم منذ خمسين ألف سنة

كانت معالم أوربا وآسيا الغربية إبان الفترة بين الجليدية [٣٤] الثالثة مخالفة جدا لما هي عليه الآن. وفي مستطاع علماء طبقات الأرض أن يلحظوا الفروق الإجمالية بين العصرين. ونحن نورد لك هنا خريطة لما وصلوا إليه من استنتاجات. فقد كانت هناك مساحات فسيحة عظيمة تقع في جهة الغرب والشمال الغربي هي الآن تحت مياه المحيط الأطلنطي، وكانت حينذاك أرضا جافة، فكان البحر الأيرلندي وبحر الشمال وديان أنهار. وكان يتقدم من فوق هذه المساحات الشمالية، ثم يتراجع، ثم يتقدم من جديد – بساط عظيم من الجليد، كالذي يغطي جرينلندة الوسطى في أيامنا هذه. وسحب هذا البساط الهائل الذي غطى المنطقتين القطبيتين أجراما هائلة من مياه المحيط، فانحط تبعا لذلك مستوى البحر وانكشفت مساحات عظيمة من الأرض هي اليوم مغمورة بالماء مرة أخرى. وأكبر الظن أن متسع البحر المتوسط كان واديا عظيما منخفضا عن مستوى البحر العام ويشمل بحرين داخليين مقتطعين من المحيط العام. وربما كان مناخ حوض البحر المتوسط آنذاك من النوع البارد المعتدل. فأما منطقة الصحارى الواقعة في جنوبه فلم تكن حينذاك صحراء تترامى فيها الصخور التي تصليها الشمس نارا حامية، وتنبسط الرمال التي تذروها الرياح، وإنما كانت قطرا خصبا كثير المياه. وكانت تمتد فيما بين بسط الجليد في الشمال وبين جبال الألب ووادي البحر المتوسط في الجنوب برية جرداء كان مناخها يتغير من التطرف إلى الاعتدال والدفء. ثم عصفت به عوامل التطرف من جديد طوال العصر الجليدي الرابع.

وكانت تجول في هذه البرية التي هي اليوم السهل الأوربي الأعظم حيوانات كثيرة متنوعة. كان فيها أول الأمر أفراس بحر وخراتيت وماموث وأفيال. وكان الببر المسيف الأسنان يتناقص آخذًا في الانقراض، فلما أن أخذ الجو يشتد بردا كف فرس البحر وتبعته الحيوانات الأخرى المحبة للدفء عن التوغل كثيرا نحو الشمال. واختفى الببر المسيف الأسنان اختفاء تاما، وأصبحت الماموثات الصوفية والخراتيت الصوفية وثور المسك والجاموس البري والثور الوحشي (الأوروك Aurochs) وغزال الرنة حيوانات شائعة، وأخلى نبات المناخ المعتدل مكانه لنبات أكثر ملاءمة للمناخ القطبي. وقد امتدت الثلاجات جنوبا حتى بلغ العصر الجليدي الرابع أقصى أوجه (قرب خمسين ألف سنة خلت) ثم تراجعت من جديد.

---

(٣٤) الفترة بين الجليدية Interglacial هي فترة اعتدال في المناخ تقع بين عصرين جليديين.

وفي الفترة السابقة لتلك وأعني بها الفترة بين الجليدية الثالثة، كانت تجوس خـلال الأرض أعـداد مـن مجموعات عائلية صغيرة من الناس(أعني من الإنسان النياندرتالي)، وأكبر الظن أنه كان فيها أيضا جماعات من شبه الإنسان الملقب بالرجل الفجري. على أنهم لم يتركوا من ورائهم شيئًا يشهد على وجودهم إلا آلاتهـم الظرانية [٣٥]. ولكن ربما كان هناك بعض الأنواع الأخرى التي تصنع الآلات والتي ليس لدينا ممـا يثبـت وجودها غير بعض الظنون. والراجح أنهم كانوا يستعملون أيضا عددا جما وأضـربا متنوعـة مـن الآلات الخشبية ولعلهم قد تعلموا بمعالجتهم الخشب شيئًا كثيرا عن أشكال الأشياء وطرق استعمال الأشكال المختلفة، وهي معرفة طبقوها فيما بعد على الحجر. وليس يسعنا الآن إلا الاعتماد على الحدس والظن في شأن أشكال تلك الأدوات وطريقة استعمالها.

ولما بلغ الجو أقصى درجات برودته أخذ إنسان نياندرتال، وقد عرف من قبل فيما يبدو استعمال النـار، يطلب الاستتار تحت أطناف الصخور ويكتهف الكهوف وبذلك يترك من بعده آثارا وكانوا اعتادوا حتى ذلـك الحين أن يجثموا إلى جوار النار في العراء بقرب مورد الماء ولكنهم بلغوا من الذكاء حدا أتاح لهم أن يكيفوا أنفسهم والظروف الجديدة القاسية. فأما أشباه الإنسان فالظاهر أنهم لم يصـمدوا قـط إزاء ويـلات العصـر الجليدي الرابع، ذلك أن أخشن أصناف الآلات تختفي من الوجود على التو.

ولم يقتصر اكتهاف الكهوف على الإنسان وحده. بل كان في هذه المدة أيضا أسد يسكن الكهوف ودب يقيم فيها وضبع يحذو حذوها. وكان لا بد للإنسان من دفع هذه المخلوقات إلى الخارج ومن منعها من الدخول إلى تلك الكهوف حيث كان أولئك الرجال الأوائل يريدون أن يجثموا ويختفوا. ولا ريب أن النار كانـت وسـيلة فعالة من وسائل الإبعاد والوقاية. والراجح أن الرجال الأوائل لم يتوغلوا في الكهوف إذ لم تكن لديهم وسائل ينيرون بها أعماقها، بل كانوا يدخلون فيها بالقدر اللازم لابتعادهم عن غائلة الجو الخـارجي. كمـا كـانوا يختزنون الخشب والطعام في بعض زواياها. وربما أقاموا المتاريس على مداخل الكهوف، وكانت المشـاعل كل ما يستطيعون استعماله من نور للتغلغل في أعماق الكهوف.

ترى ماذا كان يصيد أولئك الرجال النياندرتاليون؟ إن كل ما كان في وسعهم من أسلحة يقتلون بهـا هـذه المخلوقات الضخمة من أمثال الماموث أو دب الكهوف أو حتى غزال الرنة حراب من الخشب، وهـراوات خشبية، وتلك القطع من الظران التي خلفوها من بعدهم وهي الآلات "الشيليانية والموسـتيرية". والـراجح أن صيدهم العادي كان الحيوان الصغير. ولكن لا شك في أنهم كانوا يأكلون لحوم الوحوش الكبيرة ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. وربما كانوا يترسمون خطاها إذا وجدوها عليلة أو ألفوها جريحة على أثر صراعها مع غيرهـا، وربما انتهزوا الفرصة إذا ما وجدوها مغلولة في الوحل أو مأسورة في المـاء أو الـثلج. ولا يـزال هنـود لبرادور يقتلون غزال الكاريبو Caribou حينما يقع في مأزق أثناء عبوره مخاضات الأنهـار. وقـد وجـد بمدينة دوليتش Dawlich بمقاطعة ديفون Devon خندق صناعي يظن أنه كان فخًـا للفيلـة فـي العصـر الحجري القديم. ونحن نعرف أن جماعة النياندرتاليين كانوا يأكلون فرائسهم حيث تقع. ولكنهم كانوا يحملون

---

(٣٥) الظران: Flints: وهي جمع ظر وهي قطع الصوان المصنوعة على شكل أدوات في الأزمنة القديمة. (المترجم)

العظام الكبيرة ذات النخاع ليكسروها ويأكلوها على مهل، بدليل أننا لا نجد فـي الكهـوف إلا القليـل مـن الأضلاع، والفقار، على حين نجد كميات كبيرة من العظام الطويلة مكسورة ومشققة. وقد اسـتعملوا الجلـود يلفونها حول أجسامهم. والراجح أن النساء كن يرتدين الجلود: وإننا لنعرف أيضا أنم كانوا قوما يسـرين (أي يعتمدون على استعمال أيديهم اليمني) كالرجال العصريين سواء، لأن الناحية اليسرى من المخ (وهـي التـي تستخدم الشقة اليمنى من البدن) أكبر من اليمنى. ولكن بينما ترى أجزاء المخ الخلفية التي تتصـل بالبصـر واللمس والنشاط البدني متطورة تطورا حسنًا، تجد الأجزاء الأمامية التي تتصل بالتفكير والنطـق صـغيرة نسبيا. لقد كان ذلك المخ في حجم مخنا ولكنه كان مختلفًا عنه. ولا شك أن قد كان لهذا النوع من الناس عقلية تخالف عقليتنا جد المخالفة، فلم يكن أفرادهم أبسط منا وأدنى مرتبة فحسب، بل كانوا يختلفون في كثير مـن سلوكهم عنا. وربما لم يكونوا يتكلمون قط أو أنهم كانوا نادري الكلام. ولم يكن لديهم شيء تستطيع أن تسميه لغة.

(٢)

حياة الإنسان النياندرتالي اليومية

يوجد في كتاب "الإنسان: المتوحش البدائي Man THE Primeval Savage " الـذي ألفـه ورثنجـتن سميث Worthington Smith وصف رائع أجيد تدبيجه أيما إجادة عن الحياة في الشطر الأول من العصر الحجري القديم. ومنه اقتبسنا الشيء الكثير مما سنورده في هذا الفصل. ويفترض ورثنجتن سميث وجود حياة اجتماعية أشد اتساعا، ومجتمعا وتقسيما للعمل أشد تحديدا، مما يمكن قبوله وتبريره تمام التبرير، سيما عنـد مواجهته بما تلاه من كتابات من أشباه مقالة المستر ج. ج. أتكنسن J. J. Atkinson القيمة الشـهيرة عـن "القانون البدائي Primal Law" وعلى هذا يدلنا بالقبيلة الصغيرة التي وصفها المستر ورثنجتن سميث جماعة عائلية تحت إمرة "شيخ مسن" وإن أدخلنا آراء المستر أتكنسن فيما يتعلق بسلوك "الشيخ المسن" في صلب هذا الفصل.

ويصف المستر ورثنجتن "منتجعا" ومجثما للإنسان بالقرب من مجرى ماء، لأن الإنسان الأول – ولم يكن لديه جرار وما شاكلها من آنية – كان مضطرا ولا شك أن يكون دائم القرب من معين الماء ومـن بعـض المرتفعات الطباشيرية القريبة التي يستطيع أن يستخرج منها ما يستخدمه في توليد النار من قطع الصوان. إذ كان الهواء قارس البرد وكانت النار ذات قيمة كبرى لأنها إن أطفئت مرة لم تكن إعادة إيقادها بالأمر اليسير. فإن هم أرادوها غير متأججة، تركوها فيما يرجح كامنة تحت الرماد. وأرجح وسائل إيجاد النار كانت بتهشيم قطعة من حجر النار Pyrtie بقطعة من الصوان وسط قليل من ورق الشجر الجاف. وتوجد مخـاليط مـن حجر النار والصوان في إنجلترة كلما اقتربت طبقتا الطين والمارل [٣٦] من الطباشير.

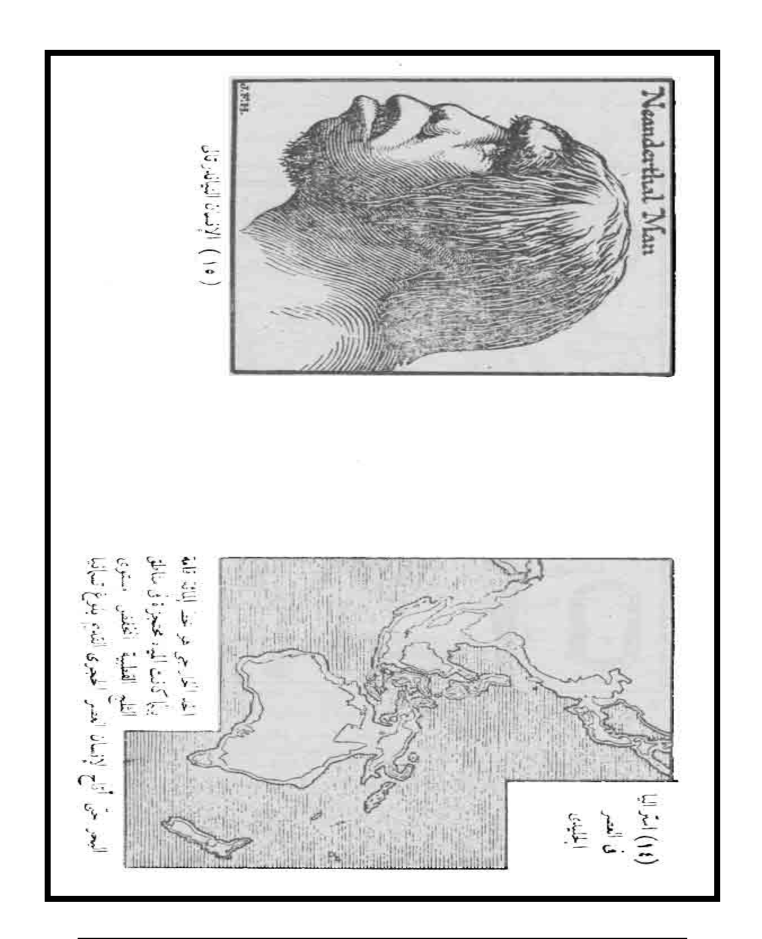
وكانت تلك المجموعة الصغيرة من الناس تعيش بين هشيم السرخس، والطحاب وما قاربها مـن المـواد الجافة. وكانت بعض النساء والأطفال بحاجة إلى الدأب على جمع الوقود لتظل النار موقدة على الدوام. وهو أمر لا بد أن يصبح تقليدا ما لبث أن نما وترعرع. ثم لا يلبث الصغار أن يقلدوا الكبار في القيام بهذه المهمة. وربما أنشأ القوم لأنفسهم في أحد جوانب المنتجع خصاصا خشنة من أغصان الشجر تقيهم الريح.

فإذا انشغل "الشيخ المسن" أبو الجماعة وسيدها بطرق الصوان إلى جوار النار قلده فـي ذلـك الأطفـال وتعلموا منه استعمال الشظايا الحادة. ولعله كان على بعض النساء أن يبحثن عن قطع صالحة من الصـوان. فهن يتصيدنها من وسط الطباشير بالعصي وينقلنها إلى مجثم الجماعة.

وكانت في المكان جلود متناثرة؛ إذ يبدو لنا مرجحا أن الناس البدائيين أخذوا يستعملون الجلود في زمـن مبكـر جدا. والراجح أنها كانت تلف حول الأطفال وتستعمل للرقاد عليها حينما تكون الأرض رطبة أو باردة. فإذا اشتغلت إحدى النساء بإعداد واحدة من تلك الجلود كشطت باطن الجلد كشطًا جيدا لإزالة ما علق به من اللحم الزائد بقطـع من الظران مهذبة، ثم هي بعد ذلك تمطّ وتشد وتنشر على العشب مشدودة بأوتاد حتى تجف في الشمس.

---

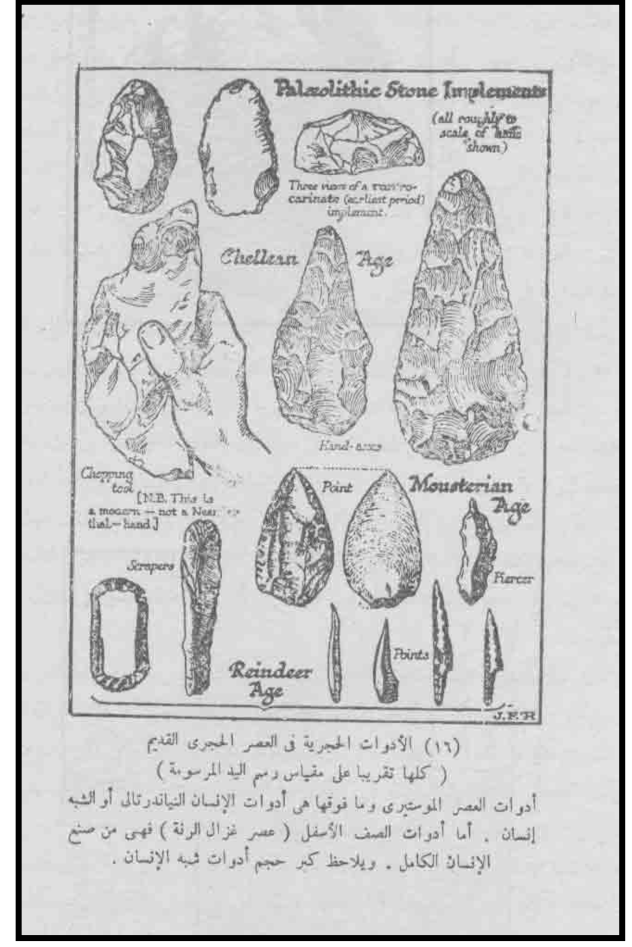
(٣٦) المارل Marl لفظة معربة معناها الثرى الذي يتضمن بعض مواد كلسية. (المترجم).



(١٥) الإنسان النياندرتالى

(١٤) استراليا في العصر الجليدى

الخد الخارجي هو خط المائة قامة بينما كانت المياه محتجزة في مناطق الثلج القطبية انخفض مستوى البحر حتى أتاح لإنسان العصر الحجرى القديم بلوغ تسمانيا



(١٦) الأدوات الحجرية فى العصر الحجرى القديم
(كلها تقريبا على مقياس رسم اليد المرسومة)
أدوات العصر الموستيرى وما فوقها هى أدوات الإنسان النياندرتالى أو الشبه إنسان . أما أدوات الصف الأسفل (عصر غزال الرنة) فهى من صنع الإنسان الكامل . ويلاحظ كبر حجم أدوات شبه الإنسان .

وثم أفراد آخرون من تلك المجموعة الإنسانية يغادرون النار ويتربصون طلبا للطعام. ولا يكاد يخيم الليل حتى يجتمع الكل متلاصقين حول النار ويشبونها عالية لأنها كانت وقاءهم من الدب الجوال وما إليه من الضواري. والشيخ هو الذكر البالغ الوحيد المكتمل الرجولة في الجماعة الصغيرة. وهناك نساء وغلمان وبنات. ولا يكاد الغلمان يبلغون حدا من النمو يثيرون به غيرة الشيخ حتى يصطدم بهم، وينتهي به الأمر إما إلى إبعادهم عن الجماعة أو القضاء عليهم. وربما خرجت بعض الفتيات مع هؤلاء المبعدين، أو ربما أجمع اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الشبان على أن يعيشوا أحدهم مع الآخر زمانًا يهيمون فيه على وجوههم حتى يسقطوا على بعض الجماعات الأخرى فيحاولوا أن يسرقوا منها أنثى. وينتهي بهم الأمر فيما يرجح إلى تنازع أمرهم بينهم. وقد يحدث في يوم من الأيام، حين يكون الرجل قد أشرف على الأربعين أو جاوز حدها، وحين تكون أسنانه قد سقطت ونشاطه قد أخذ يفتر، أن يقف في وجهه أحد الذكور الأصغر منه سنًا ويقتله ويتولى الرياسة بدلاً منه. وكانت المهلة التي أمام المسنين في المجثم وجيزة قصيرة لا يلبثون بعدها أن يقضى عليهم. فلا يكاد يداخل الضعف جسومهم وتتمشى حدة الطبع في مزاجهم حتى تحل بهم المتاعب والدمار.

وماذا كانوا يطعمون في المنتجع؟.

"يوصف الإنسان البدائي عادة بأنه صائد الماموث الشعري الكبير والدب والأسد؛ ولكن من أبعد الأمور أن يكون الإنسان المتوحش قد اصطاد قط في يوم من الأيام حيوانًا يزيد في حجمه كثيرا على الأرنب الجبلي والأرنب المنزلي والفأر البري، بل الراجح أن يكون الإنسان هو الصيد لا الصائد.

كان المتوحش البدائي يجمع بين خلتي أكل العشب واللحم، وكان يأكل فيما يأكل البندق وتمر الزان والقسطل الحلو والبندق الأرضي وجوز البلوط، وكان أمامه التفاح البري Crab Apples والكمثرى البرية والكرز البري والتوت البري والبرقوق البري وعنب الديب، والغبيراء فاكهة شجيرات الصورب sorbs والخوخ البري وثمار الزرنَب أو السر (Yew berries) – وثمرة الزعرور، ثم الجرجير والنباتات الورقية – والفطر (Fungi) ويختار أكبر البراعم الورقية وأطراها، والنستق (Nostoc) (وهي الخضر التي يسميها القرويون بالنجم الساقط)، والريزومات (Rhizomes) اللحمية ذات العصير التي تشبه الهليون (Asparagus) أو الجذور التي تحت الأرض التي للنباتات الشفية وما شابهها إلى غير هذا من لذائذ أخرى في مملكة النبات. وكانت أمامه الطيور؛ بيضها وصغارها وعسل النحل وأقراص العسل يشتارها من خلايا النحل البري. وكان أمامه السمندر Newts والقواقع والضفادع، ولا يزال اللونان الأخيران موضع تقدير الناس العظيم في نورماندي وبريتاني بفرنسا. وكانت أمامه الأسماك ما بين حية وميتة، والمحار وأم الخلول Musseis ساكنة المياه العذبة. وكان في ميسوره أن يمسك الأسماك بيده وأن يعوم على سطح الماء ويغوص من أجلها ويتصيدها بالأحابيل. بل كان لابد واجدا عند ساحل البحر الأسماك والرخويات Mollusca والأعشاب البحرية. ولا بد أن كانت يده تمتد إلى الطيور الصغيرة والثدييات الصغرى التي كان يستطيع أن يحصل عليها بقذفها بالأحجار وبالعصي أو بنصب الفخاخ البسيطة لها. وكان يستطيع أن ينال الثعبان ودودة

الأرض (الدودة النباشة) والجمبري، وكان لا جرم يتناول اليرقات Grubs والحشرات المتنوعـة وعـذراء الخنافس الكبيرة واليساريع Caterpillars بأنواعها. ولا يزال التمزز باليساريع موجودا في الصـين حتـى اليوم حيث تباع في الأسواق حزما مجففة. ولا بد أن قد كانت العظام من أهم مواد الطعام الشديدة التغذية بعد أن تهشم وتحول إلى عجينة خشنة حبيبية.

"وهناك حقيقة ذات أهمية بالغة هي أن الرجل البدائي لم يكن ليدقق أو يشدد كثيرا في تناول اللحم طازجـا جدا!! إذ إنه لابد واجده على الدوام ميتًا. فإن وجده شبه منتن لم يمنعه ذلك من أن يستمرئه ويلتـذ بـه، ولا يزال الميل إلى الصيد الشديد النتن أو المتوسط النتن موجودا إلى وقتنا هذا. فإذا عضه الجوع وألح عليه فإنه ربما عدا في بعض الأحيان على بعض المستضعفين من إخوانه فأكلهم أو أكـل الأطفـال المرضـى مـن الضعاف والعميان أو ممن يجدهم عبئا ثقيلاً عليه في حياته. ولا بد أنه كان على الدوام يبحث بتلهـف عـن الحيوانات الكبرى حينما تضعف منتها أو تكون في النزع، فإن لم يجدها مواتية له اكتفى بما يجده منها ميتًـا أو نصف رميم. ولم يكن لديه كما أسلفنا أي تمنع على الروائح الكريهة، وهي لا تزال ولا اعتراض عليهـا في كثير من فنادق القارة الأوربية حتى اليوم".

"وكان المتوحشون يجتمعون حول نارهم متراصين متقاربين ومعهم الفواكه والعظـام واللحـوم الفاسـدة. ونحن نستطيع أن نتخيل الرجل الشيخ ونساءه يحركون جلد مناكبهم وحواجبهم وعضلاتهم إذا ضايقهم شـيء أو عضهم الذباب أو لسعتهم الحشرات الأخرى. وإنا لنستطيع أن نتخيل منخري الإنسان الكبيرين اللذين ينمان عن الشم الحاد وهما يكرران الشم السريع للحم المنتن قبل تناوله. وكانت رائحة اللحـم الكريهـة والـروائح الأخرى المتنوعة التي تغثى منها النفس والتي تنسب إلى مرابـع المتوحشـين غيـر مكروهـة لـديهم ولا مستنكرة".

"ولم يكن الإنسان في ذلك حيوانًا وضيعا، إذ إنه لم يعل من قبل على تلك الدرجة أبدا. بل كان كما تـرى حيوانًا رفيعا. وأيا ما تبلغه منزلته في أعيننا اليوم من الضعة فقد كان مع ذلك يمثل أرقى ما وصـلت إليـه مراحل التطور في مملكة الحيوان في زمانه".

وحسب القارئ فيما تقدم هذه الصورة البسيطة لمجثم الإنسان النياندرتالي. ولكن النياندرتاليين أنفسهم قـد تعلموا الشيء الكثير ونالوا قسطًا من التقدم قبل أن يعمل فيهم الفناء عمله.

ومهما تكن طريقة تصرف رجال العصر الحجري القديم الباليوليني في موتاهم، فإن هناك أسبابا تحملنـا على الاعتقاد بأن الإنسان النياندرتالي المتأخر كان يدفن بعض الأفراد على الأقل بـين مظـاهر الاحتـرام والتكريم. ومن أشهر الهياكل العظمية النياندرتالية هيكل لشاب لعله دفن عمدا، وقد أضـجع ضـجعة النـائم وأسند رأسه إلى ساعده الأيمن ووسد الرأس والذراع على كومة من قطع الصوان رصت بعضها إلى بعـض بعناية على شكل وسادة. وهناك بلطة يدوية كبيرة موضوعة بالقرب من رأسه ومن حوله عظام ثور عديـدة محروقة ومشقوقة كأنما أقيمت له وليمة جنازية.

وربما كان هذا الضرب من الناس يضرب في الأرض أو يجثم حول نيرانه أو يموت في أوربـا طـوال زمان يربو على مائة ألف سنة. وذلك على فرض أن عظم الفك الهايدلبرجي ينتمي إلى فرد من ذلك النـوع. وتلك حقبة من الزمان هائلة إلى حد يجعل كل ما تلاها من تاريخ جنسنا أمرا قريبا قرب الأمس. وكان هـذا النوع الإنساني وهو يسير في طريقه الخاصة به يجمع لنفسه بعض تقاليد ضـعيفة ويسـتفيد مـن ظروفـه المحدودة. وكانت جمجمته السميكة تحبس مخه وتضيق عليه. وكان منذ بدايته إلى نهايته خفيض الحـاجبين أشبه بالبهيم.

والرأي القائل بأن النوع النياندرتالي نوع بائد لم يتزاوج مع الإنسـان الحقيقـي Homo Sapiens، رأي يؤمن به العلامة أوسبورن Osborn وإن لم يأخذ به كثير من الكتّاب. بل هم يرون أن بعض الجماجم قبـل التاريخية إنما هي ثمرة التزاوج Crosses بين الجنس النياندرتالي والأجناس الأخرى؛ هذا إلى أنهم يتكلمون ويكتبون عن "النياندرتاليين" الأحياء بين معاصريهم من الناس. من ذلك أن أحد من اشتهروا بدقة الملاحظـة كتب في الماضي عن وجود هذه الأنماط في غرب أيرلندة، ولاحظها آخـر فـي بـلاد اليونـان. فهـؤلاء "النياندرتاليون الأحياء" كما يسميهم العلماء – لا يحملون خصائص الرقبة أو الإبهام أو الأسنان التـي كـان يتصف بها الجنس النياندرتالي السابق للإنسان، ذلك أن للأضراس في الإنسان الحقيقي مثلاً أسـناخًا طويلـة بينما أضراس النياندرتالي "أكثر تعقيدا وتخصصا". إذ هي سن طويلة ذات أسناخ قصيرة وأنيابه أقـل شـبها بأسنان الكلاب من أنيابنا. وواضح أنه كان يتطور في اتجاه مخالف. ونحن حتى الآن لم نفحص فحصاً جيـدا سوى منطقة أوربا الغربية بحثًا عن بقايا العصر الحجري القديم. ولذا فإننا - فيما عدا موضـع واحـد هـو كرابينا في كرواتيا وجمجمة الجليل Galilean المستكشفة حديثًا – ندين لتلك المنطقة وحدها بكل ما نعرفـه عن النوع النياندرتالي.

ولا مراء أن سلف الإنسان العاقل أو الحقيقي، وهو نوع يشمل التسمانيين أيضا كان وثيق الشبه بالرجـل النياندرتالي ونظيرا له. ونحن لم نبتعد عن ذلك السلف بعدا يتيح لنا أن نمحو من أنفسنا الطراز النياندرتالي، بل ولا الأنماط شبه النياندرتالية. ووجود أمثال هذه الأنماط يثبت أن النـوع النيانـدرتالي (صـانع الأدوات الشليانية والموستريانية Mousterian) اختلط بالإنسان الحقيقي في بقاع أوربا أكثر مما يشهد ذوو الوجـوه القردية من الناس بوجود تزاوج بين الإنسان والقرود؛ أو أكثر مما يثبت أقوام لهم وجوه تشـبه الخيـل، أن هناك عرقًا من سلالة الخيل فيمن حولنا من الناس.

(٣)

آخر رجال العصر الحجري القديم

لما اكتشف الهولنديون تسمانيا وجدوا فيها جنسا بشريا منعزلاً لا يزيد في تقدمه كثيرا على هذه المرحلة من العصر الحجري القديم السفلي. ولكن ثقافة العصر الحجري القديم المبكر كانت تطورت في معظم أرجاء العالم فأصبحت نوعا من الحياة أكثر تقدما وأشد تعقيدا وذلك منذ عشرين أو ثلاثين ألف سنة خلت. ولم يكن التسمانيون نياندرتاليين من الوجهة العنصرية إذ تدل أوعية مخهم وعظام أعناقهم وفكاكهم وأسنانهم على انعدام كل صلة لهم بالنياندرتاليين، ذلك بأنهم كانوا قوما من نفس نوعنا. وإن كانوا يمثلون مرحلة شبه نياندرتالية Neanderthaloid من مراحل نشوء الإنسان وارتقائه. ولا يكاد يتسرب إلينا الشك في أنه خلال مئات القرون التي كانت فيها جماعات إنسان نياندرتال الصغيرة المتناثرة هي كل من يمثل الجنس البشري في أوربا، كان بنو جنسنا من الأناسي الحقيقيين يتقدمون في حياتهم في ناحية أخرى من الأرض بخطى مناظرة لخطى هؤلاء، مبتدئين من نفس المرحلة التي انتهى إليها النياندرتاليون والتي احتفظ بها التسمانيون، فمرتفعين بها إلى درجة عالية من القوة والتقدم والاكتمال. ولقد تقاعس التسمانيون عن سائر إخوانهم من بني الإنسان، لأنهم كانوا يعيشون في أحوال راكدة لا استثارة فيها، وبمعزل عن كل منافسة إنسانية أو مثال يحتذى ومع ذلك فإن بقايا الحفريات القديمة حتى في هذا الركن المتأخر من العالم – كما يقول السر آرثر كيث Arthur – تدل على أن الإنسان قد تقدم فإن تسمانيي القرن التاسع عشر كانوا أخف حركة وأقل بهيمية من أقاربهم الأقدمين.

(٤)
جمجمة روديسيا

وجدت في صيف سنة ١٩٢١ لقية شائقة جدا في كهف بمزرعة بـروكن هـل Broken Hill بجنـوب أفريقيا. وهي جمجمة ينقصها الفك الأسفل ومعها أيضا عدد من العظام تنتسب إلى نوع جديد من الإنسان يعد في الدرجة المتوسطة بين الرجل النياندرتالي والإنسان الحقيقي العاقل وسنفيض لك القول في ذلك النوع. ولم تكن الجمجمة متمعدنة إلا تمعدنًا يسيرا. وإذن فلا بد أن صاحبها كان حيا قبل زمان لا يزيد على آلاف قليلة من السنين. ولا يزال ترتيب الطبقات في هذه المنطقة غامضا مبهما. ولعل الرجل الروديسي كان ممن يطارد القردة الإنسانية من طراز التونج. فهذا المخلوق المكتشف حديثًا (هذا الرجل الروديسـي أو إنسـان الكهـف الروديسي) يظهر لك بعض أوجه الشبه بالإنسان النياندرتالي في بعض قسماته. وفي نفس الوقت لا نتبين من بقايا جسمه أي خصيصة من خصائص الإنسان النياندرتالي المميزة. ذلك أن وعاء مخـه ورقبتـه وأسـنانه وأطرافه من طراز إنساني بحت. ولسنا نعرف شيئًا عن يديه ولكن حجم الفك العلوي وسطوحه المفصلية تدل على فك سفلي له حجم يزيد على حجم فك هايدلبرج. وللحاجب فيها حافة بارزة Brow- ridges كحـوافي حاجب القردة وهي تضارع في هيئتها ما لدى النياندرتاليين. ويبدو أن ذلك المخلوق يكاد يكون فردا من أفراد الجنس البشري له وجه شبيه بوجه القردة. ولعله عاش حتى العصر الإنساني كما كان معاصرا للإنسان الحق في جنوب أفريقيا. وربما كان مصدر فزع لأطفال الإنسان العاقل.

وقد وصلتنا فضلاً عن ذلك من أجزاء كثيرة في أفريقيا الجنوبية بقايا للجنس الإنساني الحق منهـا جـنس البوسكوب Boskop وهو قديم جدا وإن كنا لم نستطع بعد تحديد مدى قدمه. وكان لإنسان البوسكوب جماجم أقرب إلى جماجم البوشمن الأحياء منها إلى أي جنس آخر موجود ولكنها كانت أكثر سماكة وأكبر كثيرا، بل إن لها على التحقيق فراغًا مخيا أكبر من فراغ الجماجم الأوربية الحديثة. كانوا شعبا من البوشمن أضخم من الحاليين حجما ولعلهم كذلك أذكى عقولاً. وقد يكونون أقدم أنواع الإنسان الحق المعروفة. وبعض الجمـاجم المكتشفة في وادجاك Wadjak بجزيرة جاوه قبل اكتشاف الإنسان القـردي (Pithecanthropus) بقليـل والتي ترجع فيما يرجح إلى العصر البلايستوسيني، تبدو كأنما هي القنطرة التي تصل ما بين شقي المسـافة بين إنسان روديسيا وسكان أستراليا الأصليين Aborigines على حين أن جمجمة تالجـاي Talgai التـي وجدت في طبقات العصر البلايستوسيني بكوينزلاند، تمثل طرازا من الجنس الأستراليدي (الشبيه بالأسترالي Australoid) يختلف عن طراز الأستراليين السود الحاليين اختلافًا أهم مظاهره زيادة فكـه عـن فكـاكهم حجما.

الفصل الثامن

إنسان العصر الحجري القديم التالي
لعصر الجليدي الإنسان الحقيقي الأول
(العصر الحجري القديم المتأخر)

١- ظهور أناس يشبهوننا.

٢- جغرافية العالم إبان العصر الحجري القديم.

٣- خاتمة العصر الحجري القديم

٤- لا وجود لأشباه الإنسان في أمريكا.

(١)
ظهور أناس يشبهوننا

عم طراز الإنسان النياندرتالي أوربا مدة تقدر على الأقل بعشـرات الآلاف مـن السـنين. ظلـت هـذه المخلوقات القريبة من الإنسانية سائدة منتشرة إبان عصور لو قورن بها التاريخ كله لبدا كأنه الأمس القريب. وإذا صح أن الفك الهاندلبرجي فك لأحد النياندرتاليين، وإذا لم يكن هناك خطأ في تقدير تاريخ ذلك الفك، فإن الجنس النياندرتالي يكون قد عمر مائتي ألف سنة. وفي آخر الأمر أي منذ زمن يتراوح بين أربعين ألف سنة وخمسة وعشرين ألف سنة، ويوم راح العصر الجليدي الرابع يتجه صوب الاعتدال، ظهر على مسرح الحياة الأوربية طراز إنساني مخالف، قضى فيما يبدو على "الإنسان النياندرتالي".

والراجح أن هذا الطراز الجديد تطور في جنوب آسيا أو أفريقيا في أراضي تغمرها اليـوم ميـاه البحـر المتوسط. ولسوف يزيد علم الناس بمراحله الأولى مع زيادة اكتشاف بقاياه وجمعهـا وبعـد تكـاثر الأدلـة والشواهد. فنحن لا نستطيع الآن إلا أن نحدس أين وكيف نشأ هؤلاء "الرجال الحقيقيون" الأوائل منحدرين من بعض الأجداد الأكثر شبها بالقردة خلال العصور المتراخية، مسايرين في ذلك أبناء عمومتهم النيانـدرتاليين. وظلوا يكتسبون خلال مئات القرون: مهارة في أيديهم وأطرافهم وقوة وضخامة في المخ، في تلك البيئة التي لا تزال مجهولة. وكانوا متفوقين فعلاً على رجال نياندرتال رقيا وذكاء عندما ظهروا أمامنا أول مرة، وكانوا قد انقسموا من قبل قسمين شديدي التميز أو أكثر من قسمين.

على أن هؤلاء القادمين الجدد لم يهاجروا إلى أوربا هجرة بالمعنى الدقيق الذي نفهمه من هـذه الكلمـة، ولكن لما أخذ المناخ يتحسن قرنًا بعد قرن، فإنهم تتبعوا الطعام والنبات اللذين اعتادوهما وقتما أخذ هذان في الانتشار في الآفاق الجديدة التي تفتحت لهم. كان الجليد شرع يتراجع، وكان النبات أخذ يتزايد وكان الصـيد الكبير من جميع الأنواع قد بدأ يزداد عدده. وأخذت حالات تشبه حالات السهوب وشجيراتها تستجاب معهـا رعائل عظيمة من الخيل البرية. ويضع علماء السلالات البشرية Ethnologists هـذه الأجنـاس البشـرية الجديدة في نفس النوع الذي ننتسب نحن إليه، ويضعونها مع كل الأجناس البشرية التالية لهـا تحـت اسـم مخصص جامع هو "الإنسان الحق Homo Sapiens". فقد كانت لهم أوعية مخ وأيد تامة السمة الإنسـانية، وكانت أسنانهم ورقابهم من ناحية التركيب التشريحي شبيهة بأسناننا ورقابنا.

ونحن الآن على علم بنوعين متميزين من بقايا الهياكل في تلك المدة، أولهما هو الشهير باسم جنس كرومـانيون Cromagnon وثانيهما باسم جنس جريمالدي Grimaldi. ولكن الغالبية العظمى من البقايا والمعدات الإنسانية التي نجدها تكون على إحدى حالتين: فهي إما غير محتوية على عظام إنسانية أو هي محتوية على عظام غيـر كافيـة للاستدلال منها على طرازها الجثماني المرتبط بها. وربما وجدت أجناس أخرى متميزة غير هذين. وربما وجـدت أنماط متوسطة. وحدث أن عثر لأول مرة في غار كرومانيون على هياكل عظمية كاملة لجنس هام مـن أجنـاس هؤلاء الرجال رجال العصر الحجري القديم الجدد أي الإنسان الحقيقي، ومن ثم نشأت تسميتهم باسم الكرومانيين.

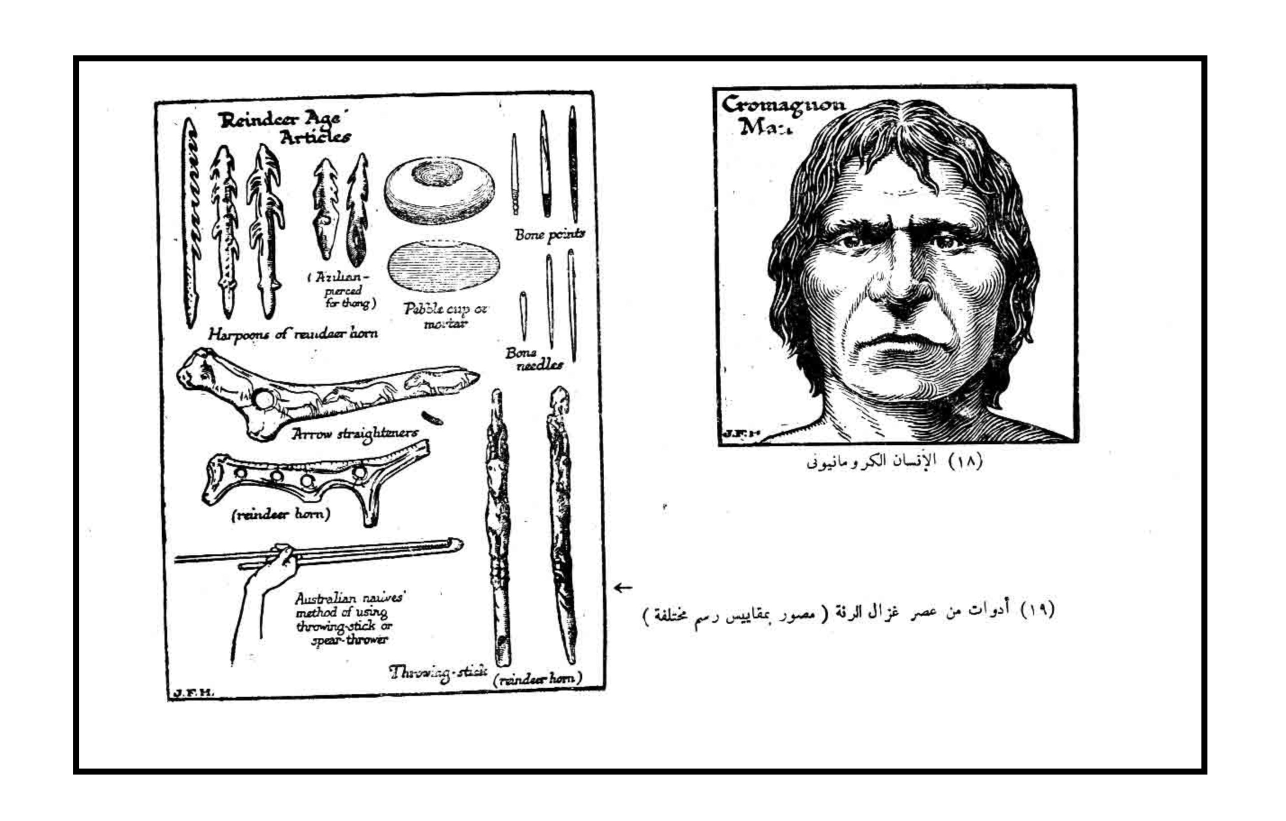
كان هؤلاء الكرومانيون شعبا طويل القامة له وجوه عريضة جدا، وأنوف عالية بارزة وأمخاخ كبيرة كبرا يبعث على الدهشة. فإن سعة مخ المرأة التي في كهف كرومانيون تفوق سعة مخ الرجل المتوسـط العـادي اليوم. وقد وجد رأسها محطما إثر ضربة شديدة. وكان معها في نفس الكهف هيكل كامل لرجل أسـن منهـا يقارب طوله ستة أقدام، وحطام هيكل عظمي لطفل وهيكلان لرجلين في مقتبل العمر. وكانت هنـاك أيضـا آلات من الظران ومحارات بحرية مثقوبة كانت تستعمل للزينة ولا شك. فهذا نموذج لأقدم الرجال الحقيقيين. ولكن كشف أيضا في كهف جريمالدي بالقرب من (منتون) Mentone هيكلان يرجعان إلى العصر الحجري القديم المتأخر، ولكن لهما طرازا مباينًا للأول مباينة شديدة لما فيهما من خصائص شبه زنجيـة (تجريديـة Negroid) تكاد تشير إلى هذا الطراز من الناس إشارة صريحة. وهما يتجهان في نمطهما صـوب الجـنس البوسكوبي بجنوب أفريقيا الذي سبق أن ذكرناه لك. وليس هناك من شك في أن علينا في هذه المرة أن نعالج جنسين على الأقل من الإنسان الحق متباعدين تباعدا عظيما إن لم نكن نعالج أكثر من جنسين على الـراجح. وربما كانا يعيشان في وقت واحد، وربما يكون الكرومانيون قد جاءوا بعد الجنس الجريمالدي، وربما كـان أحدهما أو كلاهما معاصرا للمتأخرين من النياندرتاليين. وإن لمختلف الثقات في هذه النقط آراء قويـة جـدا ولكنها لا تزيد في جل شأنها على مجرد آراء وتخمينات.

وظهور هاته الشعوب الإنسانية الحقة في العصر الحجري القديم الذي أعقب الجليدي كان علـى التحقـق قفزة هائلة في تاريخ الإنسانية. فقد كان لكل من هذين الجنسين البشريين مقدم مخ[٣٧] Forebrain إنسـاني ويد إنسانية وذكاء قريب الشبه جدا بذكائنا. وقد سلبوا الإنسان النياندرتالي كهوفه ومحاجره. وكانوا فيما يبدو لنا يتفقون مع علماء الأجناس العصريين في اعتباره نوعا مخالفًا لهم. لذا لم يفعل الإنسان الحق ما يفعله كل الفاتحين المتوحشين الذين يحرزون لأنفسهم نساء الجانب المغلوب ويتزوجون منهن، بل لم يكـن ليرضـى بوجود أية علاقة بينه وبين الجنس النياندرتالي: رجاله ونساءه على السواء. ذلك أنه لا يوجد أثر يدل علـى وجود أي تزاوج بين الأجناس بالرغم من الاعتراف بأن النازلين الجدد (وكانوا أيضا من مستعملي الظـران) أخذوا يركزون أنفسهم في نفس البقاع التي كان يحتلها سابقوهم.

---

(٣٧) مقدم المخ: الفص المقدم من ثلاث فصوص في تخليق أجنة الفقاريات. (المترجم).


خريطة تقريبية
لمعالم أوروبا وآسيا الغربية
في ذروة العصر الثلجي الرابع
منذ نحو ٥٠ ألف سنة
أرض
ماء
ثلوج
خط الساحل الحالي
(١٣)



(١٨) الإنسان الكرومانيونى

(١٩) أدوات من عصر غزال الرنة (مصور بمقاييس رسم مختلفة)

ولسنا ندري شيئًا عن شكل الإنسان النياندرتالي، ولكن امتناع هذا التزاوج يكاد يفصح لنا عن شدة اكتسائه بالشعر وعظم بشاعته أو وجود غرابة كريهة في هيئته، فضلاً عن جبهته الخفيضة وحواجبه التي تشبه الخنفساء، ورقبته التي تقارب رقبة القرود، وقامته القصيرة. وربما كان – ذكرا أو أنثى – شديد الشراسة إلى حد لا يمكن معه استئناسه. ويقول السير هاري جونستون في دراسته الشاملة لموضوع نهوض الإنسان العصري في كتابه "نظرات ومراجعات Views and Reviews: "إن الذكريات العنصرية الغامضة الباقية من هذا الوحش الشبيه بالغوريلا ذي العقل الماكر والمشية الحاجلة والأجسام المكسوة شعرا والأسنان القوية والميل إلى أكل البشر فيما يحتمل – ربما كانت الأصل في فكرة الغول في القصص الشعبية".

هؤلاء الرجال الحقيقيون في العصر الحجري القديم الذين حلوا محل النياندرتاليين كانوا مقبلين على مناخ أكثر اعتدالاً. وهم وإن استخدموا كهوف سابقيهم ومآويهم، فقد كانوا يقضون معظم حياتهم في العراء. كانوا شعبا صيادا، ويبدو أن بعضهم أو كلهم كانوا يصطادون الماموث والحصان البري وغزال الرنة والثور الوحشي الكبير Auroch، وكانوا يأكلون الخيول بكثرة. ففي مخيم عظيم في العراء عند سوليوتريه Solutré حيث يبدو أن قد كانت لهم اجتماعات سنوية طوال قرون عدة متوالية، يقدر الخيول الموجودة عظامها هناك بمائة ألف حصان، وذلك فضلاً عن عظام غزلان الرنة والماموث والجاموس الوحشي. والراجح أنهم كانوا يتتبعون رعائل الخيل (وهي من السيسيات الصغيرة الملتحية) في تنقلها طلبا للكلأ. كانوا دائما على مقربة من حواشي الرعيل حتى أصبحوا يعرفون كل المعرفة عاداته وميوله ولا بد أن شطرا كبيرا من حياة هؤلاء الرجال كان يقضي في مراقبة الحيوانات. ولا يزال أمر ترويضهم الخيل وتأنيسها موضوعا مفتوح الباب أمام الباحثين. ولعلهم قد تعلموا ذلك تدريجيا مع انقضاء القرون ومهما يكن من هذا الأمر فإننا نجد رسوما متأخرة من العصر الحجري القديم تمثل الخيل وفي رءوسها علامات تنوه تنويها قويا باللجم. ويوجد نقش يمثل رأس حصان به شيء قد يكون حبلاً من

الجلد أو من أوتار العضلات المفتولة. وحتى لو فرض أنهم روضوا الحصان فإننا نشك في أنهم ركبوه أو أنه كان عندهم ذا نفع كبير بعد تأنيسه. وكان الحصان الذي عرفوه سيسيا بريا له لحية تحت ذقنه، لا يستطيع حمل الإنسان، وليس من المحتمل أن يكون هؤلاء الرجال قد تعلموا بعد طريقة اتخاذ لبن الحيوانات غذاء لهم، وهي الطريقة التي تكاد تكون غير طبيعية. فلئن أفلحوا آخر الأمر في ترويض الحصان فقد كان هو الحيوان الوحيد الذي يبدو أنهم روضوه ولم تكن لهم كلاب وما كانوا ليستطيعوا الاستفادة كثيرا من أي شاة أو ماشية مستأنسة.

ومما يساعدنا مساعدة عظيمة على إدراك خلة الإنسانية المشتركة بينهم أن هؤلاء الرجال الحقيقيين الأقدمين كانوا يستطيعون أن يرسموا. والواقع أنهم كانوا يرسمون رسوما تبعث جودتها على الدهشة. كانوا لا شك متوحشين، بالغة ما بلغت المعايير التي نطبقها عليهم، ولكنهم كانوا متوحشين فنيين، يرسمون خيرا من أي جنس خلفهم حتى بداية التاريخ. فيرسمون وينقشون على جوانب الصخور وعلى جدران الكهوف التي غصبوها من النياندرتاليين. وتهبط البقية الباقية من الرسوم على علماء الأجناس البشرية وهم يعصرون أذهانهم مكبين على العظام والقطع المكسرة – هبوط رسالة صريحة يتلألأ فيها نور يسطع في كل ما حوله من سدفة ظلام وعماية حدس وتخمين. كانوا يرسمون على العظام والقرون المتشعبة وينحتون أشكالاً صغيرة.

ولم يكتف هؤلاء الناس، أناس العصر الحجري القديم المتأخر، برسم هذه الرسوم العجيبة في جودتها والتي أمدتنا بالمعلومات، لم يكتفوا بهذا وبالمهارة المتزايدة على مر القرون، بل تركوا لنا في قبورهم عدا هذا معلومات أخرى عن حياتهم. إذ كانوا يدفنون موتاهم.. يدفنونهم ومعهم في الغالب الحلي والطعام. وكانوا يستعملون في الدفن قدرا صالحا من الأصباغ؛ ومن الجلي أنهم كانوا يصبغون الجثة؛ ومن هذا يستطيع الإنسان أن يستنتج أنهم كانوا يصبغون أجسامهم وهم أحياء. وكان الصباغ عظيم الأهمية في حياتهم، وكانوا صباغين راسخي القدم، يستعملون صباغًا سوداء وبنية وحمراء وصفراء وبيضاء. ولا تزال الأصباغ التي استعملوها باقية حتى يومنا هذا في الكهوف وعلى سطوح الصخور في فرنسا وإسبانيا. ولم يظهر واحد من الشعوب الحديثة مثل هذه الميول التصويرية. وأقرب الأقربين إليهم هم الهنود الحمر.

وقد استمرت هذه النقوش والرسوم التي صنعتها شعوب العصر الحجري القديم المتأخر [٣٨] مدة طويلة من الزمان. وهي تعرض علينا تقلبات في الجدارة الفنية تتفاوت بينها مسافة الخاف. وكثيرا ما يكون الرسم في أقدم مراحله بدائيا كرسوم الأطفال المهرة؛ فذوات الأربع ترسم في العادة برجل واحدة خلفية وأخرى مفردة أمامية، كما يرسمها الأطفال إلى هذه الساعة، إذ كانت الأرجل التي في الجهة الأخرى فوق ما يطيقه فن الفنان عندئذ. وربما تكون أول الرسوم قد ابتدأت كما تبدأ رسوم الأطفال ببعض خدوش يغلب فيها العبث. وكان المتوحش يخدش بقطعة من الصوان على سطح صخرة ملساء، وكان يتنبه إلى بعض الخطوط والحركات فلا تفوته. على أن منحوتاتهم الصلبة لا تقل في قدمها عن صورهم الأولى. وتبين الرسوم الأولى عجزهم التام عن تصوير جماعات الحيوانات.

ولكن مع تقدم القرون ظهر عدد أكبر من الفنانين المهرة، فالصور التي تمثل الوحوش أصبحت واضحة قريبة الشبه من الأصل إلى حد يبعث على الدهشة. وكانوا وهم في ذرا رقيهم الفني ذاتها لا ينفكون يرسمون صورا جانبية Profiles كالتي يرسمها الأطفال. وكان المنظور اللازم للمناظر الخلفية والأمامية فوق ما في طوقهم. والماموث والحصان من بين أهم موضوعات تصويرهم. فإن كهوف شمالي إسبانيا لا تحتوي على رسوم للإنسان بل لحيوانات فقط، ولكن توجد في شرق إسبانيا صور ترجع إلى الأزمنة المتأخرة من هذه المدة وفيها تظهر بعض صور بشرية. وكان بعض الناس أيضا يصنع تماثيل صغيرة من العاج ومن حجر الصوان. ومن بين هذه أشكال لنساء بدينات جدا يشبهن نساء البوشمن. وكان النحت الإنساني في الزمان القديم الأول ميالاً إلى عمل أشكال كاريكاتورية. والأشكال الإنسانية التي يمثلها ذلك النحت هي على العموم أحط كثيرا من الدراسات الحيوانية من ناحية القوة والتمشي مع الواقع.

وبعد ذلك زادت رشاقة الصور والتماثيل التي تمثل الإنسان، ونقص بعض ما فيها من خشونة. فإن المنقبين عثروا على رأس فتاة من العاج قد أحكم ترجيل شعرها إحكاما. وكان هؤلاء الناس في مرحلة متأخرة عن هذه يخدشون ويحفرون رسوما على العاج والعظام؛ ومن أطرف مجاميع هذه التصاوير أشكال محفورة حول العظام على هيئة غريبة جدا، وبخاصة حول قضبان من عظام الغزلان حتى ليستحيل على الإنسان أن يرى الرسم كله دفعة واحدة. وقد وجدت أشكال أخرى مصنوعة من الطين وإن لم يكن هناك أي شعب يستعمل الفخار في العصر الحجري القديم.

([٣٨]) ويسمى أيضا بالعصر الحجري القديم الثاني. (المترجم)

وكثير من هذه الصور الملونة موجودة في أعماق كهوف مظلمة لا ضوء فيها، وغالبا ما يكون ولوجها عسيرا. فلا بد أن يكون الفنانون قد استعملوا المصابيح أثناء عملهم. وقد وجدت بالفعل مصابيح ضحلة من حجر الصابون لابد أنهم كانوا يستعملون فيها الشحم ونحن الآن في حيرة تامة من أمر هذه النقوش: فهل كانت رؤية هذه الصور الكهفية بعض شعائر الطقوس من ناحية ما أو تحت أي الظروف كانت ترى؟ ومع هذا فالصور في جنوبي وشرقي إسبانيا ليست مرسومة في كهوف بل على صخور يقيها نتوء بارز ويضيؤها نور لا بأس به.

ويميز علماء الآثار في الوقت الحاضر بين ثلاث مراحل رئيسية في تاريخ هؤلاء الرجال، رجال العصر الحجري القديم المحدثين أي هؤلاء الرجال الحقيقين في أوربا. ونحن نرى لزاما علينا أن نذكر لك هذه المراحل ها هنا. ولكن ربما كان لزاما علينا أيضا أن نقول في الوقت عينه إن من أشق الأمور وأعوصها علينا أن نتبين في حالة طبقتين تختلفان مكانًا، أيتهما أقدم وأيتهما أحدث. فربما كنا ندرس أجناسا مختلفة قد تكون متعاصرة إلى حد قليل أو كثير، على حين نظن أنفسنا ناظرين إلى أجناس متعاقبة. ولا بد للقارئ أن يتذكر أننا ندرس مجاميع من البقاع صغيرة لا رابط بينها لا تزيد في مجموعها على بضع عشرات.

وأقدم مرحلة يتبينها الخبراء عادة هي "الأورينياكية Aurignacian" أي المأخوذة عن كهف أورينياك. وأشهر مميزاتها وجود آلات من الظران متقنة الصنع وتطور سريع في الفن وعلى الأخص في التماثيل الصغيرة والصور الجدارية. وأدعى الكهوف الصورة إلى التقدير يعزى إلى الجزء المتأخر من هذا القسم الفرعي وأعني به القسم الأول من الأقسام الفرعية الثلاثة التي ينقسم إليها العصر الحجري القديم الثاني. ويسمى القسم الفرعي الثاني باسم "السوليوتري Soiutrian" والاسم مشتق من سوليوترية Solutré، وهو يتميز على الخصوص بجمال صنف آلاته الحجرية وجودته. وبعض نصاله الشبيهة بالمواسي لا يضارعها إلا خير ما أنتجه العصر الحجري الحديث وإن لم يفقها. وهي بالطبع غير مصقولة ولكن خير نماذجها تضارع في رقتها أحسن نصال الصلب وتكاد تطاولها في حدتها. ويبدو أن جاءت آخر الأمر المرحلة المجدلينية نسبة إلى La Madeleine، وفيها أخذ يتناقص عدد الخيل وغزال الرنة ويبدأ ظهور الغزال الأحمر في أوروبا. وتصبح الآلات الحجرية أصغر حجما كما توجد هناك كمية عظيمة من الحراب ورءوس الرماح والإبر وما أشبهها مصنوعة من العظم.

ويبدو أن صيادي تلك المرحلة الأخيرة الثالثة من العصر الحجري القديم المتأخر كانوا يستكملون طعامهم المتناقص بصيد الأسماك. والفن المميز لتلك المدة يتألف من نقوش بارزة Reliefs عميقة محفورة على العظام ورسوم من خطوط محفورة على العظام أيضا. وإلى هذه المدة تنتسب الرسوم المنقوشة حول العظام. ولقد ارتأى بعض الناس أن هذه النماذج المحيطة بالعظام المستديرة كانت تستعمل في طبع الأشكال الملونة على الجلد. وبعض ما على تلك العظام من رسم، خارق للعادة في جودة صنعته. ويقول باركن Parkyn نقلاً عما كتبه دي مورتيليه De Mortillet عن الإبر العظمية في عصر غزال الرنة (المجدليني) "إنها تفوق كثيرا غيرها مما كان في الأزمان المتأخرة حتى التاريخية منها إلى عصر النهضة. فلم يكن لدى الرومان مثلاً إبر قط يمكن أن تقاس إلى إبر الحقبة المجدلينية".

ويستحيل علينا تمام الاستحالة في الوقت الحاضر أن نقدر على سبيل الحدس طول تلك العصور منسوبا بعضها إلى بعض. بل نحن لسنا متأكدين تأكدا جازما عن علاقتها النسبية بعضها ببعض. وقد يكون مدى كل منها أربعة أو خمسة آلاف سنة أو تزيد أي ما يربو على ضعفي الزمن من بدء التاريخ المسيحي حتى وقتنا هذا. أضف إلى ذلك أن أسس هذا التقسيم تعتمد أكثر ما تعتمد على البقايا التي وجدت في فرنسا وشمالي إسبانيا. فإذا ما انتقلنا جنوبا في إسبانيا وإيطاليا وشمالي أفريقيا لا نعثر بها على شيء يحمل خصائصها المميزة. فقد كان طراز الحياة في الجنوب مختلفًا كما كان هناك طعام مختلف ومعدات مختلفة.

ويبدو أن الظروف قد أخذت آخر الأمر تنقلب انقلابا تاما على هذه الشعوب الصيادة التي ظهرت في العصر الحجري القديم الثاني، والتي ازدهرت هذا الزمان الطويل في أوربا. فاختفوا من الوجود وحل محلهم أنواع أخرى من الإنسان آتية من الجنوب والشرق. ويلوح أن هؤلاء الأخيرين أدخلوا معهم القسي والسهام، وكانوا قد استأنسوا الحيوان وازدرعوا الأرض. فانتشرت في كل أصقاع أوربا طريقة جديدة للعيش هي طريقة العيش في العصر الحجري الحديث "النيوليثي Neolithic" وزالت من المسرح الأوربي حياة "عصر غزال الرنة" وحياة رجال العصر الحجري القديم الثاني بعد أن سيطروا مدة أكبر من الزمان الممتد من عصرنا حتى أشد بدايات التاريخ المسجل قدما.

وقد يميل بعض الكتاب إلى المبالغة في الصفات الذهنية والجثمانية التي يستمتع بها إنسان العصر الحجري القديم الثاني محاولين بهذا أن يخلقوا منه أعجوبة مدهشة. والحق إننا إذا نظرنا إليهم في مجموعهم وجدنا لديهم مواهب عجيبة، ولكن قليلاً من التأمل يكشف لك فيهم عن نقائص عجيبة أيضا. فإن ذلك التقدم الهائل الذي يظهرونه على من سبقوهم من النياندرتاليين، وتلك الموهبة الفنية الخاصة التي كانت لهم يجب ألا تحجب أبصارنا عن إدراك نواحي قصورهم الشديدة الوضوح. ذلك أن مخهم على الرغم من كبره كان من صنف ضيق له اتجاه خاص. فكان إدراكهم للأشكال الحيوانية ممتازا خاصا وإحساسهم بها مرهفًا. لذا تجلت فيهم الدوافع التي تدفعهم إلى تصوير ما يرون بروح الفنان الحق. وكانوا من هذه الوجهة كائنات إنسانية تامة النماء. على أن نفس هذا الميل إلى التصوير بالألوان والرسم يبديه اليوم البوشمن وهنود كاليفورنيا وسكان رجال أستراليا السود. وإذن فليس ذلك دلالة على عقلية عالية من كل النواحي.

والأثر الكلي الذي تحدثه رسومهم وصورهم الملونة أثر بالغ العظم، ولكن ينبغي لنا ألا نخطئ فنجمع كل ما وصلوا إليه جمعا مزدحما في أذهاننا، كما لو كانت أمورا ظهرت على سطح الأرض فجأة كلمع البرق أو في فترة من الزمان وجيزة أو كما لو كانت هي الثمرة التي وصل إليها شعب واحد بمفرده. فإن هذه الأجناس أجناس رجال غزال الرنة، ظلت تمتلك كل أوربا الغربية من غير منازع طوال مدة لا تقل عن عشرة أضعاف الفترة الممتدة بين زماننا وبين أول التاريخ المسيحي. وكانت في كل هذا الزمان الهائل حرة في تطوير حياتها وتنويعها إلى أقصى ما تهيؤه لها الظروف المتاحة لها. كانوا على اتصال وثيق بالحيوانات، ولكن لم يبد عليهم أنهم استطاعوا أن يتفاهموا مع أي حيوان إلا الحصان. ولم يكن لديهم كلاب ولا كانت لديهم قط حيوانات مستأنسة بالمعنى الذي نفهمه. بل كانوا يترصدون الحيوان ويجذبونه ويقتلونه ويأكلونه. ولم يبد عليهم أنهم يطبخون طعامهم. وربما كانوا يشوطون ظاهرها أو يشتوونها. ولكن لم يكن في إمكانهم أن يزيدوا على ذلك كثيرا إذ أعوزتهم أدوات الطبخ.

ومع أن الطين كان في متناول أيديهم ومع أنهم خلفوا وراءهم عددا كبيرا من الأشكال الطينية من العصر الحجري القديم فلم يكن لديهم فخار. ومع أنهم كان لديهم أضرب كثيرة من آلات الظران والعظام فـإنهم لـم يصلوا قط إلى استعمال الخشب للمساكن الدائمة وما إليها من المباني. وهم لم يصنعوا قـط البلاطـات ذوات النصاب أو ما يشابهها من أدوات تمكنهم من معالجة الخشب. وإن في بعض الرسوم لشيئًا يشير ولو من بعيد إلى سياج من العصي قد حصر فيه أحد أفراد الماموث. على أننا قد نكون هنا حيال خدوش أضيفت فيما بعد ذلك من العصور. ولم تكن لديهم مبان بل ليس مؤكدا أن كان لديهم خيام أو خصا. وربما كانت لديهم خيـام بسيطة من الجلود، فبعض الرسوم يوحي فيما يبدو بوجود هذه الخيام. واستعمالهم القوس أمر مشـكوك فيـه لأنهم لم يخلفوا من بعدهم أي رءوس سهام جيدة. وواضح أن الشك الذي يخامرنا في استعمال رجل العصـر الحجري القديم (عصر غزالة الرنة) للقسي لا ينطبق على رجال العصر الحجري القديم أثناء عهـد الثقافـة القابسية [٣٩] Capsian المتأخرة نسبيا. وربما طفر ذهن القارئ غير المدقق إلى اسـتنتاج أن هـذا الـرأي ينطبق على رجال العصر الحجري القديم بأسرهم، ولكن هذا ظن خاطئ. نعم إن رجـال القسـم الأول مـن العصر الحجري القديم وهم النياندرتاليون كانوا ولا شك بلا قسي. والراجح أنه ليس لإنسان عصـر غـزال الرنة أي دراية بالرماية والنبال. ويقول بعض الثقات الذائعي الصيت بأن عددا من أدواتهم إنما هو من نـوع الأدوات التي تقوم بها أعواد السهام وتثقّف، ولكن هذا لا يضارع في قوة دلالته عثورنا على السهام نفسـها. وربما كانوا يستخدمون عصيا مبرية بدل السهام. ولم يزرعوا الحبوب والخضر أيا كـان نوعهـا. وكانـت نساؤهم فيما يرجح أصغر حجما من الرجال وتمثلهن التماثيل الصغيرة الأولى على صورة السمن القبيح حتى ليصلن غالبا إلى مستوى البدانة الذي عليه نساء البوشمن في أيامنا هذه فهن يسمن من أجل الزواج. ولعل هذا كان حال نساء (العصر الحجري). وكن أصغر من الرجال حجما لأنهن كن ولا شك يأخـذن فـي الحمـل والولادة قبل أن يستكمل نموهن ولقد كانت المرأة البدائية مخلوقًا ذليلاً خاضعا.

وإنسان العصر الحجري القديم المتأخر (الثاني) كان يكتسي فيما يبدو بالجلود إن كان يكتسي بشيء علـى الإطلاق. وكانوا يهيئون هذه الجلود ببراعة وإتقان، ولما قارب العصر نهايته كانوا يستعملون إبرا من العظم، يستعملونها ولا شك في خياطة هذا الفراء. ويستطيع المرء أن يحدس وهو مطمئن أنهم كانوا يرسمون علـى هذه الجلود بالألوان بل لقد ذهب البعض إلى الظن بأنهم كانوا يطبعون عليها رسوما بوساطة أسطوانات مـن العظم. ولكن ثيابهم كانت مجرد لفائف؛ إذ لم نعثر لهم على مشابك. ولم يبد عليهم أنهم استعملوا الأعشاب أو ما شابهها من الألياف في صنع المنسوجات. فتماثيلهم الصغيرة جردة من الثياب، وإذا ما اسـتثنينا تـدثرهم ببعض الفراء في الجو البارد قلنا إنهم كانوا شعبا من المتوحشين العراة المنقوشي الأديم. وكانوا مـن ناحيـة نسائهم وفنهم أشبه شيء ببوشمن جنوبي أفريقيا. وكانوا في مطاردتهم الرنة يشبهون هنود لبرادور، ولعلهـم من الناحية الجثمانية كانوا شديدي المشابهة لهؤلاء الهنود.

([٣٩]) الثقافة القابسية: وهي ثقافة نسبها العالم أوبر ماير إلى اسم كان في تونس كما سيأتي بعد. (المترجم)

وعاش هؤلاء الصيادون على السهوب الفسيحة مدى مائتي قرن أو ما يقاربها وهو مـا يعـادل عشـرة أضعاف الحقبة المسيحية. ولعلهم قد فاجأهم نمو الغابات الأوربية عندما خفت وطأة المناخ البارد وأصبح أشد مطرا. حتى إذا نقص عدد قطعان الحصان البري وغزال الرنة في أوربا ونشأ طراز من الثقافـة الإنسـانية أحدث مما كان قبلاً، سيطرته على المواد الغذائية أكبر من سيطرة ما سبقه، أصـبحوا أقـدر علـى التـزام الاستقرار. ووجد في أغلب الظن تنظيم اجتماعي أوسع. فلما حدث هذا كله كان لزاما على رجـال عصـر غزال الرنة أن يختاروا بين أن يتعلموا طرائق جديدة للعيش أو أن يزولوا من الوجود.

(٢)
جغرافية العالم إبان العصر الحجري القديم

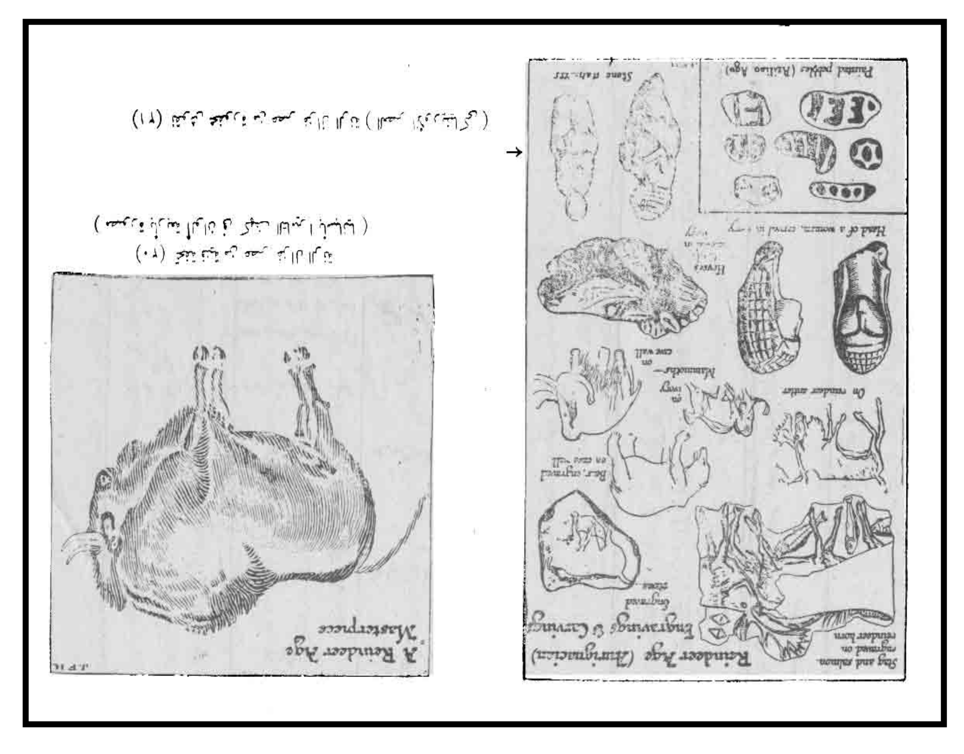
من أهم الأشياء أن ندرك الفروق بين جغرافية عصر غزال الرنة وجغرافية العصر الحاضر. ذلك أن هذا موضوع كثيرا ما يغفله الباحثون حتى لقد بلغ الأمر أن يسهو عنه عالم خطير كالدكتور فيرفلد أسبورن Fairfield Osborn. فهو يكتب مثلاً عن غزو إسبانيا بالثقافتين الشيليانية والموستيريانية الآتيتين من مصر عن طريق شمالي أفريقيا كأنما كان هذا الطريق حينذاك كما هو الآن الطريق الوحيد الذي يمكن الوصول منه إلى إسبانيا، ويذهب العلامة أوبرماير Obermaier إلى أبعد من هذا فيبحث ويناقش في هل وصلت الثقافة الشيليانية من أفريقيا إلى إسبانيا "فوق سطح ضرب بدائي من الأرماث!!" [٤٠].

وغني عن البيان أن ذلك الرمث كان غير ضروري البتة آنذاك. فإن الخريطة التقريبية لأوربا وغربي آسيا كما كانت قبل ثلاثين ألف سنة (انظر الخريطة ١٧) لتريك لأول وهلة أن من السخف اعتبار إسبانيا جزءا من الأرض منفصلاً على الدوام عن غيره من بقاع العالم. على أن هذه مع ذلك ملحوظة نسوقها عرضا، أما المسألة العامة الجديرة بالبحث، فهي أن هذه الشعوب التي عاشت في العصر الحجري القديم كانت تعيش على هامش الحياة بشكل واضح بين. ولسنا نملك بعد النص الرئيسي لسفر القصة البشرية. فإن حياة الناس في عصر غزال الرنة إنما هي حياة قوم مرابطين على التخوم لأنهم كانوا يسكنون على الصخور الجرداء الواقعة شمالي أحسن أراضي العالم. فقد كان حوض البحر المتوسط يمتد في الجنوب والغرب منهم. وما من شك في أن بقايا معاصري رجال غزال الرنة مغمورة إلى الأبد فيما نظن تحت هذه المياه الزرقاء والراجح أنهم كانوا أكثر من هؤلاء تقدما وأرقى تفكيرا وأكبر الظن أن الوديان العظيمة المحيطة ببحيرتي البحر المتوسط وفي مثلث البحر الأحمر قد أتاحت للتطور الإنساني ظروفًا بديعة رائعة. وكان أهم مسارح التاريخ الإنساني منذ عشرين ألف سنة يقع في الجنوب الشرقي من الأراضي الفرنسية الإسبانية، وهي البلاد الوحيدة من قارة أوروبا التي تم التنقيب فيها عن آثار الإنسان الأقدم.

وبفضل مجهودات العلامة أوبرماير المدريدي على الأخص بدأنا نتحقق أنه بينما انتشر رجال غزال الرنة في فرنسا وشمالي إسبانيا، كان الرجال الذين يضربون في الأرض في معظم أجزاء الأراضي الإسبانية وأفريقيا الشمالية ذوي ثقافة مخالفة لثقافة هؤلاء يسميها ذلك العالم بالثقافة (القابسية) نسبة إلى اسم مكان في تونس. ولم تترسم المرحلة القابسية خطى المراحل الأورينياكية والسوليوترية والمجدلينية في فرنسا بل كانت معاصرة لها، وكانت تختلف عنها. وإنا لنلمس فيها ما ينم عن أحوال اجتماعية أكثر تقدما وإن أعوزتها القدرة التصويرية التي رزقها الفن الشمالي (الذي يشمل النقوش الباهرة التي في كهوف ألتاميرا Altamira)، ولكنها من الناحية الأخرى قد هيأت لنا عددا عظيما من الصور الملونة التي تمثل بني الإنسان وهم يشتغلون في أوجه نشاط متنوعة. وهي في غالبية أمرها منقوشة على سطوح الصخور. وتشابه في وعيها وطريقة

---

[٤٠] الرمث: الطوف وهو خشب يشد بعضه إلى بعض ويركب في البحر. [المترجم].



(٢٠) تحفة فنية من عصر غزال الرنة (مصورة بأربعة ألوان فى كهف التامير بأسبانيا)

(٢١) نقوش محفورة من عصر غزال الرنة (العصر الأورنياكى)

			العصر الجليدى الرابع و الأخير	الطراز الموستيرى فى الآلات	الإنسان النياندرتالى
نهاية العصر الحجرى الأقدم	٥٠,٠٠٠ ق . م				
	٣٥,٠٠٠ ق . م				
العصر الحجرى القديم المتأخر		فترة السهوب	العصر الأورنياكى	آلات جيدة الصنع تماثيل صغيرة وصور كهوف	
			العصر السولترى	خير آلات	
				العصر الحجرى القديم	رجال غزال الرنة
			العصر المجدلينى	آلات حجريه أصغر حجما شصوص سمك من العظم عظام محفورة	
	١٥,٠٠٠ ق . م	عصر انتقال الغابات	العصر الأزيلى	الحصى المنقوش	
عصر الزراعة	١٠,٠٠٠ ق . م		العصر الحجرى الحديث	آلات حجرية مصقولة، رؤوس بلطات ورؤوس سهام فخار حيوانات منزلية	
	٩,٠٠٠ ق . م	الأحوال العصرية	العصر البرونزى		الأجناس الموجودة الآن
	١٩٢٠ م		العصر الحديدى		

(٢٢) بيان زمنى بالمدة التقديريه للعصور الإنسانية الحقة

علاجها كثيرا من الصور القديمة والعصرية التي نقشت على الأحجار والتي قامت بصنعها قبائل البوشمن في جنوبي أفريقيا. كذلك عثر الباحثون في إيطاليا أيضا على صور قابسية.

والحياة التي تسجلها الصورة القابسية حياة أيسر وألين، تفيأت ظلال ظروف مناخية أكثر ملاءمـة ممـا كانت يتفيؤها صيادو غزال الرنة في الشمال؛ وليست لغزال الرنة ولا للدب ولا للجـاموس البـري صـور تمثلها. وأهم الحيوانات المصورة هي الغزال العادي والثور البري. ويبدو في الصور أيضا رسوم الكركـدن والحمار الوحشي والتيس الجبلي. وفيها يحمل الرجال القسي وهم عراة، ولكن معظم الصور النسائية تمثـل النساء في مآزر تغطي نصفهن الأسفل. وللتزين بالريش صور تمثله في كثير من الأحوال. وهنـاك منظـر يمثل صيد الخنزير الوحشي وآخر يمثل طرد النحل البري من بيوته بإطلاق الدخان عليه. وهناك جماعـات تمثل في غالب الظن ما تحتمه الطقوس من حفلات الرقص. وهنا أيضا أشكال لرجال يلبسون أقنعـة تتـدلى على رءوسهم وأكتافهم وتمثل الحيوانات. وعندما عرض علي العلامة أوبرماير بمدريد منذ بضع سنين بعض الرسوم المأخوذة عن هذه الصور، وجه نظري إلى ما فيها من ميل غريب إلى تشويه الهيئة الإنسـانية مـع تمثيل الحيوانات من غير ما مسخ أو تشويه، فقد كانوا يظهرون الحيوان في أشكال صادقة أمينة يمكن معهـا تمييزها. فحصر الإنسان في الصورة ممطوط على الدوام مضغوط كثيرا؛ وغالبا ما تكون الساقان مضخمتين تضخيما كبيرا. ثم تتحول هذه الأوضاع في الصور التالية إلى ما يكاد يجعل العمل في رسم الإنسـان أمـرا هندسيا توضيحيا. فلا تصبح الصور صورا وإنما تتحول إلى علامات ورموز.

(٣)
خاتمة العصر الحجري القديم

حدث منذ حوالي اثنا عشر ألف سنة أو أقل قليلاً أن أوشكت حياة الصيد التي شملت أوربا زمنًا طويلاً، أن تنتهي تبعا لانتشار الغابات ولتغير عظيم لحق بنوع الحيوان. فاندثر غزال الرنة. ذلك أن الظروف المتغيـرة غالبا ما تحمل في طياتها أمراضا جديدة. وربما تكون قد حدثت أوبئة في زمن ما قبل التاريخ/. حتى ليبـدو أنه جاء على فرنسا زمن خلت فيه من كل كائن حي قبل ظهور السكان الجدد. فأما في جنوبي أوربـا فـإن الثقافة القابسية المتأخرة تمر فيما يسميه العلامة أوبرماير باسم مرحلة "ما فـوق العصـر الحجـري القـديم Epipalaeolithic" أثناء انتقالها إلى المرحلة الأزيلية (نسبة إلى كهف هضبة أزيل). فالصور التي رسـمها القابسيون وفق ما جرى به عرفهم من أوضاع، يزداد قربها إلى الهيئة الهندسية في المرحلة الأزيلية. وهناك مجاميع عظيمة من الحصى منقوشة بلمسات من فرشاة نعرف عنها اليوم أنها تمثـل طـرازا مـن النـاس والحيوان متواضعا عليه. وهناك قبائل أسترالية متعددة في الوقت الحاضر لديها أحجار منقوشة شديدة الشـبه بهذه يسمونها "أحجار الروح". ويزعمون أنها تحتوي روحا معينة لسلف الميت أو صفات معينة له أو بعـض هذه الروح أو الصفات.

وكان هؤلاء القوم الجدد شعبا دقيق القسمات ميالاً إلى السمرة وكانوا طلائع جنس بشرى هو جنس البحر المتوسط ذي اللون الأبيض الداكن أي الجنس (الأيبيري) الذي لا يزال هو السائد في جنوبي أوروبا. وامتدت مجتمعاتهم شمالاً مع انتشار الغابات في مكان السهوب ومع تضاؤل عهد الصيادين منذ حوالي عشـرة آلاف واثنا عشر ألف سنة.

وكانت خريطة العالم قد شرعت تتخذ لنفسها صورة تشبه معالمها الحالية، وأخذت منـاظر البـر وهيئـة الأرض والنبات والحيوان تتخذ خصائصها كما هي الآن. وكانت الحيوانات التي تعم الغابـات الآخـذة فـي الانتشار في أوروبا هي الغزال الملكي Royalstag والثور الكبير والجاموس الوحشي (البيـزون). وانـدثر الماموث وثور المسك وهما من الحيوان القطبي وباد الثور الوحشـي أي الأوروك، ولـم يحـدث قـط أن استؤنس، ثم جلبت الماشية المستأنسة إلى أوربا بعد ذلك، وهي من سلالات أخرى. وكان ارتفاع الثور الكبير أحد عشر قدما عند الكتف أي ما يضارع ارتفاع الفيل.

وظلت الأسود تجوب شبه جزيرة البلقان حتى حوالي ١٠٠٠ أو ١٢٠٠ ق. م. وبلغ حجم أسود ورتمبرج Wurtemberg وجنوبي ألمانيا في ذلك الزمان ضعفي حجم الأسد العصري. وانتشرت آنذاك فـي جنـوبي روسيا وآسيا الوسطى الغابات الكثيفة. وكانت في أرض الجزيرة وسوريا أفيال كما ساد في بـلاد الجزائـر نبات وحيوان المنطقة المدارية الأفريقية.

وحتى ذلك الحين، لم يكن الناس قد تخطوا في أوربا شمالاً بحر البلطيق ولا الجزر البريطانية، ولكن شبه جزيرة إسكنديناوة وروسيا العظيمة – فيما يلوح – أخذت تصبح مناطق ميسورة السكنى للجـنس البشـري. وليس في السويد أو النرويج أي بقايا من العصر الحجري القديم. فقد كان الإنسان حين دخل هذه الأقطار قـد سبق فوصل في تطوره الاجتماعي إلى مرحلة العصر الحجري الحديث.

(٤)

لا وجود لأشباه الإنسان في أمريكا

ليس هناك دليل مقنع حقًا على وجود الإنسان في أمريكا قبل نهاية العصر البلايستوسيني. ويقال إنه وجدت بعض آلات الظران Eoliths في بعض الأماكن ولكن في غير كثرة؛ ولعل تحسن المناخ الذي سمح بتراجع صيادي غزال الرنة إلى مجاهل الروسيا وسيبريا أثناء تقدم قبائل العصر الحجري الحديث، وهو الذي أتاح لهم أن يضربوا في الأرض التي يفصلها الآن مضيق بهرنج Bering فوصلوا بذلك إلى القارة الأمريكية. ومن ثم انتشروا جنوبا عصرا فعصرا. فلما وصلوا إلى أمريكا الجنوبية وجدوا حيوان الكسلان الجبار Megatherium والجليبتودون Glyptodon أو المجوف الأسنان، وكثيرا من المخلوقات البائدة الأخرى وهي في إبان ازدهارها. وكان الأخير ضربا من الأرمديللو (المصفح الجسم) هائلاً فظيعا خاصا بأمريكا الجنوبية، ويقال إن هيكلاً إنسانيا قد وجد مدفونًا تحت درقته الهائلة الشبيهة بدرقة السلحفاة.

والظاهر أن كل البقايا الإنسانية في أمريكا إنما هي ذات صبغة أمرندية (أمريكية هندية). ويبدو أنه لم يظهر في أمريكا أي جنس من أشباه الإنسان أقدم من هذا الجنس، ولقد أشرنا من قبل إلى الشاهد الوحيد الذي يثبت نقيض ذلك وهو سن وحيدة مشكوك في أمرها. لقد كان الإنسان كامل الإنسانية عندما دخل أمريكا، وكان العالم القديم مهدا لما دون الإنسان من الأجناس. ففي مكان ما يقع فيما بين جنوبي أفريقيا وبين جزائر الهند الشرقية وبين البحر المتوسط راحت هذه من أشباه الأجناس البشرية تصوغ مصائرها بينما الأراضي ترتفع وتنخفض وبينما الصحارى تحل محل الغابات والغابات تحل محل الصحاري. وربما تم ذلك في المكان الذي يمتد فيه الآن المحيط الهندي. وخليق بنا أن نعيد هنا ما قلناه من قبل، وهو أن قصة إنسان العصر الحجري القديم قصة ناقصة المعالم مستمدة من الكشوف الأوروبية التي لا تزال حتى الآن كل ما حصلنا عليه من مادة علمية أما المادة التي نستطيع أن نكون منها القصة الرئيسية فهي لا تزال مستغلقة علينا. لقد كانت أحداث القصة الرئيسية تجري مجراها في بعض المناطق التي لم تحدد بعد والتي لعلها قد غمرها البحر فأبعدها عن متناول البحث والكشف وذلك يوم كان الإنسان النياندرتالي يهيم على وجهه في أوربا.

الفصل التاسع

إنسان العصر الحجري الحديث في أوربا

١- عصر الزراعة يبتدئ.

٢- أين نشأت ثقافة العصر الحجري الحديث؟

٣- الحياة اليومية إبان العصر الحجري الحديث.

٤- التجارة البدائية.

٥- امتلاء وادي البحر المتوسط.

(١)
عصر الزراعة يبتدئ

ابتدأت مرحلة العصر الحجري الحديث (Neolithic Age) للحياة الإنسانية في أوربا منذ عشرة آلاف أو اثني عشر ألف سنة. ولكن الراجح أن الناس كانوا قد بلغوا مرحلة العصر الحجري الحديث في الأراضي الواقعة في الجنوب الشرقي قبل ذلك ببضعة آلاف من السنين. ودخل رجال العصر الحجري القديم إلى أوربا في بطء وأناة قادمين من الجنوب أو الجنوب الشرقي، بينما كان غزال الرنة ومتسعات السهوب تتراجع أمام الغابات وأمام الظروف الأوربية العصرية.

وتتميز مرحلة ثقافة العصر الحجري الحديث بما يأتي:

أ- وجود آلات حجرية مصقولة، وبخاصة (البلطة الحجرية) المتصلة بيد من خشب. وهذه الأداة قد تكون استعملت فيما بعد في قطع الخشب أكثر من استعمالها في القتال. وهناك أيضا رءوس سهام كثيرة. على أن وجود بعض الآلات المصقولة لا يمنع وجود كميات كبيرة من الآلات الحجرية غير المصقولة. ولكن هناك فوارق في الصنع بين نفس الآلات غير المصقولة في العصر الحجري الحديث وبين مثيلاتها في العصر الحجري القديم.

ب- ابتداء نوع من الزراعة واستعمال النباتات والبذور، ولكن هناك في بداية ذلك العصر أدلة كثيرة على أن الصيد كان لا يزال ذا قيمة عظيمة في العصر الحجري الحديث. فلم يكن إنسان العصر الحجري الحديث في مبدأ أمره ليرابط إلى جوار زراعته، بل كان يتناول المحاصيل السريعة، الخاطفة، أو قل إن نساءه كن يجمعن البذور البرية ثم أصبحن فيما بعد يبذرن المحصولات السريعة النضج، بينما كان الرجل منهمكا في صيده. على أنه استقر فيما بعد ذلك من الزمان.

ج- صناعة الفخار والطبخ الحقيقي. ولم يعد الإنسان يأكل الحصان.

د- الحيوانات المستأنسة. ظهر الكلب في عهد شديد التبكير.

وقد استأنس إنسان العصر الحجري الحديث الماشية والضأن والماعز والخنازير.

لقد كان صيادا انقلب إلى راع للقطعان التي كان يصيدها فيما غبر من الأيام.

ه- الضفْر والنسيج.

ونزح أقوام العصر الحجري الحديث هؤلاء فيما يرجح إلى أوربا، على نفس الطريقة التي نزح بها رجال غزال الرنة من قبلهم، أعني أنهم انتشروا سعيا وراء ما اعتادوه من طعام جيلاً فجيلاً، وقرنا فقرنا، مع تغير المناخ. ولم يكونوا من الرحل البدو؛ لأن الترحل أي "البداوة" لم يكن قد نشأ بعد، شأنه في ذلك شأن الحضارة. ذلك أن الترحل يضارع المدنية في حداثة العهد ويضارعها في كونه حالة عليا من حالات التطور.

ولسنا نستطيع في الوقت الحاضر أن نقدر، إلى أي حد كان رجال العصر الحجري الحديث من النـازحين الجدد، وإلى أي حد نمى المنحدرون من القانصين وصيادي السمك في العصر الحجري القديم المتأخر فنونهم أو اقتبسوها. ولعل صائدي غزال الرنة قد ألم بهم التأخر، ولكن الشعوب القابسية تطورت من ناحية، وتعلمت طرائق الحياة الجديدة من ناحية أخرى، من قوم أكثر منهم تقدما في الجنوب والشرق.

ومهما تكن النتائج التي نصل إليها في هذا الصدد فإنّا نستطيع أن نقول عن يقين وثقة، إنه لم تحدث أيـة ثغرة انفصال كبيرة، ولم يحدث اكتساح جديد لصنف من أصناف الإنسان ولا حاول صنف آخر مكانه فيمـا بين زمن ظهور طريقة الحياة في العصر الحجري الحديث وبين زماننا هذا. نعم هناك غـزوات، وفتـوح، وهجرات واسعة النطاق، وتمازجات Intermixtures، بيد أن الأجناس بوجه عام تظل باقية تكيـف نفسـها وفق الأراضي التي أخذوا يستقرون فيها في مفتتح العصر الحجري الحديث. وكان رجال أوربا إبان العصر الحجري الحديث من البيض وهم أسلاف الأوربيين المحدثين. وربما كانت لهم بشرة أشد سمرة مما لكثير من أحفادهم، ذلك أمر لا نستطيع أن نجزم به. ولكن لم يكن ثمة انقطاع حقيقي في حبل الثقافة منذ زمانهم حتـى عصر الفحم والبخار والآلات التي تدفعها القوى المحركة والتي ابتدأت في القرن الثامن عشر الميلادي.

وبعد زمن طويل، ظهر الذهب بين الحلي العظمية وهو في غالب ظننا أول ما عرف من المعادن، وظهر معه الكهرمان الأسود والأصفر. والبقايا الأيرلندية قبل التاريخ غنية بصفة خاصة بذخائر الـذهب. وربمـا شرع الناس في العصر الحجري الحديث منذ ستة آلاف أو سبعة آلاف سنة في استعمال النحاس في بعـض المراكز، وأخذوا يصنعون منه آلات على صورة آلاتهم الحجرية نفسها. وكانوا يصبون النحاس في قوالـب مصنوعة على شكل الآلات الحجرية، ويحتمل أنهم وجدوا بادئ الأمر النحاس الخالص بطبيعتـه وصـاغوه بالطرق، ولا يزال النحاس الخالص يوجد اليوم في إيطاليا والمجر وكورنوال وأماكن أخرى كثيرة. علـى أن النحاس الخالص أدنى من الطراز مرتبة بوصفه مادة للآلات، فهو لا يحافظ على حدة شـباته أمـا النحـاس المخلوط بالقصدير (بنسبة لا تزيد على العشر) فهو أصاب منه كثيرا. واستطاع الناس فيما بعد (ولن نحـاول أن نحدد بالأرقام تاريخ ذلك) أن يعرفوا كيف يستخلصون النحاس من معدنه الخام. ولعلهـم اكتشـفوا سـر الصهر كما يرى اللورد أفبوري Avebury – بوضعهم بمحض الصدفة أُثْفِية [٤١] من خام النحـاس، بـين الأثافي الحجرية العادية التي كانوا يضعونها في حفر النار التي استخدموها في الطبخ.

ومن المعلوم أن خام النحاس يوجد في عرق واحد مع حجر القصدير في الصين وكورنوال وغيرهما من الأماكن. ويوجد النحاس ببلاد المجر إلى جوار حجر الأنتيمون، وهكذا استطاع الصاهرون الأوائل بسبب أمر لعله إلى القذارة أقرب منه إلى المهارة، أن يصادفوا البرونز الذي هو أصاب وأحسن من النحاس والذي هـو مزيج من النحاس والقصدير. ولا يقتصر أمر البرونز على أنه أصاب من النحاس فحسب، بـل إن الخـليط المكون من القصدير والنحاس أسهل انصهارا وأيسر منه استخلاصا. فأما ما يسمونه بالآلات المصنوعة من (النحاس النقي) فإنها تحتوي في العادة على نسبة صغيرة من القصدير. وما نعرف أن هناك آلات قصـديرية

([٤١]) الأثْفية: أحد أحجار ثلاثة توضع عليها القدر. (المترجم).

قط، كذلك ليست هناك شواهد كثيرة على أن الإنسان الأقدم عرف القصدير بوصفه معـدنًا منفصـلاً. وقـد وجدت كتلة من القصدير في رواسب مساكن البحيرات السويسرية، وعرف القصدير فـي مصـر بوصـفه مستوردا أجنبيا أيام الأسرة الثامنة عشرة. والقصدير المايوسيني قليل، وقد عثـر البـاحثون علـى أشـياء مصنوعة من القصدير في بلاد القوقاز (والراجح أن يكون ذلك في عصر متأخر وإن لـم يعـرف تاريخـه بوضوح). ومن أعسر الأمور أن يميز المرء بين القصدير والأنتيمون. ومن البرونز القبرصي قـدر كبيـر يحوي الأنتيمون، والحق أن قدرا عظيما مما يبدو للرائي قصديرا لهو في حقيقة أمره أنتيمون. ولقـد حـاول القدماء أن يحصلوا على القصدير ولكنهم حصلوا بالفعل على الأنتيمون ظانين إياه قصديرا. وعثر في إسبانيا على مصنع لأحد صاهري النحاس قبل التاريخ، كما عثر على المواد الخاصة بمصاهر البرونز فـي نـواح أخرى مختلفة. وإن وسائل الصهر التي تكشف هذه المكتشفات عنها الحجب، لتؤيد أقوال لورد آفبوري. فأما في الهند حيث يوجد الخارصين (Zinc) وخام النحاس جنبا إلى جنب فقد عثروا بمحض الصـدفة وبـنفس الطريقة على النحاس الأصفر (وهو مزيج من المعدنين).

وبلغ من ضآلة التغير الذي أحدثه ظهور البرونز في الأساليب والطرائق أن هذه البلطات البرونزوية ظلت زمانًا طويلاً تصب هي وما إليها مما كانوا يصنعون – في قوالب في شكل الآلات الحجريـة التـي أخـذوا يستبدلونها بها.

وأخيرا – ولعل هذا منذ ثلاثة آلاف سنة في أوربا وقبل ذلك في آسيا الصغرى – أخذ الناس يصـهرون الحديد، وكان الحديد معروفًا قبل ذلك العصر بزمن مديد، بيد أنه كان حديدا مستخلصا من الشهب. والحجـر الشهابي كما يعرف أغلب الناس، مكون في معظمه من الحديد والنيكل. وكان هذا الحديد نادرا ويستعمل حليا أو تتخذ منه مادة سحرية، فلما عرف الإنسان عملية الصهر، لم يكن حصوله على الحديد أمرا يثير الدهشـة. فقد كانوا يصهرون الحديد بالنفخ في نار من الفحم النباتي، ويصوغونه بإحمائه وطرقه. وقد أنتجوه في بادئ الأمر قطعا صغيرة نسبيا، ويعتبر ظهوره بداية لعهد انقلاب تدريجي في الآلات والأسلحة، ولكنه لم يكن كافيا لتغيير الحالة العامة لما يحيط بالإنسان من بيئة وملابسات.

والحياة اليومية التي عاشها إنسان العصر الحجري الحديث الأكثر استقرارا منذ عشرة آلاف من السنين لا تختلف كثيرا عن الحياة التي كان يحياها الفلاحون في الأماكن النائية في كل أنحاء أوربا عند مفتـتح القـرن الثامن عشر.

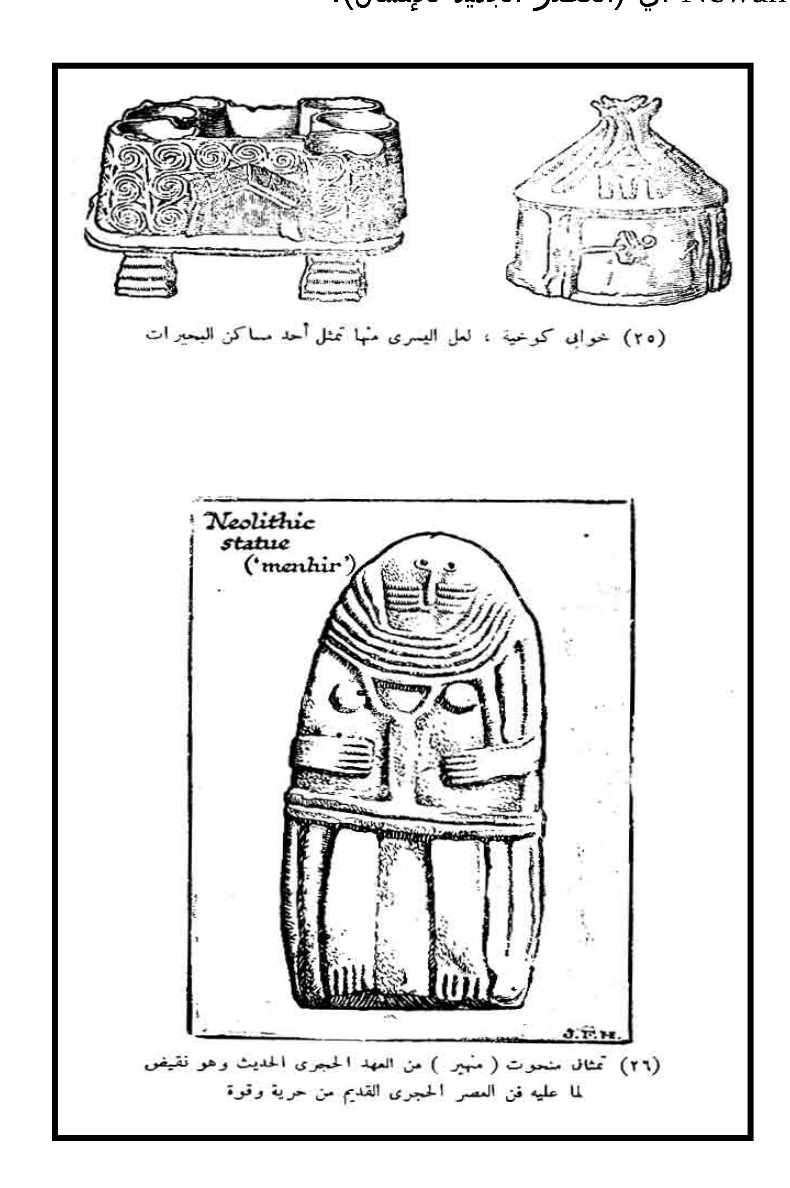
ويتكلم الناس عن العصر الحجري وعصر البرونز وعصر الحديد في أوربا، ولكن الحـديث عـن هـذه العصور الطريفة بصورة قد يفهم منها تساويها في القيمة والأهمية التاريخية، حديث مضلل. وأصدق مـن هذا تعبيرا أن يقال إنه جاء:

أ- عصر حجري قديم مبكر دام زمانًا طويلاً جدا.

ب- عصر حجري قديم متأخر لم يستدم عشر زمان الأول، ثم عقبه:

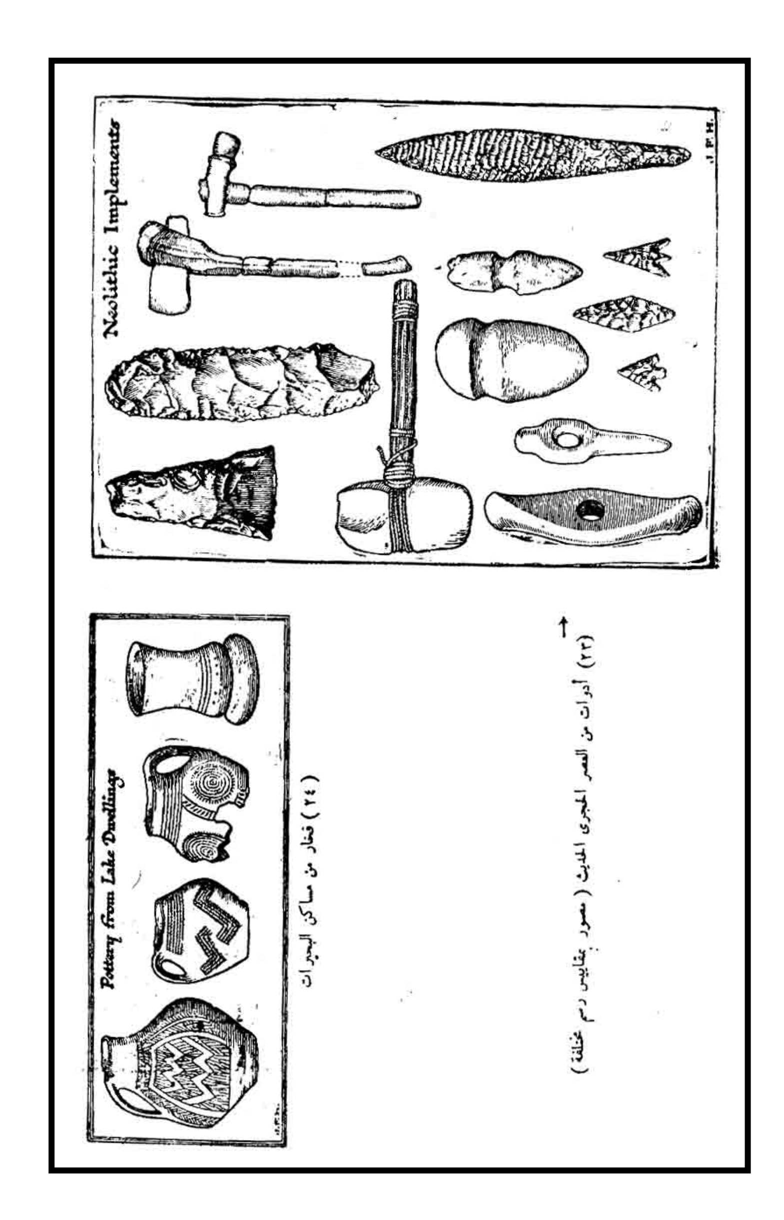
ج- عصر الزراعة وهو عصر الرجل الأبيض في أوربا.

وهو الذي ابتدأ فيها منذ عشرة آلاف سنة أو اثنا عشر ألفًا على أقصى تقدير، والذي كان العصر الحجري الحديث باكورته، والذي لا يزال مستمرا إلى يومنا هذا. وقد اقترح إليوت سميث Elliot Smith أن يسـمى العصر رقم "أ" باسم الباليانثروبي Palaeanthropic أي (العصر القديم للإنسان) وأن يسمي كل ما تلاه باسم النيوأنثروبي Newanthropic أي (العصر الجديد للإنسان).



(٢٥) خوابى كورخية ؛ لعل اليسرى منها تمثل أحد مساكن البحيرات

(٢٦) تمثال منحوت (منهير) من العهد الحجرى الحديث وهو نقيض لما عليه فن العصر الحجرى القديم من حرية وقوة



(٢٣) أدوات من العصر الحجري الحديث (مصورة بمقاييس رسم مختلفة) ←

(٢٤) فخار من مساكن البحيرات

(٢)

أين نشأت ثقافة العصر الحجري الحديث؟

لقد سبق القول إننا لا ندري حتى اليوم شيئًا عن الإقليم الذي أخذ فيه أسلاف شعوب العصر الحجري الحديث الضاربة إلى اللون البني يكونون أنفسهم وينهضون من مرحلة العصر الحجري القديم في التطور الإنساني. والراجح أن ذلك قد حدث في مكان ما من آسيا الجنوبية الغربية، أو في بعض المناطق التي يغمرها البحر المتوسط الآن، أو يغطيها المحيط الهندي، وأنه بينما كان النياندرتاليون على ما هم عليه من شظف العيش في الجو القارس الذي كان يعم أوربا الجليدية، طفق أسلاف الإنسان الأبيض ينمون الفنون الخشنة التي تهيأت لهم في فترة العصر الحجري القديم المتأخر. ومضت مائة من القرون أو ما يقاربها، ما برح فيها رجال غزال الرنة يعيشون عيشًا لا تقدم فيه نسبيا فوق سهوب فرنسا وألمانيا وإسبانيا، بينما كان القوم المحظوظون والآخذون بأسباب التقدم في الجنوب الشرقي، قد شرعوا يملكون ناصية الزراعة ويتعلمون كيف يرقون بكل أدواتهم، ويروضون الكلاب ويؤنسون الماشية، ثم ينتشرون شمالاً كلما خفت وطأة المناخ في الشمال وأخذ المناخ الاستوائي يتحول قليلاً ما إلى مناخ مداري.

ولا تزال كل هذه الفصول الأولى في القصة الإنسانية بحاجة إلى من يزيل عنها الحجب. ولعلنا نعثر على المادة اللازمة في آسيا الصغرى وفارس وبلاد العرب والهند أو شمالي أفريقيا، أو عساها ترقد تحت أطباق مياه البحر المتوسط أو البحر الأحمر أو المحيط الهندي. فأما منذ اثنا عشر ألف سنة أو ما يقاربها – إذ إننا ما زلنا هنا بعيدين عن التحديد التاريخي الدقيق – فإن شعوب العصر الحجري الحديث كانت منتشرة في كل أرجاء أوربا وشمالي أفريقيا، وفي آسيا. كانوا شعوبا يقاربون مستوى كثير من سكان الجزر البولينيزية [٤٢] في القرن الماضي، غير أنهم كانوا أكثر سكان العالم تقدما.

---

(٤٢) بالمحيط الهادي الجنوبي عند خ. ع ٣٠° جنوبا وبين طول ١٧٠° شرقًا و١١٠° غربا وأشهرها جزر هاواي وفيجي وساموان. (المترجم).

(٣)

الحياة اليومية إبان العصر الحجري الحديث

ربما لذ لنا أن نسوق بياناً موجزا عن حياة الشعوب الأوربية في العصر الحجري الحديث قبل ظهور المعادن. وإنا لنستضيء في وصف هذه الحياة بمصادر مختلفة. ذلك أنهم كانوا ينثرون قماماتهم حولهم، وقد تجمعت تلك القمامات في بعض الأماكن (كشاطئ الدانيمرك مثلاً) فصارت كومات عظيمة، تسمى باسم مزابل المطبخ. وكانوا يدفنون بعض موتاهم، (وإن لم يدفنوا عامة الشعب) بعناية وتبجيل عظيمين، ويرفعون فوق نواويسهم أكواما هائلة من التراب. وهذه الأكوام هي القبور أو روابي الدفن [٤٣] التي هي من مظاهر المناظر الأوربية والهندية والأمريكية إلى وقتنا هذا. وكانوا يقيمون أحجارا عظيمة متصلة بهذه الأكوام أو منفصلة عنها، وهي جنادل ضخمة Megaliths يقيمونها إما واحدة بمفردها أو جماعات. ومن أحسن أمثلتها المعروفة نصبا ستون هنج في ولتشير، وكارناك Carnac في بريتالي، ولا يزال في الإمكان تتبع آثار قراهم في أماكن متعددة من أوربا.

تعد سويسرا من أغنى المصادر التي نستمد منها معلوماتنا عن الحياة في العصر الحجري الحديث، وقد كشف عنها الحجاب لأول مرة ذلك الشتاء الشديد الجفاف الذي جاء في ١٨٥٤ ذلك أن مستوى الماء انحط في إحدى البحيرات انحطاطًا لم يسمع به الناس من قبل، فانكشف الحجاب عن أسس "مساكن البحيرات" قبل التاريخية في العصر الحجري القديم وعصر البرونز الأول، وهي مساكن تبنى منيفة على الماء على نسق ما يماثلها من المنازل الموجودة اليوم في جزائر سلبيز Celbes وفي أماكن أخرى، وأخشاب هاتيك المصاطب القديمة لم تبق محفوظة سليمة وحسب، بل إن عددا كبيرا من الأواني والحلي المصنوعة من الخشب والعظام والحجر والفخار ثم بعض بقايا الطعام وما إليها – وجدت فيما تحتها من أكوام النبات المتحلل، حتى لقد استطاع العلماء أن يكشفوا أيضا قطعا من الثياب والشباك.

وكذلك وجدت أمثال مساكن البحيرات هذه في اسكتلندة وإرلندة وفي أماكن أخرى.

وتوجد بقايا معروفة مشهورة في جلاستون بري Glastonburry بمقاطعة سمرست. وكانت مساكن البحيرات في إرلندة آهلة بالسكان منذ الأزمنة قبل التاريخية حتى أيام كان أونيل O'Neil التيروني يحارب الإنجليز قبل نزول المستعمرين الاسكتلنديين ليحلوا محل الأرلنديين في آلستر Ulster بشمالي أرلندة، إبان حكم الملك جيمس الأول لإنجلترة. ولمساكن البحيرات هذه عندهم قيمة دفاعية عظيمة؛ ولا شك أن في السكنى فوق مياه فياضة جارية ميزة صحية عظيمة.

---

(٤٣) روابي الدفن Barrows هي كما هو واضح – قبور تقام فوقها تلال صناعية. (المترجم).

والراجح أن "مساكن البحيرات" السويسرية التي أقيمت في العصر الحجري الحديث لم تكن لتؤوي أكبـر مجتمعات تلك الأيام. بل كانت مثوى فئات صغيرة تتبع نظام الأبوة. وأكبر الظن أنه كان في أماكن أخـرى من السهوب الخصبة وفي الأراضي الريفية الأكثر اتساعا، مجموعات من المنازل أكبر كثيرا مما في هـذه الوديان الجبلية. فإنك تجد في ولتشير بإنجلترة آثار وبقايا لمجتمع العائلات الكبير الذي ذكرنـا. فـإن بقايـا الدائرة الحجرية في آفبوري بالقرب من ربوة سِلبوري Silbury كانت يوما ما "أبدع البقايـا الجندليـة فـي أوربا". وكانت تتركب من دائرتين من الأحجار تحيط بهما دائرة أكبر منهما وخندق، وتشغل في مجموعهـا أرضاً مساحتها ثمانية وعشرين فدانًا إنجليزيا ونصف فدان. وكان يمتد منها شارعان من الأحجار طول كـل منهما ميل ونصف، ويتجهان غربا وجنوبا على جانبي تل سِلبوري، وهو أكبر ربوة اصطناعية قبل التـاريخ في إنجلترة. وإن اتساع مساحات هذا المركز الخاص بعقيدة وحياة اجتمـاعيتين نسـيهما النـاس الآن تمـام النسيان، لتدل على الجهود المتكاتفة والمصالح المشتركة لجمهور غفير من الناس مهما يبلغ من عظم تناثرهم فوق أراضي غربي إنجلترة وشرقيها ووسطها. ولعلهم كانوا يجتمعون في موسم خاص من السنة في ضرب بدائي من الأسواق. والراجح أن المجتمع بأكمله كان يتعاون في بناء الروابي وجر الأحجـار. فأمـا سـكان البحيرات السويسريون فيلوح أنهم يكادون يعيشون في قرى تعتمد على ذاتها.

ويعتبر سكان قرى البحيرات هؤلاء أكثر تقدما في وسائلهم وعرفانهم، وأكبر الظن أنهم أحدث عهدا مـن أهل العصر الحجري الحديث الأولين الذين كانوا يكدسون روابـي المحـار المعروفـة بمزابـل المطـابخ، والموجودة على سواحل الدانيمرك واسكتلندة. فهؤلاء الناس أصحاب مزابل المطابخ، قد يرجعون في القـدم إلى عشرة آلاف سنة ق. م أو أكثر. وظلت مساكن البحيرات فيما يرجح مأهولة على الدوام من سنة ٥٠٠٠ أو سنة ٤٠٠٠ ق.م إلى ما يكاد يقارب الزمان التاريخي. وهؤلاء القوم – قوم مزابل المطبخ، من أشد شعوب العصر الحجري الحديث همجية. فإن بلطهم الحجرية خشنة، ولم تكن لديهم حيوانات مستأنسة عـدا الكلـب، وهو من سلالة متوسطة الحجم. أما سكان البحيرات فقد كان لديهم بالإضافة إلـى هـذا الحيـوان، الثيـران والماعز والضأن، ثم حصلوا فيما بعد على الخنزير بينما كانوا يقتربون من عصر البرونز. وبقايا الماشـية والماعز منتشرة بين مخلفاتهم، وإذا راعينا الجو والإقليم المحيطين بهم رجحنا أن هذه الحيوانات كانت تأوي في الشتاء في المباني المقامة فوق القوائم الخشبية المنصوبة في البحيرات، وأن الأعلاف كانت تختزن مـن أجلها. ويرجح أن الحيوانات كانت تعيش مع الناس في نفس منازلهم، كما يعيش الناس والحيوان اليـوم فـي أكواخ سويسرا، المقامة على شواطئ البحيرات.

ولعل الناس في المنازل كانوا يحلبون الأبقار والماعز، ولعل اللبن كان له في حياتهم الاقتصادية ذلك الأثر الهام الذي له في اقتصاديات السويسري الجبلي اليوم. ولكننا لم نصل بعد إلى حد التأكد من هذا الأمر. وليس اللبن طعاما طبيعيا للبالغين، فلا بد أنهم عدوه في مبدأ الأمر مادة تناولها عجيـب. ولعلهـم لـم يسـتطيعوا الحصول على مقدار مستمر من اللبن من الأبقار والماعز إلا بعد لأي وبعد شيء كثير من استنتاج السلالات. وفي رأي بعض الناس أن استعمال اللبن والجبن والزبد وغيرها من منتجات الألبان ظهر في حياة الإنسـان فيما بعد، عندما انتقل الناس إلى "الترحل"؛ على أن الكاتب ميال مع هذا إلـى الاعتـراف لرجـال العصـر

الحجري الحديث بفضل اكتشاف عملية الحلب. ولا بد أنهم كانوا يحفظون اللبن – إن صح أنهم اسـتعملوه – في أوعية من الفخار (ولا شك في هذه الحالة أنهم عرفوا اللبن الرائب الحامض أيضا، وإن لم يستعملوا جبنًا وزبدا جيدي الصنع) ذلك أنهم كان لديهم الخزف وإن كان خزفهم مشغولاً باليد شغلاً خشنًا، وليس بـالخزف الحسن الهيئة الذي تخرجه عجلة الخزاف.

على أنهم كانوا يزيدون مقدار طعامهم هذا بالصيد. فيقتلون الغزال الأحمر والوعل والجـاموس البـري والخنزير البري ويأكلونها وكانوا يأكلون الثعلب، وهو ذو لحم حاد النكهة في الغالب، وليس مما يقدم عليه أي إنسان في عالم تكثر فيه الخيرات. وعجيب جدا أنه لا يبدو أنهم أكلوا الأرنب البري، وقد كان طعامـا فـي متناول أيديهم. والمظنون أنهم تجنبوا أكله كما يمتنع بعض المتوحشين إلى اليوم عن تناوله فيما يقال، لأنهـم كانوا يخشون أن يجعلهم أكل لحم هذا الحيوان الرعديد جبناء عن طريق العدوى.

ومعلوماتنا عن وسائلهم في الزراعة قليلة نادرة. إذ لم يعثر لهم على محاريث أو مناجل لأنها كانت مـن الخشب فاندثرت. وزرع رجال العصر الحجري الحديث الحنطة والشعير والذرة الرفيعة وأكلوها. بيد أنهم لم يعرفوا شيئًا عن الشوفان والجودار Rye، وكانوا يحمصون حبوبهم ويطحنونها بين الأحجار ويختزنونها في أوعية لتؤكل عند الحاجة، وخبزهم شديد التماسك والثقل، لأن قطعا منه مسطحة مستديرة استخرجت من تلك الرواسب. ويبدو أنهم لم يعرفوا الخميرة، فإن صح هذا، فمعناه أنهم لم يعرفوا الشراب المخمر.

وثمة ضرب من الشعير عثر عليه لديهم هو الضرب الذي كـان يزرعـه قـدماء الإغريـق والرومـان والمصريين. وكان لديهم أيضا ضرب من الحنطة مصري، مما يدل على أن أسلافهم استجلبوا تلك الزراعـة من الجنوب الشرقي أو أخذوها عنه، فإن مركز انتشار الحنطة كان مكانًا ما في منطقـة البحـر المتوسـط الشرقي. ولا يزال ضرب بري منه موجودا في جوار جبل هرمون Mount Hermon. وعندما كان سكان البحيرات يزرعون قطع الأرض الصغيرة قمحا في سويسرا، كانوا عند ذاك يترسمون خطى الجنس البشري منذ أيام لا أول لها، ولا بد أن البذور استجلبت عصرا فعصرا من مركز الانتشار البعيد الذي تحدثنا عنـه. فإن الرجال في أرض الأجداد في الجنوب الشرقي اضطلعوا من قبل ببذر الحنطة مدة ربما بلغت آلافًا مـن السنين. إذ إن جميع شعوب العالم القديم الذين درجوا إلى مرحلة العصر الحجري الحديث زرعـوا الحنطـة وطعموها. على أنه لا بد أن هنود أمريكا قد طوروا الزراعة بعد انفصالهم عن أهل العالم القديم. ولـم تكـن لديهم الحنطة قط، ولكنهم زرعوا الذرة الهندية، وهي حب خاص بالعالم الجديد. وسكان البحيـرات هـؤلاء أكلوا أيضا البازلاء والتفاح البري، وهو التفاح الوحيد الذي كان موجودا في العالم إذ ذاك. ولم يكن الازدراع والانتخاب قد أنتجا بعد تفاحة العصر الراهن.

وقد كسوا أجسامهم، ولكن أهم ما يرتدونه هو الجلود. على أنهم صنعوا أيضا ضربا خشـنًا مـن نسـيج الكتان، وقد وجدت قطع من ذلك النسيج الكتاني. وشباك الصيد لديهم من الكتان أيضا، ولم يكن لديهم حتـى ذلك الحين أي علم بالقنّب أو حبال القنب، وزادت دبابيسهم وكثرت حليهم بمجـيء البرونـز. ولـدينا مـن الأسباب الوجيهة ما يحملنا على الاعتقاد بأنهم كانوا يهتمون بشعرهم اهتماما كبيرا، فكانوا يرجلونه خصـلاً كبيرة يمسكونها بدبابيس من العظام أصبحت فيما بعد من المعادن. وإذا جاز لنا أن نحكم على ثيـابهم رغـم عدم وجود صور واقعية منحوتة أو محفورة أو ملونة، قلنا إنهم إما لم يكونوا يزينون ثيابهم قط أو إنهم كانوا يزينونها بالخطوط المتقاطعة (على طريقة القماش المسمى بالاسكوتش) وبالنقاط والتصميمات المتشابكة ومـا أشبهها من الزخارف العرفية. وليس هناك أي شاهد يدل على وجود الكراسـي أو المناضـد قبـل ظهـور البرونز. والراجح أن أهل العصر الحجري الحديث كانوا يجلسون القرفصاء على أرض بيوتهم الطينية، ولم يكن هناك قطاط في مساكن البحيرات هذه، ولم تكن الفئران أو الجرذان قد كيفت نفسها والمساكن الإنسـانية، ولم تكن قوقأة الدجاجة قد أضيفت بعد إلى ما يسمع في حياة الإنسان من أصوات، كمـا لـم تكـن البيضـة المنزلية قد أضيفت إلى غذائه. ذلك أن الدواجن وبيض الدجاج لم تضف إلى مطبخ الإنسـان إلا فـي عهـد متأخر رغم ما لها الآن من شأن كبير في غذائنا، فلسنا نجد للدجاجة ذكرا في (العهد القديم) كما لا نجد لهـا ذكرا في إلياذة هوميروس، ولكنا نجد إشارة إلى البيضة في الآية ٦ الإصحاح ٦ من سفر أيـوب، فالـدجاج الوحيد في العالم حتى قرابة ١٥٠٠ ق. م كان من قواطن الأحراش في بلاد الهنـد وبورمـا. وقـد لاحـظ جلاسفيرد Glasfurd صياح ديكة الأحراش في بياناته الشائقة عن صيد الببر، ووصفه بأنه البشير الـذي لا ينفك يؤذن بطلوع الفجر في الأحراش الهندية. والراجح أن الدواجن استؤنست لأول مرة في بورما، ومنهـا انتقلت إلى الصين قرابة ١١٠٩ ق. م فقط كما تقول السجلات. وهي قد وصلت بلاد اليونان بطريـق بـلاد فارس قبل زمن سقراط. ولكننا نجد في أسفار العهد الجديد، لا العهد القديم، أن صياح الديكة يؤنب بطـرس على خيانة "السيد".

أهم آلات رجل العصر الحجري الحديث وأسلحته هو بلطته. وثانيها هو القوس والنشاب وكانـت رءوس سهامه من الظران، وهي جميلة الصنع، كان يربطها ربطاً وثيقًا إلى ساق سهمها. والراجح أنـه كـان يعـد الأرض لبذاره بمساعدة هراوة، أو بمعونة عمود ألصق فيه قرن وعل، وكان يصـطاد السـمك بالشـص أو الحربة، وكانت هذه الآلات ولا شك تلقى متفرقة في جوانب البيت، الذي كانت تتدلى مـن حيطانـه شـباك الصيد. فأما الأرضية وهي من الطين، أو من روث البقر المداس بالأقدام – على مثال أرضية العشوش فـي الهند اليوم – فقد انتثرت عليها قدور وخوابٍ وسلال منسوجة تحتوي القمح واللبن، وما إليه من طعام. وكان بعض الأوعية والحلل يتدلى من عرى للحبال في السقف، وترقد الحيوانات في أحد جوانب الحجرة، فيسـاعد وجودها على تدفئة الحجرة شتاء بما لها من حرارة حيوانية ويخرج الأطفـال بـالبقر والمـاعز لترعـى، ويعيدونها في الليل قبل أن تفتك بها الدببة والذئاب.

ووجود القوس عند رجل العصر الحجري الحديث يرجح أيضا وجود الآلات الوترية لديـه، لأن الـرنين الإيقاعي الذي لوتر القوس أمر يكاد يؤدي إلى ذلك حتما. وكانت لديه أيضا طبول من الفخـار يشـد عليهـا الجلود، ولعله صنع الطبول أيضا بشد الجلود إلى جذع شجرة أجوف. والصفارات العظيمة معروفـة للنـاس حتى منذ العصر الحجري القديم. ولنا أن نزعم أن صفارات القصب اختراع مبكر قديم. ولسنا نـدري متـى أخذ الإنسان في الغناء، لكن من البين أنه كان ينتج الموسيقى. ذلك أنه لما كانت لديه الألفاظ، فلا ريب في أنه قد ألف الأغاني، ولعله ابتدأ بإرسال صوته على سجيته كما قد يسمع المرء اليوم مثل ذلـك مـن الفلاحـين الإيطاليين خاف محاريثهم حين يغنون أغاني بلا ألفاظ. وكان الإنسان يجلس في داره وقد سجا ليل الشـتاء، يتحادث ويردد الألحان، ويصنع بعض الآلات، معتمدا على حاسة اللمس دون البصر، وليس ثـم شـك فـي حقارة ما لديه من وسائل الإضاءة، وأهمها ضوء النار. ولكن الراجح أن كانت هناك على الدوام نار موقـدة في القرية آناء الصيف، وأطراف الشتاء، إذ كان إيقاد النار يجشم الرجال من الجهد ما لا يسـعهم معـه أن يدعوها تفلت من أيديهم مختارين، وقد تحدث في بعض الأحايين كارثة عظيمة لقرى البحيرات هـذه حـين تنطلق النار فتحرقها بأكملها. والبقايا السويسرية تحتوي في ركامها ما يدل على حدوث أمثال هذه الكوارث.

وقد جمعنا كل هذا الذي ذكرناه من بقايا مساكن البحيرات السويسرية، وتلك هي صفة الحياة الإنسانية التي كانت منتشرة في أوربا؛ والتي جاءت من الجنوب والشرق مع ظهور الغابات حين أخذ غزال الرنة ورجالـه في الزوال. وواضح أن بين أيدينا الآن طريقة من طرائق الحياة. يفصلها واد عظيم من آلاف سني الاختراع، عن مرحلة العصر الحجري القديم الأصلية. ولسنا نستطيع إلا الرجم بالحدس في الخطوات التي نهضت بهـا هذه الحياة عن تلك الحالة. ولعل الإنسان انتقل على درجات غير مدركة من صياد يحوم حول أطراف قطعان الماشية والضأن البرية..، ومن مشارك للكلاب في صيده، إلى أن أصبح له نـوع مـن الإحسـاس بملكيـة الحيوانات، وإلى أن أنشأ بينه وبين منافسه الكلاب مودة وصداقة. فتعلم كيف يرد الماشية والضأن البريـة..، ومن مشارك للكلاب في صيده، إلى أن أصبح له نوع من الإحساس بملكية الحيوانات، وإلى أن أنشأ بينه وبين منافسه الكلاب مودة وصداقة. فتعلم كيف يرد الماشية إذا هامت في الأرض أكثر مما ينبغي، وجعـل يحمـل عقله الأوسع من عقولها على قيادتها إلى مرعى أوفر عشبا. ثم هو يظل يدفع بالحيوانات ليحصرها في وديان وحظائر، حتى يتحقق من إمكان عثوره عليها مرة ثانية. وكان يطعمهـا إذا سـغبت، وبـذلك اسـتطاع أن يستأنسها في بطء ومهل، وربما ابتدأت زراعته مع اختزانه الأعلاف، فإنه حصد لا جرم قبل أن يبذر. ألم تر إلى الأسلاف في العصر الحجري القديم في تلك البلاد الأصلية البعيدة المجهولة في الجنوب الشرقي، كيـف ابتدءوا باستكمال ما ينقص الصيادين من اللحم بتناول الجذور والفواكه والحبوب البرية؟ ومن المشكوك فيـه أن يكون الإنسان البدائي في أي مرحلة من مراحلِهِ لحِما تماما معتمدا في طعامه على اللحم فقط.

فإنه ابتدأ في زمن ما بأن يزرع – ما في ذلك ريب.

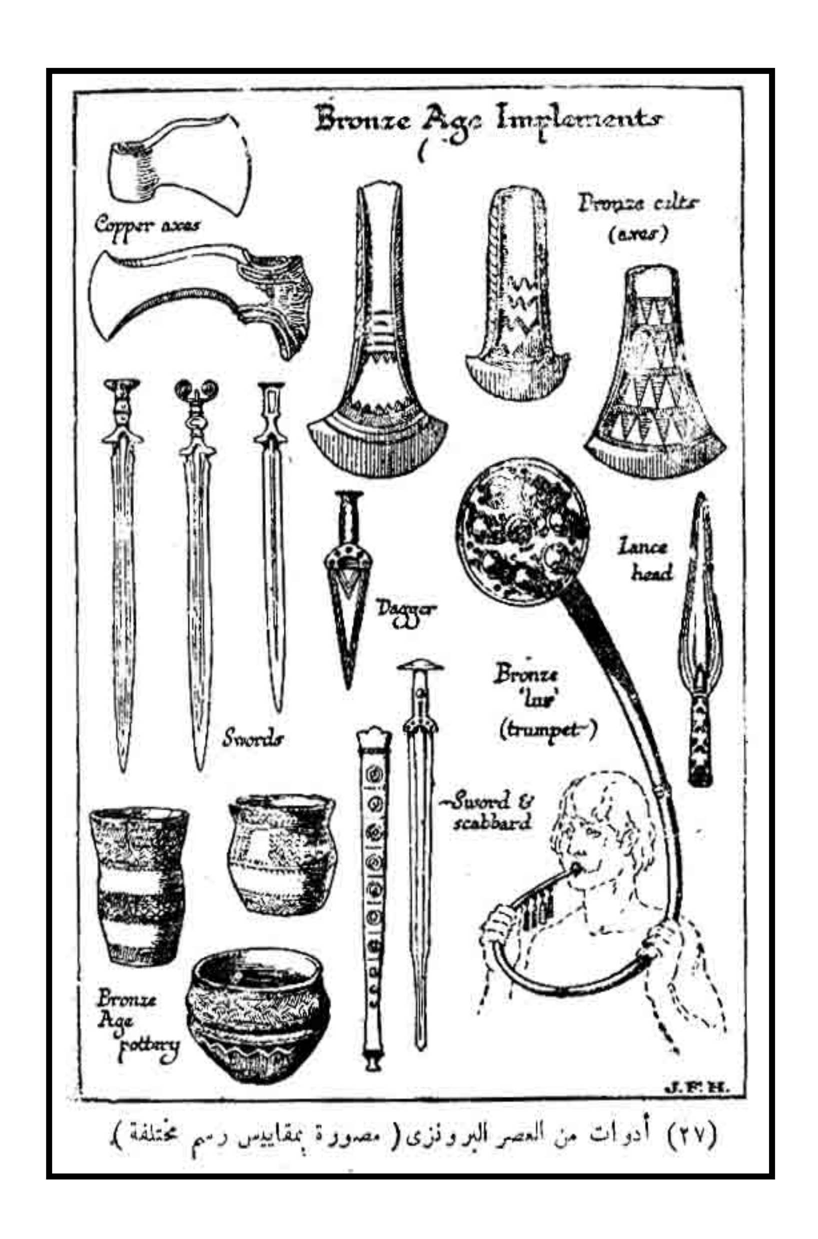
ويظهر لنا السير ج. ج فريزر في كتابه العظيم "Golben Bough" أن من أعجب الأعاجيب ومن أعظم الحقائق أهمية في نماء المجتمع الإنساني أن فكرة البذار كانت مشتبكة اشتباكًا لا تفصم عراه في ذهن رجـل العصر الحجري الحديث البدائي مع فكرة التضحية الإنسانية. كانت خليطًا معقدا في ذلك العقل البدائي الحالم الذي يشبه عقول الأطفال، ذلك العقل الذي كان يصنع الخرافات. وما من سبيل إلـى تفسـير ذلـك تفسـيرا معقولاً. ففي ذلك العالم القديم قبل عشرة آلاف من السنين كانت تقدم أضحية إنسانية كلما حان أوان البـذار، ولم يكن الأمر تضحية بأي شخص وضيع أو منبوذ، بل كان كما جرى العرف تضحية بشاب مختار أو فتـاة مختارة، وكان المختار في غالب النياندرتاليين لأحايين فتى يعامل باحترام عميق وتبجيل عظيم حتى سـاعة التضحية. وكان يعد في غالب أمره "ملكًا ربا" كتبت عليه التضحية، ثم أصبحت كل تفاصيل قتله من بعـض الطقوس المقدسة، التي يقوم عليها الكهول (العارفون) ويقرها ما جرى عليه العرف المتكـرر علـى امتـداد العصور.

وهذه التضحية الإنسانية أو بعض أثر يتبقى منها تبدو في كل مكان بلغ فيه الإنسان بـدايات الزراعـة أو تخطاها.

(٤)

التجارة البدائية

لا بد أن كل هذه البدايات المبكرة حدثت في زمان قديم جدا وفي أقاليم من العالم لا تزال بحاجة إلـى أن تفحصها يد علماء الآثار فحصا منتجا فعالاً. وكان رجال العصر الحجري الحديث قد تخطوا هذه البدايات منذ أزمان بعيدة، واقتربوا من فجر التقاليد المكتوبة ومن تاريخ الجنس البشري، الذي لا تزال الذاكرة تعيه، حتى أمسوا لا تفصلهم عنه إلا بضع آلاف من السنين، ثم ظهر البرونز آخر الأمر في الحياة الإنسانية. فلم يحدث هزة عظيمة أو صدعا كبيرا، غير أنه أتاح للقبائل التي سبقت غيرها إلى اكتشافه ميزة عظيمة في الحروب. وكان التاريخ المكتوب قد ابتدأ فعلاً قبل دخول الأسلحة الحديدية إلى أوربا لتحل محل البرونز.



(٢٧) أدوات من العصر البرونزى (مصورة بمقاييس رسم مختلفة)

	أوربا	مصر	أرض الجزيرة
١٨ر٠٠٠ ق . م –	–	الإنسان يدخل المرحلة النيوليثية	
–	فترة		
–	السهوب		
–	إنسان غزال الرنة	بدايات الزراعة	
		–	–
١٥ر٠٠٠ ق . م –	ذاهب		
–	فترة انتقال الغابات		
١٣ر٠٠٠ ق . م –	الأزيل	–	–
–	–	–	–
–	–	–	–
–	–	–	–
		–	–
		–	–
	رجال العصر الحجرى	–	–
١٠ر٠٠٠ ق . م –	الحديث ينتشرون فى أوربا	–	–
	الثقافة الهليوليثية		
٨ر٠٠٠ ق . م –	أول مساكن البحيرات	–	فجر الحضارة السومرية
–	–	تطور	
–	–	–	البرونزى
٦ر٠٠٠ ق . م –	–	–	نيبور – إيريدو
٥ر٠٠٠ ق . م –	–	الأسرة الأولى	أول كتابة سومرية (٥،٠٠٠)
٤ر٠٠٠ ق . م –	–	الأهرام	–
٣ر٠٠٠ ق . م –	البرونزى	–	–
	إنشاء مجموعة اللغات	–	سارجون الأول
٢ر٠٠٠ ق . م –	الآرية		
١ر٥٠٠ ق . م –	الحديدى	–	الحديدى
٣٢٠ ق . م –	الإسكندر الأكبر		
٥٠ ق . م –	يوليوس قيصر		
م –	الحقبة المسيحية		
١٩٢٩			

(٢٨) بيان زمنى يوضح الطول العام لفترة العصر الحجرى الحديث التى تطور فيها الفكر المبكر

ولا شك أنه ابتدأ في تلك الأيام بالفعل ضرب من التجارة البدائية. فـإن البرونـز والأسـلحة البرونزيـة والأحجار النادرة والصلبة أمثال الكهرمان الأسود والذهب (بسبب إمكان تشكيلة وصوغه حليا) والكهرمـان (بسبب ما له من جمال نفاذ للضياء)، والجلود ونسيج الكتان وشباكه – كانت جميعا موضـع المقايضـة، أو كانت تسرق وتنقل من يد إلى أخرى فوق مساحات فسيحة من الأرض. ولعل الملح أيضا كان ضمن ما يتجر به، ويستطيع الناس أن يعيشوا من غير ملح ما اعتمدوا على غذاء من اللحم، في حين أن مستهلكي الحبـوب من الناس محتاجون إليه احتياج الحيوان العاشب. ويقول المستر هوبف Hopf إنه طالمـا نشـبت حـروب مريرة بين القبائل الصحراوية السودانية في السنين الأخيرة على امتلاك رواسب الملح في فزان. وفي مبـدأ الأمر كانت المقايضة والابتزاز بالتهديد والجزية والسرقة بالإكراه يتطرق أحدها إلى الآخر علـى درجـات غير محسوسة. فكان الناس يحصلون على ما يشتهون بأية وسيلة استطاعوا.

(٥)
امتلاء وادي البحر المتوسط

لقد ظللنا حتى الآن نقص عليك تاريخًا بلا أحداث، تاريخ عصور وآماد ومراحل من التطور. ولكنا قبل أن نختم لك هذا القسم من القصة الإنسانية، ينبغي لنا أن نسجل شيئًا قد يكون ذا أهمية أولية، وربما كان في مبتدأ أمره ذا أهمية محزنة في تطور الجنس البشري، هذا الحادث هو انسياب مياه المحيط الأطلنطي إلى وادي البحر المتوسط العظيم.

ويجب أن يتذكر القارئ على الدوام أننا نحاول جهدنا أن نعطيه بيانات واضحة يستطيع أن يتقبلها مرتاحا راضي النفس. على أنه يوجد بالضرورة في مادة خرائطنا الزمنية وخرائطنا العادية، التي أوردناها مبينة للجغرافيا قبل التاريخ، قدر كبير من المادة يعتمد على مجرد الظن. ولقد أزحنا عصر الجليد الأخير وظهور الإنسان الحق منذ حوالي خمسين ألفًا أو خمسة وثلاثين ألفًا خلت من السنين. وإنا لنرجو القارئ أن يتذكر جيدا كلمة (حوالي) هذه، فقد تكون حقيقة ذلك هي الستين ألفًا أو العشرين ألفًا من السنين. ولسنا نكتفي في تقدير هذه بقولنا "منذ زمان بعيد" أو "منذ عصور سحيقة" إذ لا غناء في مثل هذه العبارات، لأن القارئ لن يعرف منها أنحن نعني القرون أم الملايين من السنين. ولهذا كانت الصور والأشكال أدق كثيرا. فإن تلك الخرائط التي نوردها لا تمثل الحقيقة بل تمثل شيئًا يشابه الحقيقة. فكأننا نقول إن معالم الأرض تكاد تقارب هذه المعالم أي إنه كان هناك ما يماثل هذه البحار وما يماثل تلك الكتل الأرضية. على أن كلاً من المستر هورابين Horrabin الذي قام برسم هذه الخرائط وكاتب هذه السطور الذي دعاه إلى رسم تلك الخرائط، قد آثر أن يلتزم الحذر لأن الخطأ فيه أسلم من الخطأ في الإسراف والمبالغة. فنحن لم نصل في الجيولوجيا إلى الحد الذي يسوغ لنا أن نمخر عباب المباحث الأصلية في تلك الشئون، ولذا تجدنا التزمنا في البحر خط الأربعين قامة عمقًا وفي البر الرواسب الحديثة، واتخذناهما دليلاً يرشدنا في خريطتنا عن "عصر ما بعد الجليد"، وفي الخريطة الخاصة بالحقبة من سنة ١٣٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ ق. م. على أننا تخطينا هذين الدليلين في أمر واحد. فإن من المحقق عمليا أنه عند نهاية العصر الجليدي الأخير كان البحر المتوسط مكونًا من حوضي بحرين محوطين بالأراضي لا يتصل أحدهما بالآخر أو يتصلان فقط بنهر سيلي فيضي. وكان الحوض الشرقي أعذب الحوضين ماء؛ لأن مياه النيل والنهر الأدرياتي ونهر البحر الأحمر كانت تغذيه بالمياه العذبة، وربما كان يغذيه كذلك نهر ينصب بين الجبال التي هي الآن الأرخبيل اليوناني خارجا من بحر وسط آسيا. كان موجودا حينذاك وكان أعظم كثيرا من كل الأنهار التي ذكرنا. ويكاد يكون محققًا أن رجال العصر الحجري الحديث جاسوا خلال فردوس البحر المتوسط المفقود.

والأسباب التي تحملنا على القول بهذا وجيهة وواضحة جدا. فإن البحر المتوسط لا يزال حتى اليوم بحرا يتبخر ماؤه. فالأنهار التي تصب فيه لا تعوضه عما يفقد سطحه بسبب البخر. وهناك تيـار مسـتمر لميـاه تنصب إلى البحر المتوسط من المحيط الأطلنطي، وتيار آخر ينساب خلال البسفور من البحر الأسود. ذلـك أن البحر الأسود يتلقى من مياه الأنهار العظيمة التي تنصب فيه، فوق ما هو في حاجة إليه. فهو بحر يفيض بالمياه على حين كان البحر المتوسط بحرا دائم التعطش إليها. ومن ذلك يتضح أنه عندما كان البحر المتوسط منفصلاً عن كل من المحيط الأطلنطي والبحر الأسود على السواء، كان من غير شك بحـرا متناقصـا، وأن مياهه كانت تهبط إلى مستوى أدنى كثيرا من مستويات المحيط في خارجه. وهذه هي حال بحر قزوين اليوم، وهي أكثر انطباقًا على حال البحر الميت.

فإن كان هذا التعليل سليما فلا بد أن كانت هناك أرض حيث تلتطم اليوم أمواج البحر المتوسط، ولا بد أن كانت هذه الأرض شاسعة ولا بد أن كان جوها معتدلاً ملائما. ولعل الحال كانت كذلك في العصر الجليـدي الأخير. ولسنا ندري على وجه التحقيق متى تغيرت هذه الحال فنفذت مياه المحـيط إلـى حـوض البحـر المتوسط. ولكننا نعلم علم اليقين أن قوما من الأزيليين وأهل العصر الحجري الحديث كانوا يتقلبون في أنحاء الوديان والغابات التي اندثرت فيما بعد تحت مياه البحر المتوسط. ثم نعلم علما لا يبلغ درجة اليقين أن الأقوام البيض الداكنين في العصر الحجري الحديث ربما كانوا قد تقدموا نحو بدايات الاستقرار والمدنية فـي ذلـك الوادي الذي غمره البحر.

وللمستر و. ب. رايت W.B. Right بعض آراء مثيرة شائقة في هذا الشأن. فهو يرى أنه كانـت فـي حوض البحر المتوسط بحيرتان: إحداهما بحيرة عذبة الماء في المنخفض الشرقي، تنصـرف مياههـا فـي البحيرة الثانية التي في المنخفض الغربي. ومن الطريف أن نتخيل ما لا بد أن حدث عنـدما عـلا مسـتوى المحيط مرة أخرى نتيجة لذوبان بساط الثلوج، فأخذت مياهه تنصب إلى متسع البحر المتوسـط، ولا بـد أن ذلك الانسياب – وكان قليلاً في بادئ الأمر – قد تزايد حتى أصبح في النهاية مهولا مروعـا، مـع تـوالي انخفاض النتوء الذي في قاع المضيق بفعل التحاتّ ومع الزيادة البطيئة في مستوى المحيط. فإذا كانت هنـاك أي مواد غير متماسكة في نتوء المضيق فلا بد أن تكون النتيجة تفككها تفككًا حقيقيا. ولو أنا حسـبنا المـدة المديدة التي استغرقها هذا السيل الهائل العظيم في ملء متسع هائل كحوض البحر المتوسط، أدركنا أن هـذه النتيجة محتملة الحدوث على كل حال. وربما بدا كل هذا ضربا من أشد أنواع التفكير النظري إمعانًـا فـي الغرابة. على أنه ليس كذلك من كل الأوجه، إذ إننا إذا فحصنا خريطة تمثل الارتفاعات المختلفة لقاع البحـر عند مضيق جبل طارق، وجدنا أن هناك واديا عظيما يرتفع من أعماق البحر المتوسط ويختـرق المضـيق ويسير مسافة ما في أحضان شاطئ المحيط الأطلنطي. والراجح أن هذا الـوادي أو الخـانق تكـون نتيجـة لانصباب مياه المحيط في البحر عند نهاية مدة الصرف الداخلي.

وما من شك في أن هذا الامتلاء الذي يرجح حدوثه فيمـا بـين ١٥٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ سـنة ق. م وفقـًا للتقديرات الزمنية الإجمالية التي نستعملها في كتابنا هذا، كان من بين أعظم الأحداث الفريـدة فـي الـزمن السابق لتاريخ جنسنا. فإذا كان التاريخ الأخير هو أصدق الاثنين، فإن بدايات المدنية الفجة وأعني بها مساكن البحيرات الأولى والزراعة الأولى، نشأت فيما يرجح حول تلك البحيرة الشرقية أي ذلك البحر العذب الميـاه الذي لم يكن ينصب فيه نهر النيل وحده، بل ينصب فيه كذلك النهران العظيمان اللذان همـا اليـوم البحـر الأدرياتي والبحر الأحمر.

وعلى حين فجأة أخذت مياه المحيط تعلو فوق نتوء التلال الغربية المعترضة في قاع المضـيق وتنصـب على هذه الشعوب البدائية وقد أصبحت تلك البحيرات التي كانت ملاذهم وصديقهم عدوا لدودا لهـم، فكانـت مياهها تعلو ثم تعلو ولا تنخفض قط. فأغرقت مستقراتهم وسارت المياه في أثـرهم وهـم يهربـون منهـا مهطعين، وأخذت المياه تغطي على الوديان وتدفع بالجنس البشري أمامها يوما بعد يوم وسنة بعد سـنة. ولا بد أن يكون قد أحاط بكثير منهم ذلك الفيض من الماء الملح الدائب الارتفاع، والذي لم يكن أمام لججـه مـا يصدها عنهم والذي لم يكن للناس منه عاصم، كلا!! بل كان يتقدم أسرع فأسـرع ويعلـو رءوس الأشـجار ويغطي التلال، حتى ملأ حوض البحر المتوسط الحالي بأسره، وحتى احتضن جبال بلاد العـرب وأفريقيـا. حدثت هذه الكارثة في ذلك الزمان السحيق، قبل بزوغ فجر التاريخ المكتوب بوقت طويل.

ولعل ستارا من الماء قد أسدل بذلك على طائفة من أكثر مناظر هذه المسرحية الإنسانية فتنة وجمالاً.

الفصل العاشر

الفكر المبكر

١- الفلسفة البدائية.

٢- الرجل المسن في الدين.

٣- عاملا الخوف والأمل في الدين.

٤- النجوم والفصول.

٥- قص الأقاصيص وإنشاء الأساطير.

٦- الأصول المعقدة للديانات.

(١)

الفلسفة البدائية

قبل أن نواصل الحديث ونخبرك كيف حدث منذ ستة آلاف سنة أو سبعة، أن أخذ الناس يجتمعـون فـي المدن الأولى ويكونون شيئًا يزيد على القبائل المتفككة العرى التي كانت حتى ذلك الحين أعلى مجموعـاتهم السياسية، لا بد لنا من كلمة نسوقها عن الأفكار، التي كانت تتردد في خبيئة تلك العقول التي تتبعنـا نماءهـا وتطورها خلال مدة طولها خمسمائة ألف سنة منذ مرحلة الإنسان القرد.

ماذا كان رأي الإنسان في نفسه وفي العالم أثناء تلك الأيام الخوالي؟ لم يكن يفكر في بادي الأمر فـي أي شيء عدا الأشياء التي تهمه مباشرة، فلم يكن يشغله بادئ الرأي إلا التفكير مثلاً في طريقة للخلاص من الدب إن اعترض الدب طريقه، أو الحصول على السنجاب إذا لقي السنجاب. وقبل أن تتطور لغته إلى حد ما، لـم يكن بقادر إلا على الشيء القليل من التفكير الذي لا يتجاوز نطاق الخبرة العملية البحتة، لأن اللغة هـي أداة التفكير شأن مسك الدفاتر في كونه أداة الأشغال. فهي تسجل وتثبت وتمكن الفكر من الانتقال إلى أفكار تتزايد درجة تعقيدها شيئًا فشيئًا. هي يد العقل يمسك بها الأشياء ويختزنها لديه.

والراجح أن الإنسان الأول كان قبل أن يستطيع الكلام يرى الأشياء واضحة بينة، ويقلد ما يـرى بغايـة المهارة، ويأتي بالحركات والإيماءات، ويضحك ويرقص ويعيش من غير إعمال أي فكر عن: أيـان جـاء؟ ولماذا يعيش؟ كان يخشى الظلام لا جرم، ويخاف الصواعق والحيوانات الكبيرة، والأشياء الشـاذة الهيئـة، ويخشى أي شيء تأتيه به الرؤيا في المنام. ولا ريب في أنه كان يأتي أمورا يستجلب بها رضاء الأشياء التي كان يخشاها أو يغير بها طالعه ويدخل بها السرور على القوى الوهمية التي خالها فـي الصـخر والـوحش والنهر. ولم يكن تمييزه بين الكائنات الحية وبين الجمادات تمييزا واضحا جليا، فإن آذته عصا لكزها بقدمه. وإن أرغى النهر وفاض، ظنه عدوا مبينًا. وكان فكره فيما يرجح قريبا جدا من مستوى عقل طفـل صـغير ذكي في الرابعة أو الخامسة من عمره. فكان له نفس ما للطفل من عدم تعقل ومن تقلب أهواء. وكانـت لـه نفس الأغلال التي تحد أفق عقل ذلك الطفل. ولكن لما لم يكن لديه إلا القليل من الحديث واللغة، أو لم يكـن لديه حديث بتاتًا، فإنه لم يستطع إلا قليلاً أن ينقل إلى غيره الخيالات التي كانت تطيف بـه أو أن ينشـئ أي تقاليد أو أفعال جمعية تدور حول التقاليد.

ورسوم الإنسان حتى ما يرجع منها إلى العصر الحجري القديم المتأخر، لا تحمل أية إشارة إلى أنه كـان يهتم أدنى اهتمام بالشمس أو القمر أو النجوم أو الأشجار. بل كان الحيوان والإنسـان دون غيرهمـا شـغله الشاغل. ولعله كان يعد الليل والنهار والشمس والنجوم والأشجار والجبال أمورا من طبيعة الأشياء شأنه فـي ذلك شأن الصبي إذ ينظر إلى مواعيد طعامه، وإلى اللعبة الصغيرة التي يلهو بها، بوصفها أشـياء معترفًـا بوجودها مسلما بها وفي اعتقادنا أنه لم يكن ينشئ أي رسوم خيالية ولا أي أشباح ولا أي شـيء مـن هـذا القبيل. ورسوم رجل غزال الرنة إنما هي رسوم لأشياء مألوفة لا يداخلها الخوف، وليس فيها أي أثر للتوقير

والاحترام. ولعله كان يشعر أن رسم الوحش يجذب الوحش إليه، وربما كانت رسومه رسوماً سحرية تجلب الحظ في القنص، ولكن لا يبدو عليها أنها رسمه بغية التعبد. ولا يكاد المرء يعثر بين كل ما أنتجه على شيء نستطيع أن نزعمه رمزا دينيا يحتوي سرا من أسرار الدين.

ولا مراء في أن حياته كانت تضم قدرا معينًا مما يسميه الناس باسم الفتيشية فإنه كثيرا ما أتى أشياء يرمي بها إلى الوصول إلى نتائج يرغبها، وهي لعمري أشياء نراها نحن اليوم غير معقولة، لأن ذلك هو أقصى ما تستطيع الفتيشية بلوغه؛ فما الفتيشية إلا العلم الخاطئ المبني على الحدس والتخمين أو الاستنباط الخاطئ، وهي تختلف في طبيعتها تمام الاختلاف عن الدين. ولا ريب أن أحلامه كانت تستثيره، وأنها كانت في بعض الأحيان تختلط بما يؤثر في ذهنه أثناء اليقظة من مؤثرات وتبلبل فؤاده. ولما كان ذلك الإنسان يدفن موتاه، ولما كان الرجل النياندرتالي المتأخر نفسه يلوح كأنما كان يدفن الموتى ومعهم الطعام والأسلحة كما يعرف القارئ، أخذ بعض الناس يحاج بأنه كان يعتقد في وجود حياة مستقبلة. على أنه من المعقول أيضا أن يكون الرجال الأوائل قد دفنوا موتاهم ومعهم طعامهم وأسلحتهم ارتيابا في أن موتاهم قد فارقوا الحياة حقًا. ولا يدل هذا في نفسه على إيمانهم بخلود الروح. وكانوا يرون موتاهم في أحلامهم فتقوى عندهم العقيدة بأنهم ما زالوا أحياء، ولعلهم كانوا يعزون إليهم التحول إلى صورة الذئاب إلى حين، ثم يحاولون استرضاءهم.

وإنا لنشعر أن رجل غزال الرنة كان من الذكاء والمشابهة لأشخاصنا على صورة لا تسمح بألا تكون له لغة. على أنه من الراجح جدا أنها لم تكن لتعينه عونًا كبيرا في أي شيء يتجاوز الإيضاح المباشر أو التحدث بما يقع. كان يعيش في مجتمع أكبر من مجتمع الرجل النياندرتالي أو من مجتمع سلفه هو المباشر شبه النياندرتالي [٤٤] أو مجتمع أي قرد كبير، ولكن كم كان حجم القبيلة؟ هذا ما لا نعرفه. على أنه تحتم على مجتمعات الصيد ألا تقيم بعضها مع بعض في مجاميع كبيرة، وإلا هلكت جوعا، ما لم تكن الأرض زاخرة بالصيد الجم. والهنود الذين يعتمدون على غزال الكاريبو في (لابرادور) يعيشون في ظروف شبيهة بظروف رجال غزال الرنة. فقد كانوا ينتشرون في جماعات عائلية صغيرة مثلما ينتشر الكاريبو بحثًا عن طعامه، ولكن عندما يجتمع الغزال استعدادا للهجرة الموسمية يحذو الهنود حذوه ويجتمعون. وهذا هو أوان التجارة والأعياد والزواج لديهم.

وأبسط رجل هندي أمريكي متفوق في خبرته بأمور الدنيا على الإنسان النياندرتالي بمقدار عشرة آلاف سنة، ولكن الراجح أن هذا الضرب من التجمع والتفرق هو نفس طريقة رجل غزال الرنة. وتوجد في سوليوتريه (Solutré) بفرنسا آثار تدل على مكان عظيم كانوا يخيمون فيه ويقيمون. وكان الناس يتبادلون الأخبار في ذلك المخيم ولا ريب. ولكن المرء منه في حل من أن يرتاب أنه كان ثمة أي تبادل للأفكار، ولسنا نرى في مثل هاتيك الحياة أي مجال للإلهيات أو الفلسفة أو الخرافات أو النظر التأملي في الأمور. فأما المخاوف فنعم، لكنها مخاوف غير منظمة؛ وكانت لديه أوهام وهواجس من نسج الخيال، ولكنها كانت هواجس وأوهاما شخصية عابرة سريعة الزوال.

---

(٤٤) Neanderthaloid

وربما انطوت تلك الحالات على قدر معين من قوة الإيحاء. حقًا إن الخوف إذا أحس به صاحبه لم يحـتج إلى أكثر من كلمات قليلة للتعبير عنه للآخرين؛ وإن القيمة التي يقدرها صاحبها لشيء ما يمكن الإخبار عنها بغاية البساطة.

وينبغي لنا أن نتذكر في مثل هذه المسائل الخاصة بالفكر والدين البدائيين، أن دراسـة الشـعوب الـدنيا المتوحشة في زماننا تكاد تكون عديمة القيمة في دراسة حالة الإنسان العقلية قبل زمن اللغة الكاملة التطـور. ذلك أن الإنسان الأول لم يكن ليستطيع أن ينشئ إلا تقاليد قليلة، أو لم يكن ليستطيع أن يكون أي تقاليد قبـل تقدم الكلام. وعلى العكس من ذلك نجد كل الشعوب المتوحشة والبدائية في العصر الحاضـر غارقـة فـي التقاليد، وهي تقاليد آلاف من الأجيال. وقد تكون أسلحتهم شـبيهة بأسـلحة أسـلافهم الأبعـدين وطـرائقهم كطرائقهم، ولكن الشيء الذي كان في عقول السالفين آثارا طفيفة ضحلة، أصبح في عقول الحـاليين أخاديـد عميقة معقدة، حفرت خلال القرون السابقة جيلاً بعد جيل.

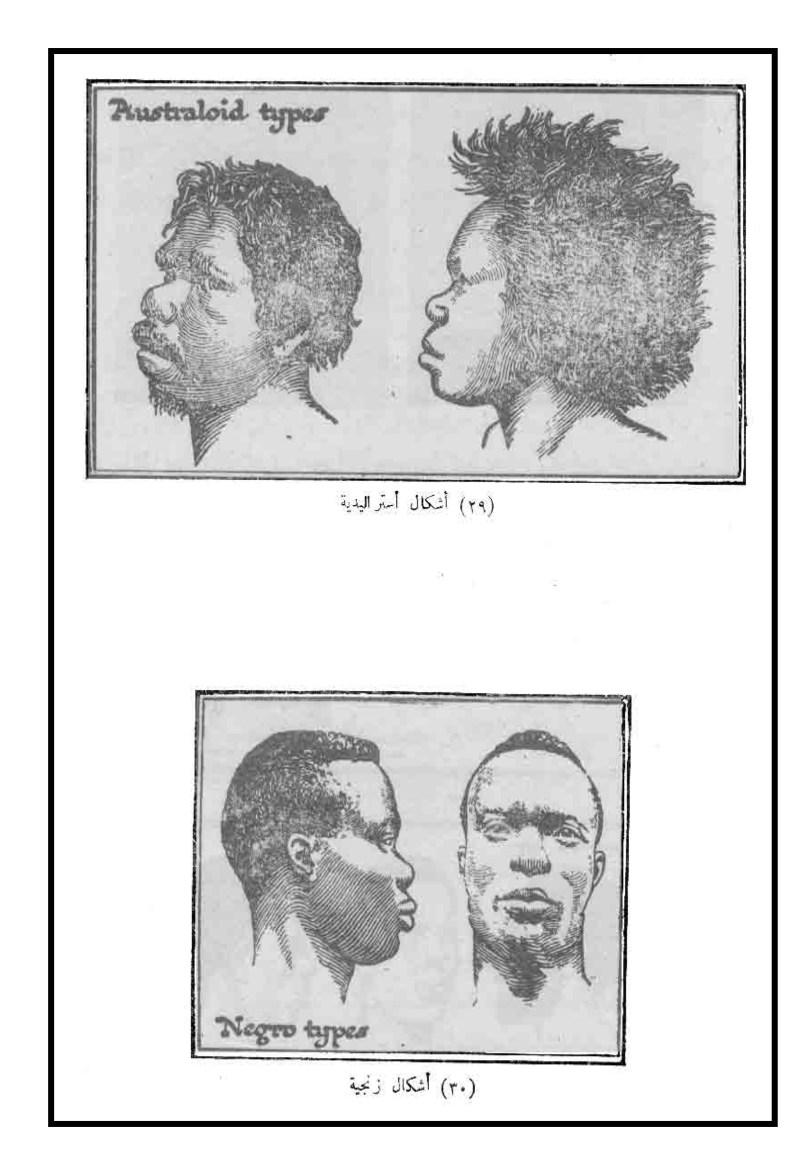
(٢)

الرجل المسن في الدين

لعل هناك أشياء جوهرية جدا في نفسها استقرت في أذهان الناس قبل النطق بالكلام بزمن مديـد. ولقـد كانت الحياة العقلية لإنسان العصر الحجري القديم المتأخر قريبة من حياتنا العقلية، وهي تشابه حياتنـا فـي قيامها على أسس ذلك السلف الشبيه بالقرد، الأكثر انفرادا والأكثر حيوانية. هذا وإن علم التحليل النفسي الذي ينمو بخطى سريعة إنما يدأب باحثًا في مجاهل أحلامنا، وفي حالاتنا التي تبدر منا عن غيـر وعـي، وفـي أفكارنا التي تشبه أفكار الأطفال، وفيما يمكن تحقيقه مما عسى أن يكون باقيا من أفكار المتوحشين؛ ويهـدف هذا كله إلى معرفة أسس الفكر عند ذلك الكائن البدائي الذي نشأنا منه. ويقوم ذلك العلم الآن بتفسير "شعورنا" على أساس من تلك المباحث. فإن القردة الكبرى تتزاوج ثم تربى صغارها، ويستمر الصغار في خشية مـن الذكر المسن، ثم لا تلبث الذكران الصغيرة أن تستثير غيرته، فيبادر إلى قتلها أو طردها، فأما الإنـاث فهـن إماء الذكر المسن اللائي يحميهن. وهذه هي الحال العامة للأمور في كل الحيوانات شبه الاجتماعية. ولـيس هناك أي سبب يحملنا على الاعتقاد بأن "شبه الإنسان" اختلف عن هذا حالاً.

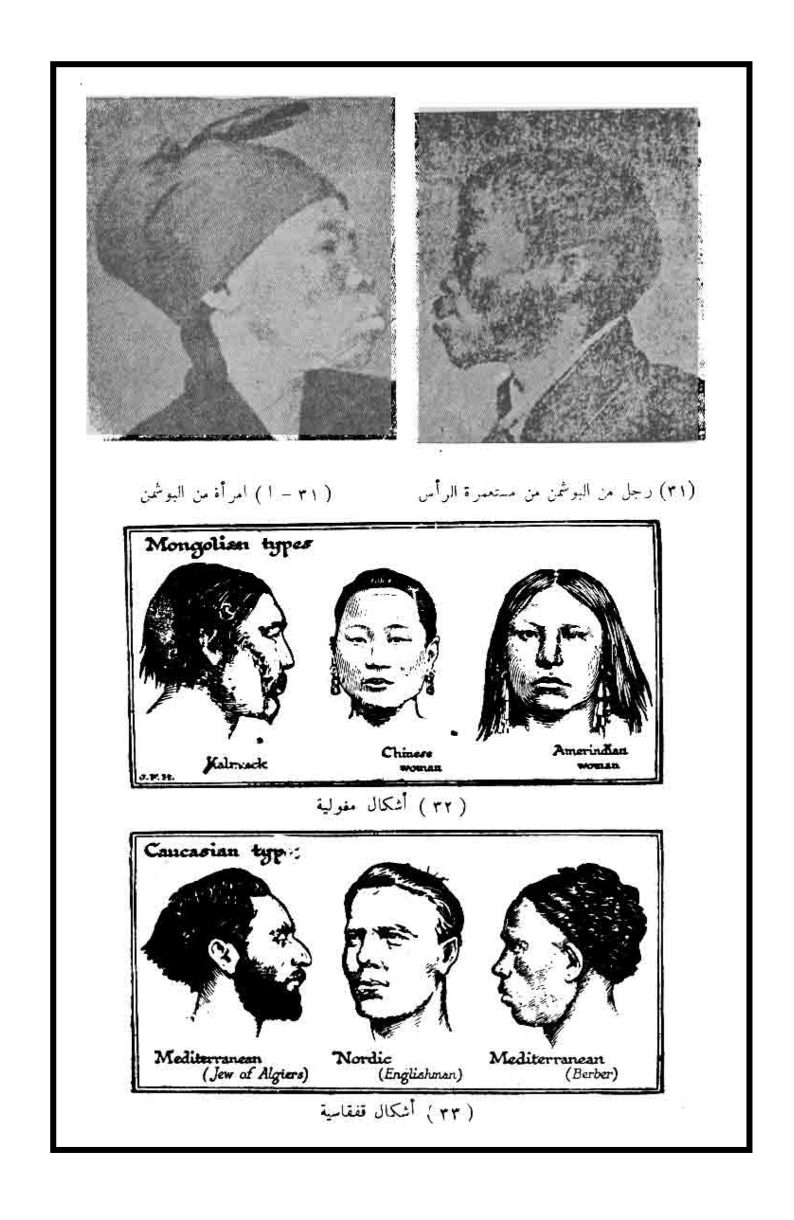
وكانت الخشية من الرجل المسن هي بداية الحكمة الاجتماعية. فقد نشأ صغار المجثم البدائي في ظل ذلك الخوف. وكانت الأشياء المتصلة به محظورة فيما يرجح. فكان كل فرد ممنوعا من أن يلمس رمحه أو يجلس مكانه على نفس الطريقة التي يحرم بها اليوم على صغار الأطفال أن يلمسوا غليون آبائهم أو يجلسـوا فـي مقاعدهم، كان فيما يرجح سيدا على كل النساء. وكان لزاما على شباب المجتمع الصغير أن يتـذكروا هـذا وتلقنهم أمهاتهم أن يتذكروه، ويغرسن في نفوسهم خشية "الرجل المسن" واحترامه وتقديره.

وكأني بفكرة المحظورات أو فكرة أن بعض الأشياء محرمة أو "تابوهات Tabus" كما يسمونها فلا يجوز لمسها ولا يجوز النظر إليها – قد تم لها الرسوخ والاستقرار على هذه الطريقة في ذلك الذهن شبه الإنسـاني في مرحلة متقدمة جدا. هذا ويتقصى المستر ج.ج. اتكنسون في كتابه "القانون



(٢٩) أشكال أستراليدية

(٣٠) أشكال زنجية



(٣١) رجل من البوشمن من مستعمرة الرأس

(٣١ - ١) امرأة من البوشمن

(٣٢) أشكال مغولية

(٣٣) أشكال قفقاسية

البدائي" وهو تحليل بارع لتلك المحظورات البدائية، التي توجد لدى الشعوب المتوحشة في جميع أرجـاء العالم، أمثال المحظورات (Tabus) التي تفصل بين الأخ وأخته والمحظورات التـي تجعـل الرجـل يفـر ويتوارى من زوجة أبيه – يتقصى أثرها حتى يصل بها إلى هذا السبب الجوهري. والذكر الصغير لم يكـن يستطيع أن ينجو من حنق "الرجل المسن" إلا باحترام هذا القانون البدائي.

وفي مستطاع القارئ الآن أن يفهم أيضا لماذا وجد ذلك النزوع إلى استرضاء الرجل المسن حتـى بعـد وفاته. ولا بد أنه كان عاملاً كبير الأثر في العدد الجم من الكوابيس والأحلام المرعبة التي كـان النـائمون يرونها في ذلك الزمان الأول. إذ لم يكن المرء على يقين من وفاته. فإنه قد يكون مستغرقًا في النوم فقـط أو متظاهرا بالنعاس. وبعد وفاة الرجل المسن بزمن طويل وحين لم يعد يمثله شيء إلا ربـوة قبـر أو جندلـة حجرية، كانت النساء لا تفتأ تسرد قصته وتروي إلى أي حد كان عجيبا مرعبا. ولكونه مـا بـرح مصـدرا للرعب لدى قبيلته الصغيرة، كان من السهل الانتقال من ذلك إلى الرجاء بأن يكون مصـدر رعـب لأقـوام آخرين معادين لهم. ولقد طالما حارب في حياته زيادا عن قبيلته، وإن كان يؤذي قبيلته ويتحكم فيها. فلـم لا يكون كذلك بعد الموت؟ وفي مكنتك الآن أن ترى أن الفكرة المتعلقة بالرجل المسن كانت فكرة طبيعية جـدا موائمة للعقل البدائي، وكان أمامها متسع لتطورات عظيمة، ثم انتقل الخوف من الوالد على درجات لا تدرك إلى الخوف من "رب القبيلة".

وعلى نقيض الرجل المسن، كانت الأم أشد إنسانية وأكثر ترفقًا وحنانًا؛ فهي التي كانت تعـين، وتـؤوي، وتبذل التضحية. وهي التي كانت تدرب أولادها على طاعته وخشيته. فهي كانت تهمـس فـي الآذان فـي الزوايا وتعلّم الخفايا. وللتحليل النفسي الذي أنشأه فرويد Freud ويونج Jung أثر كبير في تمكننـا ممـا لا يزال لخشية الأب ومحبة الأم من شأن عظيم في تكييف العقل البشري وفقًا للحاجات الاجتماعية. وقـد كـان لدراستهما التي قتلت بحثًا موضوع أحلام الطفولة والشباب وأخيلتهما، أكبر الفضل في إعانتنا على إعادة بناء روح الإنسان البدائي. نعم أعدنا بناءها فإذا هي روح طفل قوي، يرى الكون بالطريقـة التـي يبتغيهـا رب الأسرة ومولاها. وكان خوفه من الرجل الشيخ، وذلته وصغاره حياله، يخالطان خوفه مما حوله من حيوانات خطرة، حتى لقد يصبح (الدادا) أي الأب – في بعض الأحيان – ربما يتحدث عنه في مخادع الأطفال في هذه الأيام. وكان يسيرا على الشيخ المسن الذي صعده خيالهم إلى علياء التسامي، كان يسيرا على ذلـك "الإلـه الأول" أن يتخذ صورة حيوان.

أما النساء الربات فكن أكثر شفقة وأوسع حيلة. فكن يقدمن المعونة، وكن يحمين من يلـوذ بهـن، وكـن يجزين ويرضين، ويواسين الحزين. ومع هذا كان يحيط بهن في نفس الوقت جو غامض أقل فـي الأذهـان وضوحا من وحشية الرجل الشيخ المباشرة، ويحيط بهن خفاء يعظم كثيرا ما حوله. وهكذا كان للمرأة أيضـا حظها من خوف الرجل البدائي إياها. فكانت الربات موضع الخشية، وكانت لهن صلة بالأشياء الخفية.

(٣)

عاملا الخوف والأمل في الدين

وهناك فكرة أخرى خطيرة الشأن، أكبر الظن أنها نشأت في أذهان الناس من قديم الزمان بسبب إلمام الأمراض المعدية بهم إلماما لم يكونوا يعرفون له سببا: تلك هي فكرة النجاسة وفكرة الإصابة باللعنات. وربما نتج عن ذلك أيضاً فكرة تجنب أماكن خاصة وأشجار بعينهم وأشخاص في أدوار خاصة من أدوار الصحة. وهنا يجد الإنسان مجموعة أخرى من المحرمات.

ويحتمل كذلك أن يكون الإنسان قد ابتدأ فجر حياته العقلية ولديه شعور بالشؤم المحيط بالأماكن والأشياء. وإن الحيوانات لتحس ذلك الإحساس نفسه حين ترهب المصايد، فالببر مثلاً يهجر طريقه المألوف في الغابة إذا رأى بعض خيوط القطن. وإن من السهل أن يخيف الكبار والمربيات صغار الأطفال من بني الإنسان من هذا الشيء أو ذاك، شأنها في ذلك شأن غالبية صغار الحيوان، وتلك مجموعة أخرى من أفكار النفور والاشمئزاز نشأت في نفوس الناس وتكاد نشأتها أن تكون أمرا محتوما.

وما إن أخذ الكلام يتطور، حتى شرع لا جرم، يعمل عمله في هاته الإحساسات الجوهرية، وحتى أخذ ينظمها ويختزنها في العقل. وكان الناس إذ يتخاطبون يقوون مخاوف بعضهم بعضا وينشئون تقاليد مشتركة من المحظورات تشمل الأشياء المحرمة والأشياء النجسة وتظهر إلى جانب فكرة النجاسة فكرة التطهر وإزالة اللعنات. وتتم عملية التطهر بإرشاد الحكماء من المسنين أو العجائز المحنكات، وفي مثل هذا التطهر تكونت بذور الكهانة والسحر في أقدم عهودها. ولرفع اللعنات ولإزالة الشرور، وتثبيت الإنسان وتنظيم شأنه، كان لابد له من أن يفعل أشياء ذات قوة وبأس. وهل في الوجود شيء أقوى من القتل ومن إراقة الدماء.؟ من هنا جاء الارتباط الوثيق بين نظام الكهانة وتقديم الضحايا والقرابين.

ومن ثم يكون الكلام منذ أول أمره مكملاً قويا للتربية المعتمدة على مجرد التقليد وعلى اللكمات والضربات التي يوجهها الوالد قبل أن يقدر على النطق. فلما نشأ الحديث أصبحت الأمهات يتحدثن إلى صغارهن ويؤنبنهم إذا قصروا. ومع تطور الحديث يجد الناس أن لهم خبرة يدخرونها، وأمورا هم على اقتناع بها كانت تعيرهم من لدنها أو تبدو كأنما تعيرهم من لدنها قوة. وإنهم ليتخذون من هذه الأشياء أسرارا يكتمونها.

وينطوي العقل البشري على قوتين متلازمتين تعملان جنبا إلى جنب: قوة سرارة ماكرة، وقوة أخرى لعلها كانت متأخرة النشأة عن الأولى، تجعلنا جميعا بلا استثناء تواقين أن نخبر إخواننا بما نعلم وأن ندهشهم ونؤثر فيهم. وإن الكثير من الناس ليجمعون الأسرار لكي تكون لديهم أسرار يتحدثون بها، ثم ينقلون هذه الأسرار التي تلقوها من الأجداد إلى من هم أصغر منهم سنًا وأسرع تأثرا، نقلاً تتفاوت فيه درجة الأمانة والتأثير، سالكين في ذلك طريقة يتجلى فيها شيء من معنى الابتداه، وفضلاً عن ذلك فإن روح المعلم تطغى في العقل الإنساني. فإن معظم الناس يحبون أن ينهوا غيرهم عن أشياء معينة. ولهذا فالأرجح أن نواهي تعسفية واسعة خاصة بالغلمان والبنات والنساء قد نشأت في أغلب الظن منذ أقدم عصور التاريخ الإنساني وكان يلذ لأصحابها أن يفرضوها على الناس فرضا.

وكان (للقربان) أصل مزدوج. فلا بد أن كان يخامر الأفراد ميل إلى استرضاء الرجل المسـن، ولا بـد أيضا أن كان يساورهم ذلك التلهف إلى الإتيان بعمل قوي عظيم. على أن القرابين ربمـا كانـت تسـتهدف السحر أكثر مما تستهدف الاسترضاء. ذلك أن القربان يزيح ويطرد، كما أنه يثبت ويؤيد، وإذ كان يفعل ذلك، فإن المرء عندما شرع يفكر فيه كان يستنتج أنه لا بد مدخل السرور على روح الرجل الشيخ بعد إذ أصـبح "ربا للقبيلة". على أن القربان كان يقرب لمجرد تقريبه ولأن هذا التقريب في ذاته عمل رائع عظيم.

(٤)
النجوم والفصول

من تلك الأفكار ومن مزيج من أفكار مماثلة لها، نمت أول العناصر الشبيهة بالدينية في الحياة الإنسـانية. وكان كل تطور في الكلام يجعل في الإمكان أن تتقوى وتتطـور تقاليـد المحظـورات والحـدود والقيـود والطقوس. وليس في العالم اليوم جنس متوحش أو همجي لا يثقل كاهله عبء فادح من هاته التقاليد.

وطبيعي أن يصحب ظهور الرعي البدائي، انتشار عظيم لهذا النوع من الأعمال والممارسات. فإن أمورا لم يعرها الناس التفاتًا حتى ذلك الحين، أضحت تُرى ذات أهمية في الشئون الإنسانية. ذلك أن إنسان العصر الحجري الحديث كان بدويا مترحلاً ترحلاً يختلف في الروح والجوهر عن مجرد الانتقال في ضوء النهـار الذي يقوم به الصائدون البدائيون طلبا للطعام. فإنه كان راعيا للحيوان قد أجبر ذهنـه قسـرا، علـى إدراك الاتجاهات وانبساط الأرض. فكان يرقب قطيعه ليلاً ونهارا. وكانت الشمس نهارا تتلوها النجوم لـيلاً عونـًا على إرشاده في تنقلاته، فأخذ يكتشف بعد عصور كثيرة أن النجوم أثبت دليلاً من الشمس، ولذا تراه يأخذ في ملاحظة نجوم ومجموعات نجمية خاصة. وكان تمييز أي شيء بمفرده يعني عند الرجال البدائيين أنه جسـم ذو روح وشخصية، فتجده يأخذ في الظن بأن أبرز النجوم أشخاص لألاءة وقور جديرة بالثقة تنظر إليه فـي بهمة الليل نظر العيون الشاخصة وتعود إليه ليلة بعد أخرى وتقدم إليه المعونة كما يقدمها إليـه رب القبيلـة نفسه.

وكانت فلاحته البدائية تقوي إحساسه بالفصول. ذلك أن نجوما خاصة تتسلط على سمائه عندما يحين أوان البذار. وهو يلحظ في السماء نجما لامعا يتحرك صعودا ليلة بعد ليلة إلى نقطة بعينها ربما كانت قمة جبل أو أي شيء آخر. وهناك يتوقف ثم يأخذ في الأفول ليلة بعد ليلة. عندئذ لا تخامره خلجـة شـك فـي أن هـذه علامة!! أو هي تحذير صامت عجيب لكل ذي عقل حصيف!! وليس يغرب عن البال أن بـدايات الزراعـة ابتدأت في المنطقة شبه المدارية، لا بل أدنى من ذلك إلى خط الاستواء حيث يسطع ضياء نجوم مـن ذوات الدرجة الأولى في الضياء بجلال لا يعرف عند خطوط العرض بالمناطق الأكثر اعتدالاً. وليسـت الفصـول هناك متميزة بالثلج والعواصف كما هو شأنها في بلاد الشمال. فكان من الصعب أن يتحقق المرء من موعـد حلول الأمطار والفيضانات. ولكن النجوم لم تكن لتكذبه.

وفضلاً عن ذلك كان إنسان العصر الحجري الحديث قد أخذ يعد الأعداد ويقع في حبائل سحرها. وهناك لغات لشعوب متوحشة ليس فيها ألفاظ لأي أعداد تتجاوز الخمسة. وبعض الشعوب لا تستطيع تجاوز الاثنين عدا. بيـد أن إنسان العصر الحجري الحديث كان قد أخذ في أرض منابته في آسيا وأفريقيا، أكثر منه في أوربا نفسـها – يتعلم كيف يعد ممتلكاته المتراكمة. كما أخذ في استعمال طرق الجرد والعد وهو يعجب من ثلاثية الثلاثة وتربيع الأربعة ويدهش من أن بعض الكميات كاثنى عشر سهلة التقسيم بطرق مختلفة، وبعضها الآخر كثلاثـة عشـر مستحيلته، فأصبحت الاثنا عشر عددا نبيلاً كريما مألوفًا، وكادت الثلاثة عشر أن تكون عددا منبوذًا ممقوتًا.

والراجح أن الإنسان أخذ يحسب الوقت معتمدا على البدور والأهلة. ذلك أن ضياء القمر أمر هام لدى الرعاة الذين لم يعودوا بعد مجرد صائدين لقطعانهم بل أصبحوا يرقبونها ويحرسونها وربما كان ضياء القمر أيضا موعد مغازلاته، ولعلّه كان كذلك لدى الرجل البدائي ومن قبله سلفه القرد الأرضي. على أنه ليس بعجيب أن تتغير وجهة الإنسان، وأن يتحول بنظره مع ازدياد زراعته، من أوجه القمر إلى دورة الفصول الأعظم منها قدرا. لقد كان الإنسان البدائي يكتفي في أغلب الظن بالانتقال هربا من وجه الشتاء مع زيادة وطأة برد الأيام. أما إنسان العصر الحجري الحديث فكان يعلم علم اليقين أن الشتاء لا بد مقبل. ولهذا كان يختزن أعلافه وسرعان ما أخذ يحتفظ أيضا بحبوبه. وكان لزاما عليه أن يحدد موعدا لبذاره، موعدا للبذار الموفق، وإلا جنى من بذاره خيبة الأمل. وأول حساب للزمن يسجله التاريخ كان يعتمد على الأهلة ودورة القمر وعلى عدد الأجيال الإنسانية. وابتدأت مع الزراعة عملية شاقة ترمي إلى التوفيق بين الشهور القمرية والسنة الشمسية. وهو عمل بقيت آثاره في تقويمنا الحاضر. إذ إن عيد الفصح مثلاً ينتقل من سنة إلى أخرى انتقالاً معقدا يضايق أصحاب الإجازات مضايقة شديدة. فهو يبكر تارة تبكيرا يضايقنا وتارة يتأخر، بسبب تلك الحال القديمة التي تحسب الزمن بالاعتماد على القمر.

ولما أخذ الناس ينتقلون من مكان إلى آخر قصدا وعمدا مع حيواناتهم وممتلكاتهم الأخرى، أخذوا لا جرم، ينشئون في أذهانهم الفكرة الخاصة بتصوير الأماكن الأخرى التي لا يقيمون بها، وأن يفكروا فيما قد يكون في تلك الأماكن. وأيما واد يتلبثون فيه زمانًا، فهم يتساءلون إذ يتذكرون كيف وصلوا إليه – "كيف وصل هذا الشيء الآخر أو غيره إلى هنا؟" وإنهم ليشرعون في التساؤل – دهشين عما وراء الجبال وعن المكان الذي تذهب إليه بعد غروبها وعما يوجد فوق أطباق السحاب.

(٥)

قص الأقاصيص وإنشاء الأساطير(٤٥)

تزايدت مقدرة الناس على الرواية عن الأشياء بتزايد محصولهم اللغوي. فإن الأوهام البسيطة الفردية، والحيل الفتيشية التي لا يربطها نظام، والمحظورات الأولى القديمة الخاصة بإنسان العصر الحجري القديم أخذت تنتقل بين الناس وتوضع في نظام أكثر اتساقًا وتشاكلا. وأخذ الرجال يروون الأقاصيص عن أنفسهم وعن قبيلتهم وعن محظوراتها ولماذا وجب وجودها؟ وعن العالم وعن سبب وجود العالم. وبذا ظهر في الوجود عقل قبلي متوارث هو التقاليد. وما من شك في أن إنسان العصر الحجري القديم كان ذا نزعة فردية أكثر من إنسان العصر الحجري الحديث، وأقرب منه إلى الفنان كما كان أدنى منه إلى المتوحش. لقد أخذ إنسان العصر الحجري الحديث يتشكل بالشكل المطلوب، فكان يتدرب على ذلك منذ صباه ويتلقى النصح وتوجه إليه الأوامر والنواهي، فلم يكن مطلق الحرية في أن يكون من الأمور آراء مستقلة خاصة به، بل كان يلقن الأفكار تلقينا. كان واقعا تحت سلطان قوة جديدة من الإيحاء.

وليس التزود بالمزيد من الكلمات والإكثار من الإصغاء إلى الألفاظ زيادة للقوى العقلية فحسب، بل إن الكلمات في ذاتها مصدر خطر وقوة. وربما كان زاد إنسان العصر الحجري القديم من الكلمات مجرد أسماء لا غير. وكان يقف عند حد استعمالها فيما تدل عليه. ولكن إنسان العصر الحجري الحديث كان يفكر في تلك الكلمات، كان يفكر في عدد من الأشياء تفكيرا يخالطه قدر كبير من الارتباك اللفظي، فيؤدي به ذلك إلى استنتاجات عجيبة. واستطاع بفضل اللغة أن ينسج شبكة تضم أبناء جنسه بعضهم إلى بعض، وإن كانت تلك الشبكة قيدا يغل قدميه. كان الإنسان يربط نفسه بجماعات جديدة كانت بلا أدنى ريب أكثر اتساعا وأعظم كفاية، ولكن ذلك كلفه الشيء الكثير.

ومن أهم ما يجدر ذكره عن العصر الحجري الحديث هو الانعدام التام لذلك الحافز الفني الحر المباشر، الذي كان أعظم صفات رجل العصر الحجري القديم المتأخر. أجل إنا نجد لديه صناعات وفيرة، وبراعة بالغة وأدوات مصقولة وخزفًا ذات تصميمات تعتمد على العرف وتعاونًا في مختلف أنواع الأعمال، ولكنا لا نجد أي شاهد على قوة الابتداع الخلاقة الشخصية. لقد شرع الإنسان بكبت نفسه ويبدأ ذلك الطريق الطويل الملتوي العسير متجها إلى حياة ترمي إلى الخير المشترك، بكل ما فيها من تضحية بالدوافع والأهواء الشخصية، وهي الطريق الذي ما زال يسير فيه حتى اليوم.

---

(٤٥) الأساطير أو الرطازات Myths قصص متواترة عتيقة تدور حول الآلهة أو الأبطال وتفسر إحدى الحقائق أو الظواهر. (المترجم)

ثم تبدو في أساطير البشرية أشياء معينة مرة بعد أخرى: من ذلك أن إنسان العصر الحجري الحديث يتأثر تأثرا قويا بالثعابين – فلم تعد الشمس لديه هي كل شيء وحيثما انتشرت ثقافة العصـر الحجـري الحـديث انتشرت معها نزعة للربط بين الشمس والثعبان في الزخرفة والعبادات. وبلغ الأمر بهـذه العبـادة البدائيـة للثعبان أن انتشرت في النهاية خارج الأقاليم التي كان فيها للأفعى شأن يذكر وأهمية عملية خطيرة، في الحياة الإنسانية، ولكن لا شك أنه سيتضح لنا عندما يحدد آخر الأمر المركز الذي انتشرت منه أساليب الحياة فـي العصر الحجري الحديث أنه كان في أرض للأفعى وضوء الشمس فيها أعظم شأن.

(٦)
الأصول المعقدة للديانات

نشأت في أذهان الناس مع بدايات الزراعة مجموعة جديدة من الأفكار، وقد لاحظنا قبلا تلك العلاقة القديمة الوطيدة التي تربط البذار في الذهن البشري بالقربان والتضحية. ذلك أن البذار أخذ يصبح أهم الأحداث الاقتصادية، فكان من الطبيعي أن يربط الناس به أشد ما يخطر ببالهم من الأمور روعة ووقعا، وأي شيء أشد روعة من قتل رجل من الناس؟ وتتبع السير ج. ج فريزر تطور هذا الترابط، وواصل بينه وبين فكرة الأشخاص المخصصين للقربان الذين يقتلون في أوان البذار، وفكرة طبقة من الناس مطهرة تطهيرا خاصا يؤهلها لقتل هؤلاء الضحايا، وهي طبقة الكهنة، وفكرة "عشاء مقدس" أو وليمة طقوسية، تأكل فيها القبيلة أجزاء من جسم الضحية لكي تأخذ نصيبا مما للقربان من مزايا وتتقمص تلك المزايا أوثق تقمص.

من هذه البداية تطورت الديانات ذات القرابين الموسمية التي لا تزال بين ظهرانينا.

من كل هذه العوامل، ومن تقاليد الرجل الشيخ، ومن العواطف التي تحيط بالنساء من أجل الرجال وتحيط بالرجال من أجل النساء، ومن الرغبة في الهرب من العدوى والنجس، ومن الرغبة في القوة والنجاح بطريق السحر، ومن تقاليد التضحية في أوان البذار؛ ومن عدد آخر من العقائد والتجارب العقلية والأفكار الخاطئة، المماثلة لهذه التجارب والأفكار، أخذ شيء معقد ينمو ويترعرع في حياة الناس، وشرع في الوقت نفسه يضمهم بعضهم إلى بعض من الناحيتين العقلية والعاطفية في حياة وعمل مشتركين. هذا الشيء نستطيع أن نسميه الدين (Religion) ولفظ الدين باللغة الإنجليزية مأخوذ من الكلمة اللاتينية (Religare) ومعناها (الربط). لم يكن ذلك الشيء بالبسيط ولا المنطقي. بل كان طائفة معقدة مختلطة من الأفكار التي ينظر بها الناس إلى الكائنات والأرواح الآمرة والآلهة، ومن جميع ضروب "ما يجب وما لا يجب". وقد نمت الديانة كما تنمو كل مصلحة إنسانية. ويقيننا أنه اتضح للقارئ مما سبق بيانه أنه لم يكن في مقدور الإنسان البدائي – بله أسلافه القردة وأسلافه من الثدييات، أن يكون لديها أي فكرة عن الرب أو الدين، فلم يستطع ذهنه ولا قوى فهمه أن تصبح قادرة على تصور هذه الأفكار العامة إلا ببطء شديد. فالدين شيء نما مع الترابط الإنساني وعن طريقه، فقد كان الإنسان وما يزال يكشف عن "ا   ".

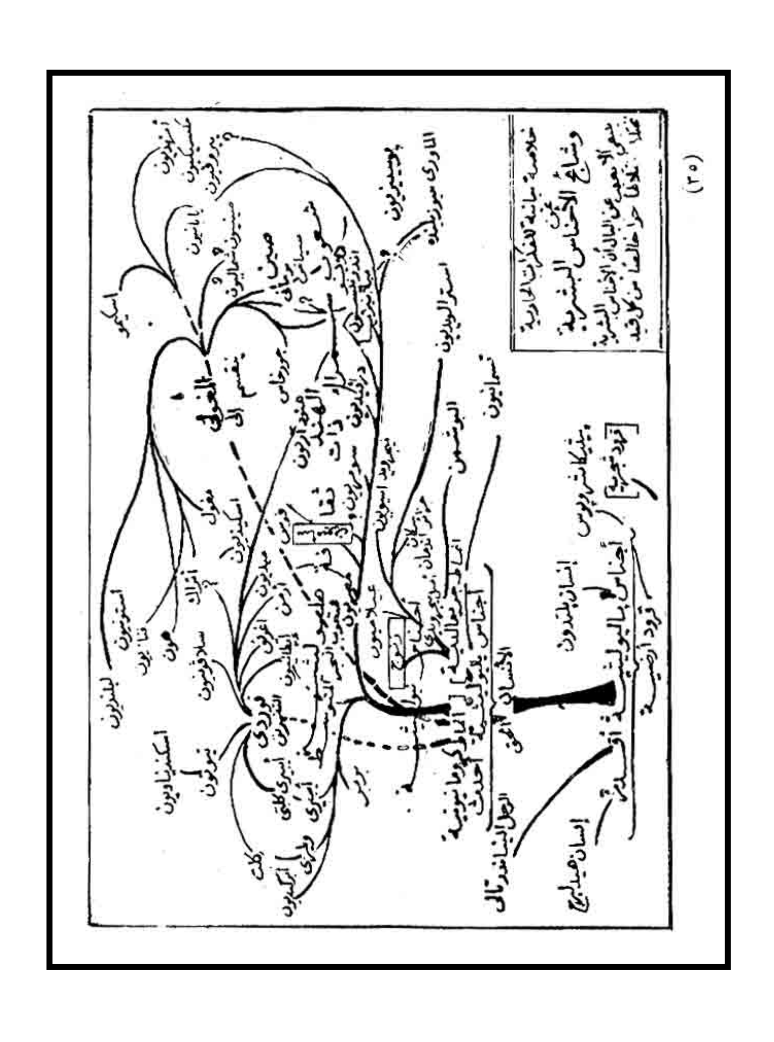
وكتابنا هذا لا يبحث في اللاهوت كما أنه ليس لنا أن ننزل إلى حلبة المناقشات اللاهوتية. ولكن واجب التاريخ الإنساني بل إن أوجب واجباته أن يصف كيف انبثق فجر الأفكار الدينية في ذهن الإنسان وكيف تطورت تلك الأفكار وما هو تأثيرها في نواحي نشاطه. فكل هاتيك العوامل التي لاحظنا، لا بد أنها قامت بنصيبها في إنتاج ذلك التطور. وقد ظل الكتاب المختلفون يؤكدون هذا العامل أو ذاك ويبررون أهميته. وكان السير ج. ج فريزر رائد من يقولون بأن الأصل في العشاء الرباني هو القرابين السحرية، أما جرانت ألن Grant Allen فقد نهج في كتاب "تطور فكرة الإله" منهج هربرت اسبنسر وقال: إن منشأ هذه الفكرة هو عبادة الرجل الشيخ بعد موته. ووجه السير أ. ب تايلور في كتاب "الثقافة البدائية" عناية خاصة إلى نزوع

الرجل البدائي إلى أن يعزو لكل شيء روحا: للحي والجماد على السواء. واسترعى المستر أ.إ. كرولي، الأنظار في كتابه "شجرة الحياة" إلى أسباب أخرى من الحوافز والعواطف، وإلى المسألة الجنسية بوجه خاص بوصفها مصدرا للانفعال العميق. على أن الأمر الذي ينبغي ألا يغرب عن بالنا، هو أن إنسان العصر الحجري الحديث لم يكن قد تطور تطورا عقليا كبيرا، وأنه كان من السهل أن يتبلبل فكره ويخرج عن المنطق إلى درجة لا يمكن أن ينحدر إليها رجل متعلم في هذه الأيام. وكانت الأفكار المتضاربة تستطيع أن تستقر جميعا في ذهنه دون أن تتحدى إحداها الأخرى، أو أن يحس بتناقض بينها، فتارة يتحكم هذا الأمر في أفكاره تحكما حادا شديدا، وتارة يتسلط عليه ذاك. وكانت مخاوفه وأفعاله لا تزال غير مرتبطة بعضها ببعض شأنها في ذلك شأن أفكار الأطفال اليوم.

لقد شرعت بشرية العصر الحجري الحديث وهي في حال التبلبل والارتباك، وتحت ضغط الحاجة الملحة واحتمال وجود التعاون والحياة الموحدة – تمد بصرها تلتمس الإرشاد والعرفان. وكان الناس أخذوا يدركون أنهم من الناحية الشخصية في حاجة إلى الوقاية والتوجيه والتطهر من النجاسة وإلى قوة تفوق ما لديهم من قوة. واستجابة لتلك الطلبة، أخذ كل جسور من الرجال وكل عاقل وكل داهية حصيف وكل ماكر مختال – أخذ هؤلاء يتحولون في شيء من الاضطراب القلق إلى سحرة وكهنة ورؤساء وملوك. وليس لنا أن نزعم أنهم كانوا من المخادعين المغتصبين للسلطان ولا أن نعد بقية الجنس البشري ضحية خداعهم، ذلك أن الناس جميعا مختلطو الدوافع، وإن مائة من الدوافع لتحفز الرجال إلى ابتغاء الرفعة على الآخرين، وليست كل هذه الدوافع وضيعة ولا شريرة. فكان السحرة يؤمنون عادة بسحرهم، كما كان الكهنة يؤمنون بطقوسهم، والرؤساء بحقهم. ومنذ ذلك الحين وتاريخ البشرية يكاد يكون كله محاولات عمياء لتكوين فكرة عن غاية مشتركة يستطيع كل الناس إذا اعتصموا بها أن يعيشوا عيشًا سعيدا، وأن يخلقوا وينموا وعيا مشتركًا وذخيرة من العرفان مشتركة قد تخدم تلك الغاية وتلقى عليها الضوء.

إن ظهور الملوك والكهنة والسحرة على هذا الضرب الهائل من الصور والأشكال، حدث في كافة أنحاء العالم في كنف ظروف العصر الحجري القديم المتأخر والعصر الحجري وكان أفراد من الناس يرغبون في كل مكان – إما عن نزعة شريفة أو غير شريفة – أن يحكموا وأن يوجهوا أو أن يكونوا هم السحرة الذين يوفقون بين أحوال المجتمع المختلطة المضطربة.


أوربا وآسيا الغربية
وإفريقيا الشمالية
في فترة الثلاجات الأخيرة
قبل ١٥ - ١٢ ألف سنة
(٢٤)



وحدث في العصر الحجري القديم المتأخر (الثاني) والعصر الحجري الحديث تطور غريب هـو التنكيـل بالنفس. إذ شرع الناس يقطعون أجزاء من أجسامهم بجدع الأنوف وصلم الآذان وجذم الأصابع ونزع الأسنان وما إليها، وأخذوا يعلقون على هذه الأعمال كثيرا من مختلف الأفكار الخرافية. ويمر الكثيرون من الأطفـال اليوم، في دور مشابه لهذا أثناء تطورهم العقلي. فقد تمر بمعظم البنات الصغيرات في حياتهن مرحلة يجـب ألا يتركن فيها بمفردهن ومعهن مقص خشية أن يقصصن به شعورهن. وما من حيوان يفعل شيئًا مـن هـذا القبيل، وهذا أيضا أمر بقيت آثاره في منسك الختان في الديانتين اليهودية والإسلامية.

وإن سمة البساطة والتجرد من الهوى والوصول إلى القصد من أقصر طريق عند المصورين على الصخور في العصر الحجري القديم التأخر، لترضي عواطف الكبار في هذه الأيام أكثر مما ترضيهم عقلية رجال العصر الحجري الحديث الذين يرهبون الشيخ العجوز، بعد أن تطور فأصبح للقبيلة ربا وبعد أن امـتلأ عقلـه بأفكـار الاسترضاء بالتضحية والتنكيل والقتل بالسحر. ولا سبيل إلى الشك في أن قانص غزال الرنة كان صيادا قاسي الفؤاد كما كان مخلوقًا محاربا حاد الطبع، بيد أنه كان يقتل لأسباب لا يعسر علينا اليوم فهمها. أما رجل العصر الحجري الحديث فقد دفعه تيار الكلام، وجرفته عملية تفكير مبلبل إلى أن يقتل على أساس النظريات، فكان يقتل من أجل أفكار فظيعة وحشية لا نستطيع أن نصدقها اليوم، بل كان يقتل من يحـب مـدفوعا بعامـل الخـوف والتوجيه. ولم يكن رجال العصر الحجري الحديث يكتفون بتقديم القرابين البشرية وقت البذر، بل إن لدينا أسبابا قوية تحملنا على الظن بأنهم كانوا يقدمون الزوجات والأرقاء قربانًا عند دفن رؤسائهم. وأنهـم كـانوا يقتلـون الرجال والنساء والأطفال كلما ألمت بهم بعض محن الدهر ظانين أن الأرباب ظماء عطاش. وانتقلت كل هـذه الأشياء إلى العصر البرونزي، وكان "الوعي الاجتماعي" حتى ذلك الوقت من تاريخ الإنسانية في غفوة. ولكـن غفوته لم تخالطها أية أحلام. على أنه قبل أن يسيقظ أخذ ينتج الأحلام المزعجة.

وقد يعود المرء بالذاكرة إلى أوان سحيق يتجاوز فجر التاريخ قبـل ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ سـنة خلـت فـي مرتفعات "ويلتشير" في وقت السحر من أحد أيام منتصف الصيف. وقد أخذت نيران المشاعل في الشـحوب أمام الضوء المتزايد. ثم تطوف بخيال الإنسان فكرة غامضة عن موكب يسير في الطريق الحجري، موكـب من كهنة ربما كانوا في ثياب غريبة المنظر من الجلود والقرون وأقنعة منقوشة نقوشًـا مروعـة، وليسـوا بالشخصيات الملتحية الوقور المرتدية الثياب، (وهي الهيئة التي يمثل بها الفنانون ما كان عليه الدرويد) [٤٦]. وفي الموكب رؤساء في جلود مزينة بعقود من الأسنان وهم يحملون الرماح والبلطات وعلى رءوسهم شـعر أثيث غزير تمسكه دبابيس من العظام، وفيه أيضا نساء يكتسين بالجلود أو ثياب الكتان، وجمهور عظيم مـن رجال ذوي رءوس كثة الشعور وأطفال عراة، اجتمعوا من أماكن كثيرة سحيقة. والأرض بين الشوارع وتل سلبوري مرقطة بمخيماتهم، ويعم الجميع ضرب من الجذل الذي يحسه الناس في الأعياد. ومن بين صـفوف هذا الجمهور العظيم تسير الضحايا البشرية ذليلة كسيرة تقاد ولا معين لها وهي يبصرها شاخصة إلى المذبح البعيد المتصاعد منه الدخان، الذي عنده يقضى عليها لكي تجود المحاصيل وتتكاثر القبيلة.

فإلى هذه الغاية، تقدمت الحياة قبل ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف خلت من السنين، من منشـأها الأول فـي "مخاطِيات" السواحل المعرضة للمد والجذر.

---

(٤٦) الدرويد Druid: كاهن الكلت القدماء ببريطانيا وألمانيا. (المترجم)

الفصل الحادي عشر

الأجناس البشرية

١- ألا تزال البشرية تتفرع؟

٢- أهم الأجناس البشرية.

٣- الشعوب شبه السمراء البيضاء.

٤- ما يسمونه بالثقافة الحجرية الشمسية (الهليوليثية).

٥- هنود أمريكا.

(١)
ألا تزال البشرية تتفرع؟

لزام علينا أن نناقش في وضوح المعنى المقصود من عبارة كثيرا ما تستعمل بغير ما حرص ولا عناية وهي عبارة "الأجناس البشرية".

ولا بد أنه اتضح مما سبق بيانه أن الإنسان وقد انتشر ذلك الانتشار الواسع، وتعرض نتيجة لهذا الانتشار لفروق مناخية عظيمة، وطعم طعاما شديد التباين في أقاليم متباينة، وتعرض لهجمات أعداء مختلفين، كانت تحدث له لا محالة تعديلات وتفريعات محلية جسيمة. وقد لبث الإنسان كما لبثت كل أنواع الكائنات الحية الأخرى يجنح على الدوام إلى التفرع أنواعا عدة. فحيثما انقطعت جماعة من الناس في بعض الجزائر أو المحيطات وأنّي فصلتها الصحراوات أو الجبال عن بقية الإنسان، فلا بد أنها سرعان ما تبدأ في إنتاج خصائص خاصة بها وتكيف نفسها حسب الظروف المحلية. على أن الإنسان من الناحية الأخرى، حيوان جوال مغامر بطبعه لا تكاد تقف في وجهه حواجز لا يستطيع التغلب عليها.

ويقلد الرجال الرجال وينازلونهم ويتغلبون عليهم ويختلط أحد الشعوب بالآخر اختلاط الزواج والمصاهرة والتوالد. وقد ظلت مجموعتان من القوى تعملان جنبا إلى جنب طوال آلاف السنين، كانت إحداهما تنزع إلى تفريق الناس إلى عدد كبير من الأضرب والفروع المحلية، وتنزع الأخرى إلى إعادة مزج هذه الأضرب بعضها ببعض قبل أن يثبت منها نوع منفصل.

وربما تفاوت أثر مجموعتي القوى هاتين فيما غبر من الأيام. مثال ذلك أن إنسان العصر الحجري القديم ربما غلب عليه التجوال في مناكب الأرض، ولعله كان يتنقل في مساحات تفوق كثيرا ما كان ينتقل فيه إنسان العصر الحجري الحديث المتأخر. وكان لذلك أقل استقرارا في أي نوع من أنواع المأوى أو الوجار، إذ إن ممتلكاته التي تربطه بالأماكن أقل من ممتلكات الآخر، فكان القنص يضطره إلى أن يتتبع قنائصه. وربما قذفت به بعض الفصول العجاف مئات الأميال. فلعله تبعا لذلك اختلط بغيره اختلاطًا واسع النطاق جدا، ولم ينتج إلا قليلاً من السلالات المختلفة في الجزء الأكبر من العالم.

ثم أفضى ظهور الزراعة إلى إيجاد الترابط بين تلك المجتمعات الإنسانية التي نقلتها إلى الإقليم الذي تقوم فيه على أحسن وجه وبذا شدت من أزر التفرع. على أن الخلط والتفريع لا يعتمدان على مرحلة حضارية أعلى أو أدنى، فإن الكثير من القبائل المتوحشة تتجول الآن في مئات الأميال. على حين أن الكثيرين من القرويين الإنجليز في القرن الثامن عشر لم يتجاوزوا قط الثمانية أو العشرة أميال في بعدهم عن قراهم، لا هم ولا آباؤهم ولا أجدادهم من قبل. أما الشعوب التي تعتمد على الصيد فتنتقل في مساحات واسعة؛ فإقليم لبرادور مثلاً يقطنه آلاف قليلة من الهنود يتبعون القطيع العظيم الواحد من الكاريبو (الرنة الأمريكية) عند تجوله السنوي شمالاً ثم جنوبا طلبا للطعام. وهذا العدد القليل من الناس يشغل متسعا من الأرض يضاهي في

مساحته مساحة فرنسا. وكذلك تنتقل الشعوب الرحل في مساحات واسعة، إذ يقال إن بعض قبائل الكالموك[٤٧] تنتقل ما يقارب الألف ميل بين منتجعات الكلأ في الصيف والشتاء.

ومما يثبت هذه الفكرة فكرة أن إنسان العصر الحجري القديم كان رحيب المجال موزعا في كـل أنحـاء العالم توزيعا منسقًا وإن يكن قليل العدد، أن بقايا العصر الحجري القديم التي نجدها في كل مكـان متماثلـة تماثلاً يبعث على الدهشة. وفي ذلك يقول السير جون إيفانز "إن الآلات التي وجدت في البلاد البعيدة قد بلـغ من تماثلها مع النماذج البريطانية في الهيئة والخصائص حدا نستطيع أن نقول معه إنها من صنع يد واحـدة. فقد كشفت على ضفاف النيل على علو مئات من الأقدام عن مستواه الحالي آلات من الطراز الأوربي. علـى حين جمع المستر سيتون كار من بلاد الصومال في وادي نهر عتيق على ارتفاع كبير من سطح البحر، عددا كبيرا من الآلات مصنوعة من الظران والكوارتزيت يخيل إلينا من شكلها وخصائصـها أنهـا رفعـت مـن الرواسب السطحية لنهر السوم ونهر السين والتاميز أو السولنت القديم".

ولعل أدوارا من الانتشار والتخالط قد تعاونت مع أدوار من الاستقرار والتخصص في تـاريخ البشـرية. على أن البشرية إلى ما قبل مئات قليلة خلت من السنين كانت في أكبر الظن تتفرع تفرعا إجماليا منذ نهايـة العصر الحجري القديم على الأقل. لقد تفرع النوع في تلك المدة إلى عدد كبير جدا من الأضرب، عاد الكثير منها فامتزج بأخرى انتشرت وحدث فيها تمايز آخر أو انقرضت. وحيثما كان الفرق في الظـروف شـديدا ملحوظًا وحائلاً دون التخالط، فإن المرء يكاد يكون مضطرا أن يفترض أن لا بد من ظهور ضرب جديد من الجنس البشري، ولا يداخلنا أدنى ريب في ظهور عدد عظيم من أمثال هذه الأضرب المحلية.

وهنالك في أحد زوايا العالم البعيدة في تسمانيا، ظل جيل من الناس منعزلاً عن العالم في مرحلة العصـر الحجري القديم الأول حتى تم اكتشاف تلك الجزيرة على يد الهولنديين في ١٦٤٢. ومما يؤسف له أنهم اليوم قد بادوا. فقد مات آخر تسماني في ١٨٧٦. وليس ببعيد أنهم ظلوا في عزلة عن سائر البشرية طوال خمـس عشرة أو عشرين أو خمس وعشرين ألفًا من السنين.

ولكن من العوائق الكثيرة الحائلة دون التخالط، حواجز رئيسية أمثال المحيط الأطلنطي ومرتفعـات آسـيا الوسطى وبحارها البائدة اليوم وما أشبهها، وهي التي ظلت آمادا طويلة من الزمان تعزل مجموعات عظيمة من الأضرب البشرية عن مجموعات أخرى عظيمة. وما عتمت هذه المجاميع المنفصلة أن أنتجت في زمان سحيق أوجه تشابه وتباين إجمالية معينة، وجل ضروب الناس في آسيا الشرقية وأمريكا – وإن لـم يكونـوا كلهم – يشتركون في أن لهم جلودا، ضاربة إلى الصفرة الخفيفة وشعرا أسود مستقيما ولهم في الغالب عظام وجنات ناتئة. وغالب شعوب السكان الأصليين في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى – وإن لم تكن كلها – لها جلود سوداء أو مسودة، وأنوف مفرطحة وشفاه غليظة، وشعر جعد مفلفل. وفي شمال أوربا وغربهـا عـدد كبير من الناس ذوو شعر أشقر وعيون زرقاء وبشرة مشربة بالحمرة. وهناك حول البحر المتوسـط تنتشـر

---

(٤٧) أو الكالمك: شعب من المغول هاجروا من آسيا الوسطى في القرن السابع عشر إلى حوض الفولجا الأدنى. يؤمنون بتعاليم بوذية اللاما – وقد شتتوا بعد الحرب العالمية الثانية. (المترجم).

شعوب ذات بشرة بيضاء وعيون سوداء وشعر أسود. وكأني بهؤلاء الشعوب "البيض الـداكنين" كتلـة مـن الناس تنتقل في تدرج يكاد يكون غير محسوس شمالاً وشرقًا وجنوبا، متغلغلة في الشعوب البيض والصـفر الأكبر تخصصا وفي السود المباينين لهم. والشعر الأسود في الكثير من هؤلاء البيض الداكنين مستقيم، ولكنه لا يصل قط إلى ما عليه شعر الشعوب الصفراء من قوة وعدم تموج. وهو أشد استقامة في الشرق منه فـي الغرب. ونحن نجد في جنوب الهند شعوبا ضاربة إلى السمرة وأخرى أدكن لونًا، لها شعر أسـود مسـتقيم، وهذه مع اتجاهنا شرقًا تخلي مكانها لشعوب صفراء تتزايد صفرتها وضوحا.

وهناك في جزائر متناثرة وفي جزيرتي بابوا Papua وغانة الجديدة مجموعة أخرى من الشعوب السوداء والضاربة إلى السمرة أدنى مرتبة وذات شعر مجعد.

على أنه يجب ألا يغرب عن الخاطر أن هذه إنما هي تعميمات محاولة فضفاضة. فإن بعـض المنـاطق وبعض الجيوب المنعزلة في المنطقة الآسيوية، ربما احتوت أجناسا أقرب شبها إلى من في المنطقة الأوربية. كما أن بعض المناطق الأفريقية قد تكون أقرب إلى النسق الآسيوي وأبعد من النسق الأفريقي الخاص. فنحن نجد في اليابان جنسا مموج الشعر ميالاً إلى شقرة البشرة مشْعرها، هو جنس الأينو Ainu. وهو أقرب شبها إلى الأوربيين في نسق الوجه ممن يحيط به من اليابانيين الصفر. ولعله جيل من البيض انحرف طريقـه أو لعله شعب مميز قائم بذاته. وإنا لنجد قوما بدائيين من السود في جزائر إندامان وهي بعيدة بعدا سحيقًا عـن أستراليا، وبعيدة بعدا سحيقًا عن أفريقيا. وهناك قبس من أقحاح "أشباه الزنوج" يمكن تتبعه في جنوب إيـران وفي بعض أجزاء الهند. وهم أشباه الزنوج Negroids الآسيويون.

ولا يكاد يقوم برهان على أن كافة القوم السود من الأستراليين وأشباه الزنوج الآسيويين والزنوج يتفرعون عن أصل واحد، وكل ما في الأمر أنهم عاشوا مددا مديدة تحت ظروف متشابهة. ولعـل أجنـاس الإنسـان الأكثر قدما كانت كلها داكنة اللون أو سوداء وأن الشقرة شيء جديد. وينبغي لنا ألا نفتـرض أن الكائنـات الإنسانية في المنطقة الآسيوية الشرقية كانت تتفرع بأجمعها في اتجاه واحد. وأن جميع الكائنات الإنسانية في أفريقيا كانت تتفرع في اتجاه آخر. حقًا إن تيارات الاتجاهات كانت عظيمة، ولكن كانت هناك أيضا منـاطق تخلف راكدة ومناطق دوامات قلابة وتمازجات لا تلبث أن تخالطها تمازجات، ثم تسرب للأجناس من منطقة رئيسية إلى أخرى. بل الواقع أن خريطة ملونة لتبيان الأجناس في العالم لا يمكن أن تظهر فقط أربع مناطق عظيمة من الألوان، إذ لابد من تلطيخها بعدد كبير من الصبغات والظلال المتوسطة تكون بسيطة هـا هنـا وتكون مختلطة ومتراكبة هناك.

وعند حلول القسم الأول من العصر الحجري الحديث في أوربا – ولعل ذلك قبل عشرة آلاف أو عشـرين ألف سنة خلت أو ما يقاربها – كان الإنسان الحقيقي Homo Sapiens يتمايز وتفرع في كل أرجاء العـالم وكان قد تفرع آنفًا إلى عدد من الأضرب. على أنه لم يتفرع قط إلى أنواع مختلفة. أما النوع الوحيد الآخـر من أنواع الإنسان وهو النياندرتالي فقد أبيد قبل ابتداء التاريخ. ولزام علينا أن نتذكر أن النوع Species في لغة علم الأحياء يميز عن الضرب Variety على أساس كون الأضرب تستطيع التوالد فيما بينها. على حين أن النوع إما أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك وإما أن ينتج نسلاً يكون كالبغال عقيما. والجـنس البشـري كلـه يستطيع التزاوج والتوالد ويستطيع أن يتعلم فهم اللغة الواحدة، ويستطيع أن يكيف نفسه ويتعـاون. زد علـى ذلك أن الإنسان في العصر الحاضر لا يتمايز أصالة في أغلب الظن. فإن التمازج المتكرر هـو الآن قـوة أعظم كثيرا من التمايز والتفرع. فالناس يمتزجون أكثر فأكثر. والجنس البشري من وجهة نظر علماء الأحياء نوع حيواني في حالة تفرع (تمايز) موقوف وقد يكون في حالة اختلاط جديد.

(٢)
أهم الأجناس البشرية

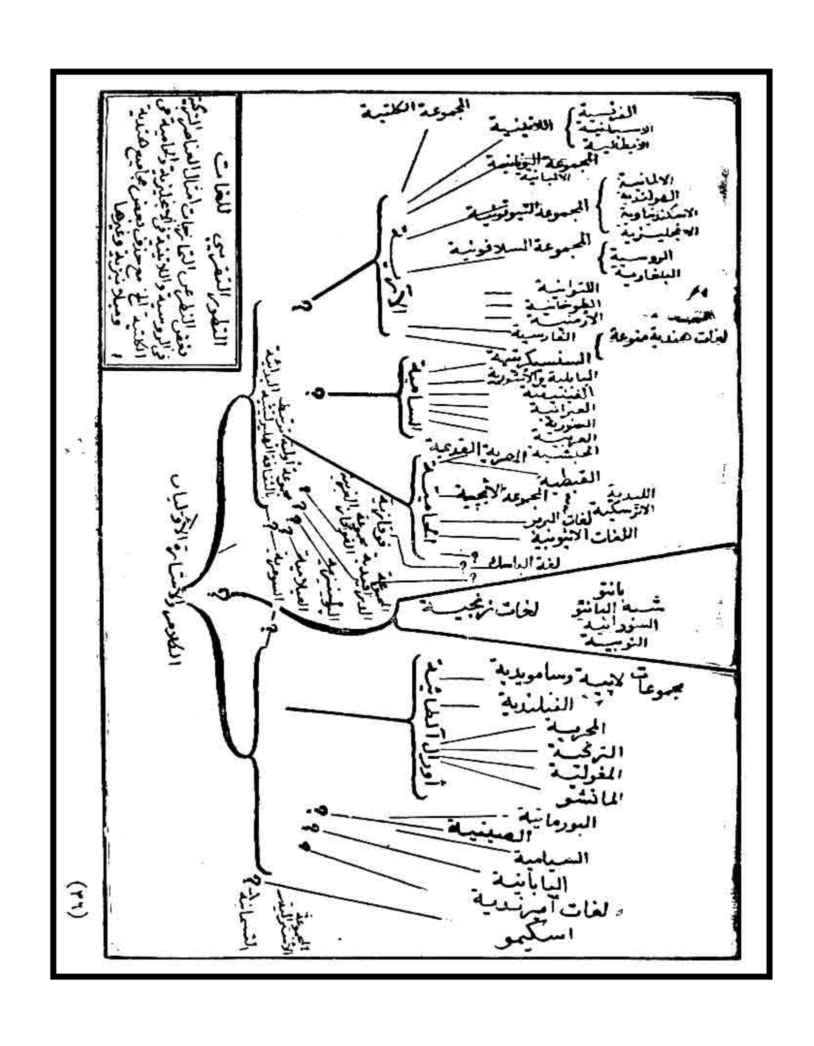
لم يحدث إلا في الخمسين أو الستين سنة الأخيرة أن أخذ الناس يعتبرون الأضرب الإنسانية مجموعة معقدة من التفريعات وقفت حديثًا أو لا تزال تجري في مجراها. ومن قبل ذلك الأوان كان علماء البشرية – متأثرين عمدا أو عفوا بقصة نوح وفلك نوح وأولاد نوح الثلاثة سام وحام ويافث – يميلون إلى تصنيف الناس إلى ثلاثة أجناس كبيرة أو أربعة، وكانوا ميالين إلى أن يعدوا هذه الأجناس منفصلة بعضها عن بعض منذ الأزل لانحدارها من أسلاف منفصلين في الأصل، ومن ثم تجاهلوا الاحتمالات العظيمة للأجناس الممزوجة وللانعزالات والتغيرات المحلية الخاصة. ولقد تبدل التصنيف تبدلاً جسيما، ولكن الناس سارعوا إلى افتراض أن الجنس البشري لا بد أن يكون قابلاً تمام القبول للتجزئة إلى ثلاث مجموعات رئيسية أو أربع. ولقد وقعت بين علماء الأجناس البشرية منازعات محزنة حول عدد جم من الشعوب الصغرى، وهل هم من هذا الجنس الأولي أو ذاك، أو هم مهجنون أو هم من الأشكال الشاردة القديمة أو من غيرها. على أن الأجناس جميعا مختلطة على درجة تتفاوت. وهناك لا شك أربع مجموعات رئيسية، ولكن كلاً منها في حد ذاته، كشكول مجمع. وهناك، فئات صغيرة لا تنطوي تحت أي من الأربعة.

وإنا لنجد في تقسيم الأجناس إلى هذه المجموعات الأربع تيسيرا للبحث إلى حد ما على شريطة أن نراعي هذه التحفظات السالفة الذكر وأن نفهم في وضوح أننا إذا تحدثنا عن هذه المجموعة الرئيسية لا نقصد بها أجناسا بسيطة نقية، بل مجموعات من الأجناس. ففي منطقة أوربا والبحر المتوسط وغرب آسيا، شعوب بيضاء تسمى عادة بالقوقازيين. كانوا ولا يزالون هناك طوال آلاف من السنين، ويتفرعون إلى قسمين فرعيين أو ثلاثة أقسام فرعية هي الشقر الشماليون أو الجنس النوردي، وجنس آخر متوسط يدعي البعض وجوده ويشك فيه كثير من الثقات وهو ما يسمونه بالجنس الألبيني. ثم بيض الجنوب الداكنون، وهم جنس البحر المتوسط أو الجنس الأبيري. وتعم شرق آسيا وأمريكا مجموعة ثانية من الأجناس، هي المغول ولهم في عمومهم جلود صفراء وشعر أسود مستقيم، وأجساد قوية. وعلى أرض أفريقيا ينتشر الزنج، وفي إقليم أستراليا وغانا الجديدة الأستراليديون السود البدائيون. تلك مصطلحات تيسر الأمر علينا، على شريطة أن يوقر الدارس في ذهنه أنها ليست مصطلحات محددة تحديدا مضبوطًا. وإنما هي تمثل فقط الخصائص المشتركة لمجموعات معينة من الأجناس، وهي تسقط من حسابها عددا من الشعوب الصغيرة لا ينتمون بالضبط إلى أي واحدة من هذه الشعب وهي تغفل المزج المتواصل الذي تتراكب فيه المجموعات الرئيسية إحداها فوق الأخرى.

وبعد هذا هل نقسم الجنس "القوقازي" قسمين فرعيين رئيسيين أو ثلاثة؟ والجواب أن هذا يتوقف على ما نعزوه إلى بعض الفروق في الهيكل العظمي، وعلى الأخص في شكل الجمجمة من قيمة في التصنيف. وسيلتقي الدارس في قراءاته المقبلة بإشارات مستمرة إلى الشعوب المستديرة الجمجمة (Brachycephalic) والمستطيلة الجمجمة (Dolichocephalic). نعم إنه ما من جمجمة ينظر إليها من أعلى إلا تكون غير تامة الاستدارة، ولكن بعض الجماجم وأعني بها المستطيلة أكثر استطالة بكثير من غيرها. فإذا كان عرض الجمجمة معادلاً أربعة أخماس طولها من الخاف إلى المقدم أو أكثر، سميت تلك الجمجمة مستديرة؛ وإن كان قدر العرض أقل من أربعة أخماس الطول عدت الجمجمة مستطيلة.

وعلى حين يعد بعض علماء السلالات البشرية الفارق بين الجمجمة المستديرة والجمجمة الطويلة فارقًا عظيم الأهمية، فإن هناك مدرسة أخرى لا يسع المؤلف إلا أن يعترف بأنها قد استولت على لبه تمام الاستيلاء، لا تقر هذا المميز وتعده مجرد مميز ثانوي. إذ يلوح في أغلب الظن أن أشكال جماجم شعب من الشعوب قد تختلف بتأثير بعض الظروف الخاصة في مدى أجيال قليلة نسبيا.

وشاهد ذلك ما يقوله سير ف. بيتري من أن "جمجمة اللومبارديين قد تغيرت من الجمجمة المستطيلة إلى الجمجمة المستديرة في بضع مئات من السنين"، ويدعى بوز Boas أنه أثبت أن أشكال جماجم المهاجرين إلى الولايات المتحدة تتبدل في جيل واحد. ولسنا ندري شيئًا عن المؤثرات التي تغير شكل الجمجمة، كما أننا لا نعرف لماذا كانت سلالات الإنجليز في إقليم دارلنج الأسترالي وهم الذين يسمون باسم "أعواد الذرة" يزداد طولهم زيادة غير مألوفة، ولماذا يلوح أن الناس في نيو إنجلند تصغر عظام فكهم قليلاً، ومن ثم تصبح أسنانهم متزاحمة بعض التزاحم. وإنا لنجد الجماجم الطويلة والمستديرة في المخلفات الواحدة حتى في أزمنة العصر الحجري الحديث وكثيرا ما تكون مدفونة بعضها مع بعض، وهذا يصدق على معظم الشعوب اليوم. وتزداد النسبة المئوية لذوي الرءوس المستديرة في بعض الشعوب كأهل الجبال في أوربا الوسطى، على حين أن بعضها الآخر كأهل اسكنديناوة يكثر فيهم ذوو الجماجم المستطيلة. وفي اسكنديناوة وبقايا العصر الحجري الحديث ببريطانيا، نجد أن أول القبور (روابي الدفن) كانت مقابر بكيمان مستطيلة ونجد أن المتأخرة منها مستديرة، والجماجم التي توجد في الأولى تكون عادة جماجم مستطيلة بينما الموجودة في الأخرى تكون في غالب الأحيان جماجم مستديرة. ولعل هذا يشير إلى تعاقب في الأجناس في أوربا الغربية إبان العصر الحجري الحديث، على أنه ربما أشار كذلك إلى تغير الغذاء أو العادات أو المناخ.



المجموعة الكلتية
اللاتينية
الفرنسية
الاسبانية
الايطالية
المجموعة اليونانية
الالبانية
المجموعة التيوتونية
الالمانية
الهولندية
الاسكندنافية
الانجليزية
المجموعة السلافونية
الروسية
البلغارية
الارمنية
الفارسية
لغات هندية متنوعة
السنسكريتية
البابلية والآشورية
الفينيقية
العبرانية
الحبشية
المصرية القديمة
القبطية
اللغات الانتونية
لغات البربر
لغات زنجية
البانتو
شبه البانتو
السودانية
النوبية
الفنلندية
المجرية
التركية
المغولية
المانشو
البورمانية
الصينية
السيامية
اليابانية
لغات أمريندية
اسكيمو


مهد
الحضارة الغربية
٦٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ قبل الميلاد
غابات
صحراوية
ماء
أرض خصبة
سهوب
ارتفاعات جبلية
بلاد العرب
زنوج
الحيثيون
الليبيون

(٣٧)

على أن هذه الدراسة لأشكال الجماجم هي التي قادت الكثيرين من علماء الأجناس إلى تقسيم الجنس القوقازي لا إلى قسمين كما فعل هكسلي حين قسمه إلى: الشقر الشماليين والبيض الداكنين، بيض البحر المتوسط وشمالي أفريقيا الملقبين أيضا بشبه البيض brunet، بل إلى ثلاثة أقسام إذ جعلوا الشقر نصفين، يميزون في أحدهما طرازا أوربيا شماليا أشقر مستطيل الجمجمة هو النوردي، وفي الثاني جنس البحر المتوسط أو الأيبيري، وهو الأبيض الداكن الذي هو داكن الشعر مستدير الجمجمة. وبين هذين يتكشف لهم هذا الجنس الثالث ذو الرأس المستدير وهو الجنس الألبيني.

والمدرسة المضادة لهذا الرأي تعتبر الجنس الألبيني المزعوم مجرد عدد من أضرب محلية مستديرة الرأس من الشعوب النوردية أو الأيبيرية (البيضاء الداكنة). والشعوب الأيبيرية هي شعب العصر الحجري الحديث صاحب القبور المستطيلة. ويبدو لأول وهلة أنهم غلبوا على معظم أوربا وآسيا الغربية، وهم يتسلطون على التاريخ الأول. ثم يظهر الشعب النوردي فيما بعد، إذ نزح من الغابات ومن السواحل الغربية والوسطى لشمال أوربا وآسيا.

(٣)
الشعوب شبه البيضاء أو السمراء[٤٨]

حظي قسم البحر المتوسط أو الشعبة الأيبيرية من الجنس القوقازي بمجال أوسع في الأزمان القديمة، وكان طرازه أقل من النوردي تخصصا وتميزا. ومن العسير جدا أن نعين الحدود الجنوبية التي تفصله عن الزنج أو نميز آثاره الأولى في آسيا الوسطى ونستبينها من آثار المغول الأولى. ويقول ويلفرد سكاون بلنت إن هكسلي "قد طالما زعم أن للمصريين وللدرافيديين الهنود أصلاً مشتركًا، ربما كون نطاقًا مديدا من أناس ذوي جلدة سمراء قاتمة brown skinned تمتد من الهند إلى إسبانيا في أيام موغلة في القدم".

والواقع أن هذا النطاق الذي يراه هكسلي، المكون من بيض داكنين ومن أناس سمر قاتمين، هذا الجنس المكون من قوم تغلب على لونهم السمرة القاتمة والسمرة، انتشر حتى تجاوز أرض الهند. فقد وصلوا إلى شواطئ المحيط الهادي. وكانوا في كل مكان حلوا به أصحاب ثقافة العصر الحجري الحديث الأصليين ورواد ما نسميه "المدنية". ولعل هؤلاء الشعوب، هم الشعوب الأساسية الذين قامت عليهم شعوب عالمنا الحاضر، إن جاز لنا مثل هذا القول. وربما لم تزد الشعوب النوردية والمغولية على أن كانت فرعا شماليا غربيا وآخر شماليا شرقيا من ذلك الجذع الرئيسي وربما كان الجنس النوردي فرعا منها، على حين أن الجنس المغولي –شأنه في ذلك شأن الجنس الزنجي – ربما كان جذعا آخر معادلاً للأول متميزا عنه، التقى به السمر القاتمون والسمر واختلطوا به في جنوب الصين. أو ربما كانت الشعوب النوردية كذلك، قد تطورت على حدتها من مرحلة من مراحل العصر الحجري القديم. ويلوح أن جريفث تايلور يظن أن الطراز المغولي تطور منبثقًا مما يسميه طرازا آريا كان هو الأساس المشترك لكلا الجنسين المغولي والنوردي. ولا تزال هذه كلها موضوعات تتضارب فيها الأقوال. وربما ظلت مطروحة للبحث أعواما كثيرة.

ولقي المستر هورابين والمؤلف بعض العناء في وضع رسم إيضاحي يلخص كل هذا الموضوع المتعلق بالأجناس البشرية، ثم استنبطنا آخر الأمر رسما – يمكن بالنسبة لأوربا وآسيا وأستراليا وشمال أفريقيا، أن يطبق على خريطتها أو يكاد. ونحن نورد شجرة نسب تبين صلات الدم بين الإنسان والأنواع الرئيسية شبه الإنسانية.

ثم إننا حشرنا فيها ملحوظة، إن جاز لنا استعمال هذا القول، عن الطرازين الكرومانيوني والجريمالدي وهي تعتمد على فروق، ربما بالغ الناس فيها، تقوم بين بعض هياكل أناس العصر الحجري القديم في أوربا. وللعظام الجريمالدية ملامح شبه زنجية أي نجريدية. فهي تومئ إلى جنس أشبه بجنس البسكوب البدائي من الشعوب الكرومانيونية الشبيهة بالهنود الحمر. وليس ببعيد أن جنسين عظيمين كانا يجوبان نفس المنطقة الواحدة أحدهما هو الجنس الأبيض الأصفر الأول (Proto – Yellowhite) والآخر الجنس شبه الزنجي

([٤٨]) الأسمر Brunet تستخدم عادة كنقيض "للأشقر" للدلالة على إنسان أبيض ولكنه أسود العينين والشعر.

الأول (Proto – Negroid) وسيلحظ القارئ وفاقًا لهذا أن الجنسين الزنجي وشبه الزنجي يرسمان في بادئ الأمر متفرعين من الجذع الرئيسي، وبينا يمثل البيض الداكنون القسم الغالب من الإنسانية، يبين لك الرسـم فرعين من شعوب يسيران في اتجاهين منفصلين، فيسير أحدهما إلى الغابات الشمالية، ويسير الآخـر نحـو رمال آسيا الشرقية التي تذروها الرياح، لكي يتطور من أولهما الجنس النوردي، ومن الثاني الجنس المغولي.

وإذا نظر القارئ مرة ثانية إلى الفقرة السابقة وجد أنه يستطيع أن يحصل على مجال اختيار واسع إذا هو غير النقطة التي يخرج منها أحد هذين الفرعين من الفرع الرئيسي، أي الجذع الأسمر Bruner. ولسنا نريد أن يفهم من هذا القول أن أحدا من هذين الجنسين النوردي والمغولي ظل تام "النقـاء" مـع جـواز اسـتثناء الإسكندناويين والإسكيمو. وتعود الفروع في رسمنا البياني فتقابل فروعا أخرى وتوحي إلينا وجود تمازج في الأجناس.

هذا إلى أن رسمنا الإيضاحي محلًى بعلامات الاستفهام. ولعله إذ يزود بهذه الحليات يقترب بك إلى حقيقة العلاقات العنصرية Racial بين الأجناس أكثر مما يستطيع أن يقربك منها أي تصـنيف للأجنـاس جامـد مضبوط.

(٤)

ما يسمونه بالثقافة الحجرية الشمسي[٤٩]

(الهليوليثية)

يرى إليوت سميث في كتابه (هجرات الثقافات الأولى[٥٠]) أنه قد وجد في بعض عصور التاريخ الإنساني طراز خاص من ثقافة العصر الحجري الحديث موزعا توزيعا شاسعا في العالم، يتصف بمجموعة من الظواهر تبدو لنا غريبة كل الغرابة ولا يحتمل أنها تطورت تطورا مستقلاً في أسقاع متفرقة من العالم بحيث تجبرنا على الاعتقاد بأنها كانت في الواقع ثقافة واحدة، انتشرت خلال كل الأقاليم التي كان يسكنها جنس البحر المتوسط الأسمر، وتجاوزته فاخترقت الهند إلى الهند الصينية ثم إلى شاطئ الصين الممتد على المحيط الهادي.

وانتشرت آخر الأمر، بعد أن اجتازت المحيط الهادي، إلى المكسيك وبيرو فكانت بذلك ثقافة ساحلية.

ذلك التطور العجيب في ثقافة العصر الحجري الحديث الذي سماه إليوت سميث بالثقافة الحجرية الشمسية، كان يتضمن كثيرا من العادات الغريبة التالية التي مارسوها، أو يتضمنها جميعا:

١- الختان.

٢- العادة الغريبة – عادة إدخال الوالد في الفراش عندما يولد له طفل وهي المعروفة بالنفاس الزائف (Couvade)

٣- استعمال التدليك.

٤- تحنيط الموتى.

٥- النصب الجندلية مثل ستون هنج (Stone Henge)

٦- التشويه الصناعي لرءوس الصغار بربطها بالعصابات.

٧- الوشم.

٨- الربط الديني بين الشمس والثعبان.

٩- ثم استعمال الرمز المعروف بالصليب المعقوف طلبا للحظ. وهذا الرمز العجيب الصغير يدور حول العالم في جذل وسرور، ويكاد يكون مما لا يصدقه العقل أن يخترعه الناس ويتخذوا منه حبيبهم الأثير مرتين متتاليتين.

---

(٤٩) Heliolithic Culture

(٥٠) Migrations of Early Culture

ويقفو إليوت سميث هذه العادات المترابطة بعضها ببعض كأنها العنقود المتراص في كل أرجـاء منطقـة البحر المتوسط والمحيطين العظيمين الهندي والهادي، فحيثما ظهرت إحداها ظهرت معظم العادات الأخرى. فهي تربط بريتاني إلى بورنيو وبيرو. على أن هذه العادات المترابطة لا تظهر في المواطن البدائية للشعوب النوردية أو المغولية، كما أنها لا تمتد جنوبا متجاوزة أفريقيا الاستوائية بكثير.

ولعل هذه الثقافة الحجرية الشمسية للعصر الحجري الحديث قد ظلت تتسرب هي وأصحابها الضـاربون إلى السمرة القاتمة في خلال آلاف من السنين امتدت من ١٥٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ ق. م حول الكرة الأرضـية خلال أقاليم العالم الأكثر دفئًا، وتجتاز بالزوارق البدائية متسعات من البحر كثيرا ما كانت عظيمـة. وكانـت آنذاك أرقى ثقافات العالم، وكانت دعامة لأطول المجتمعات عمرا وأعلاها تطورا، وربمـا كـان موطنهـا الأصلي كما يقول إليوت سميث إقليم البحر المتوسط وشمال أفريقيا.

ولقد هاجرت تلك الثقافة في بطء عصرا بعد عصر. ولا بد أنها كانت تنتشر صعدا في سـاحل المحـيط الهادي، وعلى الجزر التي كانت كأنها أحجار ترتكز عليها وتخطو منها إلى أمريكا بعد أن داخلتها تطـورات أخرى في مناطقها الأصلية. وقد كانت شعوب كثيرة في جزائر الهند الشرقية وميلانيزيا وبولينيزيا، لا تزال في مرحلة التطور الخاصة بالثقافة الحجرية الشمسية، عندما كشفهم الملاحون الأوربيون في القـرن الثـامن عشر. ويرجح أن أولى المدنيات في مصر وفي وادي دجلة والفرات، تطورت تطورا مباشرا عن هذه الثقافة الواسعة الانتشار. ولسوف نناقش فيما بعد هل كان للمدنية الصينية أصل غير هذه الثقافة؟

ويبدو أن الساميين الرحل في الصحراء العربية مروا كذلك في مرحلة الثقافة الحجرية الشمسية.

(٥)
هنود أمريكا

ينتسب سكان أمريكا الأصليون إلى الجنس المغولي، ويلوح أنهم وصلوا إلى أمريكا بطريق مضيق بهرنج في مرحلة مبكرة من مراحل العصر الحجري الحديث، ولا يزال بين القارتين حركة غدو ورواح في زوارق من الجلود.

ولعله قد وصل إلى أمريكا بعدئذ (وإن كان هذا لا يبرح إلى اليوم موضوع أخذ ورد بين علماء الأجناس) بطريق البحر عناصر جديدة من السكان وأفكار ثقافية في مستوى الثقافة الحجرية الشمسية.

فلو صح أن قد وجدت هذه العناصر الأخيرة في السكان، فهم إما لم يأتوا معهم بشيء من القمح، أو لعل القمح قد باد منهم. أما الأذرة، وهي حب العالم الجديد، فنبات يختلف اختلافًا تاما عن أي نبات معروف في العالم القديم. على أن الحياة الدينية للشعوب الأمريكية تظهر نفس الترابط بين فكرة البذار وبين التضحية بالإنسان وهو الترابط الذي عم حقبة العصر الحجري القديم بأسرها في العالم القديم.

وظلت القبائل الأمريكية في معظم أجزاء القارة في مستوى همجية العصر الحجري الحديث، وإذا كانوا يسيرون فوق أرض من العشب الموسمي، فإنهم أصبحوا رحلا يتتبعون الجاموس البري ويتعقبون في الشمال الأقصى الكاريبو: غزال الرنة الأمريكي. (ولم يوجد الحصان على القارة الأمريكية في جميع أدوار الحياة الإنسانية حتى أدخله الأوربيون). أما في الغابات المدارية فقد أصبح هنود أمريكا قناصين للطير والصيد الصغير. على أنهم في واحد أو اثنين من الأقاليم الخصيبة – كما سنلاحظ فيما بعد – أنشئوا نظاما اجتماعيا أكثر إحكاما، فقد رووا الأرض، وشادوا من الأحجار مباني هامة، زينت بنحت يمتاز بتصميمات بالغوا في رعايتها للأوضاع والعرف وزخرفوها في غالب الأحايين بأشكال غريبة وأسسوا المدن والإمبراطوريات.

الفصل الثاني عشر

لغات الجنس البشري

١- لا وجود للغة بدائية واحدة.

٢- اللغات الآرية.

٣- اللغات السامية.

٤- اللغات الحامية.

٥- اللغات الأورال آلتائية.

٦- اللغات الصينية.

٧- مجاميع لغات أخرى.

٨- ما يحتمل أن يكون مجموعة لغوية بدائية.

٩- بعض اللغات المنعزلة.

(١)

لا وجد للغة بدائية واحدة

هل كانت هناك لغة مشتركة لبني الإنسان جميعا؟ ذلك أمر مشكوك فيه كل الشك. ولسنا ندري شيئًا عن لغة إنسان العصر الحجري القديم، بل لسنا ندري هل كان إنسان ذلك العصر منطلق اللسان بالكلام أم لم يكن.

ونحن نعلم أنه كان لإنسان العصر الحجري القديم إحساس مرهف بالشكل والهيئة، وعلمنا ذاك مستنبط من رسومه، ولقد زعم بعضهم أنه كان ينقل أفكاره في غالب أمره بالإشارة والحركة. ومن المرجح أن الكلمات التي كان يستعملها الرجال الأولون كانت في الغالب، صيحات انزعاج أو انفعال، أو أسماء لأشياء جامدة، ولعلها كانت في كثير من الأحيان أصواتًا تقلد أصوات الأشياء المسماة أو هي مرتبطة بها. ويرى السير آرثر إيفانز أن لغة العلامات نشأت في أمريكا قبل الكلام، لأن لغة العلامات هذه مشتركة بين كافة الهنود في أمريكا الشمالية، على حين اختلفت اللغات فيما بينها.

وكانت اللغات الأولى فيما يرجح مجموعات صغيرة من حروف النداء والتعجب ومن الأسماء. وأكبر الظن أن الأسماء كان ينطق بها في نغمات صوت مختلفة للدلالة على المعاني مختلفة. فإذا كانت لدى رجل العصر الحجري القديم كلمة للحصان أو الدب، فمن المرجح أنه يظهر بنغمة الصوت أو الإشارة هل هو يعني: "الدب آت" أو "الدب ذاهب" أو سيصاد الدب" أو "الدب الميت" أو "الدب كان هنا" أو "فعل الدب هذا" وهكذا.

ولم يستحدث العقل الإنساني إلا بغاية البطء، وسائل للدلالة بطريقة شكلية على الحدث والعلاقة. وتحتوي اللغات الحديثة آلافًا كثيرة من الكلمات، على حين لم يكن في مستطاع اللغات الأولى أن تحتوي غير مئات قليلة. ويقال إن الفلاحين الأوربيين أنفسهم في هذه الأيام يستطيعون أن ينطلقوا في الحياة بقدر من الكلمات يقل عن الألف كلمة. ومن المقبول عقلاً أنه حتى في فترة العصر الحجري الحديث، لم يكن مجموع المفردات التي لديهم يزيد على هذا القدر. ومن المرجح أن الناس في تلك الأيام لم يكونوا يسترسلون في المحادثة أو الوصف. فإن كانت غايتهم قص الأقاصيص عمدوا إلى الرقص والتمثيل أكثر مما يقصون. ولم تكن لديهم طريقة للعد تتجاوز طريقة الدلالة على الاثنين بعدد مثنى وطريقة ما للتعبير عن الكثير.

والحق أن نمو الكلام كان في البداية عملية بطيئة جدا، كما أن الصيغ النحوية، والتعبير عن الأفكار المعنوية ربما ظهرت في التاريخ الإنساني متأخرة جدا، وربما كان ذلك منذ أربعمائة أو خمسمائة جيل خلت.

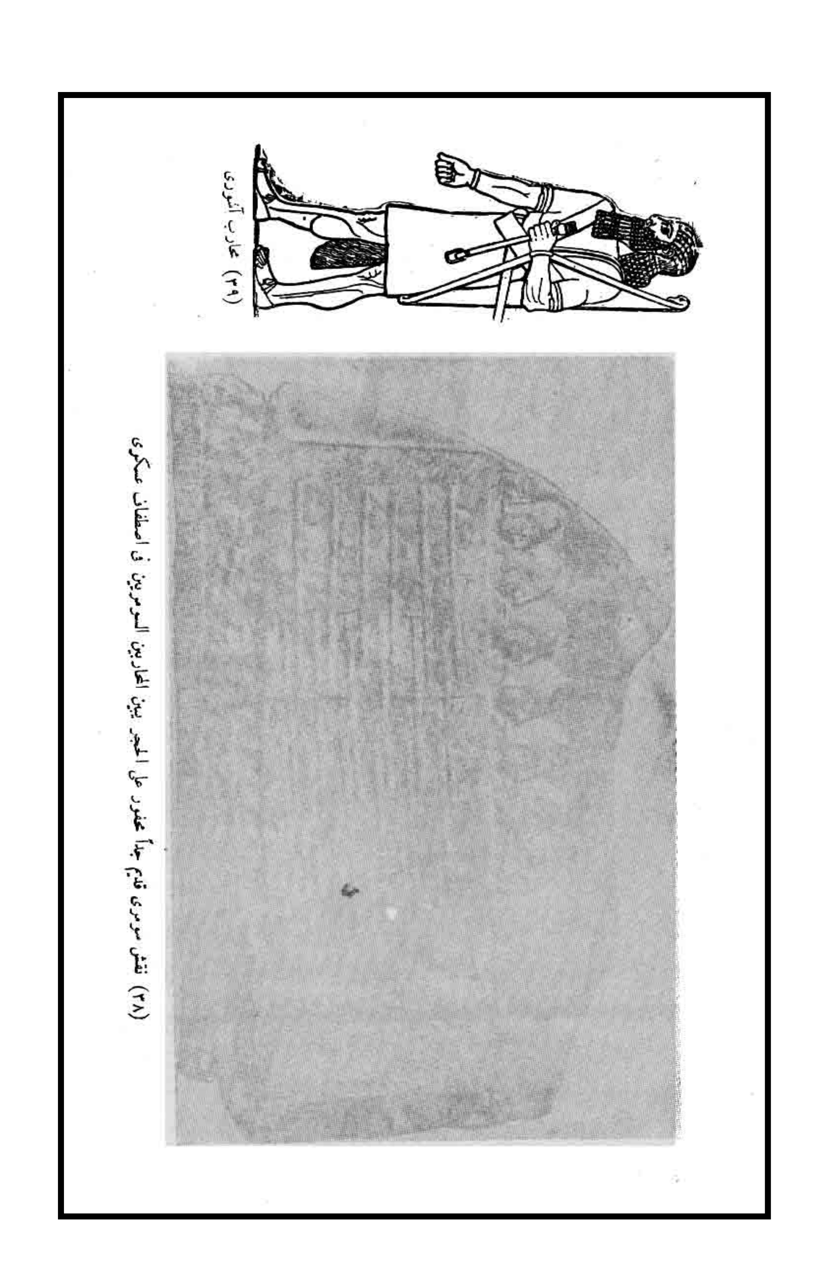
(٢)

اللغات الآرية

يحدثنا علماء اللغات، أنهم لا يستطيعون أن يتتبعوا بخطى المتيقن أي ظواهر مشتركة بين لغات البشرية بأسرها. فهم يجدون فوق مناطق واسعة مجموعات من لغات تنتظمها أصول متشابهة وطرائق متقاربة في التعبير عن الفكرة الواحدة. بيد أنهم يجدون بعد ذلك في مناطق أخرى لغات تبدو لهم مخالفة للأخرى أشد الاختلاف حتى قاعدة تركيبها الأساسي، تعبر عن الحدث والعلاقة بطرق بعيدة كل البعد بعضها عن بعض، ولها "نحو" قواعده متباينة كل التباين.

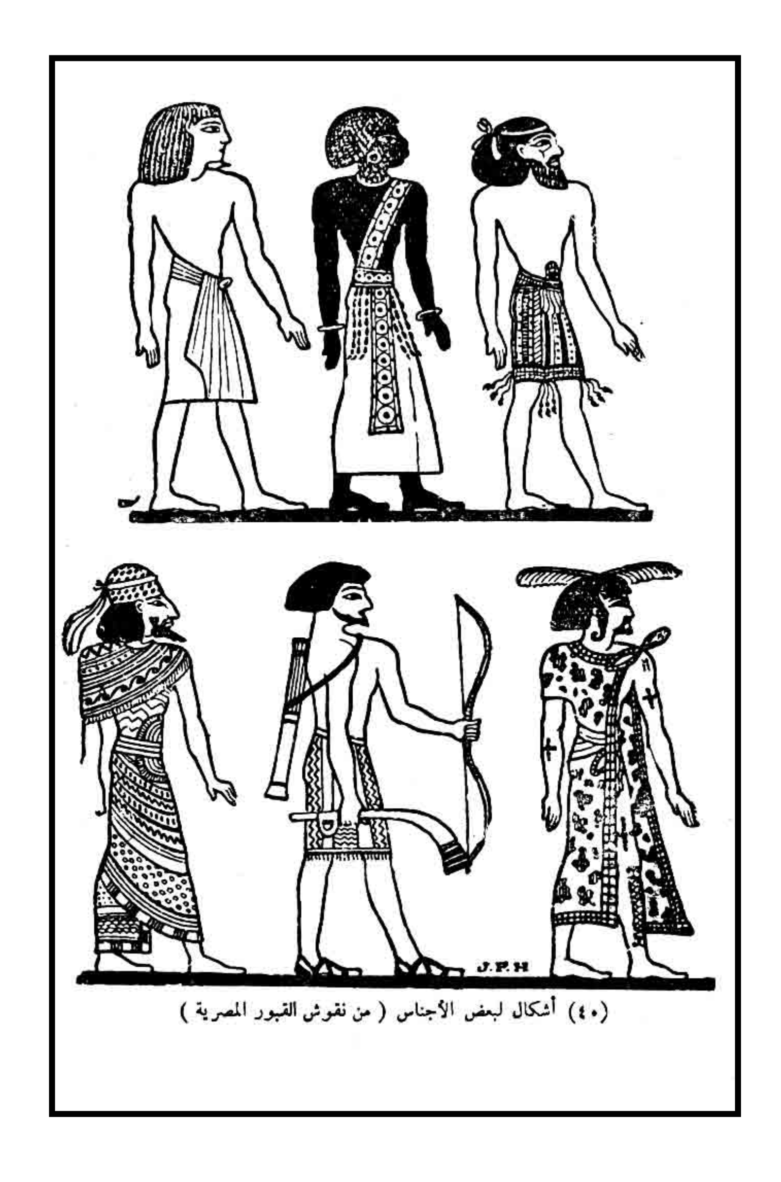
وهناك مجموعة عظيمة من اللغات تشمل كل أوربا تقريبا، ثم تمتد إلى الهند؛ وهي تتضمن اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية واليونانية والروسية والأرمنية والفارسية وألسنة هندية شتى. وهي تسمى بالعائلة الهندوأوربية أو الآرية. وفي إمكانك اقتفاء أثر أصولها الأساسية، أو أفكارها النحوية الواحدة، في كل أفراد هذه العائلة: خذ مثلاً كلمتي Mother, Father الإنجليزيتين تجدهما في الألمانية Mutter, Vater وفي اللاتينية Mater, pater وفي اليونانية Mater, Pater وفي الفرنسية Mere, Pere وفي الأرمنية Mair, Hair وفي السنسكريتية Matar Pitar. وعلى مثل هذه الشاكلة تنطق اللغات الآرية عددا كبيرا من الكلمات الأساسية مدخلة عليها مثل تلك التغيرات، فحرف "F" في اللغات الألمانية يصبح "P" في اللاتينية وهكذا. وهي تتبع في تغيراتها قانون جرم Grimm. والواقع أن هذه اللغات ليست لغات مختلفة، وإنما هي تغيرات ألمت بشيء واحد. والأقوام الذين يتكلمون هاته اللغات يفكرون بطريقة واحدة.

ففي زمن ما من الماضي السحيق يرجع إلى العصر الحجري القديم، أي قبل ثمانية آلاف سنة أو تزيد، ربما كانت هناك لغة أصلية بسيطة تفرعت منها كل هاته اللغات الآرية. وفي مكان ما بين أوربا الوسطى وآسيا الغربية لا بد أنه ضربت في الأرض قبائل بلغت حدا من الاختلاط ساعد على تطور لسان واحد واستعماله. ونحن نسميهم هنا باسم الشعوب الآرية من قبيل تيسير البحث. وقد سماهم السير هـ. هـ. جونستون باسم الروس الآريين، وهم ينتمون في الغالب إلى مجموعة الأجناس البيضاء وإلى القسم الفرعي الأشقر الشمالي من تلك المجموعة –أي الجنس النوردي.



(٣٨) نقش سومرى قديم جداً محفور على الحجر يبين المحاربين السومريين فى اصطفاف عسكرى

(٣٩) محارب آشورى



(٤٠) أشكال لبعض الأجناس (من نقوش القبور المصرية)

ولا بد لنا هنا من أن نحذرك من أمر. فقد جاء زمان كان علماء اللغات يجنحون فيه إلى الخلط بين اللغات والأجناس، وإلى الزعم بأن الشعوب التي كانت في وقت ما تتكلم لسانًا واحدا، لا بد أنها كانت كلها شعوبا من دم واحد. والواقع أن تلك ليست حقيقة الأمر، كما يدرك القارئ إذا هو فكر في زنوج الولايات المتحدة (فإنهم جميعا يتكلمون الآن الإنجليزية). أو فكر في الإرلنديين الذين لا يتكلمون لغة الإرس Erse القديمة إلا حين يرغبون في القيام بمظاهرة سياسية؛ أو فكر في أهل كورنوال الذين فقدوا لسانهم الكلتي القديم. ولكن كل ما تسديه إلينا اللغة المشتركة، إنما هو في تبيانها لنا أن تواصلا مشتركا قد وجد، وأن هناك احتمالا لحدوث التمازج. ولئن لم تشر اللغة إلى أصل مشترك فهي تشير على أقل تقدير إلى مستقبل مشترك..

ولكن حتى تلك اللغة الآرية الأصلية نفسها التي ربما كانت حديثًا ينطق به الناس عام (٦٠٠٠ أو ٥٠٠٠ ق.م) لم تكن البتة لغة بدائية، أو لغة شعب متوحش؛ إذ كان أقدم المتكلمين بها يتفيئون ظلال مرحلة مدنية العصر الحجري الحديث أو تجاوزوها، وكانت لها صيغ نحوية وطرائق لصياغة الأفعال على شيء من التعقيد: والراجح أن طرائق التعبير المندثرة الخاصة بشعوب العصر الحجري القديم المتأخر والأزيليين أو الخاصة بشعب مزابل المطبخ للعصر الحجري الحديث المبكر مثلاً، كانت أشد فجاجة وسذاجة من أقدم صور اللغة الآرية وأبسطها.

والراجح أن مجموعة اللغات الآرية أصبحت قائمة بذاتها متميزة عن غيرها في إقليم فسيح أنهاره العظمى هي الدانوب والدنيبر والدون والفولجا، وهو إقليم يمتد شرقًا إلى ما وراء جبال أورال شمال بحر قزوين. وأكبر الظن أن المنطقة التي كان المتكلمون بالآرية يمشون في مناكبها استمرت زمانًا طويلاً لا تمتد إلى المحيط الأطلنطي أو إلى جنوب البحر الأسود فيما وراء آسيا الصغرى. ولم يكن هناك حينذاك انفصال فعلي بين أوربا وآسيا عند البوسفور. وكان نهر الدانوب يسير شرقًا ويفضي إلى بحر عظيم كان يجتاز إقليم الفولجا الذي يقع في جنوب شرق الروسيا، ويمتد حتى التركستان؛ وكان من أجزائه البحر الأسود وبحر قزوين وبحر آرال الحالية. وربما كانت تمتد منه خلجان إلى المحيط المتجمد الشمال. ولا بد أنه كان إلى حد ما حائلاً فعالاً بين المتكلمين بالآرية وبين سكان آسيا الشمالية الشرقية. وكان يمتد إلى الجنوب من هذا البحر ساحل مستمر يسير من البلقان إلى أفغانستان. وإلى الشمال الغربي منه كان ثمة إقليم من المستنقعات والبرك الساحلية يمتد حتى يصل إلى بحر البلطيق.

(٣)
اللغات السامية

ويميز علماء اللغات بعد اللغة الآرية مجموعة أخرى من لغات تبدو كأنما تكونت بمعزل تام عن اللغـات الآرية، وهي اللغات السامية. ومن هذه اللغات العبرية والعربية وهما متصلتا اللحمة، ولكن يلـوح أن لهمـا مجموعة من الكلمات الأساسية مختلفة عن اللسان الآري. فهما يعبران عن الأفكار الخاصة "بالعلاقة" بطريقة مخالفة. والأفكار الأساسية التي يقوم عليها نحوهما مختلفة. فهما على أرجح التقديرات من صنع مجتمعـات إنسانية بعيدة كل البعد عن الاتصال بالآريين الأصليين، صنعتهما تلك المجموعات على حدة وعلى أساس من الاستقلال.

فاللغات العبرية والعربية والحبشية والآشورية القديمة والفينيقية القديمة، وعدد من الألسن المرتبطة بهـا، تُضم بعضها إلى بعض بوصف كونها مشتقة من تلك اللغة الأولية الثانية التي يسمونها السامية.

وإنك لتجد في أقدم بدايات التاريخ المدون – أي إبان ٤٠٠٠ ق. م – وقبل ذلك، شـعوبا تـتكلم الآريـة وشعوبا تتكلم السامية لا يفتر بينها نشاط الاتصال حربا وتجارة حول النهاية الشرقية للبحر المتوسط أو قريبا منها. على أن الفروق الأساسية بين اللغات الآرية الأولية والسامية الأولية تجبرنا على الاعتقاد أنه في أثنـاء العصر الحجري الحديث قبل الأزمنة التاريخية، كان هناك خلال آلاف السنين انفصال يكاد يكون كاملاً بـين الشعوب المتكلمة بالآرية والشعوب الناطقة بالسامية.

ويلوح أن الشعوب الثانية عاشت إما في جنوب بلاد العرب أو في الشمال الشرقي مـن أفريقيـا. وفـي العصر الحجري الحديث الأول كان المتكلمون الأصليون بالسامية، والمتكلمون الأصليون بالآرية، يعيشـون في أغلب الظن في عوالم مختلفة إن حق لنا استعمال هذا التعبير.

(٤)
اللغات الحامية

ويتكلم علماء اللغات بإجماع أقل من إجماعهم في اللغات السابقة، عن مجموعة لغات ثالثة هي الحاميـة، يقول البعض منهم بأنها منفصلة متميزة عن السامية، ويقول البعض الآخر إنها مشاكلة لهـا متصـلة بهـا. وجمهرة الرأي تميل الآن إلى القول بوجود بعض العلاقة البدائية بين هاتين المجموعتين.

ومن المؤكد أن المجموعة الحامية مجموعة لغوية أشد سعة وأكثر تنوعا مـن السـامية أو الآريـة، وأن الألسنة السامية ذات صلة أدنى إلى اللحمة العائلية، كما أن بينها من التشابه المشترك ما يفوق ما لدى الآرية. وربما نشأ الطير من مجموعة خاصة من الزواحف، وأن الآرية كذلك نشأت عن مجموعة حامية أصلية كما نشأت الثدييات من مجموعة أخرى من الزواحف.

ومن الفروض المغرية حقًا، فرض لا يقوم في واقع الأمر على حقائق تبرره، هو أن المجموعة الأوليـة الخشنة التي اشتق منها اللسان الآري تفرعت من صيغ الكلام الحامي الأول في زمن مبكر يسبق ظهور اللغة السامية وتخصصها.

والمتكلمون بالحامية اليوم كالمتكلمين بالسامية، هم في الغالب من جنس البحر المتوسط. ومن بين اللغـات الحامية، اللغة المصرية القديمة واللغة القبطية ولغة البربر (لغة أهل الجبال في شمال أفريقيـا، والطـوارق الملثمين وأمثال هؤلاء من الشعوب)، والمجموعة المسماة بالأثيوبية من اللغات الأفريقية في أفريقيا الشرقية، بما فيها من كلام الجالا والصوماليين. ولعل هذه اللغات الحامية قد تشعبت من مركز علـى سـاحل البحـر المتوسط الأفريقي، ولعلها امتدت امتدادا عظيما في أوربا الغربية مارة فوق البرازخ الأرضية التـي كانـت موجودة.

ومما يجدر بنا ملاحظته أن هذه المجموعات الثلاث من اللغات، الآرية والسامية والحاميـة تمتـاز كلهـا بظاهرة مشتركة فيما بينها لا تشاطرها فيها أية لغة أخرى، تلك هي التذكير والتأنيث في نحوها، وسواء أكان ذلك شاهدا ذا قيمة يدل على وجود أصل مشترك سحيق للآرية والسامية والحامية، أم لم يكن كذلك، فهو أمر يخص علماء اللغات أكثر مما يخص الدارس العادي. وهو لا يؤثر في الدليل الواضح على وجـود اتصـال سحيق القدم قبل التاريخ بين المتكلمين بهذه المجموعات الثلاث من الألسن المختلفة.

والأجناس السامية والنوردية لها سحنة ذات خصائص تميزها أكثر مما تميزها اللغة. وكأني بهـم أكثـر تحديدا وتخصصا من الشعوب المتكلمة بالحامية، وهي أوسع انتشارا وأكثر قربا من لغة الأسـاس القديمـة. وشأنهم في هذا شأن لغاتهم نفسها.

(٥)
اللغات الأورال آلتائية

ما من شك في أنه قد انتشرت في وقت من الأوقات في الطرف الآخر من العالم إلى الشمال الشرقي مـن المناطق الآرية والسامية، مجموعة لغوية أخرى متميزة تمثلها الآن طائفة من اللغـات تعـرف بالمجموعـة الطورانية أو مجموعة أورال آلتاي. وهي تضم لغة لابلندة اللابية، ولغة سيبيريا الساموييدية واللغات الفنلندية والمجرية والتركية أي التترية ولغة المنشو والمغولية. وهي بوصفها مجموعة لم تحظ بعد بدراسة مستفيضة ولم يقتلها علماء اللغة الأوربيون بحثًا، وليس لدينا حتى اليوم الدليل الكافي على أنها تضم اللغتـين الكوريـة واليابانية أولاً تضمهما. وقد أصدر هـ. ب. هلبرت "نحوا" مقارنًا للكورية، وبعض لغات درافيديـة بالهنـد ليبين به ما يراه من صلة وثيقة.

(٦)
اللغات الصينية

كان جنوب شرق آسيا إقليما خامسا لتكوين اللغات، ولا تزال تعمها فيه مجموعة من اللغات، تتكون من مقاطع مفردة خالية من علامات الإعراب والصرف، تقوم فيها نغمة الصوت المستعملة في نطق الكلمة بتحديد المعنى المراد بها. ويمكن أن تسمى هذه باسم المجموعة الصينية أو مجموعة اللغات ذات المقطع الواحد وتشمل لغات الصين وسيام وبورما والتبت.

والفارق بين أي من هذه الألسن الصينية واللغات الموجودة إلى الغرب منها فارق كبير. ففي صيغة اللغة الصينية الخاصة بمدينة بكين لا يوجد إلا قرابة ٤٢٠ مقطعا أوليا، وبناء على هذا كان لابد أن يدل كل واحد من هذه المقاطع على عدد كبير من الأشياء، وأن يستدل الناس على المعاني المختلفة إما من السياق وإما بنطق الكلمة بنغمة صوتية خاصة.

وهم يعبرون عن العلاقات بين هذه الكلمات بطرائق تخالف الطرائق الآرية تمام المخالفة. وعلم النحو والصرف في الصينية يختلف في طبيعته عن مثيله في الإنجليزية فهي اختراع خاص منفصل عن غيره؛ ويقول الكثيرون من الكتاب إنه لا يوجد علم نحو وصرف في الصينية على الإطلاق. وهو قول صحيح إذا قصدنا من كلمة علم النحو والصرف أي شيء ينطوي تحت المعنى الأوربي الخاص المقصود به التصريف والمطابقة النحوية [51]؛ وبناء على هذا تكون أية ترجمة حرفية من الصينية إلى الإنجليزية أمرا مستحيلاً. بل إن طرائق الفكر نفسها مختلفة، ومن ثم لم تزل فلسفتهم في حلها كتابا مختوما دون الأوربي، كما أن الفلسفة الأوربية لا تزال بعيدة عن متناول أهل الصين وذلك بسبب اختلاف طريقة التعبير.

وقد نستطيع أن نضرب لك مثالاً على هذا الفارق العميق بين طريقتي التعبير في كل من المجموعتين. فإن الحروف الصينية "الدالة على الأشغال والاستفهام والأمر الحتمي والقديم" إذا وضعت بهذا الترتيب مثلاً دلت على: "لماذا تسير على النهج القديم؟" وهكذا يعطي الرجل الصيني لباب معناه مجردا. على حين يصل الإنجليزي إلى نفس المعنى باصطناع مجاز جريء. فربما رايته يتكلم عن المحافظة على القديم في الطبيخ وفي تجليد الكتب، ولكنه يقول "لماذا تسير على النهج القديم؟". ويوضح المستر آرثر والي في مقالته الشائقة عن الفكر والشعر الصينيين التي جعلها مقدمة لكتابه (١٧٠ قصيدة صينية، طبعة كنستابل ١٩١٨) كيف ظل الفكر الصيني في هذه الميادين شيئًا واقعيا مغلولاً بسبب ما يسبغ على المجاز من تحديدات يحتمها تكوين اللغة الصينية المقتضب.

([51]) هي الاتفاق في الإعراب بين الكلمات من حيث المتكلم والغائب إلخ والإفراد والجمع والتأنيث والتذكير والفاعل والمفعول. (المترجم)

(٧)
مجموعات لغات أخرى

ويميز اللغويون بالإضافة إلى عائلات اللغات هذه، مجموعات اللغات الأخرى التالية. فكل لغـات الهنـود الأمريكيين، وهي لغات تتسع شقة الخلاف فيما بينها، يمكن فصلها عن أية مجموعة خاصة بالعـالم القـديم. ونحن نستطيع أن نضمها هنا لا بوصفها أسرة بل بوصفها خليطًا من لغات شتى.

وفي أفريقيا مجموعة من اللغات تمتد من شمالي خط الاستواء بقليل إلى نهايتها الجنوبية القصوى، وهـي لغات البانتو، يضاف إليها طائفة من اللغات الأخرى تمتد في وسط القارة، ولن نعني ها هنا بأمرها.

وهناك أيضا مجموعتان منفصلتان فيما يحتمل، هما الدرافيدية في جنوبي الهند والملايوبولينيزية المنتشرة في بولينيزيا، والتي تضم الآن أيضا بعض الألسن الهندية.

ومن المعقول الآن أن نستنتج من هذه الفروق الجوهرية، أنه حدث إبان الزمان الذي أخذ الناس فيه فـي تكوين مجتمعات أكبر بقليل من قبيلة العائلة، وعندما أخذ بعضهم يخبر البعض بالأقاصيص الطـوال، ويـوم شرعوا يتناقشون ويتبادلون الأفكار، كانت الكائنات الإنسانية موزعة في العالم في عدد مـن المنـاطق، ولا تتصل إحداها بالأخرى إلا اتصالاً قليلاً جدا لما يفصلهم بعضهم عن بعض من محيطات وبحار وغابات كثيفة وصحارى أو جبال. وربما وجدت في ذلك الزمان السحيق، ولعل ذلك كان قبل عشرة آلاف سنة أو أكثـر، قبائل وعائلات تنطق بالآرية والسامية والحامية والطورانية والأمريكية والصينية، وكل منها تمشي في مناكب مناطق الصيد والرعي الخاصة بها ومناطق الزراع في بعض الأحيان، وكلها كانت مرحلة ثقافية تكاد تكـون واحدة، وكل كان ينشئ جهازه اللغوي على طريقته الخاصة. والراجح أن أحدا من هذه القبائل الأصـلية لـم يكن ليزيد في عدده مطلقًا على الهنود الحمر في الأقاليم الشمالية الغربية من أمريكا الشمالية اليوم، ولما تكـد الزراعة المنتظمة تبدأ حينذاك بعد. فحتى حان الوقت الذي جعلت الزراعة فيه زيادة السكان أمرا ميسـورا، لعل الكائنات الإنسانية أجمع، لم تزد في مجموعها على بضع عشرات من الألوف. وهناك نقطـة قـل مـن يدركها، وهي أنه حتى العصر الحجري القديم كان الإنسان حيوانًا قليل العدد إلى الدرجة القصوى، وإذا كانت الزراعة قد أخذت وقتئذ تصبح ذات أهمية في الحياة الإنسانية، وأخذ عدد السكان يتكاثف في إقليم ما فقد كان هذا وذاك في إقليم البحر المتوسط على الأرجح ولعله كان في مناطق يغمرها البحر الآن.

وبالإضافة إلى هاته القبائل قبائل العصر الحجري الحديث لا بد من أنه كان يسكن إفريقيا والهنـد أقـوام غابات متنوعون أكثر بدائية بكثير. ولم يكن مستطاعا أن يتجاوز عدد هؤلاء بضعة الآلاف. والراجح أنهـم كانوا نادرين ندرة الغوريلا اليوم أو أشد ندرة. وكانت إفريقيا الوسطى ابتداء من النيل الأعلى، غابة مترامية الأطراف لا تستطيع الحياة الإنسانية العادية أن تخترقها، وهي غابة ليست غابات الكونغو الحالية إلا البقيـة المتقلّصة الباقية منها.

ومن الجائز أن انتشار أناس أعلى مرتبة من الجنس الإسترالويدي البدائي إلى جزائـر الهنـد الشـرقية، وتطور اللغات (الملايو بولينيزية) قد حدثا متأخرين في الزمان عن وقت تكوين هذه المجموعات الأخرى من اللغات. ويبدو أن الشعب البولينيزي إنما هو امتداد متأخر نحو الشرق قامت به الشعوب السمراء، مع احتمال تسرب شيء من الدم النوردي فيهم.

وواضح أن الأقسام اللغوية التي صنفها علماء اللغات تتفق فعلاً بوجه الإجمال مـع أصـناف الأجنـاس الرئيسية التي يقول بها علماء السلالات البشرية. وهي تؤيد نفس الفكرة القائلة بوجود عدد من السكان قليـل جدا وموزع على مساحات واسعة، وبوجود انفصالات دامت عصورا طوالا بين أقسام البشرية العظيمة. وفي العصر الجليدي، عم الجليد أصقاعا مترامية، أو عمها مناخ أشد تطرفًا وقسـوة مـن أن يتناسـب وانتشـار الشعوب الانتشار الحر، وامتد من القطب الشمالي إلى أوربا الوسطى، ثم عبر الروسيا وسيبريا إلى الهضبات العظيمة بآسيا الوسطى. وبعد ذهاب العصر الجليدي الأخير، خفت قسوة البرد في هذا الإقليم الشمالي بـبطء شديد، واستمر الإقليم زمانًا طويلاً ولا سكان فيه إلا القانصون المتجولون الذين انتشروا شرقًا وعبروا مضيق بهرنج. ولم يصبح شمال أوربا وآسيا ووسطهما بلادا معتدلات المناخ إلى الدرجة الملائمة للزراعة إلا منـذ عهد قريب جدا – وأعني بذلك أزمانًا لا تتجاوز الاثنا عشر ألفًا أو لعلها عشرة الآلاف مـن السـنين – ثـم فصلت فترة غابات كثيفة بين عصر الصائد وبين عصر إزالة الغابات ابتغاء الزراعة.

وكانت فترة الغابات هذه فترة غزيرة الأمطار أيضا. ومن ثم سميت باسم عصر المطر أو عصر البـرك ولزاما علينا أن نتذكر في هذه الآونة ما لحق معالم أرض العالم من تبديل كبير حتى فـي القـرون المائـة الأخيرة. والذي يدعونا إلى هذا التنبيه أنه ما من شيء يغفله الباحث في موضوع الإنسان قبل التاريخي أكثر من التغيرات الجغرافية.

وعند تراجع الجليد تخلفت ولا شك مياه كثيرة منتشرة ومستنقعات كثيرة لا يمكن اجتيازها، امتـدت فـي عرض بلاد الروسيا الأوربية من بحر البلطيق إلى بحر قزوين. وليس بحر قزوين وبحر آرال Aral وأجزاء من صحراء التركستان إلا بقايا بحر متسع عظيم كان يمتد حتى وادي الفولجا ويرسل ناحية الغـرب ذراعـا يتصل بالبحر الأسود. وكانت حواجز جبلية أعلى كثيرا مما هي الآن، هي والخليج الذي يكون الآن إقليم نهر السند، تتم حلقات الفاصل بين الأجناس النوردية الأولى وبين المغـول والدرافيـديين، وتجعـل الاختلافـات العنصرية الإجمالية بين تلك المجامع أمرا ميسورا.

ثم فرقت الصحراء الكبرى التي تذرو اليوم رمالها هوج الرياح – وهي ليست بحرا جف ماؤه بـل هـي بيداء كونتها الرياح – وكانت غنية بخصبها، زاخرة بالحياة في يوم من الأيام – نقـول إن هـذه الصـحراء فرقت بين جنس البحر المتوسط وبين السكان الزنوج البدائيين القليلي العدد القاطنين إقليم الغابات الأوسط في إفريقيا.

وكان الخليج الفارسي يمتد نحو الشمال امتدادا يتجاوز رأسه الحالي. واجتمع هو والصحراء السورية على فصل الشعوب السامية عن المناطق الشرقية. على حين أن جنوب بلاد العرب – وكان آنذاك يزيد خصبه كثيرا عما هو الآن – ربما كان يمتد فيما نسميه الآن بخليج عدن حتى يبلغ بلاد الحبشة وأرض الصومال. بل ربما كان البحران المتوسط والأحمر أثناء عصر المطر واديين خصيبين يضمان مجموعة من البحيرات العذبة. وقد قامت جبال الهملايا وما وراءها من مجموعة مرتفعات آسيا الوسطى الأكثر ارتفاعا والأضخم حجما، يضاف إليها امتداد خليج البنغال نحو الشمال حتى وادي الكنج الحالين بفصل الدرافيديين عن مغول الجنوب. وأدى وجود مجموعة البحار والبحيرات في منطقة جوبى التي أصبحت في العصر الحاضر صحراء جوبى، ومجموعة سلاسل الجبال العظيمة التي تأخذ إحداها بزمام الأخرى مخترقة آسيا من الوسط إلى الشمال الشرقي، أدى هذان إلى شق الجنس المغولي إلى مجموعتي اللغات الصينية والأورال آلتائية.

فأما مضيق بهرنج فإنه لما ظهر في عالم الوجود، عزل هنود أمريكا قبيل عصر المطر أو بعده. وليعلم القارئ أننا لا نريد بهذا أن نوحي إليه بأن هذه الانفصالات القديمة كانت انفصالات تامة، بل كل ما نقصده أنها كان لها أثرها الذي استطاعت به منع أي اختلاط متبادل عظيم للدماء والألسن في تلك الأيام، أيام بدايات الإنسان الاجتماعية. وأنه كان هناك مع ذلك قدر يسير من التلاقي والتبادل حتى في تلك الأيام، وشيء من انتقال العرفان أدى إلى نشر النماذج الفجة للآلات المتنوعة واستعمالاتها وبذر بذور زراعة بدائية في أرجاء العالم. وظهرت في هذا الوقت زوارق الكانو ثم السفن فزادت من أثر هذه الدعاية الزراعية والتجارية.

(٨)

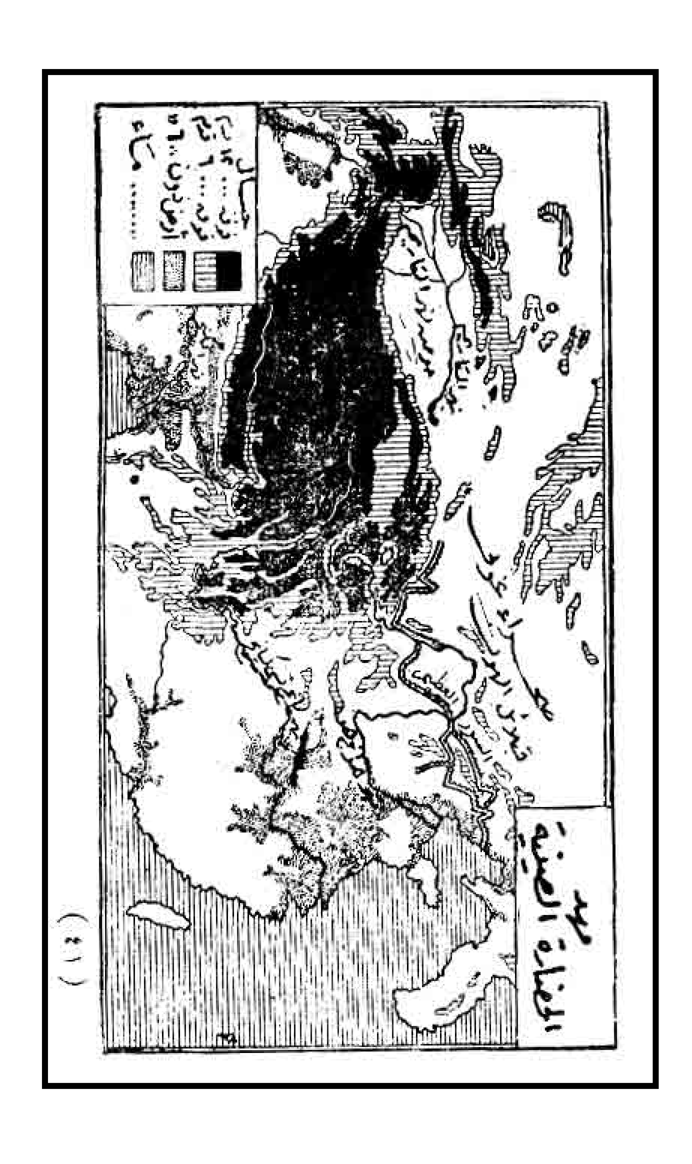
ما يحتمل أن يكون مجموعة لغوية بدائية

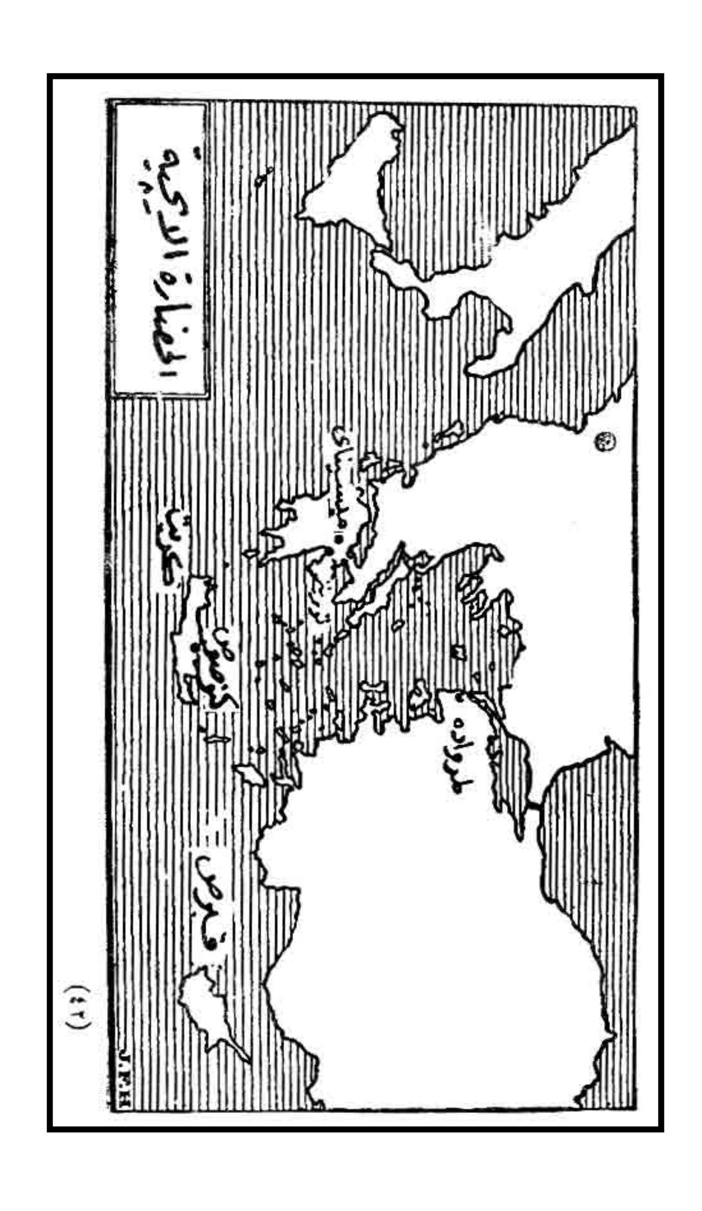
لم تكن الألسنة الأساسية لهذه المجموعات الرئيسية التسع من اللغات السالفة الذكر، بأي حال كل بـدايات الكلام الإنساني في العصر الحجري الحديث. وإنما هي أحدث اللغات عهدا، وهي التي بقيت إلى اليوم حيـة والتي طردت من الميدان أسلافها الأكثر بدائية. وربما كانت هناك مراكز للغات ضعيفة الأثر، ولعلها كانـت مراكز كثيرة متعددة اجتاحها فيما بعد الناطقون بالألسن التي لا تزال حية حتى اليوم كما أنه ربما كانت هناك مراكز للغات أولية اضمحلت ثم اندثرت. فنحن لا زلنا نجد في العالم رقاعا صغيرة غريبة مـن اللغـات، لا يلوح عليها أن لها ارتباطًا بأية لغة أخرى تحيط بها.

وقد يحدث أحيانًا مع ذلك، أن يلوح البحث القائم التقصي والاستقراء كأنما ينتظم هذه الرقـاع المتقطعـة الصلة في سمط واحد، وكأنما يفتح أمام نواظرنا بعض لمحات خفية إلى نوع من اللغة الإنسانية أبسط تكوينًا وأوسع نطاقًا وأكثر التصاقًا بالأساس وأعم انتشارا. ومن هذه المجموعات مجموعة لغوية دار حولها نقـاش حاد، هي مجموعة لهاجت البشكنس أو الباسك Basques ويعيش البشكنس الآن في منحدرات جبال البرانس الشمالية والجنوبية، وربما كان كل عددهم قرابة ٦٠٠,٠٠٠ لا يزيدون عنها في أوربا. وهم لا يزالون حتـى اليوم شعبا قوي الشكيمة نزوعا إلى الاستقلال، ولغتهم كما نجدها اليوم، لغة تامة التطور. ولكنهـا متطـورة على أسس تخالف كل المخالفة جميع الأسس التي تقوم عليها اللغات الآرية المحيطة بها.

وقد صدرت في الأرجنتين والولايات المتحدة صحف بشكنسية تسد حاجة أغنيائهم النازحين إلى البلـدين. وكان أقدم النازحين الفرنسيين في كندا من البشكنس. ولا تزال الأسماء البشكنسـية كثيـرة بـين الكنـديين الفرنسيين حتى يومنا هذا. وتشير الآثار القديمة إلى أن شعب البشكنس ولغته كانا منتشرين في إسـبانيا فـي وقت من الأوقات، أكثر من انتشارهما الآن.

وقد ظل لسان البشكنس زمنًا طويلاً مصدر حيرة لا يستطيع العلماء حل خصائصه. وأدى تركيبهـا إلـى القول بأنها




الحضارة الايجية
كريت
كنوصوص
قبرص
طرواده
ميسيناى
J.F.H
(٤٢)

ربما كانت ذات صلة ببعض الألسن الأمريكية الهندية. ويجمع المستر أ. هـ. كين في كتابه "الإنسان ماضيه وحاضره [٥٢]" أدلة تربطها – وإن من بعيد – بلغة البربر أهل شمال أفريقيا، وتصلها عن طريق البربر بكتلة اللغات الحامية العامة. على أن بعض علماء اللغات يبدون شيئًا من التشكك في هذه العلاقة. وهم يجدون لغة البشكنس (أو الباسك) أكثر شبها ببعض بقايا لسان متخلف معزول مثلها، يوجد في جبال القوقاز (القفقاس)، ويجنحون إلى اعتبارها آخر عضو باق من أعضاء مجموعة كانت في يوم ما عظيمة الانتشار جدا تتكون من اللغات "قبل الحامية"، وقد بادت فيما عدا ذلك من أمكنة، ويتكلمها على الأخص شعوب من ذلك الجنس الأسمر Brunet جنس البحر المتوسط الذي كان منتشرا في يوم ما في معظم أوربا الغربية والوسطى وآسيا الغربية. وقد طرأ على هذا العضو كثير من التغير والتخصص، وهم يظنون أنها ربما كانت وثيقة العلاقة جدا باللغة الدرافيدية في الهند ولغات الشعوب ذوات الثقافة الحجرية الشمسية الذين انتشروا شرقًا مخترقين جزائر الهند الشرقية إلى بولينيزيا وما وراءها.

ومن الجائز جدا أنه منذ ثمانية آلاف أو عشرة آلاف سنة خلت كانت تمتد فوق أرض أوربا الغربية والجنوبية مجموعات لغات اختفت تمام الاختفاء أمام اللسان الآري. وسنشير ونحن ماضون في سبيلنا إلى احتمال وجود ثلاث مجاميع لغوية مفقودة يمثلها (أ) اللغة الكريتية القديمة والليدية وما أشبههما (وإن كانت هذه ربما انتمت، كما يقول السير هاري.هـ. جونستون، إلى المجموعة البشكنسية القوقازية الدرافيدية!) (ب) السومرية (جـ) العيلامية.

ويظن بعض الناس – وذلك مجرد حدس وتخمين – أن اللغة السومرية القديمة ربما كانت همزة الوصل بين اللغة البشكنسية القوقازية القديمة وبين المجاميع المغولية الأولى. فإن صح ذلك، كان لنا من هذه المجموعة (البشكنسية والقوقازية – الدرافيدية – السومرية والسابقة للمغولية) لسان أشد قدما وأكثر اتصالاً بالسلف القديم من الحامية الأساسية. وكان لنا منها شيء أقرب شبها إلى الحلقة المفقودة اللغوية، شيء أقرب شبها إلى لغة أدنى أن تكون أم اللغات من أي شيء نستطيع أن نتصوره في الزمن الحاضر وربما كانت ذات صلة باللغات الآرية والسامية والحامية على نفس الدرجة التي كانت تتصل بها العظايا البدائية في الأزمان الباليوزوية المتأخرة بالثدييات والطيور والدناصير على التعاقب.

---

(٥٢) Man Past and Present

(٩)
بعض اللغات المنعزلة

يقولون إن لغة الهوتنتوت تمت بصلات القربى إلى اللسان الحامي وإن فصلتها عنه كتلة أفريقيا الوسطى التي تتكلم لغة البانتو. وهنا لغة تشبه لغة الهوتنتوت ولها وشائج بوشمانية، ولا يزال يتحدث بها الناس في أفريقيا الشرقية الاستوائية، وهذا يعزز الفكرة القائلة بأن وسط أفريقيا بأسره كان في أحد الأيام ينطق بالحامية.

ثم انتشر البانتو لغة وشعوبا في عصور حديثة نسبيا، من أحد مراكز أرومتهم في أفريقيا الوسطى الغربية، ففصلوا بين الهوتنتوت وبين الشعوب الحامية. ولكن لا يقل عن هذا في الأرجحية إن لم يزد عليه أن لغة الهوتنتوت إنما هي مجموعة لغوية قائمة بذاتها.

ومن بين البقاع الأخرى المتفرقة اللغات الصغيرة البعيدة المعزولة لغة البابوا في غانة الجديدة ولغة أهل أستراليا الأصليين.

واللغة التسمانية البائدة الآن لا يعرف أحد عنها إلا الشيء القليل. وجميع ما نعرفه اليوم عنها فعلاً يؤيد ما قلناه من قبل على أساس الحدس والتخمين من أن إنسان العصر الحجري القديم كان عديم الكلام أو يكاد يكون عديمه. ولا بأس من أن نقتبس في هذا الموضوع فقرة من كتاب الأجناس البشرية الحية لـ (هتشنسون [٥٣]):

"ضاعت لغة الأهالي ضياعا لا رجعة له، إذ لم يبق من تراكيبها إلا دلالات بتراء، ولم يبق من مفرداتها إلا نسبة صغيرة. وكانت لهجاتهم تشبه الأسترالية من ناحية عدم وجود الحروف الصافرة ومن جهة بعض الظواهر الأخرى، ولكنها كانت ذات تركيب أخشن وأنقص تطورا، وكانت ناقصة بتراء معيبة إلى حد أنهم – كما قال جوزيف ميليجان، وهو خير حجة في هذا الموضوع – كانوا لا يراعون في تركيب جملهم أي ترتيب أو تنظيم ثابت للكلام. بل ينقلون إلى السامع بطريقة إضافية قوامها نغمة الصوت وهيئة المتكلم والإشارة – تلك التعديلات في المعاني التي تعبر عنها في لغاتنا حالة الفعل من حيث الإخبار أو الأمر أو الشرط أو زمانه، وحال الاسم من حيث الإفراد والجمع وما إلى ذلك.

"وكانت الأسماء الجامدة لديهم نادرة، فقد كان لكل ضرب من ضروب أشجار الصمغ وأشجار اللاوينا [٥٤] اسم خاص، ولكن لم تكن هناك كلمة للشجر عامة ولا للصفات من أمثال: صلب ورخو ودفيء وبارد وطويل وقصير ومستدير وما إلى ذلك. كان يعبر عن كل شيء صلب بأنه مثل الحجر، وكل شيء مستدير بأنه يشبه القمر، وهكذا، وهم في العادة يوفقون بين الفعل والكلمة ويؤكدون المعنى الواجب فهمه بإحدى الإشارات".

---

(٥٣) The living Races of Mankind by Hutchinson

(٥٤) اللاوينا (الوطل) Wattle: شجر تصلح أغصانه للي والضفر. (المترجم).

الكتاب الثالث

المدنيات الأولى

الفصل الثالث عشر

الإمبراطوريات الأولى

١- الزراع الأول والرحل الأول.

٢-

أ- السومريون.

ب- إمبراطورية سرجون الأول.

ج- إمبراطورية حمورابي.

د- الآشوريون وإمبراطوريتهم.

ه- الإمبراطورية الكلدانية.

٣- مصر في العصور القديمة.

٤- مدينة الهند القديمة.

٥- تاريخ الصين الأول.

٦- المدنيات في طور نموها.

٧- أسطورة أطلافطيس.

(١)
الزراع الأوائل والرحل الأوائل

نعود الآن إلى ما كنا فيه من حديث الزراعة، ونفيض في الحديث الذي بدأناه في الفصول السـابقة حـول ظهورها. فإن ابتداءها يدل على تغير بعيد المدى في أحوال الإنسان. ولقد تطورت الزراعة على مهل، ومع شيء كثير من التنوع في حياة الإنسان، في مدى عدة آلاف من السنين تتراوح بين عشرين ألف سنة في أكثر الحالات قدما، وثمانية آلاف من السنين في أكثرها حداثة.

وقبل ذلك الحين كان الإنسان حيوانًا نادر الوجود بالمقارنة إلى غيره من الحيوانات. وكان حيوانًا مفترسا يتجول ويستعمل الأدوات، أو قل متوحشًا. وكان يعيش في مجتمعات صغيرة، ولم يزل كلامه فيمـا يـرجح ناقص التطور إلى حد كبير. وكان كل ما يملك أشياء هينة الحمل، وكان يقضي كل حياته في اقتناص الغذاء، تتعاون عليه غير الأيام ما بين مدد طويلة يقضيها طاويا، وأخرى يمضيها في رغـد وكظـة. وكـان يتبـع الحيوانات في تأثرها طعامها وانتقالها تبعا للفصول. كان حرا وكان معوزا، وكانت حياته في خطر مستديم.

ثم بدأ الإنسان زراعة الغذاء قصدا ثم حفظه. فأخذ يرعى الحيوانات التي كان يصيد، ويحرس المكان الذي يجـد فيه البذور والفواكه التي يكمل بها غذاءه من اللحم وتحدد مجال تربصه لصيد الحيوان بسبب رعيه ماشـيته التـي كانت نصف مستأنسة وانتظاره المحصول حيث ألقى البذور. وتكاثرت آلاته. حتى إذا وصل إلى ما قبـل زماننـا بثمانية آلاف من السنين كان قد أصبح في بعض الأصقاع حيوانًا كثير العدد كثرة عظيمة، لم يبلغها قبلـه البتـة أي قرد، أو ما إليه من الفصائل القريبة. ثم إنه كان قد صنع البيوت واستحوذ على العمل الدوري المنتظم الذي يقوم به في سبيل القوت، فاختزن الطعام، وبذلك دخل في دور العمل، وبدلاً من الوجبات التي تعتمد على الصدفة المؤاتية أو المغامرة، أصبحت أوقات أكلاته منتظمة، فأصبح مدخرا بعد أن كان يعيش تحت رحمة الصدف والظروف.

فهو الحيوان الثديي الوحيد الذي أصبح حيوانًا مقتصدا. إذا لم يسبق أن وجـد أي حيـوان ثـديي يمتـاز بالاقتصاد. حقًا إن كلب الماء يبني ويختزن، وإن السنجاب يكتنز، وإن الكلاب تدفن العظام ولكن يجب علينا أن نتجه بأبصارنا إلى النمل والنحل قبل أن نصل إلى المخلوقات الحية الأخرى التي تشترك في مجتمعـات، وتشتغل بانتظام في إعداد المسكن واختزان المأكل واقتسامه.

وقبل استقرار الإنسان كان العناء والقلق والعوز مسيطرة على حياته. ولكن لم يكن هناك أي عمل نظـامي أجل وجد العمل في حياة رجل العصر الحجري القديم المتأخر، لكنه كان عملاً غير مستمر كما كان في العـادة لذيذًا شائقًا. وكان لزاما عليه أن يصنع الآلات من وقت لآخر، ولكن الراجح أنها كانت تصنع بأيدي المضطرين لاستعمالها. وكان لزاما على الإنسان أن يكشط الجلود وأن يخرج ليصيد طعامه، وأن يكل النار إلى أحد أفراده يعني بها، إذ كان انطفاؤها مشكلة خطيرة مزعجة، حتى ليظن بعض الثقات أنهم كانوا يخصصون لهذه التبعـة أفرادا معينين، وأن العذارى المتبتلات الطاهرات ونارهن المقدسة، إنما هي الأثر البـاقي مـن رعـاة النـار البدائيين. ولكن لم يكن هناك في مرحلة القنص ذلك الجهد الثابت المنتظم الذي نسميه نحن "عملاً".

ويرجح أن عبء معظم الأعمال الثقيلة التي وجبت تأديتها كان ملقى على عاتق النساء. فإن الرجل البدائي الأول لم يكن صاحب شهامة تحدبه عليهن. وعندما كانت الجماعة الإنسانية الصغيرة تنتقل مـن أرض إلـى أرض كانت النساء والبنات يحملن ما لديها من أثقال، بينما كان الرجال يسعون بأسلحتهم خفافًا وهم على أهبة لكل طارئة، أما العناية بالأطفال فملقاة كلها على كاهل النساء.

وقد ذهب بعضهم إلى أن النساء كن البادئات بالزراعة. وهذا أمر كثير الرجحان. إذ كان جمع الأطعمـة من حبوب وخضر منوطًا بهن، بينما كان الرجال غائبين لاشتغالهم بالصيد. ربما كانت المرأة أول من لاحظ أن الحب كان ينمو في مكان المخيمات القديمة. وربما كانت أول من نثر الحب عن قصد قربانا لـبعض مـا تعبد من آلهة محلية اعتقادا منها أنها ستعوضها عنه فيما بعد مائة ضعف. وكانت أولـى مراحـل الزراعـة مرحلة زراعة المحصولات السريعة الخاطفة. فالرجال – وهم بعد في طور الرعي إلى حد كبيـر – ربمـا بذروا الحب ثم عادوا فيما بعد إليه لحصده وربما كان الارتباط الوثيق بين التضحية الإنسـانية وبـين بـذر الحبوب راجعا إلى عصر الحاصلات السريعة الخاطفة [55] التي تترك حتى تنمو وتحصـد، ولعلهـم كـانوا يذبحون رجلاً وينصرفون تاركين إياه ليحرس المحصول.

ويكاد يكون من المؤكد أن أقدم أنواع الزراعة كان من نوع زراعة المساحات الصغيرة أي غرس حدائق صغيرة المساحة باليد، وربما كانت تلك اليد يد النساء وكانت موردا إضافيا للغذاء، والراجح أنها لـم تـزدد أهمية إلا في ظروف شاذة غاية الشذوذ.

ومن اليسير علينا أن نتصور أن الناس قد لاحظوا من عهد سحيق القدم ميزات نثـر البـذور فـي أرض يغمرها الماء في أوقات دورية منتظمة، وكأني بهم يلقون بخبزهم على وجه الماء يجدونه يرجع إليهم أضعافًا مضاعفة. ويرى إليوت سميث أن الزراعة المنتظمة، بوصفها عملاً وطيدا بدل أن كانت نوعـا ثانويـا مـن النشاط، قد ابتدأت في مصر. ولا شك أنه لا يوجد قطر تكيف بمثل هذا الشكل الواضح، لأن يعلم الناس فـن إلقاء البذور في الموسم المناسب. وربما كان البذار المنتظم في أول الأمر يتم في الأراضي المغمورة بالمياه. وكان الانتقال سهلاً نوعا من هذه الخطوة إلى مساعدة الماء على غمر الأرض، أي "الري".

وليست الزراعة هي الحضارة فقد انتشرت زراعة القمح حتى وصلت بين المحيطين الأطلنطي والهـادي سائرة مع توزع ثقافة العصر الحجري الحديث التي ربما جاءت قبل الميلاد بخمسة عشـر ألفـا أو بعشـرة آلاف، من السنين، أي قبل ظهور تباشير المدنية. ولكن الدنيا أمر يزيد كثيرا على زراعة الحبوب عرضـا، وفي موسمها المعين؛ وإنما المدنية هي استقرار الناس في جهة تستمر فيها الزراعة والملكية، وهـي عـيش الناس في مبان يسكنون فيها على الدوام، ويشتركون في حكم واحد، ومدينة أو قلعة واحدة.

([55]) الحاصلات الخاطفة أو الخطيفة: التي تؤخذ بسرعة في أقصر وقت وأقل جهد. (المترجم).

وبطبيعة الحال. كان أول شرط لازم لاستقرار أهل العصر الحجري الحديث استقرارا صحيحا يتميز عـن مجرد المقام المؤقت في منطقة يتوافر فيها الطعام، - هو وجود مورد ماء يمكن أن يعتمد عليه علـى مـدار السنة، ثم وجود طعام لهم، وعلف لحيوانهم، ومواد مما يلزم منازلهم، وكان لابد لهم من وجود كـل شـيء يحتاجون إليه في أي فصل من الفصول، وألا تنقصهم أية حاجة تغريهم بالتجوال بعيدا عـن مسـتقرهم. ولا ريب أن هذه الحالة كانت ممكنة في كثير من الوديان الأوربية والآسيوية. ففي كثير منها – كما هو الحال في مساكن البحيرات السويسرية – استقر الناس منذ عصر قديم جدا، ولكن لم توجد هذه الظروف الملائمة بهـذا القدر الوافي في أي مكان من أي قطر معروف لنا، ولم تثبت بهذا الشكل القوي المكين عاما بعد عام، قدر ما وجدت في مصر وفي القطر المحصور بين المياه العليا النهري دجلة والفرات وبين منطقة الخليج الفارسي.

فقد كان بهذه الأقاليم مورد دائم للماء لا ينضب معينه ومعه شمس ساطعة مستديمة؛ كما كانـت تحظـى بمحصولات مضمونة السنة تلو السنة، قال فيها هيرودوت "إن القمح في أرض الجزيرة كـان يجـود علـى زراعة بمائتين من أمثاله". وقال بليني "إنه كان يحصد مرتين، ثم هو بعد ذلك يكون علفًا طيبا للغنم"، وكـان هناك نخيل كثير وفاكهة من أنواع شتى. أما مواد البناء، فقد كان منها في مصر الطين ونوع مـن الحجـر سهل النحت، وكان منها في أرض الجزيرة طين يجفف في الشمس ويصبح لبنًا.

في هذه الأقاليم كان الناس يكفون عن التجوال ويستقرون وهم لا يكادون يشعرون بمـا يفعلـون؛ وهـم يتكاثرون، فإذا هم يجدون أنفسهم موفوري العدد، ويصبحون بكثرة عددهم على جانب من المنعة يقـيهم أي معتد طارئ. وقد تكاثروا وأنتجوا عددا من السكان أكثف من كل ما رأته الأرض من قبل، وأصبحت منازلهم أمتن وأقوى، وأبيدت الضواري في مساحات مترامية، وزاد اطمئنان الناس على الحياة إلى حد أتاح للرجـل العادي أن يخرج في المدن والحقول دون أن يثقل نفسه بأسلحته. وأصبحوا فيما بين بعضهم الـبعض علـى الأقل شعوبا مسالمة، وقد استقروا استقرارا لم يألفه الجنس البشري من قبل.

وكانت أرض الجزيرة ومصر أوفق الأقاليم لأول استقرار دائم للإنسان. ونحن نورد لـك خريطـة (٣٧) لهذه الأقاليم كما كان عليه حالها منذ ستة أو سبعة آلاف سنة مضت وكانت وديان البحر الأحمـر ووديـان البحر المتوسط الشرقية، قد سبقت فانغمرت بالمياه قبل ذلك الزمان، ولكن سـواحل بـلاد العـرب، وعلـى الأخص سواحل الركن الجنوبي الغربي منها كانت أخصب كثيرا مما أصبحت عليه بعدئـذ. وكـان البحـر الأحمر ينصرف إلى الأبيض خلال بوغاز مفتوح سارب، كما كان الخليج الفارسي يمتد إلى الشمال أكثر مما يمتد في الوقت الحاضر.

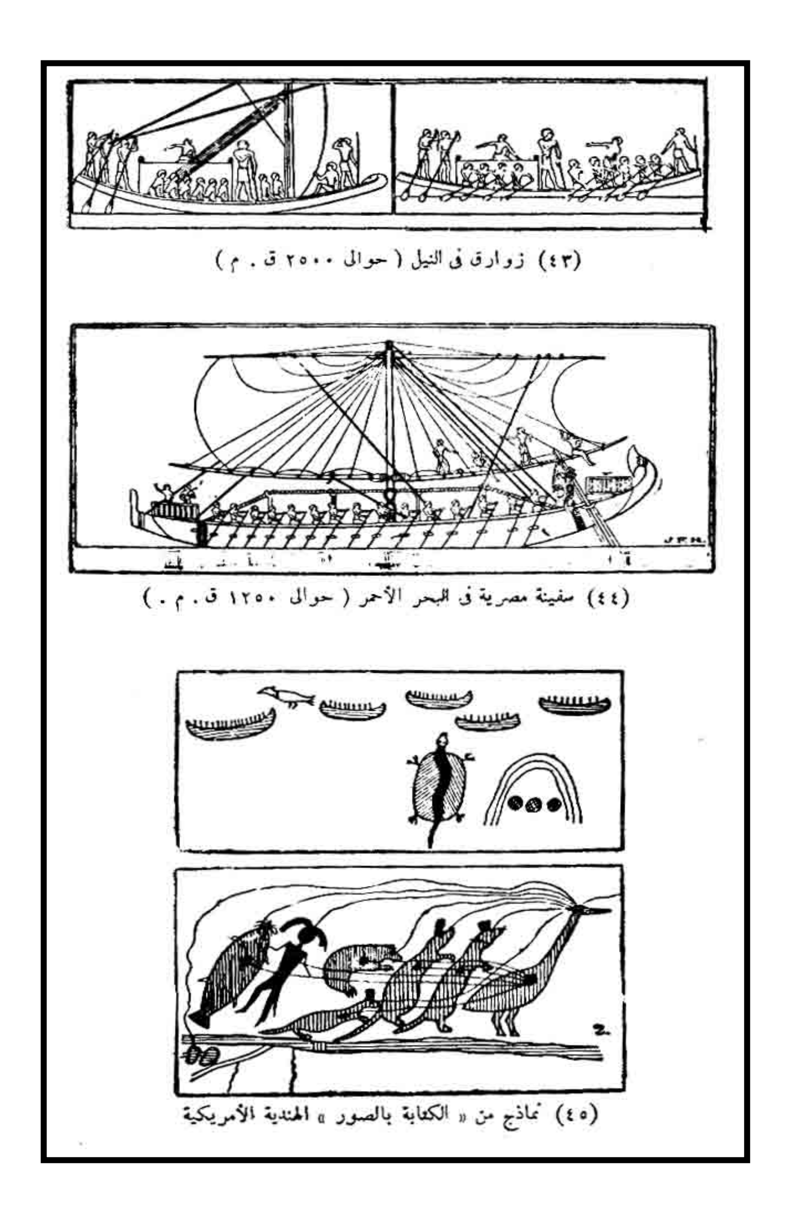
وبينما كان فريق من الناس يستقرون ويتكاثرون في وديان الأنهار العظيمة كان فريق آخر من شعوب أقل عددا وأكثر نشاطًا، ومن طراز مباين لهم تماما، يتطورون في جهات أقل خصبا، ولكنها أكثر اعتمادا علـى الأحوال المناخية في مختلف الفصول، خارج تلك الأصقاع ذات الخيرات الوفيرة، كان ذلك في غابات أوربا وفي صحارى بلاد العرب وفي أراضي المراعي الموسمية في أواسط آسيا – وهؤلاء هم الأقـوام الرحـل البدائيون. كان هؤلاء الرحل يعيشون أحرارا معرضين للمخاطرة، وهي عيشة مباينة لحياة الشعوب المستقرة

من أصحاب الزراعة. وكانوا بالمقارنة إليهم رجالاً مهزولين جياعا وكان رعيهم لا يزال مختلطًا بالصيد، ولا ينفكون يحاربون دفعا للأسر المغيرة على مراعيهم. فأما المستحدثات التي وصلت إليها الشعوب المستقرة والخاصة بإحكام صنع الآلات واستعمال المعادن، فإنها انتقلت إليهم وحسنت أسلحتهم. فهم بذلك قد تعقبوا أثر الشعوب المستقرة من دور العصر الحجري في الحديث إلى الدور البرونزي، وأصبحوا أكثر استعدادا للحرب بتحسن أسلحتهم، وأقدر على سرعة الحركة بتحسين وسائل انتقالهم.

وينبغي ألا نظن أن مرحلة البداوة والترحل هي السلف الذي يسبق مرحلة الاستقرار في الحياة البشرية. فقد بدأ الإنسان أمره بأن كان يتنقل في بطء وراء طعامه، ثم أخذ ضرب من الناس يستقر. وأصبح ضرب آخر من الناس مترحلاً بين الترحل والبداوة، فأخذ الضرب المستقر يجمع أمره يوما بعد يوم على جعل الحبوب قوتًا، بينما أخذ البدو المترحلون الاعتماد على اللبن واتخاذه أهم غذاء لهم. واختصت كل طريقة من طريقتي الحياة بسبيل إلى مناقض لسبيل الأخرى.

وكان لا مندوحة من أن تصطدم الشعوب المترحلة بالشعوب المستقرة، وأن يبدو المترحلون للمستقرين جفاة وهمجا، وأن يبدو المستقرون ضعافًا لينين مستأنثين، ونهبة طيبة سائغة للمترحلين، ولا بد أن قد جرت على حواشي المدنيات إبان تطورها غارات واحتكاكات لا تنقطع، بين قبائل البدو الرحل والجبليين الشداد الغلاظ، وبين شعوب المدن والقرى وهم أكثر عددا، وأقل في الحرب جلدا.

وكانت هذه في معظم أمرها مجرد إغارات على الحدود. إذ رجحت كفة المستقرين كثرة عددهم، وربما استطاع الرعاة أن يغيروا، وربما استطاعوا أن ينهبوا ما شاءوا، ولكنهم لم يكونوا بمستطيعين أن يقيموا. وربما استمر ذاك الضرب المتبادل من الاحتكاك عدة أجيال. بيد أنا نجد بين الفترة والفترة زعيما يظهر بين الفوضى الضاربة على الرحل الأحرار المستقلين، ويكون من القوة بقدر يسمح له بأن يرغم القبائل المتصلة به، على الوحدة والتآلف، ثم الويل بعد ذلك لأقرب المدنيات إليهم!!... وقد تقوم بهذا الدور قبيلة من القبائل تفعل ما يفعله ذلك الزعيم. ثم ينثال رجال هذه القبائل الموحدة انثيالاً على أهل السهول العزل غير الجلدين في الحرب، ويتبع ذلك حرب غايتها الفتح. وبدل أن يحمل الفاتحون الأسلاب وينصرفوا، تراهم ينزلون في الأرض المغزوة آخذين إياها كلها غنيمة. وعند ذلك يهوي أهل القرى وسكان المدن إلى درك العبودية ودفع الجزية، ويصبحون قطاعا للأخشاب وحملة للماء. بينما يصبح قادة المترحلين



(٤٣) زوارق فى النيل (حوالى ٢٥٠٠ ق . م)

(٤٤) سفينة مصرية فى البحر الأحمر (حوالى ١٢٥٠ ق . م .)

(٤٥) نماذج من « الكتابة بالصور » الهندية الأمريكية



(٤٦) تمثال من كنوصوص من الفايانس ويمثل متعبدة للثعبانة الربة

ملوكًا وأمراء وسادة من أعلى طبقة. ثم يأتي دورهم في الاستقرار ويتعلمون كثيرا من فنون المغلوبين. ويتهذبون بالكثير من تهذيبهم ويذهب عنهم ما كانوا فيه من جوع وهزال، ولكنهم يحتفظون طوال أجيال كثيرة بآثار من عاداتهم القديمة وهم رحل. فهم يخرجون للقنص، وهم يعكفون على ألعاب الهواء الطلق، وهم يسوقون العجلات ويتسابقون، وهم يعدون العمل وخاصة العمل الزراعي، نصيب الأجناس والطبقات الدنيا[٥٦].

كانت هذه القصة وما طرأ عليها من آلاف التغيرات من أعظم قصص التاريخ المتكررة مدى القرون السبعين الأخيرة أو ما يزيد عليها. ففي أول التاريخ نستطيع أن نقرأ رموزها بوضوح، إذ نجد في كل الأصقاع المتمدينة تفريقًا قديما بين طبقة حاكمة لا تعمل، وبين كتلة السكان العاملة. ونجد أيضا – بعد انقضاء بعض الأجيال – أن الأرستقراطية، وقد قر قرارها، تأخذ في احترام ما في حياة المستقرين من فنون وتهذيب وروح الخضوع للقانون، وأن يفقد الأرستقراطي شيئًا من إقدامه وبسالته الأصلية: فهو يتصاهر مع من حوله، وهو ينشئ نوعا من التسامح بين الغازي والمغزو، وهو يتبادل الأفكار الدينية ويتعلم الدروس التي تحتمها عليه التربة والمناخ. ويصبح جزءا من المدنية التي استولى عليها. وبينما هو يفعل ذلك تتجمع الحوادث ليهيئ فتحا جديدا يقوم به المغامرون الأحرار من العالم الخارجي.

وسنورد لك هنا بيانًا مجردا بسيطًا بأسماء المدنيات الأولى وتعاقبها في آسيا الغربية وما جارى تلك المدنيات من تطور في مصر. وربما كان الأجدر بنا أن نورد لك البداية المصرية أولاً فإن هناك خلافًا طريفًا بين من يميلون إلى تقديم آسيا الغربية على مصر في الترتيب الزمني، وبين من يرون مصر مهدا لكل حضارة. وهي خصومة لا يرغب كاتب هذه السطور في النزول إلى حومتها، فإذا فعلنا هذا سهل علينا بعدئذ أن ننظر إلى ما يعاصر هذه الحضارات من حال الأمور في الهند والصين وأمريكا. وسيكون هذا الأمر بالضرورة مجرد سرد لأسماء، ولكننا لن نعطيك منها إلا أقل عدد نستطيعه، وسيجد القارئ الذي ليس في جعبته شيء أو لديه القليل من المعلومات السابقة عن هذا القسم، سيجد كل ما يتلوه أوضح كثيرا، إذا هو وجه إلى هذا القسم عناية دقيقة معقولة، ووازن بينه وبين مصور مهد الحضارة الغربية والخريطة الزمنية ٦٠٠٠ – ٤٠٠٠ ق. م. والرسم التوضيحي رقم (٥٧).

---

(٥٦) تكاد هذه أن تكون بعينها نظرية ابن خلدون كما جاءت في مقدمته فليرجع إليها من يريد التوسع في هذا الموضوع. (المترجم).

(٢)

أ- السومريون:

إن تعاور الاستقرار ثم غزو الرحل ثم الترف ثم الغزو الجديد، ثم الترف – الذي هو من الخصائص المميزة لهذا الدور من أدوار التاريخ الإنساني، لما يلحظ بوجه خاص في إقليم الفرات ودجلة الذي كان مفتوحا من كل نواحيه أمام مناطق عظيمة لم تكن على درجة من الجدب تبلغ بها مرتبة الصحراء الكاملة، كما لم يبلغ خصبها حدا يجعلها تقوت شعوبا متمدينة. وربما كان أسبق الشعوب إلى تكوين مدن حقة في هذا الجزء من العالم، أو قل في أي جزء من أجزاء العالم كافة، شعب يسمى "السومريين". ومن الراجح أنهم كانوا شعبا "أسمر Brunet " ذا وشائج أيبيرية أو درافيدية. وكانوا يستعملون ضربا من الكتابة يخدشونه على الصلصال. وقد حلت رموز لغتهم، وهي أقرب شبها بمجموعات اللغات القفقاسية التي لا تنضوي تحت صنف معين من اللغات، منها إلى أية لغة أخرى موجودة الآن. وربما كان لهذه اللغة علاقة بلغة البشكنس، وربما كانت تمثل ما كان في أحد الأيام مجموعة لغوية بدائية شائعة الاستعمال تمتد من إسبانيا وأوربا الغربية إلى المنطقة الشرقية من الهند، وتتصل جنوبا إلى أفريقيا الوسطى.

وقد كشفت الحفائر التي قام بها في إيريدو Eridu الكابتن ر. كامبل طمبسون R. Campbell Thompson أثناء الحرب العظمى، القناع عن مرحلة زراعية تنتمي إلى العصر الحجري الحديث قبل اختراع الكتابة أو استخدام البرونز، وذلك تحت أقدم أسس المباني السومرية. وكانت محصولات السومريين الأوائل تحصد بمناجل من الفخار.

وكان السومريون يحلقون رءوسهم ويرتدون أردية بسيطة من الصوف تشبه الجلباب. واستقروا بادئ الأمر في المجاري الدنيا للنهر على بعد غير كبير من الخليج الفارسي، الذي كان حين ذاك يمتد شمال رأسه الحالي بمائة وثلاثين ميلاً أو تزيد. ويقدر سايس Sayce في كتابه "الحياة البابلية والآشورية Babylonian and Assy rian Life " أنه في ٦٥٠٠كانت إيريدو على ساحل البحر. وكان السومريون يخصبون حقولهم بترك الماء ينساب عليها من جداول الري، ثم أصبحوا بالتدريج مهندسين للري في غاية الحذق والمهارة، وكانت لديهم الماشية والحمير والضأن والماعز، وإن لم تكن لديهم خيول. وتزايدت مجموعات أكواخهم الطينية فأصبحت بلدانًا. وأقاموا لديانتهم معابد تشبه الأبراج في بنائها.

وكان للطين المجفف في الشمس شأن عظيم في حياة هؤلاء القوم، ذلك أن هذا الإقليم الأدنى من وادي الفرات والدجلة لم تكن فيه أحجار، أو كان به النزر اليسير منها. فكانوا يبنون مبانيهم من اللِبن، ويصنعون أشكالاً من الخزف والفخار، وكانوا يرسمون (ثم انتقلوا على الفور إلى الكتابة) على أقراص رقيقة من الطين تشبه القرميد، ولا يبدو عليهم أنهم عرفوا الورق أو استعملوا الرق. فإن كتبهم ومذكراتهم، بل رسائلهم كلها مدونة على الشقافة.

وقد شيدوا في (نيبور) برجا عظيما لربهم الأكبر إلّليل أو (إنليل Enlil)، ويظن أن ذكرى هذا البـرج لا يزال أثرها باقيا في قصة برج بابل. ويلوح أنهم كانوا منقسمين إلى دول مـدن [٥٧] كانـت تنشـب بينهـا الحروب. وقد حافظت هذه المدن على مواهبها الحربية مدى قرون كثيرة، وكان جنـودهم يحملـون حرابـا طويلة، وتروسا ويحاربون في تشكيلات متراصة. وكان السومريون يغزو بعضهم البعض، ولكن سومر ظلت حقبة طويلة من الزمان دون أن يغزوها جنس أجنبي. ونمى السومريون حضارتهم وأدخلوا تحسينات علـى كتابتهم، وقووا بحريتهم إبان مدة ربما كانت ضعف كل المدة التي انقضت منذ أول العهد المسيحي إلى الوقت الحاضر. ثم أخذوا يستسلمون رويدا رويدا للشعوب السامية.

وأول ما عرف الناس من الإمبراطوريات جميعا، تلك الإمبراطورية التي أسسها رئيس كهنة مدينة إيرتش السومرية. وقد جاء في أحد النقوش بمدينة (نيبور) أن هذه الإمبراطورية امتدت من الخليج الفارسي الأدنـى إلى البحر الأعلى (ترى يقصد البحر المتوسط أو البحر الأحمر؟). وسجل هذا الأمد الطويل من التاريخ، وهو النصف الأول لعصر الزراعة، مدفون تحت أكوام الطين في وادي الفرات ودجلة. حيث ازدهرت أقدم المعابد وعلا شأن أول الكهنة الحكام الذين نعرفهم في الجنس البشري.

وقد اكتشفت في المناطق الشمالية الغربية من الهند آثار تدل على قيام تجارة سومرية، وربما دلت أيضـا على ما استمتع به السومريون من استقرار. ولكن لا يزال من غير المحقق إلى اليوم: هل وصل السومريون إلى الهند بطريق البر أو البحر؟ فربما كان وصولهم بحرا. وربما كانوا في جنسهم وثقافتهم من أشد النـاس قرابة للشعوب التي كانت تقيم حينذاك في وادي نهر الكنج.

ب- إمبراطورية سرجون الأول:

ظهرت على الحافة الغربية لهذا القطر قبائل بدوية من شعوب تتكلم اللغات السامية، أخـذت تتجـر مـع السومريين وتُغِير عليهم وتحاربهم طوال أجيال عديدة. ثم ظهر في آخر الأمر، بين هؤلاء الساميين، زعـيم عظيم، هو سرجون (٢٧٥٠ ق. م) فوحدهم، ولم يقتصر على حد السومريين، بل مد سلطانه إلـى مـا وراء الخليج الفارسي شرقًا، وإلى البحر المتوسط غربا، ويسمى قومه بالأكاديين، وتسـمى إمبراطوريتـه باسـم الإمبراطورية السومرية الأكادية، وقد نيفت على مائتي سنة:

ومنذ عهد سرجون الأول حتى القرنين الرابع والثالث ق. م، وهي مدة تربو على ألفين من السنين – أصبح نجم الشعوب السامية في صعود في كل أنحاء الشرق الأدنى. ولكن على الرغم من أن الساميين قد غزوا المدن السومرية وأقاموا عليها من بينهم ملكًا، فقد كانت المدنية السومرية هي الغالبة على ثقافة السـاميين البسـيطة. وتعلم هؤلاء السكان الجدد الكتابة السومرية، أي الكتابة المسمارية واللغة السومرية: فهم لم ينشئوا أيـة كتابـة سامية خاصة بهم. وأصبحت اللغة السومرية لدى هؤلاء الهمج لغة العرفان والقوة، كما كانـت اللاتينيـة لغـة العرفان والقوة عند شعوب أوربا الهمجية في العصور الوسطى. وكان لهذا العلم السومري حيوية عظيمة جـدا، فقدر له أن يعيش على تعاور سلسلة مديدة من الغزوات والتغيرات التي ابتدأت عند ذاك في وادي الرافدين.

---

(٥٧) دولة المدينة City State.

ج- إمبراطورية حمورابي:

ولما فقد شعب الإمبراطورية السومرية الأكادية قوته السياسية والحربية أخذت تغمرهم من الشرق فيوض جديدة من شعب حربي يسمى "العيلاميين"، على حين أتى (العموريون) من الغرب، يضغطون فيما بينهم على الإمبراطورية السومرية الأكادية. والعيلاميون شعب مجهول اللغة والجنس، "فلا هـم سـومريون ولا هـم أكاديون" كما يقول سايس Sayce وكانت عاصمتهم هي مدينة سوسة (السوسن). ولا يـزال العـام بتـاريخ آثارهم سرا تكنّه الأرض في صدرها. ويقول السير هـ. هـ جونستون: إن بعض العلماء يظن أنهم كـانوا من طراز شبه زنجي Negroid فإن لسكان عيلام Elam العصريين آصرة بالجنس شـبه الزنجـي، أمـا العموريون فإنهم كانوا من نفس الأرومة التي منها إبراهيم ومن تلاه من العبـرانيين المتـأخرين. واسـتقر العموريون في مدينة كانت بادئ الأمر بلدة صغيرة في أعالي النهر، تسمى بابل، وأصبحوا – بعد مائة عـام قضوها في الحرب – سادة على كل أراضي الجزيرة، وذلك تحت ملك عظيم اسمه حمورابي (١٢٠٠ ق. م) وهو الذي أسس الإمبراطورية البابلية الأولى.

ثم عاد إلى البلاد السلم والطمأنينة وتناقصت قوة العدوان في الفاتحين، ولم تمض مائة سنة أخرى حتـى أخذ رحل جدد يغزون بلاد بابل، وأتوا معهم بالحصان والعجلة الحربية وأقاموا منهم ملكًا على بابل، وكـان هؤلاء هم الكاشيون Kassites

د- الآشوريون وإمبراطوريتهم:

وفي أعالي دجلة فيما وراء الأراضي الطينية وبالقرب من مصادر الحجر السهل القطع والتسـوية، كـان شعب سامي هو الآشوريون يستقر في عدة مواقع أهمها آشور ونينوي وذلـك قبـل أن يخضـع السـاميون السومريين، وكانت خصائص أسارير وجههم وهي الأنف الطويل، والشفاه الغلاظ، قريبة الشبه جدا بأسارير الطراز اليهودي المنتشر اليوم في بولندة، وكانوا يطلقون لحى طويلة وشعورا معقوصة حلقـات، ويلبسـون قلانس عالية وجلابيب طويلة. واشتبكوا على الدوام في غارات متبادلة بينهم وبين الحيثين في الغرب. وقـد غزاهم سرجون الأول، ثم استردوا حريتهم مرة أخرى، ثم زحف عليهم تشراتا Tushratta ملـك ميتـاني Mitanni الواقعة في شمال غربي بلادهم، واستولى على عاصمتهم نينوي، واستبقاها في يـده فتـرة مـن الزمان. وقد ائتمروا ببابل مع مصر، وكانوا يتلقون من المصريين أموالا. وارتفعوا بالفن العسكري إلى ذروة عالية جدا وأصبحوا مغيرين أقوياء ذوي سطوة مرهوبة، يفرضون الجزية على غيرهم وينتزعونها قسـرا. واستطاعوا عندما أدخلوا عندهم الحصان والعجلة الحربية أن يسووا الحساب زمنا ما بينهم وبين الحيثين، ثم عادوا بعد ذلك فغزوا بابل تحت قيادة ملكهم "تَغْلَثَ فلاّسِر الأول" قرابة ١١٠٠ ق. م، ولكن تمكنهم من تلـك الأراضي الدنيا الأقدم من بلادهم عهدا والأكثر حضارة لم يكن مأمونًا، وظلت قصبتهم نينوي المدينة السامية المبنية من الحجر لا بابل المدينة السامية المشيدة من اللبن. وانقضت عدة قرون تأرجح فيها السـلطان بـين نينوي وبابل. وأصبح "ملك العالم" لقبلة يدعيه آشوري تارة وبابلي تارة أخرى.

وتوقفت بلاد آشور أربعة قرون عن التوسع نحو مصر بسبب زحف جديد قامت به مجموعة أخرى مـن الشعوب السامية اندفعت إلى الشمال واستقرت، أولئك هم الآراميون الذين اتخذوا دمشق عاصمة لهم، ونسـل منهم سوريو هذه الأيام. ولتلاحظ أنه لا توجد أية صلة البتة بين كلمة آشوري وكلمة سوري، وإنما هو تشابه صوتي جاء عفوا وبمحض الصدفة. ولقد شق الملوك الآشوريون طريقهم قتالا مخترقين بلاد السوريين أثناء اتجاههم نحو الجنوب الغربي طلبا للفتح والتوسع. وفي سنة ٧٥٠ظهر تغلث فلاسر آخر، وهو تغلث فلاسـر الثالث المذكور في التوراة (سفر الملوك الثاني – الإصحاح ١٥ الآية ٣٩ والإصحاح ١٦ الآية ٧ وما بعدها) فلم يقتصر على إصدار الأمر بنقل الإسرائيليين إلى ميديا (وهي القبائل العشر التائهة التي حير مصيرها عددا كبيرا من الأذهان الطلعة) بل إنه فتح بابل وحكمها، وأسس بذلك ما يعرفه المؤرخون باسـم الإمبراطوريـة الآشورية الجديدة. وقد مات ابنه شَلْمنْأسر الرابع (سفر الملوك الثاني ١٧: ٣) أثناء حصار السامرة، وخلفـه مغتصب حاول ولا شك أن يتملق عواطف البابليين ومشاعرهم فأطلق على نفسه اسما أكاديا سومريا قـديما هو سرجون الثاني.

ويظهر أنه زود القوات الآشورية لأول مرة بأسلحة حديدية. ويرجح أن سرجون الثاني هو الذي نفذ فعلاً نقل القبائل العشر التي كان تغلث فلاسر الثالث [٥٨] قد أمر بإبعادها.

وأصبح مثل هذا النقل للسكان من أبرز ما تمتاز به الأساليب السياسية في الإمبراطورية الآشورية، فـإن شعوبا بأكملها من العسيرة القياد في موطنها الأصلي كانت تنقل جملة إلى مناطق غير مألوفـة لهـا، وبـين جيران مجهولين، إلى حيث ينحصر كل أملها في البقاء، في الانقياد والطاعة للسلطان الأعلى.

وقاد سنْحاريب بن سرجون جيوش الآشوريين إلى تخوم مصر، ولكن جيشه أصـيب بالطـاعون، وهـي كارثة جاء وصفها في الإصحاح التاسع عشر من سفر الملوك الثاني في الكتاب المقدس:

"وكان في تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش آشور مائة ألف وخمسة وثمانين ألفًا. ولمـا بكروا صباحا إذا هم جميعا جثث ميتة. فانصرف سنحاريب ملك آشور، وذهب راجعا وأقـام فـي نينـوي". وهناك قتله أبناؤه.

وأخيرا وفق حفيد سرجون المسمى آشور بانيبال – وهو الذي يطلق عليه الإغريق اسم "ساردانا بالوس" – في فتح مصر، وفي استبقاء الدلتا في يده بعض الزمان.

([٥٨]) نقلنا رسم هذه الأسماء من الكتاب المقدس ولكن الموسوعة الميسرة تكتبها: - تجلات بلسر، - آشور ناصر بال (بعل)، - شلما نصر، - سنخاريب، - اسرحدون، آشور بانيبال، - سن – شاد – اسكن (المترجم).

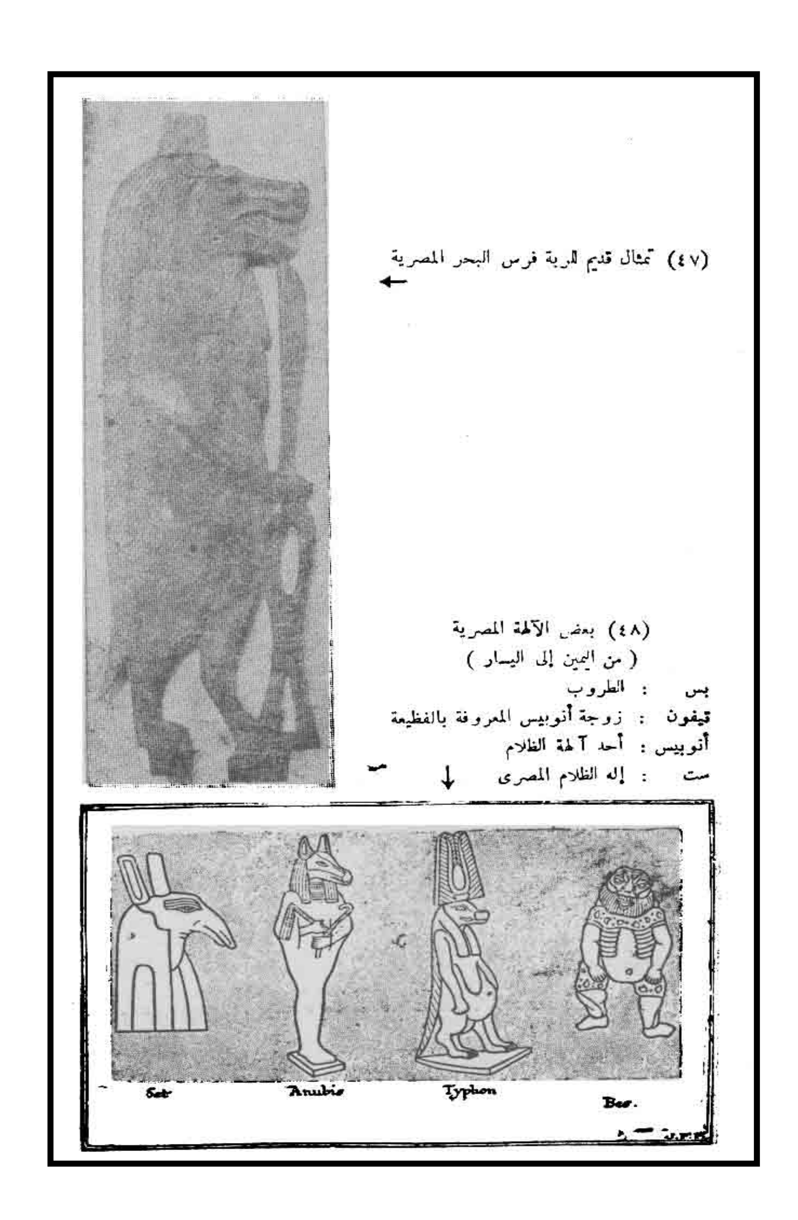
هـ - الإمبراطورية الكلدانية:

لم تدم الإمبراطورية الآشورية بعد سرجون الثاني سوى مائة وخمسين سنة. فإن قوما من الساميين الرحل هم الكلدان زحفوا من الجنوب الشرقي يساعدهم من الشمال شعبان من الناطقين باللغات الآرية، هما الميديون والفرس، فاتحدوا جميعا عليها واستولوا على نينوي ٦٠٦ ق. م. وهذه هي أول مرة تظهر فيها الشعوب الناطقة بالآرية في تاريخنا هذا. إذ انسابوا جنوبا منطلقين من السهول والغابات الشمالية والشمالية الغربية، وكانوا يتألفون من مجموعة من قبائل شديدة البأس، حربية النزعة. سار بعضها في اتجاه جنوبي شرقي إلى الهند حاملاً معه إحدى اللهجات الآرية التي تطورت فيما بعد، فأصبحت اللغة السنسكريتية، واتجه البعض الآخر صوب المدنيات القديمة. وكانت القبائل الرحل الغازية للأراضي الزراعية حتى ذلك الحين هي العيلامية والسامية. أما الآن فإن الآريين هم الذين تسلموا زمام الفتح والحكم طوال ستة قرون أتت. واختفى العيلاميون بعد ذلك من مسرح التاريخ.

وقد استمرت الإمبراطورية الكلدانية بعاصمتها بابل، أي الإمبراطورية البابلية الثانية، تحت حكم نبوخذ ناصر العظيم الملقب بالثاني (بختنصر) وخلفائه حتى ٥٣٨حين انهارت أمام هجمات كورش Cyrus مؤسس الدولة الفارسية.

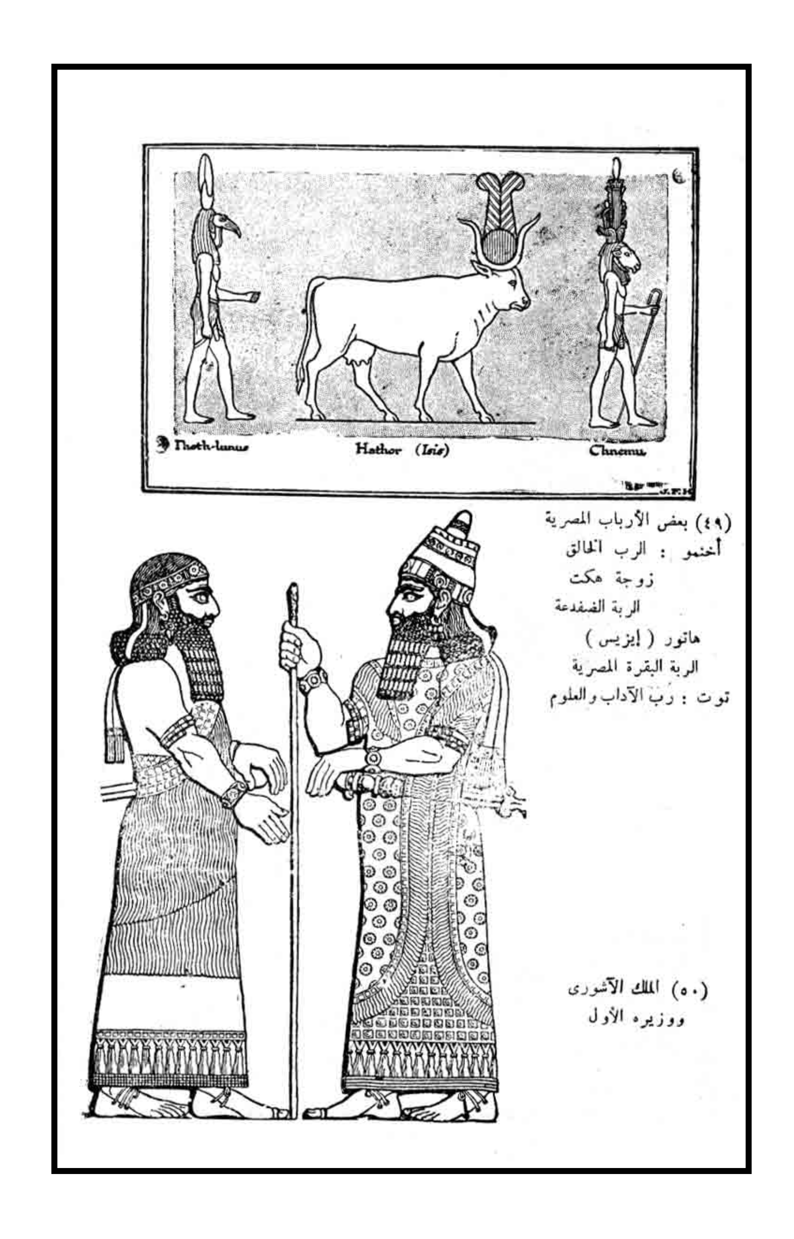
وعلى هذا النحو تستمر القصة. ففي ٣٣٠كما سنوضح لك فيما بعد في شيء من الإسهاب يقف فاتح إغريقي هو الإسكندر الأكبر ينظر إلى جثة آخر ملوك فارس.

وقصة حضارة دجلة والفرات التي لم نقدم إليك عنها حتى الآن إلا هيكلاً مجردا ليس غير، إنما هي قصة غزو يعقب غزوا، ويستبدل كل غزو منها بالحكام السابقين والطبقات الحاكمة السابقة آخرين جددا. وبذلك تبتلع شعوب من أمثال السومريين والعيلاميين وتندثر لغاتهم، ويختلطون بالأجناس الأخرى ويفنون فيها. ويتلاشى الآشوريون ويصبحون كلدانا وسومريين ويفقد الحيثيون مميزاتهم، وينزل الساميون الذين ابتلعوا السومريين عن مكانهم لحكام هذه القبائل الآرية القادمة من الشمال، ويظهر الميديون والفرس في محل الميلاميين، وتتسلط اللغة الآرية الفارسية على الإمبراطورية حتى تطردها اللغة الإغريقية الآرية من الحياة الرسمية.



(٤٧) تمثال قديم للربة فرس البحر المصرية

(٤٨) بعض الآلهة المصرية
(من اليمين إلى اليسار)
بس : الطروب
تيفون : زوجة أنوبيس المعروفة بالفظيعة
أنوبيس : أحد آلهة الظلام
ست : إله الظلام المصرى



(٤٩) بعض الأرباب المصرية
أخنمو : الرب الخالق
زوجة هكت
الربة الضفدعة
هاتور (إيزيس)
الربة البقرة المصرية
توت : رب الآداب والعلوم

(٥٠) الملك الآشورى
ووزيره الأول

وفي غضون ذلك لا ينفك المحراث يدأب على عمله في تلك البلاد سنة بعد أخرى، فتجمع المحاصيل، ويبني البناءون ما يؤمرون ببنائه، ويشتغل الصناع مكتسبين طرائق جديدة، وتنتشر المعرفة بالكتابة، وتستقدم أشياء جديدة هي الحصان والحديد والعجلة الحربية، وتصبح بأجمعها جزءا من ميراث الجنس البشري المستديم. ويزداد جرم التجارة في البحر والصحراء، وتتسع أفكار الناس وينمو العرفان. وترزأ البلاد بنوازل التأخر الرجعي والمذابح والأوبئة، ولكن القصة في جملتها قصة زيادة واتساع. وقد انقضت أربعة آلاف من السنين على هذا الوليد المسمى "بالمدنية" الذي أرسى جذوره في أرض الرافدين، وهو ينمو كما تنمو الأشجار، تفقد آونة غصنًا ويعبث بها الإعصار آونة أخرى، ولكنها دائبة النمو، مواظبة على العودة إلى النمو. وربما استبدل الوليد بأصحابه وجنسه غيرهم، وربما استبدل بلغته سواها، ولكن التطور ظل في جوهره هو نفسه لا يتغير. وبعد أربعة آلاف من السنين كان المحاربون والغزاة لا يبرحون يذهبون ويجيئون فوق ذلك الشيء النامي الذي لم يكونوا يفقهون له معنى. ولكن الناس كانوا عند حلول ذلك الزمان (٣٣٠ ق. م) قد عرفوا الحديد والخيل والكتابة والحساب والنقود، وكشفوا ضروبا مختلفة من الأطعمة والأقمشة والمعرفة بالعالم، تزيد كثيرا على ما كان يعرفه السومريون القدماء.

ولنتذكر أن الزمان الذي انقضى فيما بين إمبراطورية سرجون الأول وبين فتح الإسكندر الأكبر لبابل، يعادل في امتداده على أقل التقديرات، الزمن الذي انقضى منذ عصر الإسكندر الأكبر إلى يومنا هذا، وأنه قبل زمن سرجون الأول كان الناس استقر بهم المقام في الأراضي السومرية، فكانوا يعيشون في مدن، ويتعبدون في معابد، ويتبعون عيشة زراعية منتظمة، في مجتمع منظم طوال مدة أخرى لا تقل عما ذكرناه. وكانت المدن: "غيريدو ولجش وأور وأيسين ولارسا بلادا لها ماض سحيق يسبق بداية التاريخ الذي يظهر فيه اسمها لأول مرة.

ومن أشق الأمور على كاتب التاريخ ودارسه أن يدركا معنى هذه الفترات الزمنية، ويحولا دون تقاصر أطوال هذه العصور أمام ذهنيهما على نحو ما تقتضيه قواعد المنظور في التصوير. فإنك تجد نصف عمر المدنية الإنسانية ومفاتيح كل نظمها الرئيسية قد مضت قبل زمن سرجون الأول. وفضلاً عن ذلك فلن يستطيع القارئ في معظم الأحوال أن يوازن بين تدرج التواريخ في هذه الصفحات الأخيرة المكتظة التي يحتويها تاريخ الإنسان، وبين تعاقب ما لا يقع تحت حصر من أجيال يشهد بها ما أوردناه من رسوم توضيحية وزمنية. والرسم التوضيحي الزمني الوارد في آخر الكتاب الثالث يدل على الفترات الشاسعة في تعاقب الإمبراطوريات الأولى في آسيا.

(٣)

مصر في العصور القديمة

كانت تتمشى مع البدايات القديمة للمدنية في بلاد سومر عملية مماثلة تحدث في مصر، ولا يزال موضوع هذه العملية مدار نقاش حول أيهما أقدم من الأخرى؟ أو إلى أي حد كانت كلتاهما تستقي من مصدر واحد مشترك؟ أو أيتهما كانت تستقي من الأخرى؟

وليست قصة "وادي النيل" منذ بزوغ فجر ما يمكن اقتفاء أثره من تاريخه، حتى زمن الإسكندر الأكبر، بعيدة الشبه كثيرا عن تاريخ بابل. ولكن بينما كانت بابل موطأة الأكتاف للغزو من كل جانب، كانت مصر بمنجاة من الأعداء بما قيض ا لها من صحراء في غربها وصحراء وبحر في شرقها. على حين لم يكن يجاورها جنوبا غير شعوب من الزنج. وعلى ذلك فقد كفي تاريخها شر من يقطع عليه سبيله من غزوات الأجناس الأجنبية، أكثر مما كفى تاريخ آشور وبابل، فظلت حتى قبيل القرن الثامن ق. م (عندما وقعت في قبضة أسرة ملك نوبي)، كلما ورد حياضها فاتح، كان وروده من آسيا بطريق برزخ السويس.

ولا يزال تاريخ آثار العصر الحجري في مصر بعيدا كل البعد عن اليقين المحقق؛ فهناك بقايا ترجع للعصر الحجري القديم، ومن بعدها أخرى ترجع للعصر الحجري الحديث. ولسنا نعرف على وجه التحقيق هل هؤلاء الأقوام الرعاة أهل العصر الحجري الحديث الذين تركوا هذه البقايا، هم الأسلاف الأقربون للمصريين الذين خلفوهم؟ فإنهم يختلفون تمام الاختلاف عمن خلفهم من المصريين في كثير من الأوجه، إذ كانوا يدفنون موتاهم، ولكنهم قبل أن يواروهم التراب كانوا يقطعون أجساد الموتى إربا. والظاهر أنهم كانوا يأكلون أجزاء من لحمهم، ولعلهم فعلوا ذلك عن شعور احترام منهم للراحلين، فكان الموتى "يؤكلون للتكريم" على حد تعبير السير فلندرز بتري. وربما كانت حقيقة الأمر أن الأحياء أحبوا أن يحتفظوا بهذه الوسيلة، ببقية من الفضيلة والقوة التي قضت نحبها في أشخاص موتاهم!! وقد وجدت آثار تدل على عادات وحشية مماثلة لهذه في القبور المستطيلة التي كانت متناثرة في غرب أوربا قبل أن تنتشر فيها الشعوب الآرية، وقد شملت كذلك أفريقيا الزنجية، ولم تأخذ في الانقراض هناك إلا في العصر الحاضر.

وتنتهي آثار هؤلاء الأقوام البدائيين حوالي سنة ٥٠٠٠ ق. م أو قبل ذلك، وعندئذ يظهر المصريون الحقيقيون على مسرح التاريخ. أما الأقوام السابقون فهم من بناة الأكواخ، كما أنهم على حال من ثقافة العصر الحجري الحديث منحطة الدرجة نسبيا. بينما الأخيرون قوم ينتسبون إلى العصر الحجري الحديث وهم متمدينون يستخدمون مباني من الطين والخشب بدلاً من الخصاص التي كان يأوي إليها سابقوهم وكانوا يقطعون الأحجار وينحتونها، وسرعان ما انتقلوا إلى عصر البرونز. ولهم كتابة قوامها الصور تكاد تضارع في تقدمها ما يعاصرها من كتابة السومريين، وإن اختلفت عنها في خصائصها. وربما كانت هناك غزوة قام بها شعب جديد جاء من بلاد العرب بطريق عدن، فنزلوا في مصر العليا وأخذوا يهبطون رويدا رويدا إلى دلتا النيل. وقد كتب عنهم الدكتور واليس بدج يصفهم بأنهم "غزاة من الشرق". ولكن آلهتهم وطرائقهم كانت – ككتاباتهم التي تقوم على الصور – مختلفة فعلاً عما كان لدى السومريين فمن بين أشكال أوائل آلهتهم المعروفة، شكل للإلهة فرس البحر، ومن ذلك تتجلى سمتها الأفريقية البارزة.

وليس طين النيل ناعما لزجا كطين بلاد سومر، ولذلك لم يستعمله المصريون في شئون الكتابة، بل تراهم لجئوا من عهد مبكر إلى شرائح قصب البردي، يثبتونها بعضها فوق بعض، ومن اسمها الإفرنجي Papyrus تشتق كلمة Paper التي يطلقها الإنجليز على الورق وكانت الكتابة الآشورية تكتب بقلم أو خاتم مصوغ بهيئة تجعله يترك أثرا يشبه شكل الأوتاد، بينما الكتابة المصرية تكتب بالمرقاش (الفرشاة)، ونحن مـدينون لهـذا المرقاش بما لهذه الكتابة من قوة تعبير تعلو كثيرا على قوة تعبير الكتابة الأشورية.

والمعالم الإجمالية لتاريخ مصر أبسط منها في تاريخ أرض الجزيرة. وقد جرت عادة المؤرخين من زمن مديد بأن يقسموا حكام مصر إلى أسرات متعاقبة. فمن المألوف عند التكلم على عصور التاريخ المصري أن يتحـدث الناس عن الأسرة الأولى أو الرابعة عشرة وهكذا. وقد غزا الفرس مصر بعد استقرارهم في بابل. ولما صـارت مصر آخر الأمر غنيمة الإسكندر الأكبر (٣٣٢ ق. م) قضى على آخر أسرة وهي الأسرة الحادية والثلاثون.

ونستطيع هنا أن نلاحظ أدوارا إجمالية معينة للتطور في ذلك التاريخ الطويل الذي امتد أربعة آلاف سـنة أو تزيد وتلك مدة أطول مما بين زمن الإسكندر وأيامنا هذه. فهناك دور يعرف باسم "الدولة القديمـة" ابتـدأ بتوحيد المملكتين الشمالية والجنوبية، على يد مينا، وبلغ أوجه إبان الأسرة الرابعة. وتسجل هذه الأسرة عصر ميسرة وفخامة. وتغلب على ملوكها شهوة إقامة الآثار لأنفسهم إلى حد لم يتهيأ لأحد قط من قبلهم أو بعـدهم فرصة لإظهاره وإشباعه؛ فخوفو "الذي عاش حوالي عام ٣٧٣٣حسب تقدير واليس بدج"، وخفرع ومنقـرع، من ملوك الأسرة الرابعة، هم الذين شادوا تلك الأهرام الهائلة من الأحجار وأعني بها أهرام الجيزة: الهـرم الأكبر، والهرم الثاني، والهرم الثالث. ويبلغ ارتفاع الهرم الأكبر أربعمائة وخمسين قـدما وطـول ضـلعه سبعمائة قدم. ويقول واليس بدج إن وزن الهرم يقدر بنحو ٤,٨٨٣,٠٠٠ طن؛ وقد جرت هذه الحجارة كلهـا إلى موضعها بالسواعد والعضلات الإنسانية في الغالب. واستنفدت هذه الأكوام الناووسية التي لا معنى لهـا، والتي لها حجم هائل لا يكاد الناس يصدقونه، والتي بنيت في عصر لم يكد فيه علم الهندسة يولد، اسـتنفدت كل موارد مصر إبان حكم طويل لثلاثة ملوك، وتركتها منهوكة القوى كأنما هي خارجة من حرب عوان.

وقصة مصر من الأسرة الرابعة إلى الخامسة عشرة إنما هي قصة نزاع بين عواصم تتبـادل السـلطان، وبين ديانات تتنافس على النفوذ، قصة عصر تفرقت فيه كلمة الدولة، فأصبحت آونة ممالك شـتى، وآونـة ممالك متحدة. فتاريخها في ذاك الزمان تاريخ داخلي إن صح هذا التعبير. وكثيرا ما يطلق على هذه الفتـرة اسم "عهد الإقطاع". ونستطيع هنا أن نذكر لك اسما واحدا ليس غير من بين ذلك العدد الجم مـن الفراعنـة، وأعني به" بيبي الثاني" الذي امتد حكمه تسعين سنة "وتلك أطول مدة حكمها ملك في التاريخ" ومات بعـد أن خلف وراءه عددا وفيرا من النقوش والمباني. وأخيرا حدث لمصر ما طالما حدث للمدنية في أرض الجزيرة، إذ غزاها بعض الساميين الرحل وأسسوا فيها أسرة من الرعاة المعروفين بالهكسوس وهي الأسرة السادسـة عشرة، التي نهض المصريون فطردوها آخر الأمر. ومن الراجح أن يكون ذلك الغزو قد حدث إبان ازدهار الإمبراطورية البابلية الأولى التي أسسها حمورابي. على أن التوافق الدقيق في التواريخ بين مصـر وبابـل أثناء العصور الأولى لا يزال حتى الآن موضع الشك والريبة. وحدثت بمصر ثورة عامة تمكنت من طـرد هؤلاء الأجانب مرة أخرى ولكن بعد استعباد طال أمده، وكان كره الحكم الأجنبي قد وحد مصر.

ومرت مصر بعد حرب التحرير (حوالي ١٦٠٠ ق. م) في عهد كله يسر ورخاء، هو عهد "الإمبراطورية الحديثة". فقد أصبحت مصر دولة حربية عظيمة ومتحدة، فدفعت بحملاتها آخر الأمر حتى الفرات. وابتدأ بذلك الكفاح الطويل المدى بين مصر والدولة البابلية الآشورية. وكانت كلتا الدولتين تبدو حتى ذلك الحين أبعد شقة من أن تشتبك إحداهما مع الأخرى في حرب. ولكن قدرة الإنسان في الانتقال كانت بلغت إذ ذاك حدا يمكّن جيوشًا بأسرها من المسير من دولة أحد الأنهار العظمى إلى دولة أخرى مثلها.

واستمرت مصر زمنًا في هذا الصراع، وهي صاحبة اليد العليا، فامتدت المملكة التي يحكمها تحتمس الثالث وأمنحتب الثالث (من ملوك الأسرة الثامنة عشرة) من النوبة إلى نهر الفرات، في القرن الخامس عشر ق. م. وهناك أسباب متعددة أتاحت لهذين الملكين أن يظهر اسماهما ظهورا غير عادي في سجل التاريخ المصري. فقد كانا من أشد الملوك ولعا بإقامة المباني؛ فخلفا آثارا ونقوشًا جمة. فأسس أمنحتب الثالث الأقصر، وزاد كثيرا في بناء معبد الكرنك. وقد عثر في تل العمارنة على مجموعة من الرسائل الملكية التي تبودلت بينه وبين عواهل بابل والحيثيين، وملوك آخرين، من بينهم "تشراتا" (صاحب ميتاني) الذي استولى على نينوي. وتلقي هذه الرسائل فيضا من الضوء على الأحوال السياسية والاجتماعية لذلك العصر بصفة خاصة. وسنتحدث عن أمنحتب الرابع حديثًا أو فيما بعد. ولكن ليس لدينا متسع للكلام عن واحدة من أعجب حكام مصر وأعظمهم كفاية وهي الملكة "حتشبسوت". وتمثلها رسومها على آثارها، في ثياب الرجال، وتصورها بلحية طويلة ترمز إلى العقل والحكمة.

ثم حدث من بعد ذلك غزو سوري لمصر دام فترة وجيزة، وتعاقبت على مصر سلسلة من أسرات متغيرة، نذكر منها الأسرة التاسعة عشرة، التي منها الملك رمسيس الثاني وهو من المولعين بإقامة المعابد، حكم مصر سبعا وستين سنة (حوالي ١٣١٧ إلى ١٢٥٠ ق. م) ويظن البعض أنه فرعون موسى. ومنها أيضا الأسرة الثانية والعشرون ومن ملوكها شيشنق الذي نهب هيكل سليمان (قرابة ٩٣٠ ق. م). وجاء فتح نوبي من أعالي النيل جنوبا فأسس الأسرة الخامسة والعشرين وهي أسرة أجنبية [59] سقطت ٦٧٠أمام الإمبراطورية الآشورية الجديدة التي بدأها تغلاث فلاسر الثالث، وسرجون الثاني، وسنحاريب وهي الإمبراطورية التي ذكرناها لك آنفًا. وبذلك سيطرت بابل على وادي النيل لأول مرة في التاريخ.

وهنا أشرفت سيطرة مصر على الأمم الأجنبية على نهايتها. ثم عاد الحكم الوطني إلى مصر ردحا من الزمان أيام أبسماتيك الأول من ملوك الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٤ – ٦٠٠ ق. م) واسترد نخاو الثاني الممتلكات المصرية في سوريا حتى نهر الفرات، بينما كان الميديون والكلدانيون يهاجمون نينوي. ولكن هذه المغانم انتزعت من نخاو الثاني بعد سقوط نينوي ودولة الأشوريين إذ انتزعها الملك الكلداني العظيم "بختنصر الثاني" وهو المذكور في التوراة باسم نبوخذ ناصر. وقد سبى هذا الملك اليهود – وكانوا حلفاء لنخاو الثاني – وحملهم إلى بابل كما سنرى فيما بعد.

([59]) يشير المؤلف إلى استيلاء بعنخي على مصر سنة ٧٣٠ ق. م والواقع أن هذه الأسرة لا تعد أسرة أجنبية لأن النوبة في ذلك الوقت كانت جزءا من مصر شأنها شأن أي جزء آخر من البلاد. (المترجم)

ثم سقطت مصر في القرن السادس ق. م في يد الفرس عقب سقوط كلديا. وثارت البلاد مرة أخرى فيما بعد واستقلت فترة من الزمن دامت ستين عاما؛ ثم أقبل عليها الإسكندر وفتحها في عام ٣٣٢ ق. م. فرحبت به، وحكمها بعد ذلك الأجانب الذين ابتدءوا بالإغريق ومن تلاهم من الرومان، ومن عقبهم من العرب، والترك والبريطانيين، حتى عصر شبه الاستقلال القائم في هذه الأيام [٦٠].

هذا هو تاريخ مصر في إيجاز منذ بداياته. فهو في أول أمره تاريخ عزلة، أخذ يتزايد فيه أمر الاختلاط بشئون الشعوب الأخرى، حين كانت سهولة وسائل المواصلات تدفع بالشعوب رويدا رويدا إلى أن يؤثر بعضها في البعض الآخر تأثيرا وثيقًا.

(٦٠) هنا نقطة غفل عنها المؤلف كما غفل عنها كثيرون من الكتاب وهي أن هذه العهود لم تكن كلها عهود حكم أجنبي بل إن مصر كانت في معظمها مستقلة بنفسها. ويجب ألا يفوتنا هنا أن ننوه بأن عصر شبه الاستقلال الذي يشير إليه المؤلف قد انقضى هو الآخر== ==وأصبح استقلال مصر كاملا بفضل الثورة التي قام بها أبناؤها ممثلة في جيشها والتي قضت على البقية الباقية من القيود التي كانت مفروضة على استقلالها وأطاحت بعرش الأسرة غير المصرية فخلصت مصر بذلك لأهلها ولم تمض على ذلك ثلاثة أعوام وبعض عام حتى أصبحت ذات مكانة مرموقة في المحافل الدولية، على أن كلمة "شبه" ألغيت من أحدث الطبعات الإنجليزية للكتاب ١٩٦٣. (المترجم)

(٤)

مدنية الهند القديمة

حدث قبل عام ٢٠٠٠ ق. م، أن نمت حضارة ثالثة تنتمي إلى العصر البرونزي في السهول الفيضانية لنهر السند وروافده وهي إقليم البنجاب. على أن الحفائر التي أظهرت عظمة ذلك العصر لم تبدأ إلا مؤخرا. وبفضلها ظهرت مدينتا موكنجو – دارو وهارابا، وهما مدينتان مسورتان مبنيتان بالطوب، لا تقل مساحة كل منهما عن ميل مربع، وذلك فضلاً عن مدن وقرى أخرى كثيرة. وكان بناتها يستخدمون العربات والخزف المزجج. واستخدموا طريقة للكتابة لم تحل رموزها بعد، ولهم موازين ومقاييس مختلفة عما لدى السومريين والمصريين. وقد دمرت هذه الحضارة غزوة قام بها قوم من البرابرة الأميين.

وفي عصر يقارب عصر حمورابي، أو يعقبه، انحدر فرع من الشعوب المترحلة الناطقة باللسان الآري، وكانوا آنذاك يسكنون شمال فارس وأفغانستان، انحدروا متسللين في الممرات الشمالية الغربية إلى الهند، وكانوا ذوي قرابة وثيقة بأسلاف الميديين والفرس. شق هؤلاء طريقهم بأسلحتهم، حتى سادوا كل السكان الأشد منهم سمرة في شمال الهند، ثم نشروا حكمهم، أو نفوذهم، في كل أرجاء شبه الجزيرة. ولكن لم يحدث قط أن جمعتهم أي وحدة في الهند، فتاريخهم تاريخ ملوك وجمهوريات لا تفتر بينها الحروب.

ودفعت الإمبراطورية الفارسية بحدودها إلى ما وراء نهر السند أيام توسعها بعد الاستيلاء على بابل. ثم سار الإسكندر الأكبر فيما بعد حتى وصل إلى حدود الصحراء التي تفصل بين البنجاب وبين وادي الكنج. ونحن نغادر تاريخ الهند مؤقتًا، مكتفين بهذا البيان الموجز.

(٥)
تاريخ الصين الأول

وبينما كان ذلك النظام المثلث الذي قامت به مدنيات الجنس الأبيض، يدرج في الهند وفي الأراضي المحيطة بملاقي السبل بين آسيا وأفريقيا وأوربا، كانت مدنية أخرى متميزة عن هذه، قد أخذت تدرج وتنتشر وتتفرع من وادي نهر التاريم – الذي كان حينذاك خصبا، وإن أصبح اليوم مجدبا قاحلاً – ومن منحدرات جبال الكوين لن، في شعبتين تنحدران مع مجرى الهوانج هو، ثم تنعطفان بعد ذلك إلى وادي اليانج تسي كيانج. ونحن حتى اليوم لا نعرف سوى القليل من علم آثار الصين. فقد عثر على آلات حجرية في نواح مختلفة من تلك البلاد. وأصبحنا اليوم على علم بشيء من ثقافة العصر الحجري في ذلك الصقع من المعمورة، من الحفائر التي تمت في هونان ومنشوريا. ويظهر أن هؤلاء الناس لم يكونوا يختلفون عن سكان شمال الصين الحاليين. فكانوا يعيشون في قرى، وكانوا استأنسوا الخنزير، واستخدموا بلطات من الحجر وسكاكين رباعية الشكل، ورءوس سهام من الإردواز والعظم وأصداف الحيوانات البحرية. وكانوا قد تعلموا الغزل، وصنعوا الخزف، الذي يغلب على بعضه نفس الطراز الذي يصنع اليوم. وفيما عدا هذه الأدلة الضئيلة، فإن فكرتنا الحالية عن هذه المدنية الأولى مستمدة من ذلك الأدب الصيني الذي لا نعرف منه حتى الآن إلا الشيء القليل. ومهما يكن من شيء فواضح أنها كانت من بدايتها إلى نهايتها، وفي صميم روحها مدنية مغولية. وقد ظلت إلى ما بعد زمن الإسكندر الأكبر لا توجد فيها إلا آثار قليلة للمؤثرات الآرية أو السامية، وأقل من هذا ما فيها من آثار الحضارة الحامية. فقد كانت هذه المؤثرات كلها لا تزال موجودة في عالم آخر تفصله حتى ذلك الوقت جبال وصحارى وقبائل رحالة متوحشة. ويبدو أن الصينيين صنعوا مدنيتهم من تلقاء أنفسهم، ومن غير معونة خارجية. وإن ذهب بعض الكتاب الحديثين إلى أنهم كانت لهم علاقة بسومر القديمة؛ وإن في وجود طراز متميز خاص من الخزف المنقوش في بعض الحفائر في هونان شبيهة بآنية من الخزف وجدت في مواقع قليلة قديمة بآسيا الوسطى والغربية، وفي أوربا الشرقية، لما يوحي بوجود علاقة ثقافية بعيدة بين القطرين. وبدهي أن كلاً من الصين وسومر قامتا على أسس ثقافة العصر الحجري الحديث الأولى التي انتشرت في العالم بأسره تقريبا. ولكن وادي التاريم ووادي الفرات تفصل بينهما عقبات كئود من جبال وصحارى ممتدة امتدادا شاسعا لا تسمح بحدوث هجرات ولا تبادل سكان استقروا في تلك البلاد.

وربما التقت الحركة النازحة من الشمال بحركة ثقافة أخرى نازحة من الجنوب. فمدنية الصين وإن كانت مغولية بقضها وقضيضها، فلن يستتبع ذلك أن جذورها الشمالية هي أسسها الوحيدة. فلئن نمت بادئ ذي بدء في وادي التاريم، فإنها لم تنم متفرعة من الثقافة الحجرية الشمسية، على النقيض من المدنيات الأخرى كلها (بما فيها مدنيتا المكسيك وبيرو) ونحن – الأوربيين – لا نعرف حتى اليوم إلا الشيء القليل عن السلالات البشرية في جنوب الصين وتاريخ ما قبل التاريخ فيها. فهناك يختلط الصينيون بشعوب تتصل بهم بأواصر القربى من أمثال السياميين والبورمانيين. وكأني بهم على صلة ما بالدرافيديين الأكثر منهم سمرة، وبأهل الملايو.

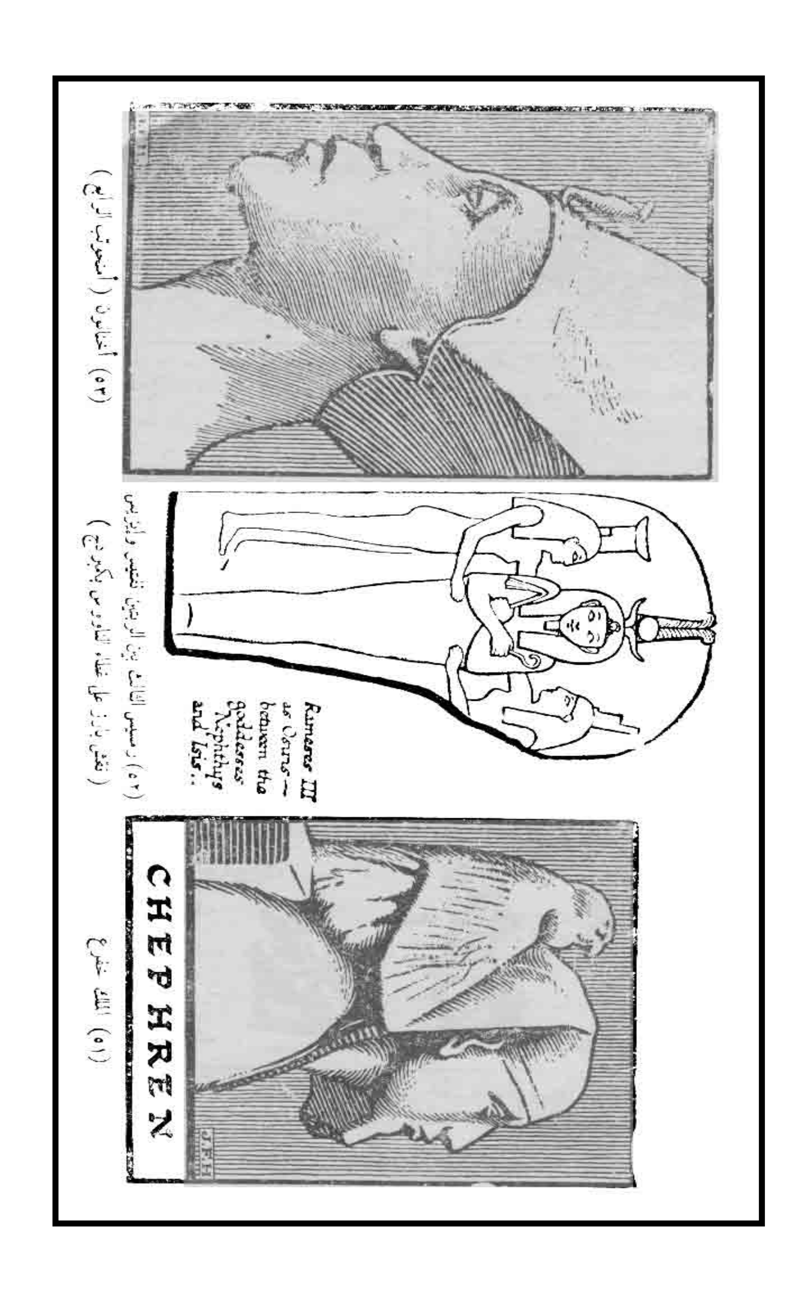
وواضح أشد الوضوح من السجلات الصينية أنه كانت هناك بدايات للمدنية شمالية وجنوبية، وأن المدنية الصينية التي تظهر بوادرها في التاريخ ٢٠٠٠ ق. م، إنما هي نتيجة لعملية طويلة من التنازع والاختلاط والتبادل بين ثقافتين متميزتين: إحداها جنوبية والأخرى شمالية. وربما كانت الجنوبية منهما أسبقهما إلى الوجود وأعلاهما كعبا في التطور. وربما مثل الصينيون الجنوبيون مع الصينيين الشماليين نفس الدور الذي مثله الحاميون أو السومريون مع الشعوب الآرية والسامية في الغرب، أو الذي قام به الدرافيديون المستقرون في الهند حيال الآريين. وربما كان الصينيون الجنوبيون من أول من زرع الأرض وشاد الهياكل. ولكن المعروف من هذا الفصل الجذاب من فصول ما قبل التاريخ قليل إلى حد يجعلنا لا نطيل الحديث عنه هنا أكثر مما قلنا.

وأهم الأجانب الذين جاء ذكرهم في أسفار الصين القديمة قوم من سكان الأورال آلتاي على الحدود الشمالية الشرقية هم الهون الذين نشبت الحروب بينهم وبين بعض الأباطرة الأول.

ولا يزال تاريخ الصين مجهولا لا يعرف عنه العلماء الأوربيون سوى النزر الطفيف، وكل ما لدينا من علم بالسجلات القديمة ناقص أشد النقص. فهي تحدثنا أنه حكم الصين منذ حوالي ٢٧٠٠ إلى ٢٤٠٠ ق. م خمسة أباطرة يلوحون كأنهم مخلوقات مثالية إلى حد لا يكاد يتصوره عاقل.

ويعقب هؤلاء الأباطرة الخمسة سلسلة من الأسرات تأخذ الروايات عنهم في أن تزداد ضبطًا ودقة شيئًا فشيئًا، وأن تدنو إلى الإقناع كلما زاد زمانها قربا. وكان لزاما على الصين أن تنبئنا بأحداث تاريخ طويل لها مليء بحروب الحدود، وبأخبار صراع أعظم من تلك الأحداث خطورة بين الشعوب المستقرة والبدوية. وكانت الصين في أول أمرها كما كانت سومر ومصر، بلادا تقوم فيها دويلات مدن فكانت الحكومة في مبدأ الأمر حكومة ملوك متعددين، ثم أصبحوا أمراء إقطاع مفككين على رأسهم إمبراطور واحد كما فعل المصريون. ثم حدث بعد ذلك – كما حدث في مصر – أن نشأت إمبراطورية تركزت فيها السلطة. ويذكر المؤرخون أسرة شانج (١٧٥٠ إلى ١١٢٥ ق. م) وأسرة تشاو (من ١١٢٥ إلى ٢٥٠ ق. م) بوصفهما الأسرتين العظيمتين لعهد الإقطاع. ولا تزال موجودة بعض الآنية البرونزية التي ترجع إلى عهد هاتين الأسرتين القديمتين، وهي آية في الجمال فاخرة، ولها طراز يميزها عما سواها. وليس هناك أدنى شك في وجود حلة ثقافة عالية حتى قبل أيام أسرة شانج.

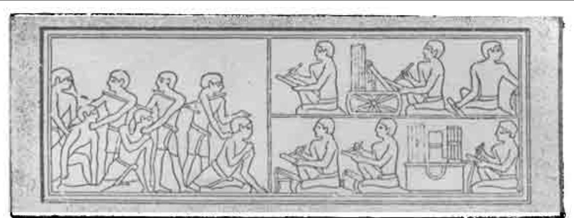
وربما كان الشعور بالترتيب أو الاتساق الزمني هو الدافع الذي حدا بالمتأخرين من مؤرخي مصر والصين أن يقولوا إن الأدوار الأولى لتاريخهما القومي، نبتت تحت إمرة أسر يمكن مقارنتها بالأسرات المالكية في الإمبراطوريات الأخيرة، وأن يتكلموا عن "أباطرة" أولين يشبهون "مينا" في مصر، أو عن الأباطرة الخمسة الأول في الصين. ولقد أصابت الأسرات الأولى سلطانًا أقل مركزية مما تهيأ للأسر المتأخرة. وكانت الوحدة التي وجدت في ظل أسرة شانج وحدة دينية أكثر منها اتحادا سياسيا فعالاً؛ فكان "ابن السماء" يقدم القرابين عن كل الصينيين. وكانت هناك كتابة مشتركة ومدنية مشتركة وعدو مشترك يتمثل في قبائل الهون النازلين على الحدود الشمالية الغربية.



(٥١) الملك خفرع

(٥٢) رمسيس الثالث بين الربتين نفتيس وإيزيس
(نقش بارز على غطاء الناووس بكمبردج)

(٥٣) أخناتون (أمنحوتب الرابع)



(٥٤) فلاحون مصريون مقبوض عليهم لعدم أداء الضرائب (عصر الأهرام)



(٥٥) شجار بين النوتية (من قبر فتاح حتب – عصر الأهرام)



(٥٦) تماثيل صغيرة من قبور الطبقة الوسطى المصرية تمثل أفراداً من الطبقة الدنيا في المجتمعات القديمة

وكان آخر ملوك أسرة شانج عاهلاً قاسيا أحمق، أحرق نفسه حيا في قصره بعد أن هزمه وو – وانج مؤسس أسرة تشاو هزيمة حاسمة (١١٢٥ ق. م). ويلوح أن وو – وانج قد تلقى العون من قبائل الجنوب الغربي كما أعانته ثورة شعبية.

ثم ظلت الصين ردحا من الزمان متحدة اتحادا مهلهلاً تحت حكم أباطرة أسرة تشاو كتهلهل اتحاد العالم المسيحي تحت سيطرة البابوات في العصور الوسطى. وكان أباطرة أسرة تشاو قد أصبحوا هم كبار كهنة البلاد التقليديين بدلاً من أسرة شانج وادعوا لأنفسهم لونًا من ألوان السيادة العليا في شئون الصين. ولكن الروابط المفككة التي ترتبط بها الأوضاع والمشاعر العامة، وهي الروابط التي كانت تمسك أجزاء الإمبراطورية بعضها إلى بعض، أخذت تفقد سلطانها شيئًا فشيئًا على عقول الناس. واتخذت الشعوب الهونية في الشمال والغرب المدنية الصينية دون أن يداخلهم أي إدراك لوحدتها، وبدأ أمراء الإقطاع يعدون أنفسهم مستقلين.

ويذكر المستر ليانج نشي تشاو Liang Chichao، أحد مندوبي الصين في مؤتمر باريس ١٩١٩ في نشرته "الصين وعصبة الأمم " (٦١): "أنه كان هناك في وادي الهوانج هو واليانج تسي بين القرنين الثامن والرابع ق. م ما لا يقل عن خمسة أو ستة آلاف ولاية صغيرة تشرف عليها نحو اثنتي عشرة ولاية" وهو ما يسمى "عهد الفوضى". وكانت أكبر القوى المتنازعة في القرن السادس ق. م هي تسي (Ts'i) وتسن وهما ولايتان شماليتان في حوض الهوانج هو، ثم ولاية تشو Chu وهي دولة قوية في وادي نهر اليانج تسي. ثم تألف من الولايات اتحاد ضد ولاية تشو كان أساسا لعصبة حفظت السلام مدى مائة سنة، وأخضعت تلك العصبة مقاطعة تشو وضمتها إليها وعقدت فيما بينها معاهدة عامة لنزع السلاح أصبحت أساسا لإمبراطورية سلمية جديدة.

وعرف الحديد في الصين في وقت غير معلوم، ولكن الأسلحة الحديدية لم يبدأ استعمالها يشيع إلا في ٥٠٠ ق. م أعني بعد أن أصبح استعمالها أمرا مألوفًا في آشور وفي مصر وأوربا طوال مائتين أو ثلاثمائة من السنين أو تزيد. والراجح أن الحديد أدخل إلى الصين من الشمال على يد الهون.

وقد طرد ملوك تسن Ts'in آخر الحكام المنتمين إلى أسرة تشاو، واستحوذوا على الركيزة البرونزية المقدسة ذات القوائم الثلاثة وهي الخاصة بالقربان، واستطاعوا بذلك أن ينتحلوا لأنفسهم الواجب الإمبراطوري الخاص بتقديم القرابين إلى إله السماء. وعلى هذه الشاكلة تأسست أسرة تسن فحكمت الصين بقوة وكان لها من الأثر ما يزيد على ما أظهرته أية أسرة سبقتها.

---

(٦١) China and the League of Nations

وجرت عادة المؤرخين أن يتخذوا من حكم شي هوانج تي (ومعناها الإمبراطور العام الأول) أحد ملـوك هذه الأسرة مؤذنا بنهاية الصين الإقطاعية المتفرقة الكلمة. ويلوح أنه قام في الشرق بـدور الموحـد، وهـو الدور الذي ربما كان في الإمكان أن يقوم به الإسكندر في الغرب، لولا أن عاجلته منيته، فكانت الوحدة التي أقامها أو (أعادها) أدوم نسبيا، على حين تمزقت إمبراطورية الإسكندر بعد وفاته فورا كما سنوضـح ذلـك. ويعد قيام الإمبراطور شي هوانج تي ببناء سور الصين العظيم لوقايتها من هجمات الهـون، أحـد جلائـل الأعمال التي قام بها في توجيه المجهود العام. ثم تلت حكمه على الفور حرب أهلية انتهت بتأسـيس أسـرة هان.

وفي أيام أسرة هان هذه اتسعت رقعة الإمبراطورية اتساعا عظيما خرج بها عن النطاق الضيق الذي كان لها في واديي النهرين الأصليين. وقد كُفت يد الهون كفًا شديدا، وتغلغل الصينيون غربا حتى أخـذوا آخـر الأمر يتعلمون شيئًا عن وجود شعوب متمدينة سواهم، وعن وجود مدنيات غير مدنيتهم.

وما إن حلت سنة ١٠٠ ق. م. حتى كانت الدولة الصينية امتدت إلى مـا وراء بـلاد التبـت. ودخلـت التركستان الغربية، وحتى كان الصينيون يتاجرون بطريق قوافل الجمال مع بلاد فـارس والعـالم الغربـي. وحسبك في هذا بيانًا مؤقتًا عن الصين، ولنا فيما بعد عودة إلى الخصائص المميزة لحضارتها.

(٦)

ماذا حدث والمدنيات في طور نموها؟

ترى ماذا كان يحدث في سائر أنحاء العالم في أثناء تلك الآلاف من السنين التي كان الإنسان يدرج فيها خطوة فخطوة من همجية الثقافة الحجرية الشمسية إلى أنوار المدنية في تلك المراكز من العالم القديم؟

وإلى الشمال من هذه المراكز من نهر الراين إلى المحيط الهادي كانت الشعوب النوردية والمغولية قد أخذت هي أيضا تتعلم كيف تستعمل المعادن كما سبق أن نوهنا بذلك. على أنه في الوقت الذي أخذت فيه هذه المدنيات تستقر كان هؤلاء الرجال، رجال السهول العظمى، قد أخذوا يجنحون إلى الهجرة ويتطورون بحياتهم من حالة تجوال بطيئة إلى حياة ترحل موسمي كاملة.

وإلى الجنوب من المنطقة المتحضرة – أي في أفريقيا الوسطى والجنوبية – كان الزنج يتقدمون بدرجة أبطأ؛ وكان ذلك فيما يبدو تحت تأثير منبه جديد لهم هو غزو بعض القبائل الأكثر منهم بياضا والساكنة في بعض نواحي البحر المتوسط، والتي حملت إليهم على التعاقب: الزراعة فاستعمال المعادن. انحدرت هذه القبائل إلى ربوع السود بطريقين: أحدهما غربي مجتازا الصحراء، سلكته البربر والطوارق وأشباههما فاختلطوا بالزنج، وأنتجوا أجناسا شبه بيضاء من أمثال الفولا (Fulas)، وثانيهما بطريق النيل حيث نجد أن الباجندا مثلاً وهم شعب الجاندا الذين يسكنون أوغندة، ربما يكون فيهم بعض عناصر تنتسب إلى أصل أبيض بعيد. وكانت الغابات الأفريقية عند ذاك أكثف منها اليوم كما كانت تمتد من النيل الأعلى نحو الشرق والشمال.

والراجح أن جزائر الهند الشرقية كانت لا تزال قبل ثلاثة آلاف من السنين لا يسكنها إلا ثلل جانحة منعزلة من الأستراليديين أهل العصر الحجري القديم متفرقة هنا وهناك ممن انتقلوا إليها تجوالاً أثناء تلك العصور السحيقة القدم، حين كانت هناك قنطرة من الأرض تكاد تكون كاملة توصلهم بطريق جزائر الهند الشرقية إلى أستراليا. وكانت جزائر الأوقيانوسيا [٦٢] خالية غير مأهولة. وقد جاء انتشار شعوب الثقافة الحجرية الشمسية في جزائر المحيط الهادي بحرا بالزوارق المعروفة بزوارق الكانو، متأخرا عن هذا كثيرا على أنه مهما تقادم به العهد لم يتأخر عن ألف سنة ق. م. ثم وصلت هذه الشعوب إلى مدغشقر في وقت متأخر عن هذا أيضا. كذلك كان جمال نيوزيلندة لا يزال مضيعا ليس له من عيون البشر عين تجتليه. وكان أعلى أصناف الأحياء فيها طائرا عظيما يشبه النعامة هو الموا (Moa) وهو اليوم من الحيوانات البائدة والكيوي الصغير الذي له ريش يشبه الشعر الخشن كما له أبسط درجة من درجات الجناح.

---

(٦٢) مصطلح يضم جزائر المحيط الهادي، وأقسامها أرخبيل الملايو وأستراليشيا وبولينيزيا (المترجم)

فأما أمريكا الشمالية فكانت بها جماعة من قبائل شبه مغولية "مغوليدية Mongoloid" انقطعت صلتهم بالعالم القديم تماما. وكانوا ينتشرون نحو الجنوب في أناة وبطء وهم يصيدون الجاموس البري الذي لم يكن ليحصيه عد. وكان لا يزال لزاما عليهم أن يتعلموا من تلقاء أنفسهم أسرار زراعة منفصلة أساسها الأذرة، كما أخذوا في أمريكا الجنوبية يستأنسون اللاما ليستخدموها في أغراضهم، وأن يقيموا في المكسيك ويوقاطان وبيرو ثلاث مدنيات منفصلة ذات طراز عجيب له مميزات خاصة به.

وعندما وصل الناس إلى الطرف الجنوبي الأقصى من أمريكا كانت حيوانات الميجاثريوم (الكسلان الجبار) وحيوان الجليبتودون وهو حيوان الأرمادللو الجبار، لا تزال بين الأحياء.

وربما استطاعت هذه المدنيات الأمريكية البدائية أن تكون في نهاية الأمر عونا كبيرا لنا على تفهم التطور الإنساني، إذ يبدو أنها حفظت لنا – حتى أوان اندثارها على يد المستكشفين الأوربيين في آخر القرن الخامس عشر، - آراء وأساليب لم يبق لها في خبرات العالم القديم وجود قبل ميلاد المسيح بخمسة أو ستة آلاف من السنين. ذلك أن أهل هذه المدنيات البدائية لم يرتقوا قط إلى مرتبة استعمال الحديد، وكانت معدنياتهم من أبسط الأنواع. وأهم معادنهم الذهب والنحاس، يعثرون عليها عروقًا طبيعية في بلادهم. وكانت مصنوعاتهم الحجرية وخزفهم ونسيجهم مع ذلك في مستوى راق جدا، وكانوا صباغين عظيمي المهارة. وهذه المجتمعات – كالمدنيات البدائية البائدة من أمد بعيد في العالم القديم – يتجلى فيها ترابط وثيق بين التضحية بالإنسان وبين عمليات أوان البذار والمحصول؛ ولكن هذه الأفكار الاجتماعية الأولى تطورت في أمريكا إلى درجة من الغلو خارقة للعادة، على حين أنها في العالم القديم خفت حدتها وطغت عليها آراء أخرى كثيرة. والثعبان هو الرمز الغالب في الزخارف الدينية. ويبدو أن هذه المدنيات الأمريكية قامت في أقطار تسلط فيها الكهنة، وكان رؤساؤهم في الحرب وزعماؤهم في السلم خاضعين لسلطان قانون شديد وهاتف عات يفسر الكهنة كلماته.

وقد ارتفع كهنتهم بعلم الفلك إلى درجة عالية من الصحة والدقة. فعرفوا سنتهم خيرا مما عرفها البابليون. وأنتجت المدنية في يوقاطان نوعا من الكتابة هي الكتابة المياوية بلغت أقصى درجة من الإحكام. وإنا لنعرف من الحد الذي وصلنا إليه من فك رموزها أنها كانت مستعملة في تدوين التقاويم المضبوطة المعقدة، التي كان الكهنة ينفقون فيها نشاطهم العقلي. وبلغ الفن في الحضارة المياوية درجة عظيمة من الرقي، وإن بعض ما أنتجه فن النحت البسيط في بيرو لمما يوحي إلينا بذكرى ما أنتجه السومريون، ولكن القطع المياوية لا تشبه مطلقًا أي شيء أنتجه العالم القديم، وهي تسمو في دقة صنعها إلى درجة عالية من الجمال وأقرب مثيلاتها، وإن كانت مع ذلك غير قريبة جدا منها، تتبدى في بعض المنحوتات التي توجد في جنوبي الهند. وهي تدهش الناظر بما فيها من قوة التشكيل واكتمال الصوغ، ولكنها تربك الإنسان لما فيها من غرابة شكل تبعث على الضحك، فهي نوع من التعقيد الجنوني والخضوع للأوضاع. ويشبه الكثير من المخطوطات المياوية ضربا من الرسم المتقن الذي يعمله بعض المجانين في مستشفيات الأمراض العقلية بأوربا، أكثر مما يشبه أي شيء آخر أنتجه العالم القديم. وكأنما جاء تطور ذلك العقل المياوي في طريق يخالف الطريق الذي سلكه العقل في العالم القديم، وكأني به قد اكتسب في أفكاره نوعا مختلفًا من الانحراف، وكأنما لم يكن ذهنه في الواقع عقلاً رشيدا بالضبط إذا هو قيس بمعايير العالم القديم.

ويجد هذا الارتباط بين تلك المدنيات الأمريكية الشاذة المنحرفة وبين الرأي القائل بوجود شذوذ وانحراف عقلي عام، ما يدعمه في ملازمتهم كالوسواس فكرة إراقة الدم الإنساني. فقد كانت المدنية الأزتكيـة Aztec أي (المكسيكية) تهرق الدم فتقدم في كل سنة آلافًا من الضحايا الإنسانية. وكان فتح جـوف الضـحية حيـة وانتزاع القلب وهو لا يزال ينبض، عملاً متسلطًا على أذهان هاته الكهانات العجيبة وحياتها. وكانت الحيـاة العامة والحفلات الموسمية تدور كلها حول هذه الفكرة الوهمية الفظيعة الراسخة.

ولم تكن كتابة المايا تحفر في الأحجار فحسب، بل كانت فضلاً عن ذلك ترقش بالأصباغ وتكتـب علـى الرق. وهذه المخطوطات مرسومة بألوان زاهية، وبينها وبين الأوراق الرخيصة الملونة التـي تبـاع اليـوم للأطفال في أمريكا وأوربا شبه عجيب. فهناك نفس التكرار في الأشكال مع التنوع كأنما هي تروي لنا قصة من القصص. أما في بيرو فقد استعيض عن الكتابة البدائية بطريقة تسجيل عجيبة معقدة بوساطة عقد تـربط على خيوط متنوعة الألوان والأشكال. ويقال إنه حتى القوانين والأوامر كان إرسالها ميسورا بهـذه الكتابـة الشفرية. وكانت هذه الحزم من الخيوط تسمى كويباس quipus؛ ومع أن بعض هذه الحزم لا يـزال يعثـر عليها في مجموعات، فإن فن قراءتها ضاع منا تمام الضياع. ويخبرنا المسـتر ل. ي. تشـن أن التـواريخ الصينية تذكر أن طريقة مماثلة لهذه للتدوين بالعقد كانت مستعملة في الصين قبل اختراع الكتابة فيهـا. وقـد توصل أهل بيرو كذلك إلى عمل الخرائط واستعمال إطارات العد.

ولما وصل الإسبان إلى أمريكا لم يكن المكسيكيون يعرفون شيئًا عن أهل بيرو، كما لم يكن أهـل بيـرو يعرفون شيئًا عن أهل المكسيك. ومهما تكن الروابط التي كانت موجودة بينهم – إن وجدت قط – فإنها ذهبت وعفى عليها النسيان. ولم يكن أهل المكسيك قد سمعوا أي شيء عن البطاطس، على حين كانـت البطـاطس مادة ذات شأن في غذاء أهل بيرو. والراجح أنه في ٥٠٠٠ ق. م لم يكن المصريون والسـومريون يعـرف بعضهم عن البعض أكثر مما يعرف أهل أمريكا بعضهم عن البعض الآخـر. والواقـع أن أمريكـا كانـت متقاعسة عن العالم القديم بنحو ستة آلاف سنة.

(٧)
أسطورة أطلانطيس

ولعل هذا هو المكان الذي نذكر فيه شيئًا عن تلك القصة التي لا أساس لهـا، قصـة قـارة أطلانطـيس المفقودة. إن عددا كبيرا من الناس يعتقدون أن هناك ما يدل على أن دولة عظيمة متمدينة قامت منـذ ثلاثـة آلاف سنة أو ما يقاربها، في المحيط الأطلنطي فيما وراء مضيق جبل طارق. وكانت هذه قطرا كبيرا فسـيح الأرجاء بل قارة من القارات. وفيها حدائق الهسبريدس Hesperides أي الحدائق الغربية. وهم يستندون في معتقدهم هذا إلى إشارات تكرر ورودها في الأدب الإغريقي وما تلاه من أدب إلى مثل هذه الأرض المختفية. والقصة من النوع الذي قد يروق مخرجي السينما وروادها، ولكنها ليس لها بين حقـائق الجغرافيـا أو علـم طبقات الأرض أو علم الآثار القديمة أي سند يدعمها.

وهناك من وجيه الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأنه في عصر بعيد مـن الـزمن الجيولـوجي، كانـت الأرض تشغل المكان الذي تهدر فيه اليوم أمواج المحيط الأطلنطي. ولكن ليس من أدلة تثبت، فكرة وجـود أي امتداد نحو الغرب لأوربا أو آسيا منذ العصر الميوسيني، بل على العكس فإن هناك أدلة كثيـرة تـدحض ذلك. ولكن المدنية لا ترجع إلى أكثر من العشرين ألف سنة الأخيرة، بل يرجح ألا يزيد عمرها عن عشـرة الآلاف الأخيرة. ولم يصبح الإنسان إنسانًا إلا منذ العصر البلايستوسيني. وبقايا الإنسان التـي نجـدها فـي إسبانيا وأفريقيا الشمالية لا تعطينا أية دلالة على وجود حالة من الثقافة في الغـرب. وإن الأدب الإغريقـي القديم وشعر هوميروس وهسيود لتغفل إغفالاً تاما ذكر إسبانيا نفسها، ولن أذكر لك المحيط الأطلنطي فجهلهم به أتم وأطبق.

وقد درس المستر رجينالد فسندن هذه القصص المتعلقة بأطلانطيس دراسة دقيقة وافية، واستنتج أنهـا لا تشير إلى أرض مفقودة في المحيط الأطلنطي بل تشير إلى ما هو أرجح من هذا كثيرا: إلى حضارة كانت في أحد الأيام أهم من هذا بكثير تقوم في أصقاع بلاد القفقاس. ونحن نعرف أن المياه انتشرت ثم انحسرت فـوق جنوبي روسيا وفوق آسيا الوسطى إبان وجود الإنسان على ظهر الأرض حتى لقد كان ما هو الآن صحارى جرداء بحارا زواخر؛ وكانت هناك في يوم ما غابات كثيفة حيث لا يكاد يوجد الآن أي عشب يكفـي للقيـام بأود الحياة. ولدينا الآن كل دليل يحملنا على الاعتقاد بأننا سنجد في ذلك الجزء من العالم بقايا هائلة لمدنيات قديمة. فربما تكون سواحل البحر الأسود قد طغى عليها الماء ونكبها نكبة مروعة، ترجع إلى تـاريخ يسـبق حركة الشعوب الآرية نحو الجنوب. وربما حدث أن غمرت تلك الأصقاع فجاءة بالمياه إذ إن مستوى سـطح البحر لو ارتفع الآن خمسين قدما فحسب، لاتصل البحر الأسود ببحر قزوين، بل قد تتحقق النتيجة بعينها لـو اتفق مرور دورة من سنين مطيرة باردة توقف البحر من سطح هذه المياه. ونحـن فـي الـزمن الحاضـر مزودون أحسن تزويد بالخرائط، ولدينا في الجغرافيا نظريات وآراء بلغت من الدقة والإثبات حدا يجعل مـن المحال علينا أن نتصور ما كانت عليه الأفكار الجغرافية في الألف الثانية ق. م من غموض حتى عند أوسع

الناس علما وأدقهم معلومات. فقد كان من اليسير حين ارتاد التجار من الفينيقيين والإغريق البحر المتوسط الغربي حتى نهايته أن تقلب الأقاصيص الرائعة الحافلة بالأعاجيب عن قطر مفقود كان الناس يذهبون إليه يوما ما بطريق الدردنيل بحرا، إلى اتجاه مضاد وأن تحول إلى أقاصيص عجيبة عن نفس تلك الأرض التي تتحدث بها الأساطير، بعد أن ينقل الخيال مكانها إلى ما وراء البوغاز المكتشف حديثًا. وما من شك في أن بلاد الكرج (جورجيا) ستكشف أعمال الحفر فيها عن آثار كثيرة، فإن قدر أن يعثر الناس على أي شيء له قيمة عظيمة في علاقات المدنيات الأولى، فمن المحتمل أن يعثر عليه في المنطقة المحصورة بين البحر الأسود والتركستان الغربية. ذلك بأن عددا مدهشًا من الحكايات الخرافية والأساطير الإغريقية تجد في بلاد الكرج مرتعا خصيبا – فهي أرض قصة "الجزة الذهبية The Golden Fleece" كما كانت هدف الأرجونوت Argonaut [٦٣] ومرماهم، وبها صفد بروميثيوس بالأغلال مع العقاب الذي كان ينهش أهم أعضائه.

وهناك عالم حجة في علمه هو السير فلندرز بترز Flinders Petrie وهو يؤيد فكرة وجود علاقة قديمة بين كولشيس Colchis وهي الدولة الواقعة جنوبي القفقاس وبين مصر قبل التاريخ – وقد لحظ هيرودوت سلسلة من أوجه الشبه بين الكولشيين والمصريين.

---

(٦٣) هم أبطال البحر الخرافيون، اشتهروا بقدرتهم على عبور مساقط المياه السريعة في سفن طويلة يغيرون بها على السواحل للنهب والسلب. (المترجم).

الفصل الرابع عشر

الشعوب البحرية والشعوب المتاجرة

١- أقدم السفن والملاحين.

٢- أول رحلات الاستكشاف.

٣- الرحالة الأوائل.

٤- المدن الإيجية قبل التاريخ.

٥- المتجرون الأوائل.

(١)
أقدم السفن والملاحين

صنعت الزوارق الأولى في زمن مبكر حقًا من مرحلة ثقافة العصر الحجري الحديث؛ إذ صنعها السكان المجاورون للأنهار والبحيرات. ولم تكن لتزيد على أشجار وأخشاب طافية استعملت لمعاونة قوى السباحة الناقصة بحكم الطبيعة في الإنسان. ثم جاء دور لجئوا فيه إلى تفريغ قلوب الأشجار، تلته مع تطور العدد والنجر البدائي مرحلة بناء الزوارق. وقد أنتج الناس في مصر وأرض الجزيرة أيضا طرازا بدائيا من الزوارق مصنوعا كالسلال ومقلفطًا بالقار. وعلى هذه الشاكلة كان فلك الحلفاء الذي أخفت فيه أم موسى (عليه السلام) ولدها.

وقد نشأ نوع مقارب لهذا من الزوارق باستعمال الجلود والإهابات [٦٤] منشورة على إطار من الأغصان ولا تزال زوارق الكوراكل (Coracles) المصنوعة من جلد البقر الخام مع فروع الشجر الرفيعة المجدولة، مستعملة حتى وقتنا هذا في الشاطئ الغربي من إرلندة، حيث الوفرة في عدد الماشية والنقص في الأشجار الضخمة. وهي لا تزال تستعمل في نهر الفرات ونهر التووي (Towy) في ويلز الجنوبية. وتوجد في ألاسكا أيضا زوارق من هذا الطراز القديم ينتقل الناس بها من أمريكا إلى سيبيريا وربما سبقت الجلود المنفوخة (القرب) زوارق الكورا، كل هذا وهي لا تزال مستعملة في نهر الفرات وفي نهر الكنج الأعلى. ولا بد أن الزوارق أصبحت من زمن مبكر جدا وسيلة هامة من وسائل المواصلات في وديان الأنهار العظيمة. ويبدو أنه من الطبيعي أن نظن أن الإنسان، وقد أصبح له قارب صالح جدير بالبحر، تجرأ لأول مرة فخرج من مصاب الأنهار إلى بحر لا بد أنه كان يظنه حينئذ البحر الذي لا طرق فيه ولا مأوى ولا مستقر.

ولا ريب أنه تجرأ أول الأمر على التوغل في البحار بوصفه صيادا يطلب السمك بعد أن تعلم مبادئ الملاحة في الأجوان والمستنقعات الشاطئية. وربما كان الناس يسيرون الزوارق فوق البحيرة الشرقية قبل امتلاء البحر المتوسط بمياه المحيط الأطلنطي. وكان زورق الكانو (Canoe) جزءا ضروريا مكملاً لثقافة العصر الحجري الشمسي، انتقل مع ثقافة ذلك العصر مارا فوق مياه الأرض الدفيئة من البحر المتوسط حتى انتهى به المطاف في أمريكا. ولم يكن في بلاد سومر زوارق "كانو" فحسب، بل زوارق وسفن سومرية تجري في الفرات ودجلة، يوم كان لكل منهما مصبه في الخليج الفارسي (٧٠٠٠ ق. م). وكان لمدينة إيريدو السومرية التي كانت تقع على رأس الخليج الفارسي (والتي تنفصل عنه الآن بشقة تكونت من الغرين طولها مائة وثلاثون ميلاً) سفن تمخر البحر حينذاك. وكذلك نجد شواهد تدل على حياة بحرية كاملة التطور في الطرف الشرقي من البحر المتوسط قبل ستة آلاف سنة من الزمان، ومن الجائز أن زوارق الكانو كانت تمخر بحار المناطق التي بين جزائر الهند الشرقية القريبة. وثم صور تمثل زوارق مصرية في العصر الحجري الحديث قبل عهد الأسرات الملكية، وهي ذات حجم متوسط بعض الشيء وتستطيع أن تحمل الفيلة.

([٦٤]) ورد في المعجم الوسيط: "الإهاب: الجلد المحيط بجسم الحيوان قبل أن يدبغ". (المترجم).

وسرعان ما استطاع رواد البحر أن يدركوا الحرية العجيبة والصدف السعيدة التي كانت تحبوهم بها السفن. فقد كانوا يستطيعون الهروب بها إلى بعض الجزائر. ولا يستطيع أي رئيس أو ملك أن يطارد زورقًا أو سفينة وهو على ثقة تامة بفوزه بها. وبذلك كان كل ربان ملكًا غير متوج. وكان رجال البحر يجدون إنشاء الأوكار على الجزائر وفي مناطق منيعة من أراضي القارات أمراً هينًا يسيرا. ففيها كانوا يستطيعون أن يرصوا سفنهم، وفيها كان يمكنهم أن يقوموا بمقدار معين من الزراعة وصيد السمك. بيد أن مناط تخصصهم وأهم عمل لهم كان بالطبع هو السفر فوق متن الماء، ولم يكن ذلك في العادة ارتيادا للتجارة، بل كانت القرصنة غايتهم الفعلية في معظم الأحوال. وإذا نحن تأملنا طبيعة الإنسان حكمنا قطعا بأن البحارة الأوائل كانوا ينهبون ويسلبون إذا استطاعوا ويتجرون إذا اضطروا إلى ذلك اضطرارا.

وإذا كانت ملاحة العالم القديم قد تطورت في المياه الهادئة الدفيئة نسبيا: مياه البحر المتوسط الشرقي والبحر الأحمر والخليج الفارسي والقرن الغربي للمحيط الهندي، فإنها احتفظت في كل تلك الأصقاع على مدى التاريخ بخصائص مميزة لها، تباعد مسافة الخلاف بينها وبين طريقة السفن الشراعية التي ظلت تمخر عباب المحيطات طوال الأربعمائة سنة الأخيرة – بما لها من شراع ممتد امتدادا عظيما. ويقول المستر طُر Torr: "إن البحر المتوسط بحر قد تقف فيه السفينة الشراعية عن الحركة أياما متتالية لسكون الريح، على حين يستطيع الزورق ذو المجاديف بلا عناء أن يخترق تلك المياه الوادعة التي يجد في كل مكان منها ساحلاً أو جزيرة يلجأ إليها إذا هبت عليه العاصفة. ومن ثم أصبح المجداف وسيلة الملاحة المميزة في هذا البحر، كما كان تدبير المجاديف أعظم مسائل بناء السفن قيمة. ويوم كانت شعوب البحر المتوسط متسلطة على غرب أوربا، كانت تبنى في السواحل الشمالية سفن من نفس الطراز الجنوبي، وإن كان بهذه السواحل من الرياح ما يناسب القلوع ويتجاوز احتمال سفن المجداف...

"وأول مكان نستطيع أن نتبين فيه فن التجديف هو نهر النيل. فهناك صور تمثل قوارب بمجاديف مرسومة على أقدم الآثار المنقوشة في مصر. ومع أن بعض الملاحين يجدفون فيها وينظرون بوجوههم شطر مقدم السفينة، فإن بعضهم الآخر يجدف بالمجاديف متجهين صوب مؤخرها. ولا شك أن التجديف بالمجداف القصير العريض هو الطريقة الأولى، لأن كلمة "تشن Chen" الهيروغليفية تصور لنا ذراعين قابضين على مجداف في هيئة التجديف الرأسية المميزة للمجداف القصير العريض. وليس يغرب عن البال أن الحروف الهيروغليفية اخترعت منذ أشد العصور قدما. حقًا إن هذه الطريقة ربما تكون مما بطل استعماله قبل ٢٥٠٠ ق. م رغم شواهد الآثار في تلك الأزمان، لأن الآثار المصنوعة بعد ١٢٥٠ ق. م تمثل الملاحين وهم متجهون اتجاها سليما صحيحا، فهم يولون وجوههم شطر مؤخر السفينة وهم مع ذلك يمسكون بمجاديفهم في هيئة من يولون وجوههم شطر مقدمها، ومعنى هذا أنه حتى ذلك الوقت كان الفنانون المصريون يتبعون بطريقة آلية نفس اتجاه الرسم الهيروغليفي الذي تعودته أيديهم. وتحوي تلك الرسوم البارزة عشرين مجدفًا في الزوارق النيلية، وثلاثين على سفن البحر الأحمر، بيد أن العدد يتفاوت تفاوتًا كبيرا في الرسوم البارزة الشديدة القدم، وكأنما هو متوقف على المتسع الذي بين يدي النحات".

وقد نزلت الشعوب الناطقة بالآرية إلى البحر في عصر متأخر. وكانت أقدم السفن في البحر إما سومرية أو حامية. وجاءت الشعوب السامية من فورها عقب هؤلاء الرواد السباقين. فعلى امتداد الطرف الشرقي من البحر المتوسط، أقام الفينيقيون (وهم شعب سامي) سلسلة من المدن البحرية أهمها عكا وصور وصيدا. وما لبث هؤلاء الفينيقيون أن توغلوا برحلاتهم غربا وأسسوا قرطاجة وأونيكا في شمال أفريقيا، وربما كانت الصنادل الفينيقية تجوب البحر المتوسط ٢٠٠٠ ق. م. وكانت كل من صور وصيدا مبنية على جزائر في مبدأ أمرها، وبذا كان الدفاع عنها ضد غارات المعتدين من البر أمرا يسيرا.

ولكن علينا قبل أن نواصل القول في الأعمال البحرية العظيمة التي قام بها ذلك الجنس البحري المجيد، أن نذكر شيئًا عن مهد بحري شهير ضم شعبا بحريا قديما هو الذي كشفت آثاره في جزيرة كريت.

(٢)

المدن الإيجية قبل التاريخ

كان هؤلاء الكريتيون الأول من جنس يمت بصلة القربى إلى الأيبيريين أهل إسبانيا وأوربا الغربية وإلى البيض الداكنين من أهالي آسيا الصغرى وشمالي أفريقيا. بيد أن لغتهم ليست معروفة، ولم يقتصر هذا الجنس على سكنى كريت فحسب، بل استوطن أيضا قبرص وبلاد الإغريق وآسيا الصغرى وصقلية وجنوبي إيطاليا. وكان شعبا ممدنًا دامت حضارته عصورا طويلة قبل أن ينتشر الإغريق الشقر النورديون جنوبا مخترقين مقدونيا. فقد وجدت بمدينة كنوسوس بكريت مخلفات وآثار من أعجب ما خاف القدماء. ولذا فإن عاصمتهم كنوسوس خليقة بأن يطغى ضياؤها على أخيلة الناس كاسفًا كل نور أرسلته سائر مستقراتهم. ولكن يجدر بنا أن نتذكر أنه وإن كانت كنوسوس ولا ريب من كبريات مدن تلك الحضارة الإيجية، فإنه كان لهؤلاء الإيجيين وهم في ذرى حضارتهم وأوج سلطانهم مدن كثيرة ومجال رحيب.

وتضم كنوسوس بقايا من أيام العصر الحجري الحديث تضاهي في قدمها أي بقايا ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات في مصر، بل هي أقدم منها على التحقيق. وبدأ عصر البرونز في كريت بمجرد ما ابتدأ في مصر. وعثر السير فلندرز بتري في مصر على زهريات أرجعها إلى زمن الأسرة الأولى وأعلن أنها مستوردة من جزيرة كريت.. وبعض الزهريات الحجرية والتمائم ومياسم الأختام التي عثر عليها في كريت تشير إلى وجود علاقات بينها وبين وادي النيل حتى في عصر ما قبل التاريخ من أسرات. ووجدت كذلك أوان من الحجر تحمل أشكال الأواني التي كانت تصنع إبان الأسرة الرابعة (بانية الأهرام). ولا سبيل إلى الشك في أنه كانت هناك علاقة تجارية قوية بين كريت ومصر أيام الأسرة الثانية عشرة، وقد استمرت هذه العلاقة حتى قرابة ١٠٠٠ ق. م. ومن الواضح أن تلك المدنية الجزيرية التي نهضت على أرض كريت تضارع المدنية المصرية قدما على أقل تقدير، وأنها ابتدرت فنزلت البحر في عصر مبكر يرجع إلى ٤٠٠٠ ق. م قبل أن يظهر على مسرح التاريخ أي من الساميين أو الآريين.

على أن الفترة التي بلغت فيها كريت عظمتها لا ترجع إلى هذا الوقت المبكر. ويظهر من دلائل الأحوال أن الجزيرة لم توجد تحت إمرة حاكم واحد إلا قرابة ٢٥٠٠ ق. م. وما لبث – أن ابتدأ بها عصر سلام وتقدم لا مثيل لهما في تاريخ العالم القديم. وخلا للسكريتيين الجو فتقدموا في الفنون وفي وسائل الترف لتمتعهم بميزات: هي أمنهم من الغزو وعيشهم في مناخ جميل واتجارهم مع المجتمعات القديمة المتمدينة في العالم.

ولم تكن كنوسوس هذه مدينة قدر ما كانت قصرا هائلاً للملك وشعبه. بل إنها لم تكن محصنة. والظـاهر أن الملوك كانوا يلقبون على الدوام باسم "مينوس Minos" شأن ملوك مصر إذ يسمون جميعـا بالفراعنـة. وتصور لنا أساطير الإغريق القديمة ملك كنوسوس باسم الملك مينوس الذي يسكن قصر التيه ويحـتفظ فيـه بوحش مرعب نصفه آدمي ونصفه عجل واسمه المينوطور، وكانت تجبى من أجل إطعامه جزيـة قوامهـا الفتيان والعذارى يجبيها الملك من الأثينيين. وهذه الأقاصيص جزء من الأدب الإغريقي، فهي لـذلك شـائعة معروفة على مر التاريخ. ولكن لم يعرف الناس نصيبها من الصحة ومدى قربها من الحقيقة إلا في عشرات السنين الأخيرة التي كشفت فيها الحفائر في كنوسوس الستار عن ذلك. وكان قصر التيه الكريتي بناء بلغ من الفخامة والتقدم والترف مبلغ أي قصر في العالم القديم. فنحن نجد فيه أنابيب للمياه وحمامات وما إليها مـن وسائل الراحة التي كنا إلى حين قريب نعدها أحدث أنواع الترف في الحياة العصرية.

وصناعة الخزف والنسيج والنحت والتصوير عند هؤلاء الناس، وشغلهم في الجواهر والعاج، وعملهم في المعادن والمطعمات مما يثير إعجابك بالقدر الذي يثيره أروع ما أنتجته يد الصانع البشري. وكانوا يميلـون كل الميل إلى الحفلات والمظاهر، وكانوا على الأخص مولعين بمصارعة الثيران ومشاهد الألعاب الرياضية. وكانت ثياب نسائهم فكتورية الطراز إلى حد يبعث على الدهش. فإن نساءهم كن يرتدين المشـدات والثيـاب الفضفاضة التي تحملها الأسلاك. وكانت لهم طريقة للكتابة لم تحل رموزها إلا في ١٩٥٤ وبصورة جزئيـة فقط.

وقد جرت عادة الناس في هذه الأيام أن يتخذوا مما وصل إليه الكريتيون من تقدم أعجوبة رائعة، كأنمـا كانوا شعبا له مواهب فنية لا يصدقها عقل يعيش في فجر المدنية. على أن أوج عظمتهم جاء متأخرا عن ذلك الفجر بزمان بعيد، حتى لقد جاء في عهد متأخر يقارب ٢٠٠٠ ق. م، وبذلك يكون وصولهم إلى خيـر مـا كانوا عليه من فن ومهارة قد اقتضاهم قرونًا عدة. فأما فنهم وترفهم فليسا بأية حال أعجوبة تسمو إلى ذلـك الحد العظيم، إذا تذكرنا أنهم ظلوا طوال ثلاثة آلاف من السنين آمنين من الغزوات، وأنهم لبثـوا يسـتظلون بلواء سلم دام ألفًا من السنين، استطاع الصناع أثناءها أن يرقوا بمهارتهم في مدارج الكمال قرنًا بعـد، كمـا استطاع رجالهم ونساؤهم أن يضيفوا تهذيبا إلى تهذيب. وحيثما كان الناس أيا كان جنسهم، آمنين نسبيا علـى هذا النحو، وعلى طول مثل هذا الزمن المديد فإنهم ينتجون الشيء الكثير من الجمال الفني. وإنك لتجد كـل الشعوب فنية النزعة إذا أتيحت لها الفرص الملائمة. وفي الأساطير الإغريقية أن المحاولة التي بذلها ديدلوس في عمل أول طائرة إنما حدثت في جزيرة كريت. وليس ديدلوس، ومعناها الصانع الماكر، إلا ضـربا مـن الرمز المجسم للمهارة الآلية. ومن العجيب الممتع أن يتذكر الإنسان أن قدرا من الحقيقة يكمـن وراء ذلـك الرجل وتلك الأجنحة الشمعية التي ذابت كما تقول الأسطورة وأغرقت ابنه إيكاروس في البحر!!

ثم حدث آخر الأمر تبدل في حياة هؤلاء الكريتيين لأن شعوبا أخرى هي الإغريـق والفينيقيـون أخـذوا يخرجون إلى البحر بأساطيلهم القوية. ولسنا نعلم سبب الكارثة التي أصابتهم ولا من أوقعها بهم، وكل الـذي نعلمه أنه حدث في زمن ما يقارب (١٤٠٠ ق. م) أن نهبت مدينة كنوسـوس وأحرقـت. ومـع أن الحيـاة الكريتية، ظلت باقية عرجاء مدى أربعة قرون أخرى، فقد حلت بها في نهاية الأمر ضربة قاضـية (حـوالي ١٠٠٠ ق. م أي في زمان عظمة الآشوريين في الشرق)، فدمر قصر كنوسوس ولم يقدر له بعد ذلك أن يبنى مرة ثانية أو يعود كما كان آهلاً بالسكان. ولعل هذا قد تم على أيدي سفن النازلين الجدد بـالبحر المتوسـط: الإغريق الهمج، وهم طائفة من القبائل المتكلمة بالآرية انحدرت من الشمال. وربما كانوا هم الـذين قضـوا على مدينة كنوسوس كما قضوا على مدينة طروادة. وتتحدث أسطورة ثيسيوس عن شيء يشبه هذه الغـارة، فهي تقول إنه دخل قصر التيه (ولعله كان هو قصر كنوسوس) بمساعدة أريادني بنت مينوس الملـك وذبـح المينوطور.

وتوضح لنا الإلياذة صراحة أن التدمير حل بطروادة لأن الطرواديين كانوا يسرقون نساء الإغريق. وقـد حاول بعض ذوي الآراء العصرية من الكتاب المعاصرين أن يستنتجوا متعسفين أن الإغريق هاجموا طروادة لكي يضمنوا لأنفسهم طريقًا تجاريا إلى كولشيس أو غير ذلك من هذه المزايا التجاريـة المحبوكـة الجيـدة السبك!! فإن صح هذا القول فإن مؤلفي الإلياذة قد برعوا في إخفاء الـدوافع التـي كانـت تُحـرك أبطـال قصصهم!! وقد يقارب هذا في الإقناع المنطقي أن نقول إن إغريق هوميروس أوقدوا نار الحرب مـع أهـل طروادة لكي تكون لهم محطة على الخط الحديدي الممتد بين برلين وبغداد!! أما الحقيقـة فهـي أن إغريـق هوميروس كانوا شعبا آريا همجيا صحيح الأجسام، كل ما لديه من فكرة عن التجارة وطرقها ضئيل فشـنوا الحرب على أهل طروادة لأنهم قد ضايقتهم سرقة نسائهم على النحو السالف الذكر. ويتضح مـن أسـطورة المينوس ومن شواهد بقايا كنوسوس، أن الكريتيين كانوا يخطفون الشبان والعذارى لكي يتخذوا منهم عبيدا أو مصارعين للثيران أو رياضيين محترفين وربما قربوهم قربانًا. وقد اتجروا مع المصريين تجـارة العـدول المسالمين، ولكن ليس ببعيد أنهم لم يدركوا القوى التي كانت تتجمع عند الإغريـق الهمـج. وأنهـم كـانوا يعاملونهم معاملة عنيفة، جرت عليهم حد السيف ولهب النار.

وكان الفينيقيون هم أيضا شعبا أسبق من الإغريق انحدارا إلى البحر. كانوا ملاحين عظاما لأنهـم كـانوا تجارا عظاما. وانتهى الأمر بمستعمرتهم قرطاجة التي أنشأتها صور قبل ٧٠٠ ق. م أن أصبحت أكبر المدن الفينيقية القديمة، ولكن كان لكل من صور وصيدا مستعمرات على الساحل الأفريقي قبل ١٥٠٠ ق. م.

وكانت قرطاجة بعيدة نسبيا عن منال الجيوش الآشورية والبابلية، وقد استفادت أعظم الفائدة من الحصـار الطويل الذي ضربه نبوخذ ناصر الثاني على مدينة صور، فأصبحت أعظم قوة بحرية شهدها العالم حتى ذلك الحين. لذلك ادعت لنفسها ملكية القسم الغربي من البحر المتوسط. وكانت تأخذ غصبا كل سفينة تسـتطيع أن تأخذها في غرب سردينيا، ويتهمها كتاب الرومان بارتكاب أعمال القسوة البالغة. وقد حاربت الإغريق مـن أجل جزيرة صقلية كما حاربت الرومان بعد ذلك في القرن الثاني ق. م. ثم دبر الإسـكندر الأكبـر خطـة لغزوها ولكن عاجلته المنية كما سيتبين ذلك فيما بعد فمات قبل أن ينفذ ما اعتزمه.

(٣)

أول رحلات الاستكشاف

يرجح المؤرخون أن سكان قرطاجة وهي في أوج مجدها وصلوا إلى عدد لم يسمع به الناس من قبل وهو مليون نسمة. وكانت كثرة هؤلاء السكان من الصناع، وكانت لمنسوجاتهم شهرة عالية. وكانت لها بالإضافة إلى التجارة الساحلية تجارة برية عظيمة مع أفريقيا الوسطى.

وجدير بنا أن نشير هنا إلى أن أفريقيا لم تكن بها جِمال مستأنسة إلى ما بعد زمن غزو الفرس لمصر. ويبدو أن الجمل لم يستقدم إلى أفريقيا الشمالية ليصبح من دواب النقل والركوب بها إلا عقيب الفتح العربي في القرن السابع الميلادي. وطبيعي أن يحد هذا الأمر كثيرا من استعمال الطريق الصحراوية. ولكن الصحراء الكبرى كانت منذ ثلاثة آلاف أو ألفين من السنين أقل جفافًا وجدبا مما هي الآن. فإنا نستطيع أن نعرف مما نجد على الصخور من نقوش، صدق النظرية القائلة بأن الصحراء كانت تعبر من واحة إلى واحة على ظهور الثيران وفي المركبات التي تجرها الثيران وربما عبروها أيضا على ظهور الخيل والحمير.

وكانت قرطاجة بما هيئ لها من موقع ممتاز بين الأراضي الداخلية الأفريقية وبين البحر، تبيع العبيد الزنوج والعاج والمعادن والأحجار الكريمة وما شابهها لكل شعوب البحر المتوسط. ولم يفتها أن تستغل مناجم النحاس الإسبانية. فأما سفائنها فإنها انطلقت إلى المحيط الأطلنطي تسير شمالاً محاذية سواحل البرتغال وفرنسا حتى كاستيريدس وهي جزائر سيلي أو كورنوال في إنجلترة لتحصل على القصدير.

وقرابة ٥٢٠ ق. م قام شخص اسمه هانو برحلة لا تزال من أشهر الرحلات في العالم. وإذا جاز لنا أن نصدق "كتابه البريبلوس" "Periplus of Hanno"، وهو ترجمة إغريقية لقصته لا تزال موجودة حتى وقتنا هذا – فإن هانو هذا تتبع ساحل أفريقيا جنوبا بعد أن مر من مضيق جبل طارق حتى وصل إلى ما يعادل حدود ليبيريا. وكانت معه ستون سفينة كبيرة وكان مهمته الرئيسية أن يعزز من قوة بعض المحطات القرطاجية على الساحل المراكشي أو يؤسس أخرى جديدة. على أنه انحدر بسفنه جنوبا فأسس مستعمرة في (ريو دورو) ثم أبحر حتى تجاوز نهر السنغال. وقد سار الرحالون سبعة أيام بعد مرورهم على جمنيا، ونزلوا آخر الأمر في إحدى الجزر. وما لبثوا أن غادروها في ذعر وهلع؛ لأنه وإن كان النهار ساكنًا في تلك الغابة المدارية، فقد كان الليل صاخبا بأصوات الصفارات والطبول والصنوج كما كانت السماء تحمر بلهيب النيران التي تحرق العشب. وكان إقليم الساحل في سائر الرحلة أتونا ملتهبا من النيران الناشئة من احتراق العشب. وكانت جداول من النار تنحدر فوق التلال وفي آخر الأمر ارتفع لهيب من النار في الجو حتى بلغ عنان السماء. وقد أوصلتهم أيامهم الثلاثة التالية إلى جزيرة فيها بحيرة لعلها جزيرة شيربرو، وكانت في هذه البحيرة جزيرة أخرى (ربما تكون جزيرة ماكولي؟) وكان في هذه الجزيرة رجال ونساء متوحشون ذوو شعر غزير (سماهم المترجمون بالغورلا). وبعد أن قبض القرطاجيون على بعض إناث هذه "الغورلا" والراجح أنها من نوع الشمبانزي، عادوا أدراجهم ثم ما عتموا أن أودعوا جلد أسراهم في آخر الأمر في معبد يونو (Juno) بعد أن أثبتن أنهن ضعيفات عنيفات عنفًا لا يمكن أن يطاق على ظهور السفن، مما اضطر الجماعة إلى قتلهن على الفور.

وهناك رحلة بحرية فينيقية أعجب من هذه كثيرا ظل يكتنفها الشك زمانًا طويلاً، ولكن تشهد اليوم بصحتها بعض شواهد من علم الآثار. ويقص علينا هيرودوت نبأ هذه الرحلة وفيها يروي أن فرعون مصر نخاو أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين عهد إلى بعض الفينيقيين أن يحاولوا الطواف حول أفريقيا، وأنهم خرجـوا من خليج السويس متجهين جنوبا ثم عادوا بالفعل مخترقين البحر المتوسط حتى وصلوا إلى دلتا نهر النيـل. وقد اقتضاهم استكمال رحلتهم هذه ثلاث سنوات، وكانوا في كل عام ينزلون إلى البر ويزرعون ويحصـدون محصولاً من القمح قبل أن يتابعوا مسيرهم.

(٤)
المتجرون الأوائل

إن مدن الفينيقيين التجارية الكبرى لهي أعظم المظاهر الأولى لتلك الهبة الخاصة التي يمتاز بها الجنس السامي والتي أسداها هذا الجنس للإنسانية وأعني بها التجارة والتبادل. وحين كان هؤلاء الفينيقيون الساميون يدفعون بأنفسهم في كل أرجاء البحر، كان هناك شعب سامي آخر يمت إليهم بلحمة القربى هم الآراميون الذين سبق أن أحطناك من قبل علما باحتلالهم دمشق، كانوا قد أخذوا يراقبون طرق القوافل التي تجتاز صحراء بلاد العرب وصحراء فارس، وأصبحوا أهم شعب يتجر في آسيا الغربية. وكانت هناك إلى جانب هذه تجارة بحرية قديمة تمتد جنوبا خارج البحر الأحمر والخليج الفارسي، فقد وجدت حديثًا في جنوب أفريقيا صور قديمة على الصخور رسمها (البوشمن)، وهي قريبة الشبه جدا في طرازها وطريقة معالجتها بمصورات رجال العصر الحجري القديم في شرق إسبانيا. وتمثل تلك الصور رجالاً من البيض على رءوسهم ما قد يكون لباس الرأس الذي كان يرتديه الأشوريون.

وقد أظهرت الشعوب السامية على الدوام – وهي أسبق في المدنية من الشعوب الآرية – ولا تزال تُظهر إلى اليوم، إدراكًا عجيبا لكم السلع التي تروج في الأسواق وكيفها أكثر مما يظهره الآريون. وإنما ينسب تطور الكتابة القائمة على الحروف الأبجدية إلى حاجتهم إلى ضبط حساباتهم وتدوينها كما يعزى إليهم فضل معظم التقدم في علم الحساب وأرقامنا الحديثة عربية الأصل وحسابنا وجبرنا إنما هما في جوهرهما علمان ساميان.

ويجدر بنا أن نوجه النظر ها هنا إلى أن الشعوب السامية لا تزال حتى يومنا هذا شعوبا حسابة قوية الفهم لروح المعادلات والتعويض. ومن عجب أن كانت تعاليم العبرانيين الخلقية مشبعة بهذه الأفكار، فأمثالهم تقول مثلاً "إن الناس يكيلون لك بنفس المعيار الذي تكتال لهم به". ولقد تخيلت بعض الأجناس والشعوب الأخرى لنفسها آلهة متنوعة متقلبة خلابة، ولكن الساميين المشتغلين بالتجارة كانوا أول من فكر في الإله في صورة تاجر بار صالح يبر بوعوده، ولا يفوته أحقر مدين ويحاسب على كل عمل زري.

وتكاد التجارة التي كانت تجري في العالم القديم قبل القرن السادس أو السابع ق. م. أن تكون بأسرها تجارة مقايضة. ولا يكاد يكون هناك ائتمان أو نقود مسكوكة. فقد كانت الإمبراطوريات الأولى تسير بحياتها دون أية سكة مضروبة. وكانت الماشية هي معدل القيم المألوف عند الآريين الأوائل، بل الراجح أن كانت الحال كذلك في كل المجتمعات قبل استقرارها، كما لا يزال ذلك عند الزولو والكافير في وقتنا هذا. وقد ورد في الإلياذة ذكر قيمة ترسين مقدرين برءوس من الماشية، بل إن اللفظة الرومانية لكلمة نقود وهي Pecunia مشتقة من كلمة (pecus) ومعناها الماشية. وللماشية بوصف كونها نقدا ميزة خاصة، هي أنها في غنى عن أن تحمل أثناء انتقالها من مالك إلى آخر، ولئن كانت في حاجة إلى الطعام والشراب، فقد كانت على كل حال تلد وتنتج، ولكنها كانت لا تلائم النقل بالسفين أو بطرق القوافل. ولقد رأى الناس في كثير من المواد الأخرى

صلاحية لأن تكون معيارا، فكان التبغ في بعض الأزمان معيارا قانونيا إبان عصر الاستعمار فـي أمريكـا الشمالية، وتؤدى الغرامات في أفريقيا الغربية، وتقوم الصفقات على أساس زجاجات شراب الجن التجـاري. وكانت المعادن والكتل المعدنية الموزونة مما تشتمل عليه التجارة الآسيوية الأولى نظرا لما اختصت به مـن إقبال الناس عليها وسهولة اكتنازها واختزانها ولقلة المئونة في صونها فلا علف ولا طعام ولا حيز فسـيحا لصونها وإيوائها، وسرعان ما ظهر تفوقها على الماشية والضأن.

وكان الحديد أول ما ابتدأ به الناس، مادة نادرة مطلوبة. والظاهر أن أول من اسـتنزله مـن خامـه هـم الحيثيون. ويذكر أرسطو أن قد كانت منه أول عملة. ويقول قيصر في كتابـه "حـرب الغـال De Bello Gallico": إن قضبانًا من الحديد ذات وزن محدود كانت تستعمل عملة في بريطانيا. وبين مجموعة الرسائل التي عثر عليها بتل العمارنة والمتبادلة بين الملك أمنحتب الثالث الذي سلف ذكره وخلفـه الملـك أمنحتـب الرابع، وبين غيرهما من الملوك، رسالة من أحد الملوك الحيثيين يعد الملك فيها بتقديم الحديد بوصف كونـه هدية نفيسة جدا وكان الذهب يوم ذاك كما هو الآن أنفس معايير القيم المعدنية وهو لذلك أيسرها حملاً. أمـا الفضة في مصر الأولى القديمة فهي تكاد تبلغ درجة الذهب في ندرته إلى ما بعد عهد الأسرة الثامنة عشرة. ثم أصبحت الفضة بعد ذلك معيار القيم العام في العالم الشرقي. وكانت تكتال بالميزان، وما لبثت أن كونـت بينها وبين الذهب ارتباطًا يشبه علاقتها الحديثة به، ولم تتخل عنه منذ ذلك الحين أبدا.

وكانت المعادن في البداية تتداول في صورة سبائك توزن عند كل صفقة. ثم دمغت لتبيان عيارها والتدليل على نقائها. وأقدم سكة في العالم هي التي ظهرت في الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى من معدن الإليكتـروم وهو مزيج من الذهب والفضة. فهل كانت أوائـل تلـك النقـود تسـكها المـدن أم المعابـد أم الصـيارفة الخصوصيون؟ ذلك أمر يدور حوله جدال شائق بين العلماء. وأول نقود يسجلها التاريخ ضربت قرابة (٦٠٠ ق. م) في ليديا وهي قطر ينتج الذهب في غربي آسيا الصغرى. ضربت أقدم النقود الذهبية المعروفـة فـي ليديا على يد كرويسوس الذي تضرب باسمه الأمثال في الغنى والثراء. وقد هزمه كما سنرى فيما بعد نفـس ذلك العاهل كورش الذي فتح بابل ٥٣٩ ق. م.

ولكن الراجح جدا أن كانت النقود المسكوكة تستعمل في بابل من قبل ذلك الزمان؛ فإن (الشاقل) المختـوم – وهو قطعة من فضة مدموغة – يقارب أن يكون عملة. وكان خدمة معبد القمر فـي مدينـة أور (٢٠٠٠ ق.م) يحملون عندما يرسلون في بعض الأسفار حوالات مكتوبة على ألواح من الصلصال لتمكنهم من التزود بحاجتهم من المال في المدن التي يمرون بها.

وربما كان التعهد المالي المكتوب على الجلد (الرق) والمذيل بخاتم بعض الدوائر الشهيرة تتعهد فيه بأداء قدر معين من الذهب أو الفضة، أمرا يضاهي السكة في القدم أو هو أقدم منها، وقد استعمل القرطاجيون هذا "النقد الجلدي".

ونحن لا نعرف إلا الشيء الطفيف عن النهج الذي كانت تنهجه حركة التعامل الصغيرة في العالم القـديم. ويبدو أن العامة وهم في تلك الأزمان القديمة في درجة الموالي والتابعين – لم يكونوا ليملكوا أي نقود البتة، وكانوا لذلك يقضون حوائجهم بالمقايضة. وتبين لنا النقوش المصرية القديمة هذا الأمر وهـو يجـري بـين الناس.

وكان بعض أنواع العملة الصغيرة موجودا قبل زمن الإسكندر. وكان لدى الأثينيين سلسـلة مـن العملـة الفضية البالغة منتهى الصغر. حتى لتكاد تنحدر في ضآلتها إلى حجم رأس الدبوس، وكانت تحمل في العـادة في الأفواه، يؤيد ذلك أن شخصية من شخصيات إحدى مسرحيات أرسطوفانيس هوجمت ذات مرة على غرة، فازدردت العملة الصغيرة التي كانت في فمها.

(٥)
الرحالة الأوائل

إذا نحن تذكرنا انعدام العملة الصغيرة وكل وسيلة للتبادل ميسرة الحمل في عالم ما قبل الإسكندر، أدركنا كيف كانت أسفار الأفراد مستحيلة في تلك الأيام. والرأي السائد أن "النزل الأولى"، وهي ولا شك نوع مـن محطات القوافل، نشأت أول ما نشأت في ليديا في القرن الرابع أو الثالث ق. م. ومع ذلك فـإن هـذا زمـن متأخر جدا. وما من ريب أنها سبقت ذلك العهد. ولدينا شواهد قوية تثبت وجودها في القرن السـادس علـى الأقل. ألا ترى إلى إسكيلوس إذ يذكر النزل (الخانات) مرتين، ويعبر عنها بلفظة البيت الذي يستقبل الجميـع أو بلفظة مستقبل الكل؟ وربما كان الرحالة الأفراد منتشرين إلى حد ما في العالم الإغريقي، دون استثناء مـا كان له حين ذاك من مستعمرات. بيد أن السفر الخاص كان أمرا حديثًا نسبيا. وقد اتسعت سفرات المؤرخين الأقدمين هيكات وهيرودوت.

ويقول الأستاذ جلبرت مري: "إنني ليخيل إلي أن هذا النوع من الترحال جريا وراء المعلومات التاريخية أو الاكتشاف، كان في الغالب من ابتكار الإغريق، ويظن أن سولون قد ذاق حلاوته وأن ليقورجوس نفسه أقـدم عليه..".

وكان أول الرحالة إما تجارا يسافرون في قافلة أو في وسقة سفين، ويحملون معهم بضـاعتهم ونقـودهم وشواقيلهم المعدنية أو الجواهر أو بالات الحرائر؛ وإما موظفين في الحكومة يسافرون ومعهم وسائل التعريف بأشخاصهم وبرفقتهم الحاشية اللائقة بهم. ومن المحتمل أن يكون هناك نفر من المتسولين، وبعض الحجـاج المتدينين ممن يتقلبون في بعض النواحي ينتقلون في أصقاع محدودة العدد. وكان يجري في مصر قدر عظيم من الأسفار نحو أعلى النيل وأدناه في ظل حال من الأمن طيبة، وكان الناس يقومون برحلات تنحـدر مـع النيل حتى الأهرام القديمة أيام أمنحتب الثالث. وبذلك يظهر أصحاب الرحلة القصيرة لأول مرة في تلك البلاد حول ذلك البناء العظيم.

كان ذلك العالم القديم قبل (٦٠٠ ق. م) عالما ندر فيه المسافر الغريب المنفرد، ونظر إليه الناس فيه بعين الخشية والريبة، وتعرضت فيه حياته لكثير من المعاطب. وربما لاقى ضروبا من القسوة لأنه قلمـا كانـت هناك قوانين لحماية أمثاله. ولهذا فإننا قلما نجد من ضربوا في مناكب الأرض من الأفراد، بل كان الإنسـان يعيش ويموت مرتبطًا ومتصلاً بإحدى القبائل التي تتبع نظام الأبوة إذا هو كان من الرحل. أو مرتبطًا بأسرة كبيرة إن كان متمدينًا، أو مرتبطًا بإحدى مؤسسات المعابد التي سنذكرها فيما بعد، أو كان الإنسان عبدا يساق كالأنعام.

ولم يكن المرء منهم على أية معرفة ببقية العالم الذي يعيش فيه، اللهم إلا بعض ما يتلقطه مـن أسـاطير رهيبة. وفي الحق إننا نعرف اليوم عن العالم القديم (حوالي ٦٠٠ ق. م) أكثر مما كان يعرفه أي فرد يعـيش في ذلك الزمان؛ ففي وسعنا أن نرسمه على خريطة وننظر إليه في مجموعة من حيـث علاقتـه بالماضـي والمستقبل. وقد بدأنا نعلم علم اليقين ما كان يجري في وقت واحد في مصر وآسيا وميديا والهند والصـين. وفي استطاعتنا أن نشترك بخيالنا في تلك الأعاجيب التي دهش لها بحارة هانو، ومع أولئك الرجـال الـذين أوقدوا المشاعل على الشاطئ إنذارا وتحذيرا. ولسنا نجهل أن تلك الجبال التي يرتفع لهيبها إلى السماء والتي تذكرها قصة (البريبلوس) لم تكن إلا الاحتراق العادي الذي يصيب العشب الجاف في ذلك الفصل من السنة. وتزداد معارفنا العامة سنة بعد أخرى وتسير إلى الأمام أسرع فأسرع. ولسوف يزيد المستقبل فهـم النـاس لهؤلاء الذين عاشوا في الماضي؛ ولربما بلغ من أمرهم أن يفهموهم الفهم كله.

الفصل الخامس عشر

الكتابـة

١- الكتابة بالصور.

٢- الكتابة بالمقاطع.

٣- الكتابة بالحروف الهجائية.

٤- مكانة الكتابة في الحياة الإنسانية.

(١)
الكتابة بالصور

قد رسمنا لك في الفصول السابقة في صورة إجمالية تطور أهم المجتمعات الإنسانية، منذ أوائلها البدائية في أقدم المدنيات، إلى الممالك والإمبراطوريات التاريخية العظمى في القرن السادس ق. م. وينبغي لنا الآن أن ندرس دراسة أمتن وأوثق قليلاً، النهج العام الذي سلكه ذلك التغير الاجتماعي، وذلك النمو في أفكار الإنسانية، وذلك الإحكام التفصيلي الذي بلغته العلاقات الإنسانية التي كانت جارية إبان هذه العصور بين سنتي ١٠٠٠٠ ق. م، و٥٠٠ ق. م. ذلك أن كل ما فعلناه حتى الآن هو أن رسمنا لك مصورا، وأن ذكرنا لك أسماء أهم الملوك والإمبراطوريات، وأن حددنا لك العلاقات، في الزمان والمكان، بين إمبراطوريات بابل وآشور ومصر والهند والصين. وها نحن أولاء ننتقل الآن إلى المهمة الحقيقية للتاريخ، وهي النفاذ إلى ما تحت هذه الأشكال الخارجية، إلى أفكار الأفراد وحياتهم.

وكان أبعد الشئون شأوا وأهم الأمور التي كانت جارية أثناء تلك الخمسين أو الستين من القرون التي مضت في تطور اجتماعي، هو اختراع الكتابة وتقدمها التدريجي إلى مكانة عالية ذات بال في الشئون الإنسانية. كانت الكتابة آلة جديدة للعقل الإنساني، كما كانت تنطوي على توسيع هائل في نطاق عمله، وكانت وسيلة جديدة من وسائل عملية الاستمرار. ولقد رأينا كيف حدث في أخريات العصر الحجري القديم وأوائل العصر الحجري الحديث أن إحكام الكلام البين النطق قد هيأ لبني الإنسان وسيلة عقلية يقبضون بها على ناصية الأفكار المتسقة المتلاحقة، وزاد في قوى تعاونهم زيادة كبيرة. ويبدو أن هذا الكشف الجديد استمر زمانًا يحجب الكسب العظيم الذي سبقه وهو القدرة على الرسم، وربما عاق عملية استعمال الإشارة والإيماء، على أن الرسم ما لبث أن عاد إلى الظهور إما للتدوين والقيد أو للرمز والعلامة، أو لمجرد لذة الرسم. وقد جاءت الكتابة الحقيقية بعد الكتابة بالصور، التي لا ينفك يمارسها هنود أمريكا (الأمرندويون) والبوشمن والشعوب المتوحشة الهمجية في كافة أنحاء العالم، وهي في جوهرها تصوير للأشياء والأفعال تساعده شارات الأنساب والأعلام. كما تساعده الشرط والنقط التي تمثل الأيام والمسافات وغيرها من الأفكار الكمية.

وقريب جدا من هذه الكتابة بالصور، تلك "الصور المعبرة عن فكرة Pictogram التي يجدها الإنسان مستعملة حتى اليوم في الجداول الدولية لمواعيد السكك الحديدية بقارة أوربا. حيث تدل علامة سوداء تمثل فنجانًا على وجود مقصف يتناول فيه الناس ما خف من منعشات، كما يدل وجود رسم سكين وشوكة متقاطعين على وجود مطعم، وصورة قارب بخاري صغير على الانتقال إلى زورق بخاري، وصورة البوق على وجود عربة للمسافرين. وتستعمل علامات شبيهة بهذه في دليل الطرق الشهير الذي تصدره شركة ميشلان لراكبي السيارات في أوربا فهو يبين مكاتب البريد بصورة ظرف، ويبين التليفون برسم سماعة التليفون، وتبين درجة الفنادق بصورة خان له برج واحد، أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة وهكذا. وعلى هذه الشاكلة نجد في طرق أوربا بعض علامات لإرشاد روادها، فرسم بوابة يدل على أن أمام السائق تقاطع طرق، كما يدل رسم خط معوج على وجود منحنى خطر، وهكذا. وإن المدى الذي يفصل بين علامات الصور المعبرة وبين أول مبادئ الكتابة الصينية ليس بالمدى البعيد.

ولا نزال نستطيع أن نترسم في الكتابة الصينية عددا من علامات "الصور المعبرة عن فكرة" وإن أصبحت استبانة غالبيتها عسيرة علينا الآن. فقد كان الفم يكتب في الأصل على هيئة شق بشكل الفم، وهو يرسم الآن مربعا تسهيلاً على الراسم بالمرقش. وكان الطفل يرسم في الأصل على هيئة قزم صغير يمكن تمييزه بسهولة، ثم رمز له بشكل ملتو عليه صليب في غير إتقان. أما الشمس التي كانت أصلاً ترسم دائرة كبيرة ذات نقطة عند مركزها، فقد تحولت بقصد تسهيل عملية الربط إلى شكل مستطيل عليه خط معترض، وهو أسهل لمن يكتب بالمرقاش. وبمزج هذه "الصور المعبرة" بعضها مع بعض يستطاع التعبير عن طبقة ثانية من الأفكار. مثال ذلك أن مزج الصورة الرامزة إلى الفم بالصورة الرامزة للبخار يعبر عن لفظة "كلمات".

ومن أمثال هذه المركبات ينتقل المرء إلى ما يسمى بالكتابة "التصويرية الرمزية Ideogram". فإن علامة "الكلمات" وعلامة "اللسان" تتحد إحداهما بالأخرى وتكونان "الكلام"، والعلامة الدالة على "السقف" إذا أضيفت إليها العلامة الدالة على "الخنزير" تدلنا على "المنزل" إذ كان للخنزير من الشأن في الاقتصاد المنزلي القديم في الصين ما يعادل شأنه في إرلندة. ولكن اللغة الصينية لا تتكون كما أوضحنا آنفًا إلا من عدد بسيط من الأصوات البدائية ذات المقطع الواحد تستعمل بأجمعها في أضرب عظيمة من المعاني. وسرعان ما كشف الصينيون أن عددا من هذه "الصور المعبرة عن فكرة" و "الصور الكتابية الرمزية" يمكن الاستفادة منه أيضا في التعبير عن أفكار أخرى لا تصور بمثل تلك السهولة واليسر ولكن لها نفس الصوت.

وتسمى الحروف المستعملة على هذه الشاكلة حروف العلامات الصوتية (Phonograms) أو علامات الكلمات. مثال ذلك أن الصوت "فانج" لا يدل على معنى زورق فحسب، بل يدل أيضا على المعاني الآتية: (مكان) و (غَزل) و (عاطر) و (يستعلم)، ومعان أخرى كثيرة تتناسب والمقام المستعمل فيه ذلك الصوت. ولكن أغلب هذه المعاني الأخرى ليست ميسورة الرسم على حين كان رسم الزورق أمرا هينًا يسيرا. إذ كيف يستطيع إنسان أن يرسم كلمة (عاطر) أو لفظ (يستعلم)؟ لذلك أصبح الصينيون يتقبلون علامة (الزورق) لكل هذه المعاني التي لكلمة "فانج"، يضيفون إلى كل منها علامة أخرى تميزها من غيرها، وهي العامل الفاصل الذي يبين أي نوع من أنواع "فانج" هو المقصود. وكذلك كانت كلمة "مكان" يرمز إليها بنفس العلامة التي ترمز إلى كلمة "زورق: فانج" مضافًا إليها العلامة الفاصلة التي تبين الأرض، وكانت كلمة "غَزل" يرمز إليها بالعلامة الخاصة بكلمة "فانج: زورق" والعلامة الدالة على "الحرير". وكانت كلمة "يستعلم" يرمز إليها بالعلامة الدالة على "فانج: زورق" مضافًا إليها العلامة الدالة على "الكلمات" وهكذا.

وربما جاز لنا أن نوضح بعض التوضيح تطور "الصور المعبرة" (البكتوجراف) و "الكتابة التصويرية الرمزية" (الإيديوجرام)، والعلامات الصوتية (الفونجرام) بتأمل حالة مماثلة في الإنجليزية. هب أننا نريد أن نكون في اللغة الإنجليزية نوعا من الكتابة بالصور Picture – Writing. وعند ذلك يصبح من الطبيعي جدا أن يستعمل مربع يعلوه خط مائل ليدل على غطاء تعبيرا عن كلمة box (أي صندوق) لفظًا وجسما، فيكون هذا هو الصورة المعبرة. ولكن لنفرض الآن أن عندنا علامة مستديرة للدلالة على النقود، ولنفرض أننا وضعنا هذه العلامة داخل علامة الصندوق، فهذا يكفي للدلالة على صندوق النقود أو الخزانة. ويكون عندنا في هذه الحالة ما نسميه بالكتابة التصويرية الرمزية. على أن كلمة صندوق تستعمل في أشياء أخرى عدا

الصناديق المألوفة فهناك شجيرة البقس Box Shrub، ومن العسير أن ترسم شجرة البقس رسما يمكن به تمييزها والتفريق بينها وبين الأشجار الأخرى. بيد أنه من أيسر الأمور أن نضع علامتنا الرامزة إلى الصندوق مع إضافة علامتنا الدالة على شجيرة كعامل فاصل يحدد لنا أن المقصود بالتعبير هو ذلك الضرب من البقس، وليس صندوقًا عاديا. ثم يأتي بعد ذلك فعل Boxing بمعناه المعروف وهو الملاكمة بقبضات الأيدي. فنحن ها هنا أيضا في حاجة إلى عامل فاصل. وربما جاز لنا أن نضيف السيفين المتقاطعين وهما علامة كثيرا ما تستعمل في الخرائط للدلالة على المعارك. وفضلاً عن ذلك يحتاج الـ (Box) بمعنى (اللوج) في دار التمثيل، إلى عامل فاصل آخر. وهكذا نمر في سلسلة مطولة من حروف العلامات الصوتية.

من ثم يتضح لنا أن الكتابة الصينية تتكون من نظام خاص معقد من الكتابة بالعلامات. فإنه لا مندوحة للناس من استذكار عدد كبير جدا من الحروف ومن تعويد الذهن على استعمالها. ولا يزال العقل الغربي قاصرا عن أن يقيس بمعاييره قوة تلك الكتابة في حمل الأفكار والمناقشات. ولكن ربما داخلنا الشك في أنه يحتمل أن يحدث في أي يوم من الأيام، مع وجود هذه الأداة، أن تتأسس في الصين عقلية مثل تلك العقلية الفسيحة العامة التي تسمح بوجودها أبجديات المدنيات الغربية. وهي أبجديات أسهل وأسرع. وقد خلقت هذه الأداة في الصين طبقة قارئة خاصة هم الماندرين الذين كانوا في نفس الوقت طبقة الحكام والموظفين. فإن توافرهم وعكوفهم الضروري على المفردات والصيغ القديمة دون الأفكار والحقائق، ليبدو لنا – رغم ما تنعم به الصين من أمن نسبي وما يمتاز به أفراد الشعب من سمو عقلي – أنه عاق التقدم الاجتماعي والاقتصادي هناك. والراجح أن ذلك التعقيد وذلك التبلبل في الكلام والكتابة دون أي سبب آخر يمكن تصوره، هو الذي جعل الصين في الوقت الحاضر من الوجهة السياسية والاجتماعية والفردية بحرا عجاجا من سكان مجدين، ولكن تنقصهم روح الإقدام، بدل أن يكونوا القوة السباقة في العالم أجمع.

(٢)
الكتابة بالمقاطع

وفي الوقت الذي صاغ فيه عقل أهل الصين لنفسه هذه الأداة التي رجح أنها جاوزت الحـد فـي إحكـام تركيبها، وفيما تتطلبه من جهد ومشقة لمستعملها، وفيما في شكلها من صلابة فوتت عليها أن تسـد الحاجـة الحديثة إلى الاتصال البسيط السريع الدقيق مع الغير، في هذا الوقت كانت المدنيات الغربية وهي بعـد فـي مدارج النمو تصوغ مسألة السجل المكتوب على أسس تكاد تكون مختلفة ولكنها في جملتها أعم نفعا. فهي لم تسع وراء تجويد كتابتها لجعلها سريعة ميسرة، ولكن الظروف مجتمعة جعلتها كذلك.

ذلك أن الكتابة بالصور التي كان يمارسها السومريون، يمارسونها على الطين بأقلام صغيرة، يحدثون بها فيه علامات مقوسة في غير سهولة ولا إتقان، سرعان ما انحطت بسبب ما تواضعوا عليه من عمل بعـض خدوش تكون علامات تشبه الإسفين (وتسمى الكتابة المسمارية، أي ذات الشكل الإسـفيني)، وتتحـول إلـى إشارات للأشكال المقصودة لا يكاد يستطيع إنسان تمييزها. وقد ساعد السومريين كثيرا على تعلـم الكتابـة اضطراراهم إلى الإقدام على الرسم بهذا القبح؛ وسرعان ما وصلوا إلى ما كان لدى الصينيين مـن الصـور المعبرة عن فكر (أي البيكتوجراف)، والصور الكتابية الرمزيـة (أي الإيـديوجراف)، وتصـوير حـروف العلامات الصوتية (أي الفونوجرام)، ثم فاقوهم.

ويعرف معظم الناس ضربا من الألغاز يسمى "لغز الصور Rebus". وهي طريقة مـن طرائـق تمثيـل الكلمات بصور لا تكون هي صور الأشياء التي تمثلها الكلمات، ولكن بصور أشياء أخرى لها صوت مماثل للكلمة المطلوبة، مثال ذلك أن يرمز لك ببوابتين ورأس عن كلمة Gateshead؛ وأن يرمز بمجرى صـغير Beck، وملك متوج، وفخذ خنزير إلى كلمة Becking Ham؛ وقد كانت اللغة السومرية لغة مهيأة أحسـن التهيؤ لهذا الضرب من التمثيل. وكانت فيما يتضح لغة كلماتها متعددة المقاطع [٦٥] بأعداد ضخمة في أكثـر الأحيان، وتتكون من مقاطع واضحة متميزة لا تتبدل؛ وإذا أخذ الكثير من هذه المقاطع بمفرده كانت أسـماء للأشياء الجامدة. وهكذا تطورت هذه الكتابة المسمارية بغاية السهولة إلى طريقة كتابة مقطعية تحمل فيها كل علامة مقطعا، كما يحمل كل جزء في اللغز مقطعا بعينه.

ولما غزا الساميون سومر بعد قليل من ذلك الوقت، استعملوا الطريقة المقطعية في لغتهم، وبذلك أصبحت هذه الكتابة بأسرها كتابة تدل فيها العلامة على الصوت. وعلى هذا النحو استعملها الآشوريون والكلدان. بيد أنها لم تكن كتابة بالحروف بل بالمقاطع. وعمت هذه الكتابة المسمارية الشكل مدى أجيال طوالٍ بلاد آشـور وبابل والشرق الأدنى عامة. ولا يزال بقاؤها ملحوظًا في كثير من حروفنا الأبجدية إلى أيامنا هذه.

---

(٦٥) متعددة المقاطع (Polysyllables)

(٣)

الكتابة بالحروف الهجائية

ولكن ظهرت في غضون ذلك الوقت نفسه، طريقة أخرى للكتابة في مصر وعلى ساحل البحر المتوسط. وربما أمكننا أن نجد بدايتها فيما كان يدونه الكهنة المصريون من "الكتابة بالصور" وهي المعروفة "بالهيروغليفية". وقد أصبحت هذه أيضا بالطريقة المعتادة، طريقة علامات صوتية إلى حد ما. وكانت الكتابة الهيروغليفية كما نشاهدها على الآثار المصرية تتكون من أشكال زخرفية ولكنها جامدة متقنة. على أن الكهنة المصريين استخدموا في أغراضهم الخاصة بكتابة الرسائل وتدوين الوصفات وما شاكلها طرازا من هذه الحروف أكثر يسرا وبساطة ومرونة هو "الكتابة الهيراطية".

وقد نشأت إلى جانب هذه الكتابة الهيراطية كتابة أخرى لا نعرف عنها شيئًا في الوقت الحاضر، كتابة مشتقة إلى حد ما من الهيروغليفية، وتناولتها شعوب عدة غير مصرية في البحر المتوسط هم الفينيقيون والليبيون والليديون والكريتيون والكلات الأيبيريون. وكانت تستعمل عندهم في الأعمال والتجارة. وقد استعير، عدد من حروفها من الكتابة المسمارية المتأخرة. ولما أن أصبحت هذه الكتابة في يد الأجانب انقطعت صلتها بأمها، إن جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير، وفقدت كل صفاتها التصويرية القديمة إلا قليلاً منها. فلم تعد بعد هذا طريقة "صور معبرة" ولا طريقة صور كتابية رمزية؛ بل أصبحت في بساطة، طريقة علامات تدل على الصوت أي أحرفًا أبجدية.

وكان في البحر المتوسط عدد من هذه الأبجديات تختلف بعضها عن بعض اختلافًا بينًا. ومما هو جدير بالملاحظة أن الأبجدية الفينيقية (وربما كان غيرها يحذو في ذلك حذوها) كانت تحذف حروف الحركة. والراجح أنهم كانوا ينطقون حروفهم الساكنة بغاية العسر. كانت لديهم حروف حركة غير مقررة الصفة، كما لا تزال الحال فيما يقال عند قبائل جنوبي بلاد العرب. زد على ذلك أن من الراجح جدا ألا يكون الفينيقيون قد استعملوا أبجديتهم بادئ ذي بدء في الكتابة، قدر استعمالهم إياها في مهر حسابات أشغالهم وقوائم جردهم، بأول حروف من أسمائهم.

وقد وصلت إحدى هذه الأبجديات التي في البحر المتوسط إلى يد الإغريق بعد عصر الإلياذة بزمن طويل، فشرعوا يشتغلون فيها من فورهم ليجعلوها تعبر عن تلك الأصوات الواضحة الجميلة، التي يمتاز بها حديثهم الآري العظيم الرقي. وكانت تلك الأبجدية تحتوي بادئ بدء على حروف ساكنة أضاف إليها الإغريق الحروف المتحركة. ومن ثم أخذوا يكتبون بها بغية التدوين، وبقصد إبراز آثار شعرائهم، وتثبيتها. وعلى هذا النحو ابتدأ الأدب المكتوب جدولاً رقراقًا، وما لبث أن أصبح طوفانًا طاميا.

(٤)

مكانة الكتابة في الحياة الإنسانية

وهكذا نبتت الكتابة من الرسم في سلسلة من خطوات طبيعية جدا، وكانت في بادي الأمر وعلى مدى عصور طوال موضع اهتمام عدد قليل من الناس في طبقة خاصة ومناط سرهم. وكانت مجرد شيء إضافي يلحق بسجل الصور. ولكن كانت هناك مزايا واضحة ملموسة فضلاً عن قدرتها المتزايدة على التعبير، ويمكن الحصول عليها بجعل الكتابة أقل وضوحا قليلاً من الصور الصريحة الواضحة وبالتواضع عليها وجعلها رمزا متفقًا عليه. ومن بين هذه المزايا أن الرسائل التي كانت تكتب على هذه الشاكلة كان في الإمكان إرسالها مفهومة لدى المرسل واضحة عند المتسلم، ولكنها مبهمة على غير العليم بها. وثم مزية أخرى هي استطاعة الإنسان بها أن يدون أمورا عدة، ويساعد بذلك ذاكرته وذاكرة أصدقائه، دون أن يكشف شيئًا من خفايا نفسه للسوقة والعامة. فمن أقدم الكتابات المصرية مثلاً، وصفات طبية وتعويذات سحرية.

وتتألف أقدم الوثائق المكتوبة من الحسابات والرسائل والصفات وقوائم الأسماء ودليل الرحلات. فلما انتشر فن الكتابة والقراءة ظهرت تلك النزعة العجيبة، أو تلك النزعة المحزنة الشديدة الانتشار بين المخلوقات البشرية: من إدخال الدهشة على الغريب والقاصي بكتابة أشياء شائقة لافتة للأنظار، أو إذاعة سر يعرفه المرء، أو فكرة عجيبة، بل اسم المرء نفسه، حتى إذا مضى المرء لسبيله لفت ذلك نظر قارئ آخر وذهنه. وكان الناس حتى في سومر يخدشون على الجدران. ويلاحظ أن كل ما بقى لدينا من العالم القديم ما بين صخوره ومبانيه مكسو بطبقة ثقيلة من الأسماء والجمل الطنانة بالفخر التي يكتبها أكبر رواد الجنس البشري في الدعاية والإعلان وهم الملوك، وربما كانت نصف الكتابات الأولى في ذلك العالم القديم من هذا النوع، إذا أضفنا إلى كتابة الأسماء والتفاخر بالنفس نقوش القبور التي يرجح أن يكون صاحبها في كثير من الأحيان، قد أعدها قبل وفاته.

ولقد كانت الرغبة في الاعتداد بالذات، كما تتجلى في كتابة الاسم ونقشه بشكل معقد وفي حب التفاهم السري، مدعاة لحفظ الكتابة في مجال ضيق زمانًا طويلاً. ولكن الرغبة الأخرى، وهي أكثر ملاءمة للناس من الناحية الاجتماعية، وأعني بها الولع برواية الأخبار، كانت تعمل عملها في النفوس. على أن مدى ما يستطاع بلوغه من توسيع نطاق المعرفة والتقاليد وتحديد معناها واستقرارها لم يتكشف إلا بعد أزمنة مديدة. ولعل مما يشوق القارئ في هذه النقطة، ولهذه المناسبة، أن نتذكر حقائق أولية معينة عن الحياة. حقائق أكدناها وأبرزناها في فصولنا الأولى لأنها لا تقتصر على توضيح ما للكتابة من أثر عظيم في تاريخ الإنسان، بل تبين ما سوف يكون لها من شأن في مستقبله.

أولاً : لا يغرب عن بالنا أن الوعي العام في بدء الحياة لم يكن متصل الحلقات بل كان تكرارا متقطعا حين كان الكبير يموت وكان الصغار يولدون.

فإن مخلوقًا من أمثال الزواحف يحمل في عقله مقدرة لقبول التجارب، ولكن كلما مات فرد، تموت معه تجاربه. ومعظم دوافعه غريزية صرفة، وكل ما له من حياة عقلية هو ثمرة الوراثة (ميراث الميلاد).

ثانيا : على أن الثدييات العادية ضمت إلى الغريزة الصرفة ما ورثته من تقاليد الخبرة التي تنتقل بطريق محاكاة الأم، وتنتقل في حالة الحيوانات ذات العقلية النامية، من أمثال الكلاب والقطـط والقـردة، بطريق الناموس أو السنة الصامتة أيضا. فمثلاً تعاقب القطة الوالدة صغارها على سـوء السـلوك. وهكذا تفعل أمهات القردة والرباح (البابون).

ثالثًا : أضاف الرجل البدائي إلى مقدرته على نقل التجارب الفن والكلام التمثيليين. فابتدأ بـذلك سـجل الصور والتماثيل وابتدأت معه التقاليد الشفوية.

ولقد ارتفعت التقاليد الشفوية إلى أقصى ما قدر لها من تطور على يد المغنين المتجـولين وكـان أثـرهم عظيما في بلوغ اللغة ما هي عليه اليوم.

رابعا : وباختراع الكتابة التي تطورت عن تدوين الصور، غدا العرف الإنساني أكثـر اكتمـالا وأعظـم ضبطًا. وأخذت التقاليد الشفوية تتخذ سمة الثبات والاستقرار بعد أن كانت حتى ذلك العهد تتغير من عصر إلى عصر؛ وبعد أن أصبح الناس، الذين تباعد بينهم مئـات الأميـال، يسـتطيعون الآن أن يوصلوا أفكارهم بعضهم إلى البعض. وأخذ عدد متزايد من المخلوقات الإنسانية يقتسم فيمـا بينـه عرفانًا مكتوبا مشتركًا، وإحساسا مشتركًا بالماضي والمستقبل وأصبح التفكير الإنساني عملية أوسع مجالاً، تستطيع فيها مئات من العقول أن يتفاعل الواحد منها مع الآخر في نواح مختلفـة، فأصـبح عملية دائبة الحركة يتزايد نشاطها والمثابرة عليها.

خامسا : وانقضت مئات من الأجيال لم يتكشف للناس أثناءها ما للكتابة من شأن عظيم وخطر جليل. وذلك لأن فكرة نشر المؤلفات، بأخذ طبعات من نسخة أولى، لم تخرج إلى حيز الوجود طـوال أزمـان مديدة. وكانت الوسيلة الوحيدة لنشر المؤلفات هي عمل نسخة واحدة منها في كل مرة. وهذا أمـر جعل الكتب غالية الثمن نادرة الوجود. فإن الميل إلى الاحتفاظ بسرية الأمور، وبجعلها ضربا مـن الطقوس والغموض، واكتساب التفوق والامتياز بذلك على جمهرة الناس، كان هذا الميل على الدوام شديد القوة والتسلط على أذهان الناس. ولم تقبل جماهير الجنس البشري على القراءة، أو تتطلع إلى كنوز العرفان والأفكار التي سبق أن اختزنتها بطون الكتب إلا في هذه الأيام.

ومع هذا، فمنذ نشأت الكتابات الأولى أخذ ضرب جديد من التقاليد ينشأ في أذهان الناس، وهو ضـرب دائـم خالد. ومنذ ذلك الحين أخذت الحياة – ممثلة في الإنسان – تغدو يوما فيوما، أشد وعيا لنفسها وللعالم المحيط بها. وهنا نرانا نتحسس في ظلمات التاريخ أثرا ضئيلاً من النماء العقلي نتتبعه في عالم كان زاخرا في مستهل حياتـه بالجهالة الصارخة والنسيان. فهو أشبه شيء بشعاع من الضوء ينساب إلى داخل حجرة مظلمة خلال فرجة ضيقة في باب قد أخذ ينفتح؛ ولكنه يتسع في بطء وعلى مهل، وأخيرا جاءت حقبة من تاريخ أوربا أخذ البـاب عنـدها ينفتح في سرعة تفوق الأولى، تدفعه يد الطابعين. فسطع ضياء العرفان، ولما سطع هذا الضياء لم يعـد امتيـازا تختص به أقلية محظوظة. فأما في أيامنا هذه، فإن ذلك الباب يزداد اتساعا ويزداد الضوء الذي خلفه سطوعا.

نعم لا يزال الضباب يخالطه ولا يبرح يسطع خلال سحب من القتام والبخار، ولم يصل الباب بعـد إلـى منتصف فتحته. ذلك أن عالمنا الآن لم يتجاوز بعد بداية العرفان.

الفصل السادس عشر

الآلهة والنجوم والكهنة والملوك

١- ظهور الكاهن في التاريخ.

٢- الكهنة والنجوم.

٣- الكهنة وفجر العلوم.

٤- الصراع بين الملك والكاهن.

٥- كيف كافح بعل مردوك" الملوك".

٦- ملوك مصر الآلهة.

٧- شي هوانج تي يدمر الكتب.

(١)
ظهور الكاهن في التاريخ

عندما شخصنا بأبصارنا إلى الكائنات البشرية وهي تتجمع في تجمعات ومدن جديدة في مصر وأرض الجزيرة، ألفينا المعبد أو مجموعة المعابد من أشد الأشياء بروزا في كل هذه المدن. وقد ينشأ في بعض الحالات إلى جوار ذلك المعبد في تلك النواحي قصر ملكي، ولكن غالبا ما يعلو المعبد على القصر. ويصدق وجود هذا المعبد أيضا على المدن الفينيقية كما يصدق على المدن الإغريقية والرومانية عند نشوئها. فإن قصر كنوسوس بما فيه من أمارات الراحة واقتناص اللذات، وما ماثله من مدن الشعوب الإيجية، تحتوي على مقاصير دينية. ولكن يوجد في كريت فضلاً عن ذلك معابد منفصلة عن دوارات قصور المدن. ونحن نعثر عليها في كل أرجاء العالم المتمدين القديم: فحيثما نشأت المدنية البدائية في أفريقيا أو أوربا أو آسيا الغربية قام معها معبد، وحيثما اشتدت المدنية قدما شأنها في مصر وسومر زاد معبدها ظهورا. ولم يفت هانو عندما وصل إلى ما زعمه أشد جهات أفريقيا توغلا في الغرب أن يقيم معبدا لهرقل Hercules [٦٦].

ويلاحظ أن بدايات المدن وظهور المعابد صنوان متلازمان في التاريخ فكلا الأمرين مرتبط بالآخر؛ وإذن فبداية المدن هي بنفسها مرحلة المعبد التاريخية. فإن مجتمع المدينة نشأ أول ما نشأ حول مذبح التضحية الدموية التي تقدم وقت البذار.

وكل من هذه المعابد قام فيه مزار مقدس، يشرف عليه في الغالب تمثال عظيم جرت العادة أن يكون ذا هيئة فظيعة وحشية نصفها حيواني، وأن يقوم أمامه مذبح للقربان. غير أن التمثال في المعابد الإغريقية الرومانية في مرحلة متأخرة عن هذه، كان في الأغلب الأعم تمثالاً لإله في صورة إنسانية، وكان هذا التمثال إما أن يعد هو الرب بعينه؛ أو رمزا للرب أو صورة للرب الذي أقيم المعبد لعبادته. وكان يتصل بالمعبد عدد من الناس كثيرا ما بلغ حد الوفرة، يأتلف من الكهنة أو الكاهنات وخدم المعبد، وهم يرتدون في العادة ثوبا يميزهم، ويكونون جزءا هاما من سكان المدينة. ولم يكونوا ينتسبون إلى أي أسرة بعينها، بل يؤلفون أسرة من نوع جديد خاص بهم. كانوا طبقة منفصلة عن بقية الطبقات تجتذب إليها الأذكياء من أفراد الشعب عامة.

وكان الواجب الأول لهذه الكهانة هو عبادة رب المعبد وتقديم الأضاحي له. ولم تكن هذه الأمور تجري في أي وقت كان، بل في أوقات ومواسم خاصة. وكان قربان أوان البذار أهم هذه التضحيات وأسبقها. ذلك أنه داخل حياة الإنسان عند رعيه الحيوان وزراعته الأرض إحساس بوجود فارق بين أجزاء السنة وبوجود فارق بين اليوم واليوم. فكان المعبد يسهر على حساب هذه الأيام بما يقيم من أعياد. وبذلك كان الهيكل في المدن القديمة أشبه الأشياء بساعة المكتب.

---

(٦٦) هرقل: وهو بطل إغريقي وابن زيوس وألكميي، وله شهرة واسعة بقوة جسمه. (المترجم)

بيد أنه كان كذلك مركزا لمهمات أخرى عدا عمله الأول الخاص بالتضحية الموسمية وملاحظة التقـويم. ففي المعابد الأولى كانت تسجل الحوادث وترصد العمليات الحسابية وفيها نبتت أصول الكتابة وأشرق ضياء العرفان. ولم يكن الناس يذهبون إلى المعبد زرافات فحسب لحضور الأعياد بل يذهبون أيضا وحـدانًا طلبـا للمعونة. فقد كان الكهنة الأولون أطباء وسحرة. وإنك لتجد حتى في أقدم المعابد تلك النذور الصـغيرة التـي يقدمها أصحابها لغاية خاصة معينة والتي لا يزال الناس يقدمون حتى اليوم أمثالهـا فـي معابـد الكنـائس الكاثوليكية، ما بين نماذج صغيرة لقلوب رفعت عنها الهموم أو أطراف استردها أصحابها. تلك النماذج هـي آيات الشكران على استجابة الدعوات وقبول النذور. وإنك لتجد بعض أساليب إدارة الأعمال والصناعة قائمة في معبد القمر بمدينة أور منذ أربعة آلاف سنة خلت عندما أصبح ذلك المعبد مالكًا هاما للأراضي. وكانـت لهم حسابات دقيقة يحصون بها الدفعات التي يدفعها عينًا من يزرعون الأرض، وتعطى للدافعين إيصالات لها صور مطابقة للأصل، وكانت النساء المتبتلات والإماء يشتغلن في مصانع المعبد يغزلن وينسـجن الصـوف المقدم جزية للمعبد ويتسلمن جرايات من الطعام تتناسب وجهدهن في العمل الذي كان يسجل بغاية العناية.

وواضح أننا نجد في المعبد ذلك العنصر غير المهم نسبيا في حياة الصيادين الأوائل وأعني بـه الطبيـب الساحر وسادن المزار المقدس وجالب الحظ بعد، إذ نموا مع نمو المجتمع كما تطوروا بوصفهم جـزءا مـن تطور المجتمع من الهمجية إلى الاستقرار المتمدن ومن العيش العرضي إلى العمل المنظم. فانتقلوا بذلك إلى حال زادت فيها قيمتهم أيما زيادة. ويضارع هذا وضوحا أن تلك المخاوف البدائيـة مـن بعـض الكائنـات العجيبة، وذلك الأمل في تلقي المعونة منها، والرغبة في استرضاء القوى المجهولة، والرغبة البدائيـة فـي التطهر، والتلهف البدائي على القوة والعرفان التي ناقشناها في الفصل الذي عقدناه عن "الفكر القـديم"، قـد تضافرت جميعا على الرفع من شأن هذه الحقيقة الاجتماعية الجديدة: وأعني بها المعبد.

وتجمع المعبد تبعا لضرورات معقدة، فقد نما عن أسس وحاجات كثيرة. وكان الإله (أو الإلهة) المشـرف على المعبد من خلق مخيلات كثيرة كما كان مكونًا من كافة أنواع الدوافع والأفكار وأشياء الأفكـار، وإنـك لتجد هاهنا إلها غلبت فيه فكرة معينة وهناك إلها آخر غلبت عليه فكرة أخرى. وقد قضت علينا الضرورة أن نحرص على توكيد أهمية هذا الارتباك وهذا التنوع في أصل الآلهة، لأن هناك الآن كتبا كثيرة تبحـث فـي أصل الأديان، فترى كاتبا يصر في بعضها على هذه الفكرة الرئيسية، وكاتبا ثانيا يلح في شأن تلـك الفكـرة الأخرى كأنما هي الفكرة الوحيدة. وقد ذكرنا كثيرا من هذه الآراء المتناقضة في الفصل الذي عقـدناه علـى "الفكر القديم". مثال ذلك أن العلامة ماكس ملر استمر يضرب في زمانه على نغمة فكرة أقاصيص الشـمس وعبادة الشمس. فهو يود أن نعتقد أن الرجل الأول لم تكن له قط شهوات أو مخاوف أو تلهف على القوة، أو أنه ما كانت تحل به الكوابيس أو تلم به الأوهام، بل كان شخصا دائم التأمل وتقليـب الفكـر فـي المصـدر السماوي الخير للنور والحياة. نعم إن الفجر وشروق الشمس حقائق شديدة الحركة في الحياة اليوميـة، بيـد أنهما لا يزيدان على أن يكونا حقيقتين اثنتين وسط مجموعة ضخمة من الحقائق.

والرجال الأولون منذ ثلاثمائة أو أربعمائة من الأجيال كانت لهم عقول شديدة الشبه بعقولنا. وإن الخيالات التي نتخيلها في طفولتنا وشبابنا ربما كانت خير مفتاح يفتح أمامنا مغاليق الأفكار الأساسية التي نبتت منهـا الديانات الأولى. وكل من استطاع أن يسترجع تلك الخبرات العقلية يفهم بغاية السهولة ذلك الإبهام والفظاعـة والوحشية والتعدد الذي لا ترابط فيه، مما كان يحيط بالآلهة الأولى. لقد كانت هناك آلهة شمس ولا شك فـي أول تاريخ المعابد، ولكن كانت هناك أيضصا آلهة من أفراس البحر وآلهة من الصقور ومن البقر، كما كانت ثمة آلهة بشعة ما بين ذكر وأنثى، كذلك وجدت آلهة للنقمة والعذاب، وآلهة ذات أناقـة وظـرف يسـتهويان الألباب، وثمة آلهة ليست غير كُتل من حجر النيازك سقطت من السماء بشكل يحير الأفكار، هذا إلـى آلهـة هي أحجار طبيعية تصادف أن كان لها شكل شاذ يترك في النفس بعض الأثر.

وربما كانت بعض الآلهة من أمثال مردوك في بابل، وبعل (المولى) لدى الفينيقيين والكنعانيين ومن إليهم لا تزيد في حقيقة أمرها في أكثر الاحتمالات على أن تكون كائنات عجيبة جادت بها الأساطير، من أمثال ما يخترعه صغار الأولاد لأنفسهم اليوم. ويقال إن الشعب المستقر لا يكاد يفكر في إله من الآلهة، حتى يخترع له زوجة. وشاهد ذلك أن معظم آلهة المصريين والبابليين كانوا متزوجين. أما آلهة الساميين المترحلين فلـم يكن لديها هذا الميل إلى الزواج، ذلك أن سكان السهوب الشحيحة بالطعام كانوا أميل إلى الزهد في الأطفال.

وكأني بإعطاء الإله منزلاً يقيم فيه، أقرب إلى الطبيعة من إعطائه زوجة تئويه. وإلى ذلك المنزل يستطاع إرسال الهدايا. وطبيعي أن يكون الرجل العارف أي الساحر هو سادن ذلك البيت، ومما يزيد كثيرا في هيبـة الإله أن يضفي عليه شيء من العزلة والترفع. وإنها لخطى طبيعية جدا يسيرة الفهم، تلك التي تم بها التطور السريع الذي أصابه المعبد الأول والكهانة الأولى حين كان الشعب الزراعي يستقر ويتزايد. واسـتمر ذلـك الحال حتى مرحلة المعبد المستطيل الحاوي التمثال والضريح المقدس والمذبح في طرف منه وذلك الصـحن الطويل الذي يقف فيه المتعبدون.

وطبيعي أن يصبح المعبد مركز التفكير في ذلك المجتمع الآخذ في النمو نظـرا لأنـه يحـوي سـجلات وأسرارا، ولأنه مركز للقوة والمشورة والإرشاد، ولأنه يستدعي ويجتذب إلى خدمته أذكى الناس وأوسـعهم خيالاً. ولقد استمر موقف عامة الناس الذين يفلحون الأرض ويزرعون الأنعام حيال المعبد. موقـف السـذج الذين يسارعون إلى تصديق كل ما يقال لهم عنه. فهناك يعيش الإله الذي لا يراه الناس إلا نـادرا والـذي يرفعه خيالهم إلى أعلى علّيين والذي كان رضاه مبعث النجاح، وغضبه أصل الشقاء، وكان مـن الميسـور استرضاؤه بالهدايا الصغار والاستعانة بخدمه في مختلف الأغراض، وهو مبعث العجب والدهشة ولـه مـن عظم السلطان والمعرفة ما لا يصح معه للإنسان أن يقال من احترامه له ولو في دخيلة نفسه. بيد أن الكهنـة كان يخالجهم قدر معين من التفكير على مستوى أرفع من هذا بعض الشيء.

(٢)
الكهنة والنجوم

قد نستطيع الآن أن نلاحظ هاهنا حقيقة شائقة جدا خاصة بالمعابد الكبرى في مصر ويجوز أن تنطبق على بابل – ولسنا نستطيع أن نقطع برأي فيما يتصل بمعابد بابل لأن آثار معابدها غير واضحة تمام الوضوح – تلك الحقيقة هي أن المعابد كانت تتجه اتجاها خاصا. فالضرب الواحد من المعابد كان يبنـي بهيئـة تجعـل الضريح المقدس والمدخل متجهين على الدوام اتجاها لا يتغير. وكان ذلك الاتجاه في المعابد البابلية في أغلب الأحيان هو الشرق نصا، حتى ليواجه الشمس في يومي ٢١ مارس و ٢١ سبتمبر، وهما يومـا الاعتـدالين. ومما يجب ملاحظته أن نهري دجلة والفرات يفيضان إبان الاعتدال الربيعي. ثم إن أهرام الجيـزة متجهـة أيضا ناحيتي الشرق والغرب وإن أبا الهول يواجه الشرق نصا ولكن عددا عديدا من المعابد المصـرية فـي جنوب دلتا النيل لا يتجه إلى الشرق بالضبط وإنما يتجه إلى النقطة التي تشرق فيها الشمس في أطول يوم في السنة؛ والفيضان في مصر قريب جدا من ذلك التاريخ. ومع ذلك فإن بعض المعابد تتجـه شـطر الشـمال تقريبا، على حين يتجه بعضها الآخر صوب مشرق "الشعرى اليمانية"، أو إلى مشرق بعض النجوم البـارزة الأخرى.

ويتصل هذا الاتجاه نحو جهة معينة بأمر آخر ذي بال، وهو أنه نشأت منذ القدم علاقة ترابط وثيق بـين آلهة متنوعة وبين الشمس والنجوم الثابتة المختلفة. ومهما يكن تفكير عامة الناس خارج المعبد، فإن الكهنة قد أنشئوا يربطون حركات تلك الأجرام السماوية بالقوة الكامنة في الضريح المقدس، ذلك أنهم كانوا يفكرون في الآلهة التي يخدمون، ويفكرون في إضافة معان جديدة إليها، وكانوا حول سر النجوم في تفكير عميق. وكـان جد طبيعي منهم أن يظنوا أن هاته الأجسام المضيئة المتناثرة هنا وهناك والتي تدور في ذلك الوقار والسكون الرائعين لا بد أن تكون عامرة بالتنبؤات للجنس البشري.

ومن فوائد هذا التوجيه الخاص لبناء المعبد أنه يساعد على تثبيت عيد رأس السنة الجديدة وتوطيده. ففـي صباح يوم واحد في السنة، صباح وحيد لا ثاني له، في معبد يولي وجهه شطر مطلـع الشـمس فـي يـوم منتصف الصيف، تهوي تباشير أشعة الشمس خلال ظلمات المعبد منطلقة في الممر الضيق بين عمده فتنتشر ألوية الضياء من حول الرب فوق المعبد وتغمره بفيض من الضياء والمجد. وكانت أبنيـة المعابـد القديمـة المعتمة الضيقة يقصد في تخطيطها فيما يبدو إلى بعث ذلك الأثر في النفـوس. ولا شـك أن النـاس كـانوا يجتمعون في غسق الليل قبيل الفجر، وترتل التراتيل في بهمة الظلمة ولعل الضحايا كانت تقرب أيضاً" فـي ذلك الوقت. وكان الرب وحده هو الذي يقف صامتًا لا يراه أحد، تقدم إليه الصلوات والتوسلات، ثم تشـرق الشمس من الخلف فيتألق الرب بغتة من فوق أعين المتعبدين، وقد أرهف الظلام حساسيتهم.

ذلك في القليل هو تفسير لاتجاه المعبد نحو الشرق كما يراه عالم ضليع في هذا الموضـوع هـو السـير نورمان لكير. وليس التوجيه ظاهرة تنفرد بها غالبية معابد مصر وآشور وبابل والشرق، بل يوجد أيضا في المعابد الإغريقية. وأنصاب ستون هنج موجهة نحو مشرق الشمس في منتصف الصيف، وعلى هذه الشـاكلة تقوم معظم الدوائر الجندلية في أوربا. ومذبح السماء في مدينة بكين موجه صوب شمس منتصف الشتاء. ففي زمان الإمبراطورية الصينية (أي إلى ما قبل بضع سنين مضت) كان من أهم واجبات الإمبراطـور تقـديم الضحايا والصلاة في ذلك المعبد في يوم منتصف الشتاء والابتهال والدعاء أن تكون السنة سنة يمن وبركة.

على أن هذا الجزء الخاص بتوجيه المعابد ليس من الحقائق الثابتة كل الثبوت، بل يحوطـه حتـى اليـوم الإبهام والغموض. ولقد يبدو أن السير نورمان لكير قد أسرف في رغبته أن يجد المعابد موجهة نحو اتجـاه خاص على أن الآراء الحديثة قامت بالشيء الكثير في تقويض آرائه ونقض أقواله عامة. نعـم إن الأهـرام موجهة نحو الجهات الأربع لا جرم، ولكن من الأمور المشكوك فيها كثيرا، أن كثيرا من المعابد المصرية قد وجهت عن قصد وجهة بعينها.

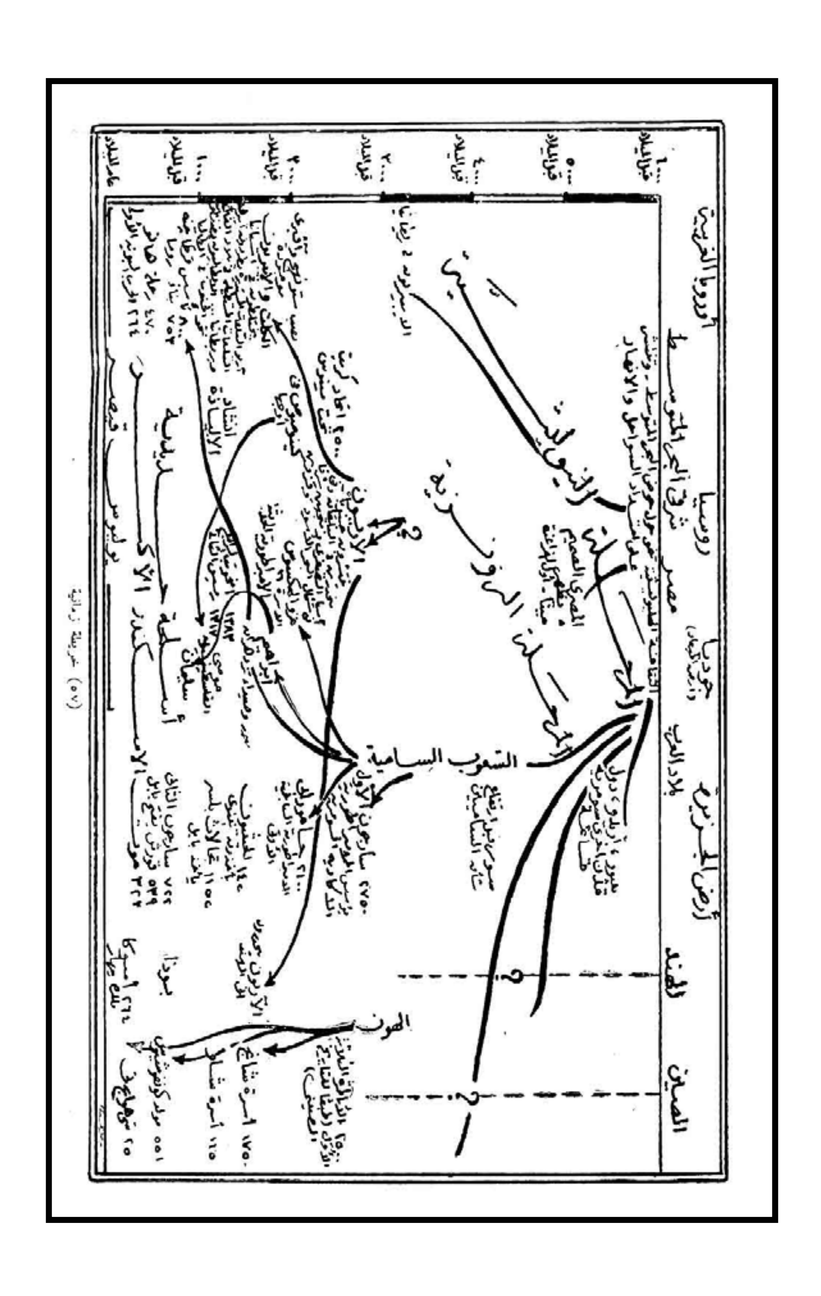
ولم يحل عام ٣٠٠٠ ق. م حتى كان الكهنة المصريون قد قسموا النجوم وصـوروها، وعرفـوا أبـراج النجوم وقسموا دائرة مربع البروج اثنا عشر برجا.

(٣)
الكهنة وفجر العلوم

هذا الدليل الواضح الذي ينم عن وجود البحوث الفلكية وعن تطور في الآراء الفلكية هو وحده ولا شيء غيره أجلى شاهد على النشاط العقلي البالغ الذي كان يجري بين جدران المعبد على صفحة الأزمان الغابرة. وإن كتاب هذا العصر ليميلون ميلاً لا يخلو من الغرابة، إلى الغض من طائفة الكهنة وإلى إطلاق اللسان في الكهنة كأنما كانوا على الدوام من المحتالين وأصحاب الأحابيل، الذين يتخذون من بساطة الجنس البشري فريسة سهلة. ولكنهم في الواقع قد ظلوا زمانًا طويلاً الطبقة الكاتبة الوحيدة والجمهور القارئ الوحيد، والعلماء الوحيدين والمفكرين الوحيدين في زمانهم. وهم كذلك الطبقات التي تحترف الحرف الفنية في ذلك الزمان. ولم يكن أي إنسان ليستطيع أن يحصل قط على أية حياة عقلية، كما لم يكن يستطيع الدخول إلى حظيرة الأدب أو ارتشاف العرفان إلا على يد الكهنة. ولم تكن المعابد هي المراصد والمكاتب وعيادات المرضى فحسب بل لقد كانت فوق ذلك متاحف ودورا للكنوز. ألا ترى إلى النسخة الأصلية من كتاب البريبلوس لهانو كيف كانت معلقة مدخرة في معبد آخر. وكان المعبد مثوى كل ما له قيمة دائمة في حياة المجتمع.

ولقد جمع هيرودوت المؤرخ اليوناني القديم (٤٨٥ – ٤٢٥ ق. م) معظم مادة مصنفِهِ العظيم من كهنة الأقطار التي اجتازها، وغني عن البيان أنهم كانوا يلقونه بالسماحة والإكرام ويضعون مصادرهم الجسام تحت تصرفه المطلق. فأما خارج المعبد فكان العالم لا يزال عالم كائنات بشرية أمية خالية الوفاض من كل تفكير ومن كل نظر في الأمور، تعيش من يوم إلى آخر من أجل نفسها ليس غير. هذا إلا أنه قلما يوجد دليل على أن العامة كانت تحس بأن الكهنة تخدعها ولا كان يخالج أفئدتها إلا إحساسات الحب والثقة بالكهنة الأولين. بل بلغ الأمر أن كبار الفاتحين في العصور المتأخرة كانوا حريصين على أن يكونوا من أنصار كهنة الشعوب والمدائن التي يبتغون طاعتها بسبب ما كان لهؤلاء الكهنة من نفوذ عظيم على الشعوب.

ولا ريب أنه كانت هناك فروق عظيمة بين المعبد والمعبد، وبين النِحلة والنِحلة في روح الكهنة وصفاتهم. فكان بعضهم فيما يرجح من القساة الغلاظ الأكباد، وكان بعضهم ممن ركب على الطمع والفساد، وكان كثير منهم أغبياء مستمسكين بالمبادئ النظرية قد أعمى استمساكهم الجامد بالتقاليد بصيرتهم. ولكن يجب أن نتذكر على الدوام أنه كانت هناك حدود ينتهي عندها انحطاط الكهنة أو عجزهم وعدم كفايتهم، وأنه كان لا بد لهم من أن يحافظوا على ما كان لهم من سلطان على عقول الجماهير. ولم يكن في مقدورهم أن يذهبوا إلى أبعد مما يطيقه الشعب سواء كان ذلك نحو الظلمة أو صوب النور. وكان سلطانهم يقوم في نهاية الأمر، على إقناعهم الناس بأن كل أضرب نشاطهم موجهة إلى الخير.



الصين
الهند
أرض الجزيرة
بلاد العرب
مصر
روسيا
أوروبا الغربية
الشعوب السامية

(٤)

الصراع بين الملك والكاهن

بذلك كانت أقدم الحكومات الممدنة حكومة كهنوتية. ولم يكن الملوك والقواد هم الذين دفعوا بالناس إلى المحراث وإلى حياة الاستقرار. بل يرجع الفضل في ذلك إلى الأفكار الخاصة بالآلهة ووفرة الخيرات، وهي تعمل عملها بالإضافة إلى انقياد عامة الناس وإذعانهم. ونحن نعلم أن جميع حكام "سومر" الأولين كانوا بلا استثناء من الكهنة، وأنهم لم يرتقوا عروشهم إلا لأنهم رؤساء الكهنة. وكانت للحكومات الكهنوتية أسباب عجزها ومواطن ضعفها كما كانت لها مصادر قواها الخاصة بها الشديدة الرسوخ فيها. فمن أسباب ضعفها أن سلطانها ينبسط على شعبها دون غيره. وهو ضرب من إخضاع الناس بما يخالجهم من مخاوف دفينة وآمال خفية. كذلك تستطيع حكومات الكهنة أن تجمع شعبها للحرب، ولكن نزعتها التقليدية وكل وسائلها لا تخلق منها أداة صالحة للقيادة الحربية. وإن شعبا يقوده الكهنة لشعب ضعيف واهن أمام العدو الخارجي.

هذا إلى أن الكاهن إنما هو رجل نذر نفسه وتدرب على شيء بعينه وكرس حياته له، فهو رجل ينتمي إلى هيئة خاصة وله بالضرورة شعور قوى بالهيئة التي ينتمي إليها وبرابطة الجماعة، قد وهب حياته لمعبده وربه. وفي ذلك نفع جليل تفيده القوة الداخلية لكهنته ومعبده. فهو يعيش ويموت من أجل تبجيل ربه الخاص. على أن هناك في المدينة أو القرية المجاورة معبدا آخر له رب ثانٍ. وعمله الدائم هو أنه يحول بين قومه وبين اتباع ذلك الرب. لهذا كانت النحل الدينية والكهانات متشيعة بطبعها لطائفتها. فهي تخرج الناس عن عقائدهم وتضمهم إليها، وهي تتغلب بعضها على بعض ولكنها لن تندمج أبدا. فأول ما نستبينه من وقائع الحوادث في سومر في ذلك الضوء الخافت المعتم قبل بداية التاريخ، هو منظر للكهنة وللآلهة وهم في نزاع لا ينقضي. وظل السومريون متخالفين غير متحدين حتى غزاهم الساميون. كذلك ترك هذا النزاع المستعصي على العلاج بين الكهنة أثره السيئ في كل أطلال المعابد المصرية. وكان من المستحيل أن تكون الحال غير هذه الحال إذا راعينا العناصر التي نشأت منها الديانات.

وقد تولت من العالم القديم كله منذ خمسة وعشرين قرنًا هذه الحال، التي كان الكاهن فيها صاحب السلطان الأعلى، ولكن كهانة بدائية في أمريكا تقوم على التضحية وتحكم مدنية بأسرها استمرت إلى عهد لا يبعد أكثر من ألف سنة عن وقتنا هذا. وكان ذلك في أمريكا الوسطى ويوقاطان. فأما المكسيك فكان رجال الكهنوت فيها تحت سلطان ملكية أشبه شيء بملكية بابل، فكان كل من معبد الكاهن وقصر الملك يقوم إلى جوار الآخر. وكان في بيرو ملك مقدس يشبه فرعون. أما في حضارة المايا التي درست معالمها قبل وقتنا هذا، والتي تركت ما تركت من الخرائب المدهشة في أجمات المكسيك الجنوبية، ودول برزخ بنما، فكانت الطائفة الكهنوتية تجمع في يدها سلطانًا يقوم على الدم والحذلقة العلمية ولقد تخطت الكهانات في كل مكان في العالم غير هذا أوج عزها في الوقت المناسب وأفسحت المجال لقوى أخرى. ولكن كهنة المايا تطوروا آخر الأمر تطورا متطرفًا حادا أدنى إلى صورة هزلية للنظام الكهنوتي ممسوخة مبالغ فيها. فإنهم أحكموا تقويمهم وعقّدوه حتى أضحى أحجية من الأحاجي المعماة، ودفعوا بطقوس التضحية إلى أقصى درجات الاستثارة الشهوية البهيمية. وفن النحت عندهم، وهو الذي يبدو فيه الحذق والإتقان – إنما هو سجل يضم نوعا عجيبا من العبث الذي تتجلى في حلياته بادرة من بوادر الهذيان.

واستمد سلطان الملوك العلمانيين قوته من نقطتي الضعف الرئيسيتين في الكهانات جميعـا: وهمـا عـدم اقتدارهم في القيادة العسكرية، وما فطروا عليه من الغيرة من كل من عداهم من النحل الدينية. وعنـد ذلـك يحدث أحد أمرين فإما أن يتغلب العدو الأجنبي ويقيم ملكًا على الشعب، وإما أن تأبى كل طوائف الكهنـة أن تخضع لواحد منها فتقيم عليها جميعا قائدا محاربا مشتركًا يحتفظ بسلطانه كله أو بعضه أيام السلم. ولا يلبـث هذا الملك العلماني حتى يحبط نفسه بالتدريج بمجموعة من الموظفين، وأن يتيح له التنظيم الحربي الموكل به أن يشترك في إدارة أمور الناس. وهكذا ظهر للكاهن زعيم، وهو الملك، من داخل حرفة الكهانة وقـام إلـى جانب الكاهن نفسه على مسرح التاريخ الإنساني. وليس في مستطاعنا أن نفهم شطرا كبيرا مما تلا ذلك مـن التجاريب التي امتحنت بها الإنسانية إلا بوصفها إحكاما وتعقيدا وتشويها للصراع بين نظامي التسلط على بني الإنسان هذين: أعني المعبد والقصر، سواء أكان ذلك الصراع مقصودا، أم غير مقصود.

ووصلت هذه الخصومة إلى أقصى غاية تطورها في مراكز المدنية الأصلية. فأمـا الشـعوب الهمجيـة الآرية، الذين أصبحوا في النهاية سادة كل المدنيات القديمة في الشرق والعالم الغربي، فلعلهم لم يمروا قط في دور حكم المعبد في سبيلهم إلى المدنية، ذلك بأنهم إذ نزلوا على مسرح المدنيـة متـأخرين، وجـدوا تلـك المسرحية قد انتهى نصفها. فأخذوا فكرتي المعبد والملكية معا بعد أن تطورتا في مدارج الإتقان والتجويـد، على يد الشعوب الحامية والسامية التي غلبوها والتي كانت أكثر منهم مدنية.

وإن الأهمية العظمى للآلهة والكهنة في تاريخ أرض الجزيرة المبكر لواضحة أشد الوضـوح؛ علـى أن القصر أخذ يشق طريقه حتى أضحى في نهاية الأمر في وضع يهيئوه للكفاح النهائي من أجل السلطة العليـا. وتبدأ القصة بأن يكون القصر بإزاء المعبد جاهلاً لا صديق له. فالكهنة وحدهم هم القارئون، والكهنة وحدهم هم العليمون العارفون، والناس منهم في خشية لا تنقضي. ولكن توافي القصر فرصته فيما كان بـين النحـل الدينية المختلفة من تنازع. ومن المدن الأخرى، ومن صفوف الأسرى، ومن بين النحل الدينية المهيضـة أو المغلوبة، يستطيع القصر أن يحصل على رجال يلمون أيضا بالقراءة، ويستطيعون أن يأتوا كثيرا من أفـانين السحر. فهو يستطيع أن يوقف موسى الغريب أمام السحرة من أبناء البلد. ومن ثم يصبح القصر أيضا مركزا من مراكز الكتابة والتدوين. ويفكر الملك في شئونه الخاصة، وينزع إلى السياسة. ويتجه التجار والأجانـب إلى بلاطه، ولئن لم يكن لدى الملك السجلات الوافية، والعلم الكامل الذي للكهنة، فقد كان له بأشـياء كثيـرة جديدة معرفة أوسع وأحدث، فهو من ثم أدنى إلى الحقيقة الواقعة.

يفد الكاهن إلى المعبد، وهو لا يزال حدثًا شديد الحداثة؛ ويقضي سنوات عدة تلميذًا مبتدئًا. ومفتاح العلـم، وهو الحروف السمجة التي كانت في الأزمان البدائية، إنما هو طريق بطيء مضن. وهـو يصـبح علاّمـة متحذلقًا متحاملاً على من عداه أكثر منه رجلاً دنيويا. وإن بعضا من صـغار الكهنـة المتوقـدي العقـول ليتطلعون إلى خدمة الملك. على أن هناك تعقيدات وتغيرات جمة تلم بتلك المسرحية (التي دامـت عصـورا بأكملها)، مسرحية الكفاح الذي تواصل خلف ستار المنازعات الظاهرية بين الكاهن والملـك، بـين الرجـل العصامي والرجل العظامي. وبين العلم والابتكار. وبين العرفان الوطيد والتقاليد المستقرة من ناحية والإرادة المبتدعة والخيال الخلاّق من ناحية.

ولم يكن الكاهن على الدوام (كما سترى بعد) هو الخصم الجامد المحافظ الواهن الخيال، فقد كان الملك في بعض الأحيان يكافح ضد طبقة من الكهنة ضيقة العطن تقيم العراقيل في سبيل كل تقدم، وكانت تلك الطبقـة في الأحايين الأخرى تقيم صروح المدنية ضد ملوك متوحشين أو أنانيين أو رجعيين.

وهناك حقيقة أو اثنتان تعدان من أبرز الحقائق أو الحوادث في المراحل الأولى لهذا الكفاح الجوهري فـي الشئون السياسية؛ وهي كل ما نستطيع أن نلحظه هاهنا بين ٤٠٠٠ ق. م وبين أيام الإسكندر.

(٥)

كيف كافح بعل مردوك الملوك

كان ملوك المدن في الأيام الأولى "لسومر وآكاديا" أدنى إلى الكهان والأطباء السحرة منهم إلى الملـوك، ولم يتم التمييز بين الكاهن والملك تمييزا واضحا محددا إلا عندما حاول الغزاة الأجانب أن يوطدوا الأمر في أيديهم على أساس النظم القائمة. على أن إله الكهنة ظل السيد الأعلى للأرض والكاهن والملك على السـواء فهو ملك الأرض العام، وكانت ثروات معابده ومؤسساته وسلطاتها تحجب ثروات الملك وسلطانه. وكان هذا هو الحال على الأخص داخل أسوار المدينة. وليس حمورابي مؤسس الإمبراطورية البابلية، إلا واحـدا مـن أقدم الملوك الذين نراهم يقبضون بقوة على شئون المجتمع. وهو يفعل ذلك بمنتهى التأدب في حـق الآلهـة، فهو يفتتح إحدى مخطوطاته المسجلة لما قام به من مشروعات في الري في سومر وآكاديا بقوله "عندما وكل إلي آنو وبعل مقاليد الحكم في سومر وآكاديا.."، وبين أيدينا الآن قانون سنّه ذلك الملك حمورابي نفسه، وهو أقدم قانون معروف، وفي رأس ذلك القانون صورة حمورابي، وهو يتلقى القانون من مذيعه الأسـمى الإلـه شاماش.

وفي تاريخ يسبق صورة حمورابي هذه تمثل لوحة حجرية كشفت عنها الحفائر أخيرا فـي "أور"، القمـر الرب وهو يأمر الملك أورانجور أن يبني له معبدا، كما تبينه، أعني القمر الرب، وهو يساعده في عمليـات البناء، فالملك إذن بمنزلة الخادم من الإله. وكثيرا ما كان يحدث أثناء غزو المدن حدث ذو خطـر سياسـي عظيم، هو حمل ربها إلى معبد فاتحها واتخاذه هناك تابعا. كان هذا الحدث أعظم أهمية من إخضـاع الملـك للملك وقد حمل العيلاميون "ميروداخ" وهو المشتري عند البابليين فلم تشعر بابل باستقلالها ولم يقر لها قرار حتى عاد إلى مكانه الأصلي.

على أن الفاتح كان في بعض الأحيان في خشية من الرب الذي غزاه. فإن في مجموعة الرسائل الموجهة إلى أمنحوتب الثالث والرابع وهي رسائل تل العمارنة بمصر التي سبقت الإشارة إليها، رسالة مـن "تشـراتا ملك ميتاني" الذي غزا آشور وأخذ تمثال الربة أشتار، ويتضح من تلك الرسالة أنه أرسل ذلك التمثـال إلـى مصر ليعترف من ناحية بسيادة أمنحوتب العليا عليه، على أنه من ناحية أخرى أرسله لأنه يخاف غضب تلك الربة كما يقول ويبكار. وتقص علينا التوراة في الجزء الأول (سفر صمويل الإصحاح الخامس القسم الأول) كيف أن تابوت عهد الرب، رب العبرانيين قد حمله الفلسطينيون إلى معبد الإلهة السمكة داجون في أشـدود دلالة على غزوهم للعبرانيين، وكيف وقع داجون بعد ذلك فانكسر وكيف أصيب أهل أشدود بالأمراض. وفي القصة الأخيرة على الأخص يشغل الإله والكهنة كل المسرح التاريخي. فليس هناك أثر لملك.

ولا يلوح أن ملكًا واحدا في كل تاريخ الإمبراطوريات البابلية والآشورية قاطبة كان يشعر بسلطته الملكية وطيدة الأركان في بابل حتى "يتناول يد الإله بعل" أي حتى يقبله كهنة بعل ولدا للرب وممثلاً له. وكلما زادت معلوماتنا عن التاريخ البابلي والآشوري تجلى لنا إلى أي حد كانت سياسات ذلك العالم وثوراته واغتصـاب الملك فيه وتغير الأسرات المالكة والتآمر مع الدول الأجنبية في إبانه، أمورا تدور في غالب الأحوال حـول الخلاف بين طبقة الكهنة العظيمة السلطان العريضة الثراء وبين قوة الملك النامية، التي لم تكن قد بلغت بعـد أوج قوتها. كان الملك يعتمد على جيشه، وكان ذلك الجيش في العادة من المرتزقة الأجانـب الـذين كـانوا سرعان ما يلجأون إلى العصيان إن لم تؤد إليهم أرزاقهم، أو إذا انقطع عنهم السلب، والذين كانوا أدنى الناس إلى الرشوة. وقد لاحظنا من قبل اسم سنحاريب بن سرجون الثاني بين ملوك الإمبراطورية الآشورية. وقـد تنازع سنحاريب هذا وكهنة بابل نزاعا عنيفًا فهو لم يأخذ قط بيد بعل، وانتهى به الأمر إلى أن ضرب تلـك القوة بأن دمر القسم المقدس من مدينة بابل تدميرا تاما (٦٩١ ق. م) ونقل تمثال بعل مردوك إلى آشور. ثـم اغتاله أحد بنيه. ووجد خلفه آسر حدون (وهو ابنه وإن لم يكن هو نفس الابن الذي اغتاله) أن من المصـلحة أن يعيد بعل مردوك وأن يبني له معبده مرة ثانية وأن ينتهي إلى الصلح مع الرب.

فأما آشور بانيبال (ويسميه الإغريق ساردانا بالوس) ابن هذا الملك، فإنه شخصية شائقة لها أهمية خاصة من ناحية ما نحن بصدده من علاقة الكهنة بالملك. وقد بلغ من أثر صلح أبيه مع كهنة بعل مردوك أن ساردانا بالوس تربى تربية بابلية بدلاً من أن ينشأ نشأة عسكرية آشورية. وأخذ يقتني الوثائق الطينية القديمة حتى غدا من أعظم جامعيها، وأصبحت مكتبته التي اكتشفت حديثًا أثمن مصدر للمواد التاريخية في العالم. وقد احتفظ بزمام الجـيش الآشوري بين يديه رغم سعة علمه، وغزا مصر غزوة قصيرة الأمد، وقمع ثورة في بابل وقام بعدد من الحملات الناجحة. وهو يكاد يكون آخر الملوك الآشوريين. فإن القبائل الآرية التي كان علمها بالحرب أوسع من خبرتهـا بشئون الكهنوت، نخص منهم بالذكر الأسكوذيين والميديين والفرس، لبثوا يضغطون من زمن بعيد على آشور من الشمال والشمال الشرقي. ثم كون الميديون والفرس والكلدان الساميون الرحل في الجنوب تحالفا فيما بينهم لاقتسام مملكة آشور. وسقطت نينوي عاصمة الدولة الآشورية في يد هؤلاء الآريين (٦٠٦ ق. م).

وبعد انقضاء سبع وستين سنة على استيلاء الآريين على نينوي، وهو الذي أدى إلى التخلـي عـن بابـل للكلدان الساميين خلع كورش الفارسي الملك نابونيداس آخر ملوك الإمبراطورية الكلدانيـة (الإمبراطوريـة البابلية الثانية) وهو والد بيلشاصر [٦٧]. وكان هذا الملك نابونيداس أيضا ملكًا عالي التربية فـأظهر الشـيء الكثير من الذكاء وسعة الخيال، وإن لم يظهر في شئون الدولة ما يلازم عالمه من عطن ضيق وأفق محدود. إذ يؤثر عنه أنه قام بأبحاث عن الآثار القديمة. وإلى أبحاثه تلك يرجع الفضل في حصولنا على تاريخ محـدد – وهو سنة ٣٧٥٠ ق. م – التي تحدد بالتدقيق عصر سرجون الأول والتي لا يزال كثير من الثقات يعترف بها ويعتمد عليها. لقد كان الملك فخورا بذلك التحديد فترك من الكتابات المسجلة ما يدل على أنه كـان مـن المجددين في الدين. فهو قد ابتنى المعابد وأعاد تنظيمها وحاول أن يركز الديانة في بابل بنقـل عـدد مـن الأرباب المحلية إلى معبد بعل مردوك. ولا جرم أنه أدرك الضعف والتفكك المحيقين بإمبراطوريته من جراء هاتيك النحل الدينية المتناحرة. وكان يجيل في ذهنه فكرة ترمي إلى توحيدها.

([٦٧]) قد التزمنا جهد الطاقة طريقة كتابة هذه الأسماء الواردة في الكتاب المقدس. (المترجم)

ولكن الحوادث كانت تجري بسرعة سبقت بها كل هذه التطورات. وأثار تجديده شكوك كهنة بعل وعداءهم إثارة بينة، فانحازوا إلى الفرس "فدخلت جنود كورش بابل بلا قتال".. وأخذ نابونيداس أسـيرا وأقـيم علـى أبواب معبد بعل حراس من جنود الفرس حيث استمرت الشعائر الدينية بلا تدخل من الغزاة.

والواقع أن كورش أقام الإمبراطورية الفارسية في بابل على بركات من بعل مردوك. وأرضـى غرائـز الكهنة المحافظين على القديم بإعادة الأرباب المحلية إلى مواضعها من معابد الأجداد. ثم رد كذلك اليهود إلى بيت المقدس. وكانت هذه كلها عنده مجرد مسائل تتعلق بالسياسة العاجلة. ولكن الكهنة الأقدمين حين أدخلـوا الآريين غير المتدينين قد اشتروا بقاء الشعائر الدينية في معابدهم بأغلى الأثمان. وكان أولى بهم وأقرب إلى الصواب أن ينظروا في تجديدات نابونيداس ذلك الزنديق المخلص الجاد، وأن يصغوا إلى فكرته، وأن يقابلوا حاجات عالمهم المتغير بما يعوزها من تدابير. ودخل كورش بابل ٥٣٩ ق. م، وما وافت ٥٢١ ق. م، حتـى اندلع في بابل لهيب عصيان جديد، فلما كانت سنة ٥٢٠ق. م، أحاط بها ملك فارسي آخـر، هـو داريـوس (دارا) وأخذ يهدم أسوارها. ولم تمض مائتان من السنين، حتى كانت الحياة قد ذهبت ذهابا تامـا مـن هـذه الأماكن المقدسة الموقرة الخاصة ببعل مردوك وحتى اتخذ البناؤون من معبد بعل مردوك محجـرا يقتلعـون منه الحجارة.

(٦)
ملوك مصر الآلهة

تشبه قصة الكاهن والملك في مصر قصتها في بابل وإن لم تسايرها خطوة فخطوة بأي حال من الأحوال. ذلك أن ملوك سومر وآشور كانوا من الكهنة الذين أصبحوا ملوكًا، أي إنهم كانوا رجال دين أصبحوا رجال دنيا. فأما فرعون مصر فلا يبدو أنه سلك ذلك الدرب نفسه، إذ أصبح الملك منذ أقدم العصور يستمتع بقوة وأهمية تفوق ما لأي كاهن. فهو في حقيقة أمره إله تفوق مرتبته مرتبة كل من الملك والكاهن على السواء.

ولسنا ندري كيف بلغ الملك هذه المنزلة. فلم يكن أي ملك من ملوك سومر أو بابل أو آشور ليستطيع حمل قومه على القيام بمثل صنيع بناة الأهرام، فراعين الأسرة الرابعة العظماء، من حمل قومهم على إقامة مثل تلك البنايات الشامخة. وليس بمستبعد أن كان الفراعنة الأوائل يعدون صورة مجسدة لأقوى الأرباب سلطانًا. وشاهد ذلك أن الرب البازي "حورس" يجلس خلف رأس تمثال خفرع الضخم؛ بل إن ملكًا من أواخر ملوك مصر هو رمسيس الثالث (الأسرة العشرين) يمثّل على ناووسه (وهو الآن بمدينة كامبردج) حاملاً الرموز المميزة الخاصة بالآلهة الثلاثة الكبرى للنظام الديني المصري، فهو يتقلد صولجاني "أوزوريس" رب النهار والبعث، ويضع على رأسه قرني البقرة الربة "حتحور" (هاتور)، هذا إلى قرص الشمس وريش آمون رع، وهو لا يلبس رموز هذه الآلهة لمجرد لبسها كما قد يلبس ملوك بابل الأتقياء رموز بعل مردوك، وإنما "هو" هذه الآلهة الثلاثة مجتمعة في شخص واحد.

ويجد الدارس في كتاب الغصن الذهبي للسير ج.ج. فريزر الشيء الكثير عن إقدام أهل العصور القديمة على اتخاذ المخلوقات الإنسانية والتماثيل أيضا، لتمثيل الآلهة. ولسنا نزيد هاهنا على أن نشير إلى ما كان بين الملكيات الآسيوية والأفريقية من فرق في الفكرة واضح جلي.

وإنا لنجد أيضا عددا من التماثيل والصور التي ترمي إلى تأييد الفكرة القائلة بأن الفراعنة كانوا أبناء الآلهة حقًا. من ذلك أن سلسلة من التماثيل بالأقصر تعرض علينا في تفاصيل رائعة أبوة الملك أمنحوتب (أمينوفيس) الثالث المقدسة، ومولده الرباني. هذا إلى أنهم كانوا يرون أنه ليس للفراعنة أن يتزوجوا من أفراد الناس العاديين لأنهم من نسل قدسي، ولهذا جروا على أن يتزوجوا أقاربهم المتصلين بهم بأقرب الوشائج في الدم، والذين تمنع الشرائع الآن تزاوجهم، حتى لقد كانوا يتزوجون أخواتهم.

وعلى ذلك فإن النزاع بين القصر والمعبد هبط على التاريخ المصري من زاوية مغايرة للتي هبط منها على بابل، ولكن هذا النزاع قام بينهما على كل حال. وقد أورد الأستاذ ماسبيرو في كتابه "ضوء جديد على مصر القديمة" بيانًا ممتعا عما جرى بين أمنحوتب (أمينوفيس) الرابع وبين الكهنة، وخاصة كهنة الرب الأعظم آمون رع سيد الكرنك.

وتفصيل ذلك أن والدة أمنحوتب الرابع لم تكن من سلالة الفراعنة؛ إذ يبدو أن أباه تزوج زواجا غراميـا بإحدى الرعايا، وهي سورية حسناء اسمها "تي". ويجد الأستاذ ماسبيرو بدايات ذلك النزاع فيمـا عسـاه أن يحدث من معارضة كهنة آمون رع لهذه الملكة وتضايقهم منها، وهو يرى أنها ربما بثت في ولـدها الكـره الشديد لآمون رع، ولكن ربما كانت لأمنحوتب الرابع وجهة نظر أرحب أفقًا وأوسع نطاقًا، ولعله كان يضمر التفكير في مشكلة الوحدة المعنوية في إمبراطوريته مثله في ذلك مثل نابونيداس البابلي الذي عاش بعده بألف سنة. فقد سبق أن لاحظنا أن أمنحوتب الثالث كان يحكم بلادا تمتد من النوبة إلى نهر الفرات، وأن مجموعـة رسائل تل العمارنة المرسلة إليه وإلى ولده تدل على اتساع نطاق مصالحه ونفوذه. ومهما يكن السبب، فـإن أمنحوتب الرابع شرع يغلق جميع المعابد المصرية والسورية ليقضي بذلك على العبادات الطائفية فـي كـل أرجاء مملكته، وليقيم في كل مكان عبادة رب واحد هو "آتون" قرص الشمس. فغادر عاصمته طيبـة التـي كانت في الواقع مدينة آمون رع أكثر مما كانت بابل فيما بعد مدينة بعل مـردوك، وجعـل عاصـمته تـل العمارنة وغير اسمه أمنحوتب الذي كان يكرسه لآمون فجعله أخناتون أي مجد الشمس ثم صمد أمـام كـل كهنة إمبراطوريته ثمانية عشر عاما، ومات فرعونًا دون أن يستطيع أحد أن يفل من قوته.

وتختلف الآراء اختلافًا بعيدا في أمنحوتب الرابع أو أخناتون. فمن الناس من يعدونه آلة في يد أمه التي كانت تبغض آمون، وزوجا خانعا شديد الكلف بزوجته الحسناء. ولا مراء أنه شغف بزوجته حبا وبذل لها من التكـريم الشيء الكثير. ومصر كانت تكرم النساء، وقد حكمها في أوقات مختلفة ملكات كثيرات وتمثل بعـض التماثيـل الملك وزوجته جالسة على ركبتيه ويمثله بعضها الآخر وهو يقبلها في إحدى المركبات. لكـن الرجـال الـذين يعيشون تحت سلطان نسائهم لا يحتفظون بإمبراطوريات عظيمة في وجه عداوة مريرة من جانب أشد الهيئـات المنظمة في مملكتهم نفوذا. ويكتب البعض الآخر عنه فيصفونه بأنه "متعصب كئيب"، لكن السعادة الزوجية نادرة في أحوال كل متعصب كئيب، بل الأقرب إلى العقل أن نعده الفرعون الذي أبى أن يكون ربا. فليسـت سياسـته الدينية وإظهاره الصريح للعواطف الطبيعية هي وحدها التي تبدو مميزة لشخصية قوية شديدة الأصـالة، بـل إن آراءه الجمالية الفنية كانت آراء فذة لا يشاركه فيها غيره. فلقد رفض أن توضع صورته في الوضع التقليدي الذي توضع في قالبه الجميل الأملس صورة الفرعون الرب في العادة، وإن وجهه ليطل علينا من خلال ثلاثة وثلاثين قرنًا، بوصفه رجلاً يقف بين صفوف من الملوك القدسيين الذين حرموا كل لون أو طعم يميزهم.

ولم يكن حكم يمتد ثمانية عشر عاما بكاف لإتمام الثورة التي فكر فيها، ثم عاد صهره الذي خلفه على العـرش إلى طيبة "وألقى السلم إلى آمون رع". وكان الملوك الأخيرون في الأسرة الثامنة عشرة ثلاثة، أحدهم الفرعون توت عنخ آمون الذي أثيرت حول اسمه ضجة كبرى في السنين الأخيرة. وهو شاب مغمور تزوج من ابنـة أخنـاتون ووريثته. ويبدو أنه كان ألعوبة في أيدي كهنة آمون. ولسنا ندري أمات وهو صغير السن أم أزيح مـن الطريـق. ولكن حدث بمحض الصدفة أن مقبرته كادت أن تكون المقبرة الفرعونية الوحيدة التي لم تمسسها يد النـاهبين ولـم يسط عليها الناس فيما بعد، فظلت سليمة حتى زماننا هذا، ثم فتحت وكشف عما فيها، وصحب ذلك ضجة صحفية لا تتناسب قط مع أهميته التاريخية. وما لبثت الأسرة الثامنة عشرة حتى انتهت وشيكًا بعد توت عنخ آمون. وأصبحت الأسرة التاسعة عشرة – وقد أسسها "حر محب" – من أزهى الأسرات المصرية قاطبة وأمجدها.

واستمرت قدسية الملك تطيف بذهن المصريين حتى نهاية القصة، ثم انتقلت منها إلى أفكار أجناس أخرى. وشاهد ذلك أنه لما أن وصل الإسكندر الأكبر إلى بابل، كان نفوذ بعل مردوك قد ذوى من زمان بعيد وانتهى أمره. ولكن آمون رع في مصر كان لا يزال له من قوة الألوهية ما يبعث الغرور في نفـس ذلـك الفـاتح الإغريقي المتعاظم. وكان كهنة آمون رع قرابة أيام الأسرة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة (حـوالي ١٤٠٠ ق. م) قد أقاموا في إحدى واحات الصحراء معبدا به منزل للوحي فيه تمثال للرب يسـتطيع أن يـتكلم وأن يحرك رأسه وأن يقبل أو يرفض قراطيس تحتوي أسئلة من المتسائلين. وكان ذلك الوحي لا يـزال عظـيم الشأن في ٣٣٢ ق. م. ويقص علينا التاريخ أن سيد العالم الشاب قام برحلة خاصة، فدخل المحـراب وتقـدم التمثال من الظلام ليستقبله.

وحدث عند ذلك تبادل تحيات عميق الأثر. ويقول الأستاذ ماسبيرو إن صيغًا شبيهة بهذه كانت مما نطـق به الإله:

"تعال يا ابن أصلابي يا من يحبني حبا يجعلني أمنحك قوة رع وقوة حورس الملكية. إني لأمنحك الشجاعة وأكل إليك أن تضع كل الأقاليم، وكل الديانات عند موطئ قدميك وأمنحك أن تضرب بيمينك كـل الشـعوب مجتمعة..".

وهكذا تمكن كهنة مصر من قهر قاهرهم، وأصبح أحد ملوك الآريين لأول مرة ربا.

(٧)
شي هوانج تي يدمر الكتب

لا نستطيع أن نطيل هنا القول في وصف النزاع الذي قام بين الكاهن والملك في الصين. وقد رأينا النزاع في مصر يختلف عنه في بابل، وهو في الصين يختلف أيضا عن نظائره في البلاد الأخرى. على أننا نجد الحاكم بها يقوم بنفس المحاولات التي يبذلها الحكام عادة للتغلب على التقاليد نظرا لأنها تفرق كلمة الشعب. وكان إمبراطور الصين "ابن السماء" نفسه كاهنًا أعلى، وكان أهم أعماله تقديم الضحايا. وكثيرا ما حدث أثناء بعض أدوار التاريخ الصيني البالغة الاضطراب أن توقف عن الولاية والحكم، وإن استمرت له عملية التضحية وحدها. وظل هذا حتى الأزمان الحديثة. فلم تبطل إلا منذ سنوات قلائل السنّة التي كانت تقضي على الإمبراطور أن يبدأ حرث الأرض بيده في كل ربيع. ولقد انفصلت طبقة أهل الأدب عن طبقة الكهنوت من زمن قديم مبكر، وأصبحت هيئة بيروقراطية تخدم الملوك والحكام المحليين. وذلك فارق جوهري بين تاريخ الصين وتاريخ أي بلد من بلاد الغرب.

وبينا كان الإسكندر يستولي على آسيا الغربية، كانت الصين تحت حكم آخر أباطرة أسرة "تشاو" الكهنة، قد أخذت تهبط إلى دركات الفوضى. وتمسكت كل مقاطعة بقوميتها وتقاليدها المنفصلة، وانتشر الهون من مقاطعة إلى أخرى، وهال ملك "تسن" (وقد عاش بعد الإسكندر الأكبر بنحو ثمانين عاما) عظم الشر الذي تجلبه التقاليد على البلاد، فعول على أن يدمر الأدب الصيني كافة. وبذل ابنه شي هوانج تي (أول إمبراطور عام) جهدا جبارا ليستخرج ويدمر كل ما في البلاد من كتب الآداب القديمة. فتوارت عن الأنظار إبان حكمه، ومن ثم تجده يحكم بلاده بلا تقاليد. وقد ضم ذلك الملك شتات الصين في وحدة استمرت بعده بضعة قرون. ولكن الكتب تسللت إلى عالم الظهور من جديد بعد وفاته.

وظلت الصين متحدة، وإن لم تبق في يد سلالته. فقد تولت الملك أسرة جديدة هي أسرة هان (٢٠٦ ق. م) بعد حرب أهلية. ولم ير أول ملوك أسرة هان أن يواصل الحملة التي شنها شي هوانج تي على أهل الأدب، وانتهى خلفه إلى الصلح معهم وأعاد الكتب القديمة إلى سابق عهدها.

الفصل السابع عشر

موالي الأرض والأرقاء والطبقات الاجتماعية والأفراد الأحرار

١- العامة في الأزمنة القديمة.

٢- أول الأرقاء.

٣- أول الأشخاص المستقلين.

٤- الطبقات الاجتماعية منذ ثلاثة آلاف سنة.

٥- جمود الطبقات في شكل طوائف.

٦- نظام الطوائف في الهند.

٧- نظام الماندرين.

٨- خلاصة لعشرة آلاف من السنين.

٩- فن التشكيل والتصوير في العالم القديم.

١٠- الأدب والمسرحيات والموسيقى في العالم القديم.

(١)
العامة في الأزمنة القديمة

رسمنا في الفصول الأربعة الأخيرة صورة بسيطة تمثل تطور الدول المتمدينة وانتقالهـا مـن الزراعـة البدائية في العصر الحجري الحديث، وهي التي ابتدأت في مكان ما بحوض البحـر المتوسـط الشـرقي أو بالقرب منه في زمن قد يرجع إلى خمسة عشر ألف سنة خلت. كانت تلك الزراعة في مبـدأ الأمـر فلاحـة بساتين صغيرة أكثر منها زراعة عادية. استخدم الناس فيها الفأس أولاً قبل أن يستخدموا المحراث. وكانـت في مبدأ الأمر عملاً إضافيا يكمل الصيد ورعي الضأن والماعز والماشية التي كان يقوم عليهـا أود الأسـرة القبيلية.

ولقد تتبعنا المعالم الإجمالية للتطور الذي حدث في أقاليم ذات خصـوبة غيـر عاديـة؛ فشـهدناه ينتقـل بمجتمعات القرى المستقرة الأولى، حتى أصبحت بلدانًا ومدنًا أكثر سكانًا وأوفر عددا. كذلك تتبعنـا انتقـال مقصورة القرية المقدسة وساحر القرية المطبب إلى أن أصبحت الأولى معبد المدينة وصار الثـاني كاهنهـا. وشاهدنا بدايات الحرب المنظمة في مراحلها الأولى حين كانت احتكاكًا بين القرية والقرية، ثم أصبحت كفاحا أكثر تنظيما وأحسن ترتيبا يقوم به الكاهن الملك وربه في مدينة، ضد الكاهن وربه في أخرى. وسارت قصتنا سيرا تتزايد سرعته وهي تلم بكل شيء، بادئةً بأوائل الدلالات على الفتح وتكوين الإمبراطورية في سـومر منذ خمسة آلاف أو ستة آلاف ق. م. ومنتقلة إلى مشهد الإمبراطوريات العظيمة النامية، بما فيها من طرقات وجيوش ومخطوطات ووثائق مكتوبة، وما فيها من كهنة وملوك متعلمين وحكام يستندون إلى تقاليد كانت قد أصبحت قديمة مرعية في زمانهم. ولقد رأينا مصر تسير في هذا الطريق نفسه. وتتبعنا بطريقة مجملة ظهور إمبراطوريات الأنهار الكبرى هذه وكيف دب بينها النزاع وكيف انتهى بها الأمر إلى حلـول إمبراطوريـات أخرى محلها. ثم وجهنا النظر بصفة خاصة إلى الشواهد التي تدل على وجود نوع جديد من الأفكار السياسية الأوسع مجالاً والتي تكشفها لنا أعمال رجال من أمثال نابونيداس وأمنحوتب الرابع وأقوالهم. وكان ما كتبنـاه في ذلك تاريخًا موجزا لتجمع الخبرة البشرية في عشرة آلاف سنة أو خمسة عشر ألفًا. وهي حقبة من الزمان قد تبدو جد طويلة إذا قيست إلى كل ما تلاها من عصور التاريخ. على أنها فترة وجيزة إذا قيست إلى تلـك الأجيال التي لا تقع تحت حصر، والتي تفصلنا عن أول المخلوقات البشرية الذين استخدموا الظران وجـاءوا في فجر الإنسانية في العصر البلايستوسيني. على أنّا أوشكنا في هذه الفصول الأربعـة الآخـرة أن نقصـر كتابتنا عامة على الرجال الذين كانوا يفكرون، الرجال الذين كانوا يستطيعون أن يرسـموا وأن يقـرءوا وأن يكتبوا، الرجال الذين كانوا يغيرون عالمهم. ترى كيف كانت حياة الجماهير الصامتة التي كانت تكـد تحـت نشاط هؤلاء؟

ولا حاجة بنا إلى القول بأن حياة الإنسان العادي قد تأثرت وداخلها التغير من جراء هذه الأشياء، مثلما تغيرت حياة الحيوانات الأليفة وسطح الأرض المنزرعة. على أنه كان في معظم الأحيان تغيرا يتلقاه العامة دون أن يكون لهم فيه صوت أو إرادة. ولم تكن الكتابة والقراءة قد أصبحتا بعد مما يجوز لأمثال الرجل العادي. فكان يقضي حياته يزرع رقعته من الأرض ويحنو على زوجته وأطفاله ويضرب كلبه ويرعى حيوانه، يزمجر في أزمان العسر، ويتوجس خيفة مما بأيدي الكهنة من سحر متزايد ومما للآلهة من قوة دائبة النمو، لا يتمنى شيئًا أكثر من أن تتركه ونفسه تلك القوى التي تعلوه.

ذلك شأنه في عام (١٠٠٠٠ ق. م). وذلك شأنه الذي لم تتبدل طبيعته أو نظرته للحياة في زمن الإسكندر الأكبر، وذلك شأنه الذي يحتفظ به حتى اليوم في معظم أرجاء العالم. نعم إنه قد حصل مع تقدم المدنية على آلات أحسن قليلاً مما كان لديه، وبذور أحسن، ووسائل أرقى، ومأوى أصلح نوعا ما. هذا إلى أنه أخذ يقايض على حاصلاته في سوق منظمة. على أن قدرا من الحرية وقدرا من المساواة قد وليا من الحياة الإنسانية، عندما كف الناس عن التجوال. فقد حرم الناس قسطًا من حريتهم وألزموا بمقدار من الكدح، مقابل ما يصيبون من الأمان والمأوى والطعام المنتظم المستمر. واستكشف الرجل العادي شيئًا فشيئًا وهو لا يكاد يحس بهذا الكشف أن الرقعة التي يزرعها لم تكن له، بل كان الرب مالكها وأن عليه أن يؤدي جزءا من محصوله للرب. أو أن الرب قد وهبها للملك وللملك أن يتقاضى عنها إيجارا وأن يفرض عليها ضرائب، أو أن الملك قد وهبها لموظف هو سيد الرجل العادي!!.. وكان للرب أو للملك أو للسيد في بعض الأحيان عمل يجب قضاؤه، وكان لزاما على الرجل عند ذلك أن يترك أرضه ويشتغل لمولاه.

ولم يحدث قط أن تحدد في ذهنه ولا أن اتضح لديه تماما أمر رقعة الأرض التي كان يزرعها وإلى أي حد كانت ملكيته لها. والظاهر أن الأرض في آشور القديمة كانت عقارا ثابتًا حرا يؤدي عنه شاغله الضرائب. وكانت الأرض في بابل ملكًا للإله الذي يسمح – متى شاء – للزارع أن يعمل عليها. وفي مصر كانت المعابد أو الفرعون الرب أو من دون فرعون من النبلاء هم الملاك وهم الذين يتلقون الإيجار. غير أن الزارع لم يكن عبدا، بل كان فلاحا، لا يرتبط بالأرض إلا إلى حد محدود، هو أنه لم يكن أمامه شيء يعمله إلا أن يزرع. وأنه ليس أمامه أي مكان آخر يذهب إليه. كان يعيش في قرية أو بلدة ومنها يخرج إلى عمله. فأما القرية فكانت في بادئ أمرها "دوار" عشيرة كبيرة من الأقارب تحت رئيس شيخ. وكانت البلدة القديمة جماعة من أصحاب الدوارات برياسة شيوخهم وذوي أسنانهم وكبرائهم.

ونشأ الرق فيها يدارج نمو الحضارة. فقد أخذت قوة الرؤساء والقادة وسلطتهم في الازدياد. ولم يحافظ الرجل العادي على النسبة بينه وبينهم، ولذلك انحط بدرجات غير محسوسة إلى حال تقليدية مزمنة من التبعية والخضوع.

ورضي عامة الناس بوجه عام إلى حد ما أن يعيشوا في كنف السيد أو الملك أو الرب وأن يطيعوا أوامرهم، لأن ذلك كان أسلم لهم عاقبة وأيسر عليهم مئونة. ولا تنس أن كل الحيوانات لا نستثني من ذلك الإنسان – تبدأ حياتها بحالة من التبعية للغير. ولا تستطيع أغلبية الناس أن يخلصوا أنفسهم ويتحرروا من الرغبة في أن يقودهم غيرهم ويحميهم، بل إن غالبية الناس يتقبلون راضين الأحوال التي يولدون عليها بلا أدنى مناقشة لها.

وقد أورد بريستد في كتابه "الديانة والتفكير في مصر القديمة" قصصا وفقرات متنوعة تظهر أنه كان فـي مصر قبل (٢٠٠٠ ق. م.) تذمر اجتماعي، ولكنه كان تذمرا اجتماعيا ساذجا لا يبلغ حد الثورة. فقد انحدرت إلينا شكايات من خداع المخادعين وظلم القضاة، وتقلب أهواء الأغنياء وشحهم وعـدم رحمـتهم الفقيـر ولا معاونتهم إياه. وكثيرا ما قام النزاع على معيار الدفع، وحدثت الإضرابات احتجاجا على رداءة الطعام وسوء الحال. ولكن أحدا لم يناقش حق فرعون في الحكم ولا تساءل أحد عن استقامة الأثرياء. ولـم يتحـد إنسـان النظام الاجتماعي القائم ولا تبلورت الشكاوى قط فأصبحت أفعالاً.

(٢)
أول الأرقاء

لم تكن الحروب الأولى تتطلب إرسال حملات إلى مناطق نائية أو تستغرق زمنًا طويلاً، وكانت تشن بمن يجمع من عامة الناس. على أن الحرب أوجدت مصدرا جديدا للملكية هو السلب، وعاملاً اجتماعيا جديدا هو الأسير. ففي أيام الترحل الأولى لم يكن الناس يبقون على الرجال من الأسرى إلا لكي يعذبوهم أو يضحوا بهم على مذبح إلههم المظفر. أما السبايا من النساء والأسرى من الأطفال فقد كانوا يضمون إلى القبيلة. ولم يكن للأرقاء كبير نفع لدى المترحلين. ولكنهم أبقوا فيما عقب ذلك من الزمان على الكثيرين من الأسرى الرجال، لما كان لهم من مواهب ممتازة أو فنون خاصة، فظلوا أرقاء. وكان الملوك والقادة هم الذين يأخذون هؤلاء الأرقاء في بادئ الأمر. وسرعان ما يتضح لهم أن هؤلاء الرجال ملك لهم وأطوع لإرادتهم من الزراع الفلاحين ومن عامة الناس من بني جنسهم. فقد كان من الميسور أن يؤمر الرقيق بأن يقوم لسيده بجميع الأعمال التي ربما لم يأتها شبه الحر من عامة الناس بتمام الرضى، نظرا لارتباطه برقعته الزراعية الخاصة. وكان في الإمكان أن يحشد الأرقاء للعمل الذي يتطلب عددا كبيرا من الأيدي كإقامة جسور الأنهار أو العمل في المناجم.

وكان الصانع الحاذق من أقدم العصور عبدا في خدمة المنزل في غالب الأحايين، ولعل صناعة السلع التجارية والخزف والمنسوجات وأشغال المعادن وهلم جرا، مما كان ينتج بكثرة في أمثال كنوسوس مدينة مينوس أو قصره، كانت منذ بدايتها من صنع الرقيق. ويقتبس سايس في كتابه "البابليون والآشوريون" بعض نصوص العقود التي يتعلم الأرقاء بموجبها الصناعات، والتي تتعلق باستغلال منتجاتهم. وكان الأرقاء، يلدون أطفالاً أرقاء كلما كان الاسترقاق وفاء بالديون يزيد في عدد الأرقاء. ومن الراجح أنه بينما كانت المدينة تزداد حجما كان جزء كبير من السكان الجدد مكونًا من هؤلاء الصناع الأرقاء والخدم الأرقاء في الدورات الكبيرة. وما كانوا بأي حال أرقاء مهينين، بل صارت لهم في أخريات أيام بابل قوانين محكمة تصون حياتهم وممتلكاتهم. كذلك لم يكونوا بأجمعهم من أسرى الحرب، فربما باع الوالدون أطفالهم أرقاء، وربما باع الإخوة أخواتهم اليتيمات، بل إن الأحرار من الرجال من الذين أوصدت في وجوههم أبواب الرزق، كانوا كثيرا ما يبيعون أنفسهم رقيقًا. وكان الرق نصيب المدين العاجز عن أداء دينه، وكان تعلم الحِرف أيضا نوعا من الرق ذي الأجل المحدد.

ونشأ من بين صفوف الأرقاء بعملية عكسية الرجل المعتق والمرأة المعتقة اللذين كانا يشتغلان لقاء الأجور، وكانت لهما حقوق فردية واضحة محددة أكثر من حقوق الرقيق ولما كان الأرقاء أنفسهم في بابل يستطيعون أن يمتلكوا الممتلكات، فإن كثيرين منهم ادخروا المال واشتروا حريتهم. والراجح أن رقيق المدينة غالبا ما كان أيسر حالاً من رقيق القرية، وكان من الناحية العملية ينعم بمثل ما ينعم به زراع الأرض من حرية. ومع تزايد عدد السكان الريفيين أخذ أبناؤهم وبناتهم يختلطون بطبقة الصناع المتكاثرة صفوفهم، ويزيدون من عددها، فمنهم من كانوا عبيدا ومنهم من كانوا أحرارا.

وكلما ازدادت الحكومة اتساعا وتعقدا تكاثر عدد الأسر. فمن دون أسرة الملك ظهرت أسـر الكبـراء مـن وزرائه العظام وموظفيه، ومن دون المعبد نبتت الدور الشخصية الخاصة بموظفي المعبد. وليس عسيرا علينـا أن ندرك كيف أصبحت المنازل ورقع الأرض ملكًا للمقيمين بها، وكيف تتجلى هذه الملكية أكثر فأكثر، وكيـف تبتعد عن الرب المالك الأصلي ابتعادا يتزايد بروزا وتحديدا على مر الأيـام. وقـد مـرت الإمبراطوريتـان القديمتان في مصر والصين بمرحلة إقطاعية، تحولت فيها أسرات كانت في أول أمرها مـن المـوظفين، إلـى أسرات نبيلة استقلت ردحا من الزمان. وإنا لنجد في مراحل المدنية البابلية الأخيرة طبقة متزايـدة العـدد مـن أصحاب الأملاك، تنبت في تركيبها الاجتماعي، وما هم بالأرقاء ولا الزارعين ولا الكهنة ولا الموظفين، وإنما هم أرامل وسلالة أمثال هؤلاء جميعا، أو هم تجار أو أمثالهم ممن حالفهم التوفيق، وكلهم حر لا سيد له.

ولطالما توافد التجار من الخارج. فكانت بابل المدينة غاصة بتجار الآراميين الذين أنشئوا بها مؤسسات عظيمـة حاشدة بالأرقاء والعتقاء والموظفين على اختلاف أصنافهم. وكان مسك الدفاتر عندهم عملية مربكـة خطيـرة فـي حضارة لا ورق فيها، فكان ذلك مما يستلزم اختزان عدد كبير من ألواح الفخار في جرار ضخمة من الفخار. وإلى هذا الخليط المتجمع من رجال يتفاوتون في مدى حريتهم وانفصالهم عن سادتهم، يعيش أقوام آخرون ما بين بـائع وتاجر وبائع صغير، يمدونهم بحاجتهم، من ذلك أن سايس ينقل إلينا تفاصيل عقد اتفاق لإقامة فندق ومشرب للجعة، وتموينهما بما يلزمهما. وكأني بهذا العقد مؤذنًا بوجود عابر السبيل، أي الرجل الذي يتفق وجوده عرضا في الناحية.

وكان أقل أنواع الرق شفقة ورحمة على الدوام هو الرق الجماعي. ولئن لم يكن كبير الظهور في المـدن القديمة، فقد كان بينًا واضحا في مواضع أخرى. ولنبدأ بصاحب التاج فإنه أكبر من يستغل هذه الجماعات من الأرقاء، فهو الذي يحفر الترع وينظم الري؛ (ولقد أشرنا إلى مشروعات حمورابي فـي الفصـل السـابق) ويستغل المناجم. وكأني به (في كنوسوس مثلاً) ينظم الصناعات توطئة للتصدير. وكـان فراعنـة الأسـرة الأولى يستخرجون النحاس والفيروز من مناجم شبه جزيرة سيناء وكانت جماعات الأرقاء أساس قيـادا فـي أداء هذه الأغراض وأرخص أجورا ممن كانوا يؤخذون من شعب الملك.

ولقد ارتبط الأسرى أيضا من زمان مبكر بمجاديف السفن القديمة (الغلايين)، وإن كان المستر "طُر Torr" في كتابه "السفن القديمة" يلحظ أنه حتى عهد بركليس (٤٥٠ ق. م) لم يترفع الأثينيون الأحرار عن هذا العمل علـى مشقته ونصبه. كذلك وجد الملوك في الأرقاء خير من يقوم لهم بحملاتهم الحربية. ذلك أنهم كانوا رجالاً منتزعين من ذويهم، وأنهم لا يهددون أحدا بالعودة إلى أوطانهم، إذ لم تكن لهم أوطان يعـودون إليهـا. فكـان الفراعنـة يتصيدون الأرقاء من النوبة، ليحصلوا على جيوش من السود في حملاتهم السورية. ويشبه هؤلاء شـبها كبيـرا أولئك المرتزقة من الجنود الهمج المتبربرة، الذين كان الملوك يقبضون عليهم ويضمونهم إلى خدمتهم لا بالقسـر الإيجابي، بل برشوتهم إياهم بوفرة الطعام وكثرة الأسلاب فيقبلون على خدمتهم تحت إلحاح الحاجـة. ولمـا أن تطورت المدنيات القديمة حلت هذه الجيوش المرتزقة محل أبناء البلاد في الجيوش القديمة حلولاً تدريجيا، وأصبح شغل جماعات الأرقاء الدنيء أمرا يزيد أهمية يوما بعد يوم، كما أصبح عاملاً خطيرا في النظـام الاقتصـادي. وأخذت جماعات الرقيق الذليل تنتقل من استغلال المناجم وبناء الجدران إلى الزراعة، فاستعمل النبلاء والمعابـد نظام جماعات الأرقاء في مزارعهم، وأخذت هذه الجماعات في المزارع الكبيرة تقضي على ما اختص به موالي الأرض من زراعة للرقاع الصغيرة وذلك في حالة بعض المحصولات الرئيسية.

(٣)

أول الأشخاص المستقلين

على هذه الشاكلة نتأثر تطور التركيب الاجتماعي البسيط في المدن السومرية القديمة، حتى نصل إلى جموع الأفراد المختلفين جنسا وتقاليد وتربية وعملاً، والمتفاوتين ثراء وحرية، وسلطانًا ونفعا، في المدن العظيمة، إبان الألف السنة السابقة للميلاد. وأهم ما يستحق الذكر في هذا الصدد ما لحق عدد من قد يسمون "الأفراد الأحرار" وسط ذلك الخليط الحاشد من زيادة تدريجية، أولئك أشخاص يقفون بمفردهم، وما هم بالكهنة ولا هم بالملوك ولا هم بالموظفين ولا هم بموالي الأرض ولا هم بالرقيق. وليس لهم من دافع قوي يحملهم على العمل، وأمامهم فسحة من الزمان تتيح لهم القراءة والبحث، وهم يظهرون في ظلال الطمأنينة الاجتماعية والملكية الخاصة.

وتطورت أساليب العد والحساب. وأدت عمليات الآراميين ومن إليهم من الشعوب السامية المتجِرة، إلى تنظيم الديون والائتمان وضمان النقد. لقد كادت المِلْكية الوحيدة قبل ذلك الأوان، إذا استثنينا بعض المنقولات، أن تكون هي حقوق الناس على الأرض والمنازل. واستطاع المرء فيما بعد أن يودع المال عند غيره، وأن يقرضه، كما كان يستطيع أن يرحل ثم يعود فيجد ماله محفوظًا له في أمن وسلام. وكان يعيش قرابة منتصف زمن الإمبراطورية الفارسية رجل حر، هو هيرودوت، وهو شخصية تشوقنا كثيرا؛ لأنه من أوائل كتاب التاريخ نقدا وذكاء بالقياس إلى كُتاب التاريخ الإخباريين من الكهنة، وممن عاشوا في بلاط الملوك. ويخلق بنا أن نلقي على ظروف حياته نظرة عجلى وجيزة، وإنا لمقتبسون فيما بعد شيئًا من التاريخ الجميل الذي كتبه.

أسلفنا عليك أن الفرس الآريين قد فتحوا بابل تحت قيادة كورش (٥٣٩ ق. م) ولاحظنا عدا ذلك أن الإمبراطورية الفارسية امتدت إلى مصر، وإن كان امتدادا مزعزعا قصير الأمد، وانبسط سلطانها أيضا على آسيا الصغرى وقد ولد هيرودوت قرابة ٤٨٤ ق. م بمدينة إغريقية بآسيا الصغرى هي "هالي كارناسوس" التي كانت تحت سيادة الفرس العليا، وكان حاكمها المباشر زعيما سياسيا أو طاغية. وليس هناك ما يدل على أنه كان يضطر إلى أن يشتغل للحصول على قوته، أو أنه كان يقضي زمانًا طويلاً في إدارة أملاكه. ولسنا ندري تفاصيل شئونه الخاصة، ولكن من الواضح أنه استطاع في هذه البلدة الإغريقية الصغيرة، ورغم هذا الحكم الأجنبي، أن يحصل ويقرأ ويدرس كل ما بلغته يده من مخطوطات سطرت قبل زمانه في اللغة الإغريقية.

وإنا لنرى، على قدر ما نستطيع أن نستنتج، أنه سافر في أنحاء الأرخبيل اليوناني مستمتعا فـي أسـفاره بكامل حريته ومن غير أن يصادفه عنت. فكان يقيم أنى شاء، ويبدو أنه كان يجد ما يطلبه من مأوى مـريح، ثم انطلق إلى بابل ومدينة السوس (سوسه) وهي العاصمة الجديدة التي أقامها الفرس في بلاد بابل شرقي نهر دجلة، وتنقّل على طول ساحل البحر الأسود، وأصاب حظًا جسيما من العلم بالإسكوذيين، وهم الشعب الآري، الذي كان منتشرا آنذاك في جنوبي الروسيا. وكذلك ذهب إلى جنوبي إيطاليا، كما ارتاد آثار "صور" القديمة، وسار بمحاذاة ساحل فلسطين، ثم ألقى مراسيه في غزة وهبطها، وأطال في مصر المكوث، وتنقل في أرجائها يشهد معابدها وآثارها، ويجمع أخبارها. ونحن نعرف – لا منه وحده، بل من شواهد أخرى- أنه فـي تلـك الأيام كانت المعابد القديمة والأهرام (وكانت عند ذاك قد بلغت من العمر ثلاثة آلاف سنة تقريبا) – تزورهـا أفواج من السائحين، وكان بها جماعة خاصة من الكهنة تشتغل بإرشادهم. ولا تزال الكتابـات التـي نقشـها هؤلاء النظارة على الجدران باقية إلى يومنا هذا، وقد حلت رموز كثيرة منها ونشرت على الناس.

فلما أن استوى له قدر موفور من المعرفة، فكر في أن يكتب تاريخًا عظيما يؤرخ به محـاولات الفـرس إخضاع بلاد الإغريق. ولكنه جعل مقدمة ذلك التاريخ بيانًا عن ماضي بلاد الإغريق وفارس وآشور وبابـل ومصر وإسكوذيا وعن جغرافية تلك الأقطار وشعوبها. ثم عمل فيما يقولون على أن يطلع أصدقاءه في هالي كارناسوس على تاريخه، وذلك بتلاوته عليهم، ولكن فاتهم أن يقدروه حق قدره. وما لبث أن حمل نفسه إلـى أثينا، أشد مدن الإغريق ازدهارا في ذلك الزمان؛ حيث قوبل مؤلفه بعاصفة من الاستحسان، وهنـاك نجـده يتوسط حلقة من القوم المتوقدي الذكاء الناشطي الأذهان. واعترافًا بفضله الأدبي منحته سلطات المدينة هبـة قدرها عشرة تالنتات (وهو مبلغ من المال يعادل ٧٠٠٠ من الجنيهات الإنجليزية).

على أنّا لن نتم سيرة ذلك الرجل الشائق الخلاب، ولن ندخل كذلك في حلبة النقد لتاريخه المسهب الثرثار الحاوي للأعاجيب اللذيذ المسلي، فإنه كتاب لا بد أن يرده كل قارئ ذكي، إن عاجلاً وإن آجـلاً، وإن كـان حافلاً بالأخطاء التي تستثير البحث والمديح المفتون الذي يشبه ما فعله بوزول حـين تكلـم عـن الـدكتور جونسون. ونحن نزجي إليك هذه التفصيلات لكي ندلك على أنه في القرن الخامس ق. م، كان عامل جديد قد أخذ يبدو جليا في شئون البشرية، ذلك أن القراءة والكتابة كانت أفلتت من دائرة المعبد ومن أيدي كتبة البلاط. ولم يعد تسجيل الحوادث بعد ذلك مقصورا على البلاط والمعبد. بل أخذ طراز جديد من الناس هم أهل الدعة والفراغ والموارد المستقلة يوجهون الأسئلة ويتبادلون المعرفة والآراء ويتناولون الأفكار بالتطوير والترقـي. وهكذا نلحظ من دون مسير الجيوش وسياسات الملوك ومن فوق الحيـاة العاديـة للأميـين وغيـر محبـي الاستطلاع، بدايات تلك القوة التي أصبحت آخر الأمر في زماننا هذا متسلطة على شئون البشـرية وهـي: "ذكاء الإنسانية الطليق".

وسنفصل القول في ذلك الذكاء الطليق عندما نتكلم في فصل تال عن الإغريق في دول المدن التي قامـت في جزر الأرخبيل وفي آسيا الصغرى.

(٤)

الطبقات الاجتماعية منذ ثلاثة آلاف سنة

قد نستطيع أن نلخص هنا ذلك البحث الذي تناولناه في الفصلين الأخيرين بذكر أهم عناصر هذا التجمع المعقد للمخلوقات الإنسانية، الذي كان قوام المدنيتين البابلية والمصرية المتأخرتين اللتين وجدتا منذ ألفين وخمسمائة أو ثلاثة آلاف من السنين. لقد ترعرعت هذه العناصر وتميز أحدها عن الآخر في وديان الأنهار العظيمة في العالم في مدى خمسة آلاف أو ستة آلاف من السنين، وتمخضت عن ميول عقلية وتقاليد واستجابات فكرية متبادلة. وليست المدنية التي نتفيأ ظلالها اليوم إلا استمرارا لهذه العلاقات، وتطورا وتنمية لها وبناء على أساسها وتنظيما لها من جديد. ذلك هو العالم الذي نرث منه مدنيتنا. ولسنا بقادرين بغير دراسة أصولها دراسة اليقظ الحريص أن ننزع من أنفسنا تلك الآراء القائمة على الهوى، والأفكار الضيقة الخاصة بالطبقة التي قد ننتمي إليها، وأن نشرع في فهم مسائل عصرنا نحن اجتماعية كانت أو سياسية.

١- وإذن فقد جاءت في أول القائمة طبقة الكهنة أي "نظام المعبد"، وكانت النواة والعقل الهادي التي نمت من حولها المدنيات البدائية. وكانت لا تزال في تلك الأيام المتأخرة قوة عظيمة في العالم، وكانت أهم مستودع للعرفان والتقاليد؛ وكانت هي المسيطرة على حياة كل إنسان، وكانت قوة تمسك أجزاء المجتمع بعضها إلى البعض. بيد أنها لم تعد بعد كاملة القوة كما كانت من قبل، لأنها كانت بطبيعتها محافظة لا تتكيف وفق الظروف، ولم تعد بعد تحتكر العرفان أو تبتدئ الأفكار الجديدة. بل كانت العلوم قد سبقت فتسربت إلى أقوام آخرين أقل من الكاهن ارتباطًا بالعهود والمواثيق وأبعد منه عن الرقابة، أقوام يفكرون لأنفسهم. ومن حول نظام المعبد كان يجتمع كهنته وكاهناته وكتبته وأطباؤه وسحرته وإخوانه من غير رجال الدين وخزنته ومديروه ومن إليهم. وكانت له ممتلكات عظيمة وكثيرا ما اختزن الكنوز الضخمة.

٢- ويقابل نظام الكهنة نظام آخر نشأ في الأصل منه، وذلك هو "نظام البلاط" وعلى رأسه ملك أو "ملك ملوك"، وكان في العهد الأشوري المتأخر وفي بابل أشبه بالقائد، ويمسك بيده مقاليد الشئون الدنيوية، وكان في مصر رجلاً إلها تحرر من سلطان الكهنة. وكان يلتف حول الملك كتبته ومستشاروه وحفظة سجلاته ووكلاؤه وقواده وحراسه. وكان تحت أيدي الكثيرين من موظفيه وعلى الأخص موظفيه في الأقاليم هيئة كبيرة من العمال تابعة له. وكان هؤلاء الموظفون الكبار ينزعون على الدوام إلى الاستقلال. ولقد نشأت طبقة النبلاء في مدنيات وديان الأنهار القديمة عن نظام البلاط. فكانت لذلك تختلف في أصولها عن طبقة النبلاء الآريين الأوائل، وهي طبقة جمهورية النزعة من النبلاء تتكون من الشيوخ والزعماء.

٣- وكان في قاعدة الهرم الاجتماعي أكبر الطبقات عددا، وأشدها لزوما للمجتمع وهي طبقـة "حـراث الأرض" تختلف منزلتهم باختلاف العصور والبلاد وهم إما فلاحون أحرار يدفعون الضرائب، وإما موالي الرب وإما موالي (: رقيق) أرض أو مستأجرون لدى ملك أو نبيل أو مالك خاص يؤدون له الإيجار. وكانت الضريبة أو الإيجار يؤدى في غالب الحالات عينًا من المحصول، وهـم فـي دول وديان الأنهار من أصحاب المزارع الضيقة الرقعة الموفورة الإنتاج، يزرعون مساحات صـغيرة، ويسكنون بعضهم مع بعض في قرى طلبا للسلامة، وكانت لهم مصلحة مشـتركة فـي الاحتفـاظ بقنوات الري، كما تجلى في حياتهم القروية الشعور بروح المجتمع. وزراعة الأرض حرفـة لهـا مستلزماتها الدقيقة. فإن الفصول وغروب الشمس، والحصاد لا تنتظر أحدا. ومن الممكن اسـتخدام الأطفال في أي سن مبكرة، ولذا كانت طبقة الزراع في عمومها طبقة ضئيلة الحـظ مـن الـتعلم، كدحها متلاحق، يغلب عليها الاعتقاد الخرافات بسبب انتشار الجهالة وعدم استقرار الفصول علـى حال واحدة، تنتشر بينها قالة السوء والآراء الخاطئة ويسهل خداعها. وقد تقدر في بعض الأحـايين على المقاومة السلبية العظيمة ولكن ليس لها في حياتها من غاية على مر السنين غير المحاصيل ثم المحاصيل، وغير أن تصون نفسها من الديون، وتكتنز زمن الرخاء ما ينفعها أوان الشـدة. هكـذا ظلت طبقة الفلاحين حتى أيامنا هذه في معظم أجزاء أوربا وآسيا.

٤- وتختلف "طبقة الصناع" اختلافًا بعيدا في الأصل والصنف عن طبقة حراث الأرض. وقد ابتدأ أمـر هذه الطبقة في أغلب الظن بأن كان بعضها يتكون من طبقة أرقاء المدن، وبعضـها الآخـر مـن فلاحين تخصصوا في بعض المهن. ولعل كل نوع من أنواع المهن قد أحـاط نفسـه بقـدر مـن الاستقلال، وبإحساس أشعر أفراده بأنه مجتمع خاص، حين كانت طوائف هؤلاء الصناع تنشئ فنها وسرها الخاص بها، والأسلوب الذي لا بد من دراسته قبل ممارستها حرفها. وكان في مكنة مهـرة الصناع أن يجتمعوا، وأن يتناقشوا في شئونهم في سهولة وسرعة، تفوقان ما فـي مسـتطاع مـن يشتغلون في الأرض. وكان في مكنتهم أن ينشئوا النقابات لتحديد الإنتاج والاحتفاظ بمعدل الأجور، ولحماية مصالحهم المشتركة.

٥- ولما انتشرت سلطة الحكام البابليين إلى ما وراء المتسعات الأصلية للزراعة الجيدة أي إلى أقـاليم الرعي وإلى النواحي الأقل خصبا، ظهرت طبقة من "الرعاة". وكان هؤلاء الرعاة في أرض بابـل قوما من الساميين الرحل هم البدو الذين يشبهون بدو هذا الزمان. وكانوا فـي الـراجح يرعـون قطعانهم في متسعات فسيحة على نحو ما يفعل رعاة الأغنام في كاليفورنيا. وكانوا يتقاضون أجورا أعلى بكثير مما كان يناله رجال الفلاحة، كما كانت منزلتهم في أعين الناس أعلى من منزلة هؤلاء.

٦- وأول "التجار" في العالم من أصحاب السفن من أمثال أهل صور وكنوسوس البحريين أو كانوا من الرحل الذين يحملون السلع ويتجرون فيها أثناء تجوالهم من أرض حضارة بدائية إلى أرض حضارة أخرى. وكانت كثرة التجار الغالبة في العالم البابلي والآشوري من الآراميين الساميين وهم أسلاف السوريين المحدثين. فأصبحوا بذلك عاملاً متميزا في حياة المجتمع. وأسسوا لأنفسهم أسرا وبيوتًا كبيرة. ونما الربا نموا كبيرا في الألف السنة السابقة للميلاد. فلقد كان الناس يمارسونه حتى في زمن سومر، ذلك أن التجار كانوا في حاجة إلى القروض. وكان الزارعون يرغبون في بيع محاصيلهم قبل نضجها. ويصف لنا سايس مصرف آل عجيبي الذي استمر أجيالاً عدة وامتد إلى ما بعد أيام الإمبراطورية الكادانية.

٧- ولا بد لنا أن نفترض أن طبقة من صغار "تجار التجزئة" قد ظهرت في عالم الوجود حين تعقدت شئون الجماعة الإنسانية أثناء الأيام الأخيرة من عهد الإمبراطوريات الأولى ولكنها لم تكن في أغلب الظن ذات بال.

٨- ووجدت طبقة متزايدة من "أصحاب الأملاك المستقلين".

٩- ونمت مع زيادة رفاهية الحياة في البلاط وفي المعابد وفي بيوت الأثرياء الخاصة طبقة من "خدم المنازل"، كانوا إما من الأرقاء أو الأرقاء المعتقين، أو الفلاحين الذين أضيفوا إلى صفوف خدم الأسر الكبيرة.

١٠- "فرق العمال"، كان من أسرى الحرب أو أرقاء الديون أو الرجال المنقولين من أوطانهم إلى بلاد أخرى.

١١- "الجنود المرتزقة": كان هؤلاء أيضا في غالب أمرهم من الأسرى أو ممن كانوا في بعض الأحيان ينخرطون في سلك الجندية – تطوعا ورغبة – من أبناء الشعوب الأجنبية الصديقة التي كانت الروح العسكرية لا تزال غالبة عليها.

١٢- (الملاحون).

ونحن في مناقشاتنا حول الأمور السياسية والاقتصادية في هذه الأيام نميل إلى التحدث عن العمال دون أن نفرق بين طوائفهم المختلفة ونقيم وزنًا كبيرا "لتضامن العمال" وما فيه من دلالة على وجود مجتمع متماسك. غير أننا يجدر بنا أن نذكر على الدوام أنه في تلك المدنيات الأولى كان من نسميهم "العمال" يشملون طبقات خمس متميزة بعضها عن بعض، ومختلفة في أصلها وفي تقاليدها وفي نظرتها إلى الحياة وأعني بها الطبقات رقم ٣ و ٤ و ٥ و ٩ و ١٠ والجزء الذي يشد المجداف من الطبقة الثانية عشرة. فأما "تماسك العمال" فسنرى عندما ندرس الإنقلاب الميكانيكي في القرن التاسع عشر الميلاد، أنه فكرة جديدة في الشئون الإنسانية.

(٥)

جمود الطبقات في شكل طوائف

علينا الآن قبل أن نفرغ من هذا البحث في الطبقات الاجتماعية التي كانت تتطور في تلك المدنيات الأولى، أن نوجه شيئًا قليلاً من عنايتنا إلى ثباتها وجمودها. ترى إلى أي مدى ظلت بمعزل إحداها عن الأخرى؟ وإلى أي حد اختلطت بعضها ببعض؟ فأما الطبقات التي ذكرناها تحت ٩ و ١٠ و ١٠ و ١٢ وهي طبقات الخدم وفرق العمال والأرقاء، وفرق الجنود يضاف إليهم على قلة، البحارة وبخاصة المجدفون في السفن الشراعية – كان كل هؤلاء في معظم أمرهم طبقات مجندة، فلم يكونوا يكونون لأنفسهم منازل بسرعة وسهولة. ولذا لم تكن طبقاتهم كذلك طبقات تمتاز بإنتاج الأطفال. بل كانوا فيما يرجح يتجددون جيلاً بعد جيل من بين صفوف الأسرى، وممن ينحدرون من الطبقات الأخرى، وخاصة من الفاشلين من طبقة صغار "تجار التجزئة"، وبطريق الإقناع والتسخير من بين صفوف الزراع. أما من حيث الملاحين فإن علينا أن نميز بين المجدف البسيط وبين الملاحين الذين يجوبون البحار والمالكين للسفن في مرافئ من أمثال "صور وصيدا". ذلك أن ملاك السفن كانوا ولا مراء ينتقلون في تدرج غير محسوس إلى طبقة التجار. أما الملاحون فما من شك في أنهم كونوا لأنفسهم مجتمعا خاصا بهم في المرافئ البحرية الكبيرة، حيث أقاموا لهم منازل وحيث كانوا يدلون إلى أبنائهم بأسرار الصناعة البحرية.

أما الطبقة الثامنة التي تبيناها فهي طبقة مزعزعة ولا ريب، تزداد على مر الزمان بدخول الوارثين والتابعين والأيامى والمتقاعدين من الأغنياء وذوي النفوذ. وتنقص على الدوام إما بالموت. وإما بالخسارة في الأعمال التجارية أو توزيع الممتلكات. ولم يكن الكهنة والكاهنات في جميع البلاد الواقعة في غرب الهند، طبقة كثيرة العقب. إذ كان كثير من الكهنة عزابا، فيمكن والحالة هذه أن تدرج هذه الطبقة أيضا في عداد الطبقات المجندة. كذلك ليس الخدم في العادة منتجين للأولاد، فهم يعيشون في دور أناس آخرين. وهم لا يملكون لأنفسهم بيوتًا ولا يكونون أسرا كبيرة. وبذلك تقتصر الطبقات الحيوية حقًا في المجتمع الممدن القديم على الطبقات الآتية:

أ- الطبقة الملكية والأرستقراطية والموظفين والضباط العسكريين ومن إليهم.

ب- طبقة التجار.

ج- طبقة صناع المدن.

د- زراع الأرض.

ه- الرعاة.

وكانت كل واحدة من هذه الطبقات تربي أطفالها على منوالها الخاص. وطبيعي جدا أن كلاً منهـا كانـت تبقى منفصلة على الدوام عن الطبقات الأخرى. ولم يكن التعليم العام منظما في تلك الدول القديمة، بل كـان التعليم في الغالب من الشئون المنزلية (كما لا يزال في كثير من أرجاء الهند إلى اليوم)، وإذن فقد كان طبيعيا ولزاما على الأبناء أن ينشئوا متتبعين خطى والديهم، وأن يتزوجوا نساء تعودن حياة بيوتهم الخاصة. وتبعـا لذلك لا بد أن تظل الطبقات منفصلة انفصالاً طبيعيا مستمرا بعضها عن بعض إلا أيام الاضطرابات السياسية العظيمة. وهو أمر لا يمنع مع ذلك بعض شُذاذ الأفراد من التزاوج من غير طبقتهم أو الانتقال من طبقة إلى أخرى. فقد يتزوج بعض فقراء الأرستقراطية من أفراد أغنياء من طبقة التجار. ويصـبح الطـامحون مـن الرعاة والصناع أو الملاحين من أثرياء التجار. وكانت هذه فيما نعلم هي الحال في كل من مصـر وبابـل. ولطالما اعتقد الناس من قبل أن الطبقات في مصر كانت جامدة. ولكن يبدو أن هذا رأي خاطئ تسبب عـن خطأ في قراءة هيرودوت. فقد كانت الطبقة المنعزلة الوحيدة التي لا تتزاوج مع غيرها في مصر هي الأسرة الملكية ذات المكانة نصف القدسية.

والراجح أنه كانت هناك نزعة إلى العزلة في نواح معينة من النظام الاجتماعي، نقصد بـذلك أن بعـض الطبقات كانت تعمل بالفعل على منع الدخلاء من الانضمام إليها. فمثلاً كان مهرة الصناع في بعض الحـرف ذات الأسرار الخاصة ينزعون – في جميع الأجناس وفي كل العصور – إلى تكوين نقابات الحـرف التـي تقصر ممارسة صناعتهم على أعضاء هذه النقابات وتحظر زواج الأعضاء خارج نقابـاتهم. كـذلك كانـت الشعوب الفاتحة تميل – وخاصة إذا كان هناك فروق في الجنس ملحوظة – إلى إبقاء نفسـها بمعـزل عـن الشعب المغلوب. فتتكون منها طبقة أرستقراطية منعزلة عن غيرها. وقد نشأت هذه النظم التي تفرض القيود على الاختلاط الحر بين الطبقات في تاريخ جميع المدنيات الطويلة الأمد ثم بادت؛ وكانت ذات صورا مختلفة في هذه المدنيات وكانت الحدود الطبيعية التي تحد الوظيفة والعمل ماثلة للأذهان على الدوام. على أنها كانت في بعض الأحيان تقام بشكل قوي حاد ويوجه إليها التشديد والتدقيق، وكانت في بعض الأحايين الأخـرى لا يؤبه بها. وكانت هناك نزعة عامة بين الشعوب الآرية للتمييز بين أسر البطارقة النبلاء وبين أسـر عامـة الشعب. وإن آثارها لظاهرة بينة في كل الأدب الأوربي والحياة الأوربية في العصر الحاضر. وقـد وهبهـا "علم" الأنساب والشعارات شيئًا من القوة والمظهر الجميل الجذاب. ولا يزال هذا التقليد عظيم الأثر حتى في أمريكا الديموقراطية. ثم إن ألمانيا وهي أشد دول أوربا نظاما، قد تمكنت منها أثناء العصور الوسطى فكـرة ثبات هذه الفوارق المميزة. فقد كان فيها من دون الأمراء (الذين كانوا يؤلفون فيما بينهم طبقـة منعزلـة لا تتزوج فيمن دونها):

(أ) الفرسان وهم طائفة العسكريين والموظفين ذوي الدروع الحديدية التي عليها شعار الأسرة.

(ب،ج) البرجرستاند: وهم التجار، وأرباب السفن والصناع.

ثم (د) الباورنستاند: وهم الموالي المزارعون أو الفلاحون.

ولقد قطعت ألمانيا في العصور الوسطى، نفس الأشواط التي قطعها ورثة الحضارات العظيمـة الأولـى الغربيون في اتجاههم إلى تثبيت الطبقات. على أن هذه الفكرة قليلة المواءمة لطبيعـة كـل مـن النـاطقين بالإنجليزية والفرنسيين والإيطاليين. إذ يؤثرون الانتقال الحر من طبقة إلى طبقة – يدفعهم إلى ذلـك شـيء أشبه ما يكون بالغريزة. وقد بدأت هذه الأفكار الداعية إلى العزلة في أول أمرها بين الطبقات العليا في أغلب الظن وهم الذين أيدوها ومكنوا لها. على أنه من الاستجابة الطبيعية لمثل تلك الأفكار ومن الانتقال الطبيعـي أيضا، أن تضم كتلة المبعدين المعزولين نفسها من فورها في صف واحد معادٍ لسادتها. إذ مـن العجيـب أن ألمانيا، كما سنرى في الفصول الختامية لهذه القصة، أصبحت المسرح الذي نشأت عليه في مبدأ الأمر فكـرة النضال الطبيعي الضروري: "حرب الطبقات"، بين الجماهير المخاطة الشتى، جماهير المحرومين من الحقوق الموروثة (وهم البروليتارية أي الدهماء شديدو الشعور بطبقتهم أتباع ماركس) وبين الحكام والتجـار. وهـي فكرة يتقبلها العقل الألماني أكثر مما يتقبلها العقل البريطاني أو الفرنسي.

على أنا قبل أن نصل إلى هذا النزاع، يجب علينا أن نجتاز تاريخًا طويلاً يمتد قرونًا كثيرة.

(٦)
نظام الطوائف في الهند

فإذا اتجهنا الآن شرقًا منصرفين عن هذا التطور الرئيسي للمدنية في العالم المحصور بين آسيا الوسطى والمحيط الأطلنطي، إلى التطور الاجتماعي الهندي في الألفي سنة التالية التي تسبق العهد الميلادي، لوجدنا بعض فروق إجمالية غاية في الطرافة. وأول هذه هو أننا نجد ثبات الطبقات وهو آخذ بأسباب الاستقرار؛ وهو ثبات لا يستطيع أي جزء من العالم أن يبرز له شبيها. ويعرف هذا الثبات الطبقي لدى الأوربيين باسم نظام "الطوائف"، وكلمة Caste الإنجليزية مشتقة من كلمة (كاستا) البرتغالية الأصل. والكلمة الهندية المقابلة لها هي "فارنا" أي (اللون). ولا تزال أصول الطوائف يغشاها الغموض التام، على أنها كانت ولا شك راسخة الأساس في حوض نهر الكنج قبل زمان الإسكندر الأكبر. وهذا النظام تقسيم أفقي معقد للتركيب الاجتماعي يقسمه إلى طبقات أو طوائف لا يستطيع أعضاؤها أن يأكلوا ولا يتزاوجوا مع أفراد طائفة أدنى من طائفتهم، وإلا أصبحوا من المنبوذين. وربما حرم الأعضاء أيضا من طائفتهم عقابا لهم على أنواع شتى من إهمال الطقوس أو التدنس. وإذا فقد الرجل طائفته لم ينحط إلى طائفة أدنى منها بل يصبح طريدا منبوذًا.

وفروع نظام الطوائف المتعددة شديدة التعقيد ويكاد الكثير منها أن يكون تنظيمات للحرف. ولكل طائفة هيئتها المحلية التي تحفظ نظامها، وتوزع الصدقات المتنوعة، وتعنى بحالة فقراء الطائفة، وتحمي المصالح العامة لأعضائها، وتفحص مستندات القادمين حديثًا من مناطق أخرى. ولكن أنى لهم أن يتثبتوا من صدق مدعيات هندوسي مسافر يزعم أنه من طائفة أعلى مما تتيحه له الشرائع؟ ويبدو أن الطوائف الرئيسية الأربع كانت في الأصل: البراهمة وهم الكهنة والمعلمون؛ والكشاتريا: وهم المحاربون؛ والفايسيا: وهم الرعاة؛ ومقرضو النقود والتجار وأصحاب الأراضي؛ والسودرا. ومن خارج الطوائف توجد الباريا.

على أن هذه الأقسام الأولى تعقدت من زمن طويل بعد أن تفرعت إلى عدد كبير من الطوائف الصغرى، كل واحدة منها منعزلة عن الأخرى تمسك كل واحدة منها بأعضائها وتوجههم إلى طريق محدد في العيش وإلى مجموعة واحدة من الخلطاء. وقد اختفت من بلاد البنغال طائفتا الكشاتريا والفايسيا إلى حد كبير.. على أن هذه مسألة معقدة لا نستطيع أن نعالجها بكثير من التفصيل.

ولزام علينا أن نلحظ بعد الذي شهدناه في هذا الجسم الاجتماعي من عجيب الانقسام والتعقيد أن البراهمة أي كهنة العالم الهندي ومعلميه يخالفون الكثير من كهنة البلاد الغربية في أنهم طبقة تتزوج وتتوالد وتنعزل عمن سواها، ولا تضم أي أفراد جدد من أي طبقة اجتماعية أخرى.

ومهما تكن البواعث الأصلية إلى هذا الجمود الشديد في الطبقات الهندية، فلا يكاد يكون هناك ريب فيما كان للبراهمة من أثر – بوصف كونهم سدنة التقاليد والمعلمين الوحيدين للشعب – في الاحتفاظ بها. ويزعم البعض أن الطوائف الثلاث الأولى من الأربعة الأصلية المعروفة أيضا باسم "المولودة مرتين" إنما هم سلالة غزاة الهند الفيديين الآريين الذين أقاموا هذه الفوارق الصلبة الجامدة ليحولوا دون اختلاط بنى جنسهم بالمغلوبين من السودراس والبارياهس (المنبوذين). ويقال إن أصل السودرا موجة سابقة من غزاة شماليين، وإن المنبوذين هم سكان الهند الدرافيديون الأصليون. على أن هذه الظنون لا تلقى من العلماء قبولاً عاما، ولربما كانت الحقيقة أن ظروف الحياة المتسقة التي لا تتغير في حوض نهر الكنج خلال قرون طويلة قد ساعدت على رسوخ فوارق في الطبقات لم يكن لها مثل هذا الرسوخ في الظروف الأكثر تنوعا وتغيرا ظروف العالم الغربي الأوسع رقعة وأعظم شأنًا.

ومهما يكن من شأن نشأة الطبقات، فلن يخالجنا أي شك في تمكنها العجيب من العقل الهندي. فقد نهض في القرن السادس ق. م. معلم البوذية الأعظم جوتاما، وأعلن أنه: "كما أن الروافد الأربعة، التي تفيض في نهر الكنج، تفقد أسماءها ساعة تمتزج مياهها في النهر المقدس، فإن كل من يعتقدون في بوذا لا يعودون بعد ذلك براهمة ولا كشاتريا ولا فايسيا ولا سودراس". وقد عمت تعاليمه الهند بضعة قرون. وانتشرت في الصين والتبت واليابان وبورما وسيلان والتركستان ومنشوريا. وهي اليوم عقيدة يدين بها جزء كبير من الجنس البشري، ولكنها غلبت آخر الأمر وطردت من الحياة الهندية طردا، بفعل قوة البراهمة الحيوية وتمسكهم بأفكارهم الطائفية.

(٧)
نظام الماندرين

ويوجد في الصين نظام اجتماعي يسير هو أيضا في طريق آخر، ذو شبه قليل بـنهج المـدنيات الهنديـة والغربية. ذلك أن المدنية الصينية كالمدنية الهندية في كونها منظمة من أجل السلام بل إنها تفوقها فـي هـذا المنحى، لذا كان دور المحارب في نظامها الاجتماعي صغير الشأن. فهي تشبه المدنية الهندية في أن الطبقـة الرئيسية طبقة مفكرة. ولكنها أقل انتماء إلى رجال الدين من البراهمة وأقرب إلى طبقة الموظفين. علـى أن الماندرين وهم رجال الصين المتعلمون يخالفون البراهمة في أنهم ليسوا طائفة، فليس المرء مـن المانـدرين بمولده، بل بتربيته. فالماندرين يؤخذون بالتعليم والامتحان من جميع طبقات المجتمع، وليس لابن المانـدرين أي حق مكتسب في أن يخلف أباه. ونتيجة لهذه الفوارق نجد أن براهمة الهند بوصفهم طائفة، يجهلون حتـى ما في بطون كتبهم المقدسة، وتراهم متقاعسين في عقليتهم، مملوئين بالاطمئنان الذي يقوم على الادعاء، في حين أن الماندرين الصيني يتصف بالنشاط الذين ينتج عن الجد العقلي الشديد. ولكن لما كان تعليمه حتى وقتنا هذا يكاد يكون بأسره من نوع دراسة كبار الطلبة للأدب الصيني القديم، فإنه ينشأ محافظًا أشد المحافظة. فقبل أيام الإسكندر الأكبر كانت الصين قد كونت نفسها وأخذت تسير في نفس السبيل التي كانت لا تزال تسير فيها في ١٩٠٠م. وقد تقلب عليها الغزاة والأسر المالكة ولكن نمط الحياة في الحضارة الصفراء ظل بلا تغيير.

والنظام الاجتماعي التقليدي الصيني يعترف بوجود أربع طبقات كبرى تلي الإمبراطور الكاهن:

أ- طبقة الأدباء (المتعلمين) التي تعادل من ناحية موظفي العالم الغربي، وتعادل مـن ناحيـة أخـرى معلميه ورجال دينه. وكانت تربيتها في زمان كونفوشيوس تتضمن الرماية وركوب الخيل. وكانت مناسك الدين وشعائره والموسيقى والتاريخ والرياضيات يتم بها في الفرد "الكفايات الستة".

ب- زراع الأرض.

ج- الصناع.

د- طبقة التجار.

بيد أنه لما جرت عادة الصينيين منذ أقدم الأزمان بأن يقسموا ما يملكه الرجل مـن الأرض بـين أولاده جميعا، لم تظهر في التاريخ الصيني طبقة من كبار ملاك الأراضي الذين يؤجرون أرضهم لغيرهم، على نحو ما كان موجودا في معظم البلاد الأخرى. فأرض الصين قد انقسمت منذ زمن بعيد إلى ملكيات صغيرة، كانت في الأغلب الأعم ملكيات حرة يزرعها أصحابها زراعة استقصاء ضيقة. نعم إن في الصين ملاكًا يملكـون مزرعة أو أكثر ويؤجرونها للمستأجرين، ولكن ليس هناك مزارع عظيمة مستديمة. وإذا ما أصبحت رقعـة من الأرض – بتكرار التقسيم – أصغر من أن تقيم أود رجل، بيعت إلى أحد الجيران الأثرياء. وعنـد ذلـك ينحدر المالك السابق إلى إحدى مدن الصين العظيمة لكي ينضم هناك إلى كتلة العمال الذين يكتسبون أجورهم

بعرق الجبين. ولقد وجدت في الصين طوال قرون كثيرة هذه الجموع من سكان المدن الذين لا يكادون يملكون شيئًا وليسوا بموالي أرض ولا بالأرقاء، ولكن تربطهم بعملهم اليومي رابطة الفاقة والإدقاع الشديد. ومن تلك الجموع يجند الجنود الذين تحتاجهم الحكومة الصينية، ومنهم أيضا تجمع فرق العمال التي يحتاج إليها في إنشاء الترع، وإقامة الأسوار وما إلى ذلك. فأما أسير الحرب وطبقة الأرقاء فإنهم في تاريخ الصين أقل شأنًا منهم في أي بلاد تقع في غربها قبل العصور المسيحية.

وفي وسعنا أن نلاحظ حقيقة عامة مشتركة بين تلك القصص الثلاث الخاصة بهذا التكوين الاجتماعي المتطور، وهي القوة الهائلة التي كانت تستمتع بها الطبقة المتعلمة في المراحل الأولى قبل أن يبدأ التاج أو عامة الشعب في تعلم القراءة، وبالتالي قبل أن يشرعا في التفكير لأنفسهما. وقد احتفظ البراهمة وهم الطبقة المتعلمة في الهند – بسبب نزعتهم الانعزالية – بنفوذهم إلى يومنا هذا. فأما جموع الصين فقد تسلطت عليها طبقة الماندرين بانتهاجها مناهج تخالف ما للهند تمام المخالفة وبسبب تعقيدات اللغة المكتوبة. ولقد كان تنوع الأجناس والتقاليد في عالم الغرب الأكثر تنوعا وأحداثًا، عاملاً على تأخير – بل لعله عاق إلى الأبد – كل تنظيم من نوع هذه العناصر العقلية الممتازة في المجتمع، يضمها ويحولها إلى طبقات ذات سيادة وقد بكر التعليم في العالم الغربي كما ألمعنا فانساب في أرجائه وأضحى ولا تسيطر عليه أية طبقة خاصة: وبذلك أفلت من أغلال الطوائف والكهنة والتقاليد، وتسرب إلى حياة المجتمع العمومية. فالقراءة والكتابة قد بسطتا إلى الحد الذي لا يستطاع بعده تكوين طقوس وأسرار خفية منهما. وربما لم يحدث مثل ذلك الشيء إلى مثل ذلك الحد في الصين، بسبب التعقيد الغريب والصعوبة التي تحيط بالكتابة الصينية، أكثر منه بسبب أي فارق عنصري. وربما كانت الصعوبة التي يلقاها من يريد تعلم الحروف الصينية والتأنق والإحكام الذين تنفرد بهما، لا الفروق العنصرية هي التي حالت دون حدوث هذا التطور إلى هذا الحد نفسه في بلاد الصين.

(٨)
خلاصة لعشرة آلاف من السنين

تعقبنا بإيجاز في هذه الفصول الستة الأخيرة الخطوات التي انتقل بها الإنسان في مدى عشرة آلاف أو اثنا عشر ألفًا من السنين، أعني فيما يتراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ من الأجيال – من حيوان قليل العدد نـادر جـائع متربص طالب للفريسة يكاد يكون غير اجتماعي، ضئيل الانتشار في أجزاء العالم الدفيئة، - إلـى مخلـوق اجتماعي وفير العدد تحتشد جموعه كثيفة متزاحمة في الأقاليم الأكثر ملاءمة في العالم القديم، ثم ابتدأ عهـد الكدح والرق ومعهما الطمأنينة والسلامة. وفي تلك المدة مضى الإنسان من مرحلة الزراعـة فـي العصـر الحجري الحديث المبكرة التي كانت فيها قبائل الأسر البدائية المكتسبة بالجلود تحصد وتختزن في أكواخهـا الطينية الخشنة الصنع العلف البري والأعشاب الحاملة للحبوب تقطعها بمناجل من الحجر – مضى الإنسـان متنقلاً من هذه الحال التي كانت سائدة في العصر الحجري الحديث إلى أيام القرن الرابع ق. م، التي انتشرت فيها حقول الزرع حول سواحل البحر المتوسط كلها، وعلى ضفتي النيل ثم انتقلت في آسيا إلى الهند ثم فـي متسعات الصين الرسوبية الغرينية، كما انتشرت المدن الحافلة بالأعمال والمعابد العظيمـة وكثـر التبـادل التجاري. وكانت الفلك القديمة والسفن ذوات القلوع المثلثة تجيء وتروح في المرافئ المزدحمة، متخذة فـي حيطة وحذر طريقها من رأس من رءوس الأرض إلى رأس آخر، ومن رأس إلى جزيرة، مع محافظتها على الدنو دائما من الساحل. وكانت السفن التي يعمل فيها الفينيقيون لحساب أصحابها المصريين تخترق البحـار حتى جزائر الهند الشرقية، بل ربما وصلت إلى أقصى من ذلك في المحيط الهادي. ولدينا الآن في جنـوبي أفريقيا نقوش للبوشمن على الصخر تمثل رجالاً من البيض لهم لباس رأس من طراز استعملته آشور بعـض الزمان، وعرف كذلك في شمال أوروبا، ولكن لم يعرف عنه أنه أصيل في أفريقيا. وكانت القوافل تختـرق بمتاجرها الآتية من البلاد القاصية صحارى أفريقيا وبلاد العرب أو تخترق التركستان. وكان الحرير قد أخذ يشق طريقه من الصين والعاج من أفريقيا الوسطى، والقصدير من بريطانيا إلى مراكز هذه الحياة الجديدة في العالم. وأنتجت دمشق من قبل الدمقس كما أنتجت الصلب الدمشقي. وتعلم الناس نسج الكتان الناعم، والأقمشة الرفيعة من المصبوغ. واستطاعوا أن يبيضوا النسيج وأن يصبغوه، وكان لديهم الحديد كما كان لديهم النحاس والبرونز والفضة والذهب؛ وصنعوا أجمل أنواع الخزف والقاشاني ولم يكد يوجد نوع من الأحجار الكريمـة في العالم فاتهم أن يجدوه وأن يقطعوه وأن يصقلوه. وقد عرفوا القراءة والكتابة، وتحويل مجـاري الأنهـار ورفع الأهرام، وتشييد أسوار طولها ألف ميل. وربما بدت القرون المائة أو ما يقاربها التـي توصـل فيهـا الإنسان إلى كل هذا، زمنا طويلاً إذا قورنت بالسبعين سنة التي يحياها الفرد من بني الإنسـان، لكنهـا فـي الواقع تافهة كل التفاهة إذا قورنت بأحقاب الزمن الجيولوجي. فنحن إذا رجعنا إلى الوراء مبتـدئين بالمـدن التي أقامها الإسكندر إلى أيام الآلات الحجرية الأولى، أعني بذلك آلات العصر البلايسوسيني، أتاح لنا هـذا القياس امتدادا زمنيا يصل طوله إلى مثل ذلك المقدار مائة مرة كاملة.

ولقد حاولنا في بياننا هذا وبمساعدة الخرائط والصور والخرائط الزمنية، أن نعطي القارئ فكرة صحيحة عن ترتيب وشكل تلك القرون الحافلة. بالأحداث وهي قرون تطور الإنسان. ولن نشغل أنفسنا إلا بهذه المعالم دون سواها لأنها كل ما يعنينا من الأمر. ولم نذكر لك سوى أسماء أفراد قلائل، وإن وجب أن تزيد أسماء الأشخاص عددا منذ الآن. على أن محتويات هذه الخلاصة التي رسمناها لك ها هنا في رسوم بيانية وخرائط قليلة لن يسعها إلا أن تمس الخيال منها. ولو أننا استطعنا أن ننظر نظرة أكثر تدقيقًا لرأينا خلال هذه القرون الستين موكبا لأحياء تزداد أحوالهم قربا من أحوالنا على مر الزمان. ولقد رأيناك كيف خلى همجي العصر الحجري القديم الذي كان يزين جلده بالنقوش، مكانه للزارع في العصر الحجري الحديث، وهو طراز من الإنسان لا يزال يوجد في أجزاء العالم المتأخرة. ورسمنا صورة للجنود السومريين منقولة عن حجر محفور أقيم قبل أن يفتح سرجون الأول السامي البلاد بزمن بعيد. لقد واصل بعض الرجال المكدودين الضارب لونهم إلى السمرة نقر هذه الأشكال يوما بعد يوم، وكان ولا ريب يصفر بفمه أثناء نقره. وكانت دلتا نهر النيل المصرية في تلك الأيام غاصة بفرق العمال القائمين وهم يفرغون الأحجار التي انحدرت في النيل لإضافة طبقة مدماك جديدة إلى الهرم الذي كان يقام وقتئذ. وقد يستطيع المرء أن يصور لتلك العصور ألف منظر ومنظر: فهذا أحد الباعة الجوالين في مصر وقد نشر سلعة من الثياب البابلية أمام ناظري إحدى السيدات الجميلات الموسرات، وهذا جمهور مختلط يحتشد عند مدخل أحد المعابد في يوم عيد بمدينة طيبة؛ وهذا جمهور متحمس من النظارة الكريتيين السود العيون يشهدون مصارعة الثيران، على النحو الذي يفعله الإسبانيون الحاليون، وقد ارتدى المصارعون السراويل وتمنطقوا بالأحزمة المشدودة، شأن أي مصارع عصري للثيران بالضبط. وهؤلاء أطفال يتعلمون كتابتهم المسمارية (فقد وجدت في نيبور قراميد الطين الخاصة بتمارين إحدى المدارس). وهذه صورة لامرأة أمامها زوجها المريض في بيتها؛ وهي تدخل إلى أحد المعابد العظيمة في قرطاجة لكي تنذر للرب نذرا إن هو شفاه.

وهذه صورة لأحد الإغريق الجفاة وقد لبس ثياب الجلد وتسلح ببلطة من البرونز، ووقف بلا حراك على إحدى قنن الجبال الإلّيرية، وقد أذهلته رؤيته لأول مرة إحدى السفن الكريتية الكثيرة المجاديف وهي تزحف زحف إحدى الحشرات العظيمة على صفحة البحر الأدرياتي البنفسجية. فعاد إلى منزله يقص على قومه قصة عجيبة عن الوحش برياريوس ذي المئة ذراع، ومن ملايين من هاتيك الخيوط والحلقات في كل من هذه الأجيال المائتين تكون نسيج ذلك التاريخ المحبوك. فإذا لم تدل هذه الخيوط على وجود صلة بدائية بين هذه الأجيال كلها، فلسنا نستطيع الآن أن نقف لنفحص أيا من تلك الحلقات.

(٩)
فن التشكيل والتصوير في العالم القديم

وقبل أن ننتقل إلى تاريخ ما حدث بين الآريين والساميين في الألف سنة التالية في العالم الغربي من تنازع وتفاعل وهما المادة الرئيسية للأسفار الثلاثة التالية من هذا الكتاب، نرى لزاما علينا أن نقدم بين يدي هذه الأسفار الثلاثة قسمين موجزين نسجل بهما ظهور البحث المتعمد عن الجمال في حياة الناس. وقد بينا في كتابين سابقين كيف ارتفع الإنسان من حالة حيوان جوال قليل العدد إلى حياة المدنية ذات الجماهير الغفيرة وذات المتاعب الكثيرة، وإن كانت أكثر أمنًا ووفرة. وكان معنى المدنية عند الأقلية السعيدة إطلاقًا عظيما للنشاط. وكان معناها للكافة قدرا من الحرية يطلقهم من عقال الجهد الشديد والضرورة الماسة. وكان النشاط المطلق من عقاله ينساب إلى ناحية إطالة "فترة اللعب" حتى حياة البالغين وإلى بحث متعمد عن الملذات. ثم كف الإنسان عن أن يكون مشغولاً الشغل التام بالبحث عن الطعام والمأوى. وشخص بناظريه إلى الجمال. فإن الحيوان النياندرتالي نفسه لم يكن وحشًا بكليته، فكان يجمع الأصداف والأحجار العجيبة، وما إليها من غريب الأشياء، وكان يلبسها رغبة في السرور والزينة فيما يبدو.

وقد حدث في العصر الحجري القديم المتأخر – كما لاحظنا من قبل – انفجار جسيم في الرسم والنحت. وكانا يتخذان طلبا للذة. ولا شك أنه كانت لهما أيضا معان تمت إلى السحر بسبب وذلك أمر لا محيد عنه، لأنه عقل الإنسان ينزع نزعا لا علاج له إلى إثقال الأشياء بمعان شخصية. ولا يزال الناس حتى يومنا هذا يرون في بعض زينتهم من الجواهر أنها تجلب الحظ والشؤم. وما من شك في أن رجل العصر الحجري القديم كان يظن أن تصويره للحيوانات له أثره في استرضاء الصيد واستجلابه. على أن بعض تماثيله الصغيرة كانت كما يظهر مجونية ساخرة. وينسب بعض الناس كثيرا من الأهمية إلى وجود نسبة عظيمة من النقوش والرسوم الباقية من العصر الحجري القديم في كهوف مظلمة وفي زوايا معتمة. على أن هذه لا تزيد في أغلب الظن على أن تكون بقايا الزخرفة التي كان يغطي بها الرجل البدائي الأشجار والصخور في زمانه. وبدهي أن القسم الظاهر المعرض لعوامل الجو لا بد أن يبلى في بضع سنين.

وكان إنسان الشطر الثاني من العصر الحجري القديم يرسم وينحت. وكان يرقص كما تشهد بذلك رسومه، وكأني بالرقص يتضمن الصرخات والضربات الإيقاعية. وهنا تتجلى أول عوامل الفن الرفيع والموسيقى، على أن المأوى الذي كان يبنيه رجل العصر الحجري الحديث الأقدم والأكواخ والأحجار التي كان يلجأ إليها تُوخيت فيها المنفعة إلى أبعد حد. ولم يحدث إلا في فجر المدنية وعندما تجمع السكان تجمعا كبيرا، أن أخذ الضريح وكوخ الرئيس يصبحان على أهمية كبيرة. وابتدأ فن العمارة المقصود لذاته. ووصل الناس – غير مدركين – إلى الإحساس بأنه ربما كان للبناء كرامة وسر خفي، وربما أثر في الناس برشاقته وجماله.

وربما كانت أعظم مجهودات في البناء بذلها إنسان العصر الحجري، هي القبور التي كـان يـدفن فيهـا العظماء. ويحتوي القبر على الدوام مخدعا مركزيا من الأحجار الكبيرة المرصوصة يعلوه التـراب واللـبن. وليست أهرام مصر، تلك الكتل الضخمة غير الرشيقة، في جوهرها إلا قبورا ضخمة من الحجر. ومـا تـل سيلبوري في إنجلترة إلا هرم من التراب. ولم يفت بناة هذه الآكام المرصوصة أن يوجهوها في عناية عظيمة إلى الجهات الأصلية. وتدل الأهرام المصرية على مهارة آلية عظيمة كما تدل على مجهود جمعي يكاد يذهب بالألباب على أن الإنسان لا يستطيع التحدث عن فن العمارة مرتبطًا بهذه الأكوام.

ولقد بدأ مهندسو العمارة في إقليم الجزيرة وزملاؤهم في وادي النيل عملهم وكل لا يكاد يعرف عن إنتاج الآخر شيئًا، ومن ثم فإن تأثير أحدهما في الآخر ضئيل يكاد يبلغ حد العدم. وكان أول ما اختطوه من أشـكال مقيدا في كل من القطرين بخصائص اللبن المجفف في الشمس والخشب. على أن السومريين لم يكن لـديهم غير النزر القليل من الأحجار؛ أما المصريون فكانوا يجدون الكثير المتنوع من الأحجار اليسيرة القطع قريبة منهم في محاجرها السهلة الوصول إلى النيل. والطوب المجفف في الشمس قابل للضغط والتشـكيل، وهـو يستلزم زيادة في عرض الجدران عند القاعدة، ولهذا كان للمباني السومرية البابلية والمصرية فـي الحـائط الخارجي ذلك الانحدار الذي يخلع عليها ما تمتاز به من خلود. وجعلت الدهاليز الداخلية ضيقة بسـبب مـا اعترضهم في رفع السقوف من صعوبات لم يكن إلى التغلب عليها وقتئذ من سبيل. وقد تطـورت المبـاني الهامة في سومر إلى شكل زيجورات (Ziggurat) وهي الصروح العالية المدرجة التي ظلت من خصـائص هذا الإقليم. والزيجورات بناء مدرج كثير الطوابق، يكون كل طابق فيه أضيق من سابقه وله من حوله شرفة ذات سلالم. واللّبن الهش فيه مكسو بالقرميد وبالطوب الأحمر الأكثر منه صلابة. وليست الآثار التي تُكشف الآن في تلك الأقاليم إلا بقايا المباني الأصلية، التي كثيرا ما ارتفعت إلى سبعة طوابق أو ثمانية، وقلما كانت العمد تستخدم في العمائر الأولى بأرض الجزيرة إذا كانت استخدمت على الإطلاق، ذلك أنه لم تكـن هنـاك مادة تصلح لهذا الغرض. ويلوح أن الحجرات كانت في عمومها مقبرة لا بالقباب بل بإدخـال كـل صـف (مدماك) من الطوب فوق الجدار الضخم قليلاً عن الصف الذي تحته. وهناك مع ذلك عمدان ضـخمة مـن الآجر في المباني السومرية في أور وفي كِش. وكانوا يعملون الزخارف بوساطة الركائز [٦٨] ولوحـات [٦٩] الآجر. وكان للجص والطين المحروق شأن كبير في عمل الزخارف. ويبدو الحجر في لوحـات منقـورة أو مستعملاً فيما يقارب ذلك من استعمالات خاصة. ولسنا نعثر على منطقة حجرية إلا عند وصولنا إلـى فـن العمارة الآشوري. وعند ذلك تبدأ المباني في أن تكسو واجهاتها بالحجر وأن تزدان بالأحجـار زينـة حـرة سخية. ولم يظهر العمود الحجري في إقليم دجلة والفرات إلا عندما زاد الاتصال مع مصر في الألف الثانيـة ق. م.

---

(٦٨) Buttresses وهي الساندة أو العارضة وتتكون من بناء يبنى من الخارج إلى جوار حائط ليدعمه (المترجم).

(٦٩) Panels وهي المسماة بانوهات.

ولم ينتج فن العمارة المصري قط صروحا كثيرة الطوابق من الطراز الزيجورابي. وإذا استثنينا الأهـرام والمسلات ومداخل المعابد وأفنيتها، فإن العمارة المصرية دامت عريضة منخفضة. ويبدأ الحجر أول ما يبدأ بديلاً من الخشب. فاستخدمت اسكُفات [٧٠] الحجر وعروقه بدلاً من مثيلاتها من الخشب وقلدت أشكالها وحلت العمد الحجرية المدورة محل الدعائم الخشبية. وسرعان ما أخذت صور الرجال والحيوانات تـنقش أو تنقـر نقرا بارزا على تلك العمدان. وثمة معبد قديم العهد هو معبد أبي الهول القريب من الأهرام والمعاصـر لهـا والجزء الأكبر منه منحوت في الصخر الحي، وهو خال من العمد. وقد بدأت هذه العمدان وأبهاء الأعمدة في الظهور قرب عهد الأسرة الثانية عشرة.

ويعتبر عهد الأسرة الثامنة عشرة أزهى عصور الطراز المصري في البناء. ونحن مدينون لتلـك الفتـرة بالمجموعة الضخمة من الهياكل القائمة في طيبة. كذلك كانت الأسرة التاسعة عشرة أسرة عظيمة من البناة.

وكان فنا النحت والنقش في مبدأ الأمر فنين إضافيين يلحقان بالفن الرئيسي، أي فن العمارة، في كل مـن مركزي المدنية. وقد ابتدأ النحت على صورة النقش البارز والمدخل المنقور، وكان النقش يمـلأ اللوحـات ويغطي الجدار الخالي. ونحن مدينون لجو مصر الجاف بحفظ مساحات عظيمة من السطوح المنقوشة نقشًـا رائعا، التي تمثل ألف مظهر من مظاهر الحياة اليومية المصرية، وتكشف عن قدر عظيم من تفكير هـؤلاء الناس وخيالهم. وإن سجلات آشور وبابل لقليلة بالموازنة إلى هذه السجلات المصرية.

ولفن العمارة الإيجي صفة مميزة خاصة، به، ولكنه في مجموعه أقرب إلى الروح المصـرية منـه إلـى الروح البابلية. وقد بكروا فاستعملوا الأعمدة، وللمباني تنظيم تيهي (لا بيرانتي) يختلف تصميمه كل الاختلاف عن كل من تصميمات الطوابق الأرضية لدى المصريين والبابليين على السـواء، وقـد بلغـت المطعمـات والفسيفساء درجة كبيرة من الإتقان.

وبينا هذه الفنون الثلاث تتطور، كان هناك أيضا في كل هذه المدنيات إنتاج هائل في الجواهر المقطوعـة والمحفورة، وفي صياغة الذهب وأشغال المعادن الأخرى، وفي التمثيل الصغيرة والنماذج وما إليها من لعب وحلي وكراسي وأسرة وعروش، وفي رشيق الأثاث. وكان الحفر على الخشب والأبنوس حفرا جميلاً أنيقًـا. وأنتجت كريت على الخصوص كميات كبيرة من أشغال الذهب الجميلة والخزف. وراجت سوق الزهريـات الكريتية وصارت تباع في كافة أنحاء الشرق القديم.

---

(٧٠) الأسكفة: هي العتبة العليا للباب. [المترجم].

(١٠)
الأدب والمسرحيات والموسيقى
في العالم القديم

ليس يبدو أن قد وصل الأدب الخائل والموسيقى في المدنيات القديمة إلى نفـس الـدرجات العاليـة مـن التطور، التي وصلت إليها الفنون التي تلذ الأعين. ولقد كانت رواية القصص عاملاً حيا مهمـا فـي الحيـاة الإنسانية منذ أن نطق الإنسان. وإن أهم عناصر الأدب المنثور، وهي الإحساس بالعبارة والاختراع ودراسة الشخصيات، لتوجد أنّى جلست اثنتان أو ثلاث من النسوة من أي جنس يتحدثن. وكانت الأحلام – وهي فـي كثير من الأحيان فظيعة مروعة وتحتوي على صدى ورد فعل للكبت الضروري فـي الجماعـات البدائيـة، منهلاً لعنصر الوهم في القصة المبكرة. وكانت القصة تمد وتطول على الدوام بما يصحبها مـن الحركـات والإضافات التمثيلية إلا عند أرزن الناس وأكثرهم تحرزا. ومنذ العصور المبكرة، وذكرى الأحداث العظيمـة وما كان يحدث في المناسبات المهمة، تؤكد في الأذهان برقص دوري قصصي، يمتزج فيه الكـلام والغنـاء والتقليد والحركات الإيقاعية وأصوات الآلات بعضها مع بعض - امتزاجا لا يستطاع معه فصل أحدها مـن الآخر.

كانت هذه الأشياء موجودة في الحياة الإنسانية قبل أن توجد المدنية. وما من شك في أن أشكال القصـص المألوفة والرسوم والرقص العادي، قد ظلت تجري في مجراها بين عامة الناس في المدنيات القديمة، عنـدما كانت أساليب تخليد الذكريات الدورية تسمو حتى تصبح من طقوس المعابد. ومع أن الكهنة قد رفعوا من شأن طائفة متعددة من القصص كقصة الخليقة مثلاً، ووسعوا كثيرا من القصص الخرافية البدائية حتـى أصـبحت أساطير شديدة التعقيد، فإنهم – فيما يبدو – لم يصوغوها في قالب من اللغة الجميلة، فقد كان المنظر هو الذي يهمهم. ولم يحدث في مصر ولا في بابل أي تطور جدي لفن التمثيل من حيث هو تمثيل وربما كان للفلاحين استعراضاتهم وحفلاتهم الخاصة ولكن أحدا غيرهم لم يكن يأبه بها. ولسنا نعرف حتى اليوم مـا عسـى أن يكون لدى الإيجيين من تمثيليات حتى نستطيع أن نناقشها. ولعله لم تكن لديهم تمثيليات على الإطـلاق. بـل كانت لهم مشاهد ينعمون فيها بلذات أكثر قساوة وأشد عنفًا. فقد كانت مصارعة الثيران هي وسيلة تسـليتهم الأثيرة. وكان الإتروريون Etruscans – وهم في أغلب الظن ممن يمتون بصلات القربى إلى أولئك الأقوام – يسلون أنفسهم، كما كان أهل المدنيات الأمريكية قبل الأوربيين يسلون أنفسـهم، بـذبح الأرقـاء وإرغـام الأسرى على القتال في حضرتهم لينجوا بذلك من القتل.

ولم يستطع المؤلف أن يعثر قط على شيء مدون يثبت وجود المحترفين من القصاصين ومنشدي القصص في تاريخ هذه المدنيات القديمة، حتى ولا في حياة القرى. فإن لم يكن هناك محترفون من الحفّاظ، فإن حفـظ الفن الأدبي من الضياع كان قبل نشأة الكتابة، ضئيلاً تافها. وربما جرت على ألسـنة النـاس بارقـات مـن التعبيرات الجزلة الجميلة، ولكن أحداً لم يحتفظ بها حتى تنمو وتصبح طريقة أدبية وتقليدا أدبيا. ويبـدو أن أقدم الكتابات المصرية تعويذات ورقى ووصفات وحكم أدبية وأخلاقية ومسجلات مجردة. ذلك أن الناس في كل من مصر وسومر كانوا في أغلب الظن يأخذون أنفسهم بالأمور الواقعة وقلما كانوا يمتعون أنفسهم بعـد اجتيازهم مرحلة الطفولة بالتعجب من عالمهم أو الحلم بالمغامرات فيه. لقد كانوا من هذه الناحية أقواما سذّجا عمليين. بل إن المصريين أنفسهم كانوا حتى في شئون الموت أقواما عمليين إلى حد يـذهل الألبـاب. ولـذا زودوا الموتى بكل أسباب العناية والراحة. وأعظم القصص المصرية شأنًا هي القصة التي يذكرونها بأشكال مختلفة تبلغ المائة عدا عن رحلة روح الميت إلى أوزيريس، ذلك هو كتاب الموتى وهو أشبه بـدليل للعـالم الآخر من أمثال كتب "بدكر" يمتاز بالبساطة والروح الأخلاقية والخلو من كل أثر ميتافيزيقي.

وكان لا يزال لزاما على اليهود أن ينشئوا كتابهم، وهو أول كتاب ذي قوة في العالم، وأعني بـه الكتـاب المقدس الذي جمع شتات كثير من عناصر العالم السامي القديم الممزقة كما سأبين ذلك فيمـا بعـد. وكـان الآريون ينشدون أناشيدهم في غاباتهم، ولكنهم لم يتعلموا بعد أن يسطروا أقاصيص وتراتيل مغنيهم.

ولم يحدث قط في العالم القديم أن انفصلت الموسيقى عن سائر الفنون وأصبحت فنًا قائما بذاته بل كانـت على الدوام تابعة للإنشاد أو الرقص. وكان للموسيقى القديمة إيقاع، وكان فيها ألحان شجية ولكنها كانت خلوا من الانسجام (الهارموني)، بل كانت صياحا ودقًا ونفخًا تصدر في أُلفة صوتية تتفاوت زيادة ونقصانًا. وكان النساء والشبان يغنون غناء أعلى من الرجل بمقام كامل، على حين جعل الدق بالأرجل، والتصفيق بالأيـدي والطبل البدائي معوانًا مساعدا. وكان هذا أيضا شأن الموسيقى اليهودية والإغريقية إلى بداية العصر المسيحي ولا تزال موسيقى العرب بمنأة عن الانسجام (الهارموني). وهي مكونة من أوزان إيقاعية ذات ألحان متكررة مملة إلى حد ما، تسير فيها الأصوات والأوتار والصنوج في ألفة على دقات الدفوف المتواصلة. ولعل فـي هذا صورة حية باقية بأكملها من موسيقى مصر وبابل.

وتوحي الرسوم والأشكال المنحوتة التي تمثل العزف الموسيقي في المدنيات القديمة بما قلنـاه بالضـبط: فالطبلة ترسم في ضروب من الأشكال، وكذلك الدف أو الرق. وكانت الصنوج تصك وتنقلها إلينـا الرسـوم الآشورية البارزة – وكانت السستروم [٧١] المصرية تعطي جلجلة خفيفة سفلية من أصوات تلحينيـة وكانـت هناك نايات مفردة ومزدوجة القصبات وصفارات، وأراغين ينفخ فيها بالفم. ولديهم أيضاص قرون وأبـواق معدنية، وهي أبواق بسيطة كل ما تفعله أن تصدر أصواتًا عالية في أوقات بارزة معينة. وقد نشأ آخر الأمر من قوس رجل العصر الحجري الحديث عدد من الآلات الوترية، كان العازف يحرك عليها أصابعه أو ريشة

---

(٧١) السستروم آلة معدنية من موسيقى المصريين القدماء تسمى بالصلاصل. (المترجم).

العزف. وكانت هذه هي الكنّارة والقيثارة والرباب والعود والدولسيمر [٧٢] (Dulcimer). وكان العود يقوي صوت أوتاره بجسمه الرنان المقعر الذي يشبه اليقطين، وللماندولين هذا الشكل أيضا. وتولدت البانجـه [٧٣] من العود وهي عود صغير سوقي. ولعل القيثار (Harp) هي أكبر الآلات الموسيقية القديمة وأحسنها تطورا. وكانت الدولسيمر آلة موسيقية وترية ذات إطار أفقي.

وكما أن الأدب في العالم القديم لم يتمكن من أن يتطور التطور الكامل، بسبب النقص في تطور الكتابـة، فإن الموسيقى قد عاقها افتقارها إلى تدوين عملي لعلاماتها. لقد كان للناس وقتئذ آذان وأخيلة كالتي لهم الآن، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون أن يحتفظوا بالمادة الموسيقية أو أن يسلموا للخلف ما حصلّوه لكـي يـزودوهم بنقاط ارتحال جديدة يبدءون منها تقدمهم.

تم الكتاب الثالث ويليه الكتاب الرابع

ويتضمن تاريخ الإغريق القدماء ومن عاصروهم

([٧٢]) لم نعثر على اسم عربي لهذه الآلة القديمة. (المترجم).

([٧٣]) Banjo آلة موسيقية ذات أربعة أوتار أشبه بالطبل صورة. (المترجم).

تذييل للكتاب

[نقحت هذه الطبعة الثالثة على الأصل الإنجليزي الصادر في ١٩٥٦، كما أسلفنا. حتى إذا عثرنا على طبعة ١٩٦٣ – وقد بلغنا في الطبع ص ١٦٠ – وجدنا تعديلات شاملة في الفصول ٦ – ٩ ورأينا الأمانة تقتضينا أن نشير هنا إلى أهم ما ورد بها من التعديلات ملتزمين الإيجاز ما وسعنا الجهد].

(١) الفصل السادس وعنوانه في (ط ١٩٦٣) هو القردة وأشباه الإنسان وأقسامه هي: (١) أصل الإنسان، (٢) الآلات الأولى، (٣) حفريات أشباه الإنسان، (٤) أكذوبة بلتداون.

فأما القسم الأول فهو مطابق للطبعات القديمة فيما عدا حذف الفقرة الأخيرة منه التي ضمت إلى رأس القسم الثاني ويفرق "التعديل" بين استخدام القردة العفوي لما يقع في متناولها من أشياء وبين صنع أشباه الإنسان للآلات عمدا. على أنه يسلم بأن تلك الآلات الأولى ربما كانت من صنع عوامل الطبيعة. ويتحدث التعديل بعد ذلك عن تدرج صنع الآلات الحجرية والتقدم في إتقان شكلها.

أما القسم الثالث "حفريات أشباه الإنسان" فيتحدث عن المكتشفات الجديدة وأهمها القرد الجنوبي الأفريقي Australorithecus والإنسان القردي الآسيوي Pitheecanthrous، ولعل الأول منهما جد للثاني بينما الثاني هو جد الإنسان العصري. وهنا يشير التعديل إلى جمجمة تونج الوارد ذكرها في ص ٦٤، كما يشير إلى اكتشاف أكثر من ثمانين هيكلاً بالترنسفال فضلاً عن مكتشفات هامة بتنجانيقا. ويطلق الثقات عليها أسماء مختلفة تقوم على قربها أو بعدها من الإنسان. ثم يعمد التعديل إلى وصف القرد الجنوبي وقبح شكله وسماكة جمجمته وغلظ حاجبه وقصر قامته مع استقامة مشيه على قدميه. وآخر المكتشفات هيكل عظمي كامل وجده بتنجانيقا في ١٩٥٩ الدكتور ليكي وزوجته وهو من نوع الزنجانثروبوس. ويربط التعديل بين المشي المنتصب وبين تحرر الأيدي وتضخم المخ وأشار التعديل إلى ما اكتشف في ترينل في ١٨٩١، انظر ص ٦٨. وقبل الحرب العظمى الثانية اكتشفت بجاوة ستة هياكل من العصر الجليدي الثاني. بأوربا قبل ٤٠٠ أو ٥٠٠ ألف سنة وهي للإنسان المسمى بالإنسان القردي. وجاء مكتشف جديد من الصين سمي أولاً السينانثروبوس (أي الصيني)، ولكنه يضم الآن إلى الإنسان القردي، وهو متقدم في سمته البشرية عن الهياكل الجاوية. ولا يعرف شيء عن طريقة حياة الإنسان القردي الجاوي، ولكن الصيني كان يعرف النار ويصنع الآلات. وبعد وصفه ينتقل التعديل إلى الحديث عن الإنسان الهايدلبرجي بتفصيل أكثر مما هو موضح في الكتاب ويشير إلى أن هيكلاً من نوعه وجد حديثًا بالجزائر في ١٩٥٤ مع بعض الأدوات الشليانية.

أما القسم الرابع فعدل عنوانه إلى أكذوبة بلتداون حيث ظهر أنه خدعة علمية غير كريمة ولكن مادته أُبقيت وإن أُلغيت منها الفقرتان الأخيرتان.

(ب) أما الفصل السابع في الطبعة الجديدة فإن عنوانه هو الإنسان النياندرتالي – جنس بائد – العصر الحجري القديم الأوسط. وجاءت أقسامه كالتالي: (١) ظهور الجنس البشري (٢) العالم منذ خمسين ألف سنة (٣) حياة الإنسان النياندرتالي اليومية (٤) آخر رجال العصر الحجري القديم.

فكأن القسم المعنون جمجمة روديسيا قد حذف كما أضيف القسم (١) بأكمله. ويتحدث (١) "ظهـور الجـنس البشري" عن استمرار التحسن في الآلات ثم العثور في سوانسكوم على ثلاثة أجزاء من جمجمـة فـي ١٩٣٥، ١٩٥٥، وهي جمجمة بشرية لكنها سميكة العظم، وترجع إلى العصر الجليدي الثالث منذ مائتي ألف سنة، ثم اتجه الإنسان نحو الكهوف فكثرت بقاياه. وتجيء من أوربا وفلسطين وأفريقيا بقايا كثيرة إنسانية. وقد اكتشـفت فـي ١٨٥٦ بكهوف نياندرتال بقايا بشرية وأمثالها كثير [٧٤] بأوربا، ولعل ذلك الجنس سكن معظم أوربا قبـل بدايـة العصر الجليدي الرابع. ويعمد الكاتبان بعد ذلك إلى وصف الرجل النياندرتالي بما لا يخرج عما قرره ولز نفسه. ومن الطبيعي الاعتقاد بأن النياندرتالي هو الحلقة المفقودة الأخيرة، ولكنهما يعودان فيقرران أنه قبل النيانـدرتالي كان يعيش جنس أقرب إلينا يسمونه النياندرتالي العام، ولعل طرازا بدائيا مـن الإنسـان وجـد فـي العصـر البلايستوسي الأوسط لا يختلف عن ذلك النياندرتالي العام تفرع عنه الإنسان الحقيقي والإنسان النياندرتالي البحت.

أما القسم (٢) "العالم منذ خمسين ألف سنة" فلم يغير فيه شيء. ولكن ألغيت الفقرتان الأخيرتان مـن القسـم الثالث وهو حياة الإنسان النياندرتالي اليومية. ولم يتغير القسم (٣) في الطبعة العربية إلا بتعديل رقمه إلى (٤).

(ج) واستهل الفصل الثامن بتعديل عنوانه إلى: العصر الحجري القديم المتأخر – أول أناس يشـبهوننا – وبقيت جميع عناوين الأقسام بلا تعديل عدا القسم (٢) الذي وصف فيه العصر الحجري القديم بأنـه الثـاني، ولكن أُضيفت كلمة في آخر الفقرة الخامسة تشير إلى ظهور جنس البوسكوب الذي يعد قريبا مـن البوشـمن وإن كان أذكى منهم وأضخم جثة ومخًا. ولا تعديل في القسمين الثالث والرابع.

(د) أما الفصل التاسع فقد حذفت من عنوانه العام لفظة "في أوربا" وأبقيت أقسامه على حالها. وأشار المراجعـان إلى ما أسمياه بالعصر الحجري الأوسط وثقافته التي أخذت تفد من الجنوب بينما السهوب تنحسر أمام الغابات.

ويتحدثان في القسم الثاني عن زيادة معلوماتنا زيادة سريعة حول تلك الفترة والعثور على الأنواع البريـة من معظم مزروعاتنا وحيواناتنا المستأنسة بمنطقة الشرق الأوسط أولاً ثم انتقالها إلى سائر أرجاء أوربا. ولم تكن الثقافة الحجرية الحديثة من نوع واحد. وكان السكان جماعات مستقلة ذات اكتفاء ذاتي تعمل هنـا فـي الرعي وهناك في الزراعة. وهناك مكتشفات الدكتورة كاثلين كنيون المدهشة بأريحا (الأردن) حيث ظهـرت مجموعة كاملة من الثقافات المتعاقبة، فهناك أقوام شادوا بيوتًا من الطوب حجراتها مستديرة وإن لم يعرفـوا الفخار وحول مستقرهم سور حجري خشن فيه برج وحوله خندق. وجاء من بعدهم قوم غـزاة بنـوا غرفًـا مربعة بطوب مختلف الشكل وجهلوا الفخار، ولكن لهم مناسك تفصيلية وجماجمهم مغطاة بطبقة مجسمة مـن الجص، وهي عادة موجودة في بولينيزيا وتاريخ هذه البلدة هو الشيء المدهش. إذ بواسطة النشاط الإشعاعي الكربوني عرفنا عمر تلك المدينة وهو ٧٠٠٠ سنة، ولكن منطقة أريحا أصابها الجفاف فهجرها سكانها.

أما القسم (٣) فقد أبقى على حاله فيما عدا حذف الفقرة الرابعة منه. وكذلك الحال في القسمين ٤، ٥.

وفي رأي المترجم أن هذه تعديلات كبيرة القدر من الناحية العلمية، ولكن القارئ مع ذلـك بحاجـة إلـى مطالعة الفصول من ٦ – ٩ كما كتبها ولز والإفادة منها إلا ما أظهرت الأبحاث العلمية عدم صـحته وهـو المسمى بأكذوبة بلتداون.

---

[٧٤] انظر حاشية المستر زايموند بوستجيت في أول الكتاب.

التعريف بالمؤلف

نقلاً عن دائرة معارف ابفريمانس

* هو هربرت جورج ويلز ١٨٦٦ – ١٩٤٦ روائي وكاتب ولد في بروملي (كنت).

أصغر أبناء جوزيف ويلز (بستاني وتاجر ولاعب رياضة محترف)

تعلم ويلز في أكاديمية مورلي في بروملي وقد وصفها في كتابه.. "الأكاديمية" للسادة الشبان، ولكن ويلز قرأ أيضا بكثرة بمنزله وبالمعهد الأدبي المحلي. وظل سنينًا يقاوم إصرار أمه على تعليمه حرفة البزاز حتى لقد اشتغل شهرا بمحل بزاز انتهى على حد قوله بطرده من المحل لعدم لياقته لصناعتهم الرفيعة.. وفي ١٨٨١ اشتغل تلميذًا عند صيدلي في ميدهرست. ولم تلبس هذه المدة السيئة أن وجدت التعبير عنها في روايته تونوبنجاي Tono Bungay وفي ١٨٨٤ ذهب إلى لندن لقضاء "فترة دراسية ثلاث سنوات" وبهذا ذهب إلى مدرسة المعلمين للعلوم Normal School بكن سينجتون. وأشار إلى حياته فيها في "أن فيرونيكا" وهي رواية لها قدرها في قضية تحرير المرأة. وأصبح بعد ذلك مدرسا مساعدا في هولت. ولكنه أصيب في أثناء لعب كرة القدم إصابة بالغة، وظل يدرس في كيلبرن لمدة سنتين ١٨٨٧. وحصل على بكالوريوس العلوم بدرجة الامتياز مع الشرف من جامعة لندن. وعين معيدا بالجامعة لمدة سنتين بكلية جامعة المراسلات. وهنا التقى بآمي كاثرين روبنز التي صارت زوجته. وانفجر عرق دم في رئتيه، فاضطر غير راغم إلى احتراف التأليف.

وكان أول نجاح أدبي حقيقي له ١٨٩١ عندما قبلت روايته "اكتشاف ألفريد الفذ" في إحدى المجلات وأعقبتها بعض المقالات العلمية في مجلة الجنتلمان. وفي هذه المدة أيضا وهو يحاضر ويدرس، كتب بعض كتب في علوم البيولوجيا (الحياة) والجغرافيا الأرضية. وبينما هو يستجم في ايستبورن كتب مخططًا عن "فن الإقامة بالمناطق المجاورة للبحر" ظهر في مجلة بول مول جازيت التي أصبح فيها محررا منتظما. ومنذ ١٨٩٤ بدأ يكتب قصة أسماها: "جزيرة الدكتور مورو" ثم أصبح موضوع اهتمام العالم بروايته "حرب العوالم" التي ظهرت مسلسلة في مجلة "وندسور " فأما روايته الأولى فهي قصص رومانسية علمية وبها أسس طرازا أصيلاً من القصص تمخض عن خاط مزيج من الحقائق العلمية أضفى عليه لونا زاهيا من الخيال. وكثيرا ما كان يروى بوصفه حادثًا في المستقبل. فأما رواياته في الأدب العلمي الاجتماعي فلها نوع آخر.

فهي روايات تدور حول مشكلات الطبقة الوسطى، وتكشف عن بصيرة كبيرة بمعقدات مشكلة الزواج. وخير هذه هي "الحب والمستر ليو شام" ١٩٠٠، وكيبس Kipps في ١٩٠٥ و "تاريخ مستر بولي" ١٩١٠ و "الزواج " ١٩١٢.

كان اشتراكيا فابيا، كان أكثر من مجرد اشتراكي، بل كان نبيا يدعو إلى تنظيم العالم. وذلك في روايته "ا الملك غير المرئي" ١٩١٧ وله "معالم التاريخ" (وهو الكتاب القائم بين يديك وأضفنا لعنوانه كلمة الإنسانية) وكتاب موجز تاريخ العالم ١٩٢٣، وموجز تاريخ الجنس البشري ١٩٢٥.

وكانت فكرة ويلز في هذه الكتب حاجة الإنسان إلى فرض سيادته على كل ما ينشئه ويبدعه. وتقيدا بهـذه الفكرة وتتبعا لها أصبح مدافعا يتزعم وضع الخطط لمستقبل العالم. ومع أنه بوصف كونه عاملاً في قضـية التقدم البشري بلغ الشهرة العالمية، وقدرا لا بأس به من الموافقة على خطته، فإن تنبؤاته كان من العسير في بعض الأحيان التوفيق بينها وبين رسالته هو. وكان ويلز يستخدم الأدب للتعبير عن وجهات نظره هـو فـي المؤسسات الاجتماعية أو غيرها واضعا في المقام الثاني صفته كمحترف للأدب وفنان، ولكنه كان يسـتطيع الكتابة بيسر ورقة وسعادة تعبيرية نادرة كما حدث في "قطر العميان" ١٩١١ التي يسلم الناس جميعا أنها من أحسن الروايات القصيرة في لغتنا الإنجليزية. وكتاب "معالم التاريخ" الذي بين يديك يعد أحد أشد المحـاولات طموحا إلى توضيح استمرارية التاريخ منذ بداية الحياة حتى معاهدة فرساي ١٩١٩ وحتـى نهايـة الحـرب العالمية الثانية، وحتى ١٩٩٠، وبالتعديلات الأخيرة في الطبعات الحديثة. وهو نوع ممتاز من إضفاء الطابع الشعبي، له صلة خاصة وله قيمة تربوية طريفة.

كانت المعالم هي المجلد الأول من ثلاثية خطط لإضفاء الشعبية على الأيدولوجيا التاريخيـة والعلميـة والاجتماعية السوسيولوجية بالطريقة المناسبة لمعالجة حالة عالمية شاملة. فأما المجلدان الآخران اللذان أعقبا الأول فهما فن الحياة في ١٩٢٩ الذي كتب بالتعاون مع الدكتور جوليان هكسلي وابنه ج. ب. ويلـز G. P. Wells وكتاب "عمل الإنسانية وثروتها وسعادتها" ١٩٣٢ وصدر له أيضا كتاب "تجربة في السيرة الذاتيـة" وقد نشر في ١٩٣٤.

التعريف بالمترجم

- ولد بالقاهرة وتخرج في كلية المعلمين العليا الأدبية عام ١٩٢٩.
- اشتغل بالتدريس حتى رقي وكيلاً لمدرسة مصر الجديدة الثانوية عام ١٩٥١ فمديرا للمركز الرئيسي للتدريب بمنشية البكري عام ١٩٦٣.
- شغف بآداب العربية والإنجليزية والفرنسية منذ حداثته، انضم لعضوية لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦.
- حاز جائزة الدولة التشجيعية في الترجمة عام ١٩٨١ ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى.

أعماله:

عني بنقل أمهات الكتب الإنجليزية وبعض الفرنسية.

١- **في التاريخ:** معالم تاريخ الإنسانية لويلز في أربعة أجزاء، وصفوة "موجز تاريخ العالم" "ويلز".

٢- **في تاريخ الحضارات:** حضارة الإسلام (جروني باوم)، الحضارة البيزنطية (رنسيسان)، الحضارة الهلينستية (تارن)، ميلاد العصور الوسطى (موص) Moss اضمحلات العصور الوسطى (هويزنجا).

٣- **في علم النفس والتربية:** مدخل إلى علم النفس الحديث (زانجويل)، ثلاثية أرنولد جزل في تربية الأطفال: الحضينو الطفل – الطفل من الخامسة إلى العاشرة – الشباب، الطفولة وما بعدها (سوزان ايزاكس)؛ سلوك الأطفال (فرنسيس ايلج).

٤- **كتب في السياسة ومتفرقات:** آسيا والسيطرة الغربية (بانيكار)، حول منع الحرب (جون استراتشي).

٥- **كتب أخرى:** أعلام وأفكار (هويزنجا) التاريخ وكيف يفسرونه (ويدجري) التربية عن طريق الفن (هربرت ريد)، غادة ليون (لورد ليتون) بيت الذئب (ستانلي ويمان)، حاجي مراد (تولستوي). فينوس وأدونيس (ترجمة شعرية صدرت عن هيئة الكتاب) لوليام شكسبير.

٦- **كتب الأطفال:** أليس في أرض العجائب، أليس في المرآة، كنوز الأقدمين (ماك دوجال).